الدكتور محمّد سهيل طقّوش

تاريخ الزنكيين

في

الموصل وبلاد الشام

٥٢١ ــ ٦٣٠ هـ / ١١٢٧ ــ ١٢٣٣ م

دار النفائس

تاريخ الزنكيين

تأليف: أ.د. محمد سهيل طقوش

الطبعة الثانية: ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م

ISBN 978 - 9953 - 18 - 316 - 9

Publisher | **نشر**



DAR AN-NAFAES

Printing-Publishing-distribution

Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

دار النفائس

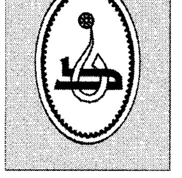
للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب 5152 ـ 14
الرمز البريدي: 2020 ـ 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 009611810194 ـ 803152
بيروت - لبنان

Email: alnafaes@yahoo.com

Web Site: WWW.alnafaes.com

صورة الغلاف: قلعة جعبر على نهر الفرات، قرب الرقة



تاريخ الزنكيين

في

الموصل وبلاد الشام

بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إلى ابني ماهر

هذه صفحات من التاريخ الإسلامي أهديها إليك بمحبة بالغة لتقتدي بسير رجالها المجاهدين الذين ملؤوها بالأحداث المشرِّفة، فتنال نصيباً من الدنيا وثواباً في الآخرة.



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، وبعـد:

تتناول هذه الدراسة تاريخ الدولة الزنكية في الموصل وبلاد الشام من جانبه السياسي. والواقع أن أحداث التاريخ الزنكي شكَّلت دولة إسلامية في مرحلة من أشد مراحل التاريخ الإسلامي حرجاً، إذ تعرَّض فيها العالم الإسلامي، في الشرق الأدنى، لهجوم أوروبي غربي عُرِف باسم الحروب الصليبية. كانت هذه الحروب تجربة خطيرة ومليئة بالحوادث والمحن، في الوقت الذي كان فيه المسلمون يمرون في حال تفكُّك، وبات من الواضح أنهم كانوا في أمسِّ الحاجة إلى رجل قوي ينقذهم من حال الفرقة والانقسام، ويوحِّدهم تحت رايته، ويجمع طاقاتهم؛ قبل أن ينطلق بهم في خطى ثابتة نحو الجهاد، كما توضح الدور الهام الذي أدَّاه الأمراء الزنكيون على مسرح أحداث الشرق الأدنى في القرنين السادس والسابع الهجريين.

والحقيقة: إن الحياة السياسية في الشرق الأدنى الإسلامي، اتصفت، قبل مجيء الصليبيين، باضطراب داخلي شمل كافة الدول والإمارات الإسلامية. ففي الشرق، خضعت الخلافة العباسية لسيطرة السلاجقة، الذين تدهور نفوذهم بعد ذلك، وتفكَّكت دولتهم، ودبَّ النزاع بين أمرائهم حول الاستئثار بالنفوذ والسلطان.

وكانت الدولة العبيدية (الفاطمية)[1] في مصر تمر في مراحل شيخوختها، ينازع أمراؤها خلفاءها ورجال القصر فيها حول السلطة العليا. وتجاذبت القوتان

(١) الدولة العبيدية: نسبة إلى مؤسسها عبيد الله الذي تلقب بالمهدي وبويع له بالخلافة في (عام ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م). وقد نسب العبيديون أنفسهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق من نسل علي وفاطمة رضي الله عنهما، فعرفوا بالفاطميين، وسنستعمل هذا اللقب الشائع أينما ورد في هذه الدراسة.

السلجوقية والفاطمية بلاد الشام، دون أن تتمكَّن أي منهما من تثبيت نفوذها وسيطرتها عليها بصورة دائمة أو فعالة.

نتج عن هذا الوضع المضطرب مناخ مناسب للأمراء المحليين في إقليم الجزيرة[1] وبلاد الشام، فاستقل كلٌّ بما تحت يده يعالج مشكلاته وشؤونه الخاصة، وخضع للجانب الذي ارتبطت به مصلحته، وراح يعمل على توسيع أملاكه إلى ما وراء حدود إمارته على حساب جيرانه الأمراء الآخرين؛ في ظل ضعف الرابطة السياسية بين هذه الكيانات. فتوزعت السلطة نتيجة ذلك، بين عدد من الأمراء الطامحين، وتركَّزت إماراتهم في الموصل، وأنطاكية[2]، والرها[3]، وحلب، ودمشق، وبيت المقدس،

---

(١) قسَّم الجغرافيون العرب بلاد ما بين النهرين، الفرات ودجلة، إلى إقليمين: الأسفل الجنوبي، والأعلى الشمالي، وسموا الإقليم الأعلى الجزيرة، لأن أعالي دجلة والفرات تتخلل سهوله. وقسِّم هذا الإقليم بدوره إلى ثلاث ديارات هي: ديار ربيعة، وهي أول الإقليم من جهة العراق، وديار مضر، وديار بكر، وذلك نسبة إلى القبائل العربية، ربيعة ومضر وبكر، التي نزلت في هذا المكان قبل الإسلام.

كانت الموصل قصبة ديار ربيعة، وتقع على الضفة الغربية لنهر دجلة. وسميت بالموصل لأن العرب وصلوا بها عماراتهم ومصَّروها، أو لأنها وصلت الجزيرة والعراق، أو لأنها وصلت نهري دجلة والفرات، حيث تألف منهما مجرى واحد كبير. ومن أهم مدن ديار ربيعة: الحديثة، تل يعفر، سنجار، بَلَد، نصيبين، دارا، رأس العين، كفرتوثا وغيرها، وناحيتها جزيرة ابن عمر.

أما قصبة ديار بكر فهي آمد في أعالي دجلة. وأشهر مدنها: ميافارقين، حصن كيفا، تل فافان وغيرها.

ومن أكبر المدن الفراتية: الرحبة، قرقيسياء، عانة، الحديثة وغيرها. وأما قصبة مدن الخابور فهي عرابان. وقد عيَّنت الفواصل المائية حدود هذه الأقسام الثلاثة.

فقد كانت ديار بكر، وهي سقي دجلة من منبعه إلى منعطفه العظيم في الجنوب، أسفل تل فافان. وكانت ديار مضر، إلى الجنوب الغربي، وهي الأراضي المحاذية للفرات من سميساط حتى يغادر سلاسل الجبال منحدراً إلى عانة مع السهول التي يسقيها نهر البليخ، رافد الفرات الآتي من حرَّان.

أما ديار ربيعة، فتقع شرقي ديار مضر، وتتألف من الأراضي شرقي نهر الخابور المنحدر من رأس العين، والأراضي الواقعة شرقي نهر الهرماس.

انظر: المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي: صورة الأرض ص ١٨٩ ـ ٢٠٧ .

الهمذاني، المعروف بابن الفقيه: كتاب البلدان ص ١٧٦ ـ ١٨٢.

(٢) أنطاكية: مدينة مشهورة في شمالي بلاد الشام، بينها وبين حلب يوم وليلة. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، جـ ١، ص ٢٦٦ ـ ٢٧٠.

(٣) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ. المصدر نفسه: جـ ٣، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

وغيرها، فأضحى لكل وحدة من هذه الوحدات السياسية ـ الاجتماعية، كيانها الخاص وذاتيتها المتميزة إلى حد كبير.

وصل الصليبيون في ظل هذه الظروف القلقة، إلى الشرق. واندلعت نيران الحروب الصليبية في الجزيرة وبلاد الشام، ونجحوا في تأسيس أربع إمارات لاتينية في قلب العالم الإسلامي هي: الرها، وأنطاكية، وبيت المقدس، وطرابلس، مستغلين تدهور نفوذ السلاجقة، وعجز الخلافة العباسية، والدولة الفاطمية، وتشتُّت الإمارات الإسلامية.

ولم يدرك الأمراء المسلمون، الذين أصابهم الذهول، لأول وهلة، عِظَم هذه النكبة التي حلَّت بهم، وتحرك العامة في الجزيرة وبلاد الشام، وفي غيرها من البلاد الإسلامية للبحث عن قيادة قوية ومخلصة توحد صفوفهم وتقودهم إلى الجهاد لدفع الخطر الصليبي.

وتهيأت الظروف لظهور هذه القيادة انطلاقاً من إمارة الموصل، وذلك بفعل موقعها الجغرافي المجاور لإمارة الرها الصليبية. فكان عماد الدين زنكي، القائد الصلب الذي أدرك ما آلت إليه أوضاع العالم الإسلامي في الشرق الأدنى من تشتُّت وتدهور، فأخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة. فأسس دولة له في الموصل وحلب في ظروف شهدت ظهور عدد كبير من الإمارات المحلية في الجزيرة وبلاد الشام. ثم رفع راية الجهاد ضد الصليبيين، لكنه اصطدم بحالة التمزق السياسي التي كانت سائدة في المنطقة، فرأى ضرورة تجميع القوى الإسلامية، وحشد طاقاتها قبل القيام بأي خطوة إيجابية لمواجهة العدوان الصليبي. فنهض يعمل على ضمِّ هذه القوى المشتَّتة.

وبعد أن خطا خطوات واسعة في هذا السبيل، ونجح في ضمِّ شمالي بلاد الشام إلى إمارة الموصل، نهض ليتصدى للصليبيين، ونجح في تحقيق أهم إنجازاته التي بدأ بها صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين في المنطقة، وهي استعادته إمارة الرها من أيديهم. وكان لهذا النصر أهميته حيث أثبت قدرة المسلمين على مجابهة الخطر الصليبي بالإضافة إلى أنه أمَّن حرية الاتصال بين الموصل وحلب.

وهنا يبرز الدور الهام الذي أدَّته الدولة الزنكية في هذه المرحلة الحرجة من مراحل التاريخ الإسلامي كرائدة في إرساء دعائم الوحدة الإسلامية وتضافر الجهود لمناهضة القوى الصليبية واسترداد الأماكن التي سيطرت عليها.

وتوفي عماد الدين زنكي في عام (٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م) وهو مرابط أمام قلعة جَعْبَر[١]. ولا شك بأن هذا الرجل قد مهَّد الطريق لمن أتى بعده للسير على نهجه وتتبُّع خطاه.

انقسمت الدولة الزنكية بعد وفاته إلى قسمين، شكَّل كل قسم منهما دولة منفصلة عن الأخرى في الموصل وبلاد الشام. ففي الموصل، خلف سيف الدين غازي الأول أباه في الحكم، ثم تعاقب على السلطة أمراء من سلالته، كان آخرهم ناصر الدين محمود الذي توفي في عام (٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م). وقد أدَّى الوضع الجغرافي لهذا القسم أن يرث هؤلاء المشاكل الداخلية مع كل من الخلافة العباسية والسلطة السلجوقية في فارس والعراق.

وبرز نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي كشخصية فذَّة، فقد بدأ من حيث انتهى والده، وبذل جهداً مضنياً في سبيل إثارة الأمة وبعث روح الجهاد والتضحية بين جميع أفرادها في مناطق الشرق الأدنى الإسلامي، وقد ورث القسم الغربي من الدولة الزنكية مع المشكلتين الكبيرتين اللتين واجهتهما والمتمثلتين في أتابكة دمشق[٢] الذين وقفوا حجر عثرة في وجه عماد الدين زنكي لتحقيق وحدة المسلمين في بلاد الشام، بالإضافة إلى الإمارات الصليبية المنتشرة في هذه البلاد.

ونجح نور الدين محمود في اكتساب ثقة العامة وجمع كلمتهم. وبعد أن وحَّد قسمي بلاد الشام الإسلامية، الشمالي المتمثل بحلب، والجنوبي المتمثل بدمشق، وبسط هيمنة فعلية على الموصل، انطلق يجاهد الصليبيين، ويتصدَّى لتوسعاتهم على حساب المسلمين. ولعل أهم إنجازاته، إلى جانب تحقيق الوحدة الإسلامية وجهاد الصليبيين، إسقاطه الخلافة الفاطمية في مصر، وإعادة هذا البلد إلى حظيرة الخلافة العباسية والمذهب السني.

فقد أدرك ضرورة ضمِّ مصر إلى بلاد الشام، وإمارة الموصل لتحقيق نصر

---

(١) جَعْبَر: قلعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين. الحموي: جـ ٢، ص ١٤١ ـ ١٤٢.

(٢) أتابكية دمشق (٤٩٧ ـ ٥٤٩ هـ/ ١١٠٣ ـ ١١٥٤ م)، تُنسب إلى طغتكين، أحد قواد الجيش السلجوقي، وكان مملوكاً لتتش بن ألب أرسلان. والأتابك كلمة تركية مؤلفة من كلمتين أتا بمعنى الأب، وبك بمعنى الأمير، ومعناها مربي الأمير. وقد أطلقت على المماليك الأتراك الذين كان يُعهد إليهم تربية أبناء السلاطين السلاجقة. راجع القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا جـ ٤ ص ١٨.

حاسم على الصليبيين. ولهذا دخل في صراع مع مملكة بيت المقدس الصليبية حول السيطرة على مصر، انتهى بفوزه بهذا البلد. وبذلك ضيَّق الخناق على الصليبيين وأوقع الرعب في قلوبهم.

خلف نور الدين محمود بعد وفاته في عام (٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م) ابنُه الملك الصالح إسماعيل، الذي لم يكن على مستوى الأحداث بفعل صغر سنه وافتقاره إلى الخبرة والتجربة.

وبرز، من جهة أخرى، صلاح الدين الأيوبي كوارث طبيعي استطاع أن يملأ الفراغ القيادي الذي ظهر بعد وفاة نور الدين محمود. وبوفاة الملك الصالح إسماعيل في عام (٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م) زال هذا القسم من الدولة الزنكية ودخل في حكم صلاح الدين بعد صراعٍ دامٍ مع دولة الموصل.

والحقيقة أن موضوع تاريخ الدولة الزنكية في الموصل وبلاد الشام، لم يحظ بعناية المؤرخين المحدثين، ولم تنلْ هذه الدولة حظَّها من البحث المتخصِّص، ثم إن أغلب الدراسات الحديثة اقتصرت على جانب معين، كشخصية عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، بالإضافة إلى ما ورد عرضاً في كتب التاريخ التي تعالج تاريخ الحروب الصليبية.

ولما كانت المكتبة العربية بحاجة إلى دراسة علمية متخصِّصة، تعالج تاريخ هذه الدولة، حاولنا الكتابة في هذا الموضوع لنعطي صورة شاملة؛ بحيث تنجلي للقارىء مرحلة مهمة من مراحل تاريخنا الإسلامي هي دون شك من أكثر المراحل خطورة.

ومن المفيد أن نذكر أن دراسة تاريخ الدولة الزنكية لا تعني فقط دراسة تاريخ دولة قامت في كنف الخلافة العباسية، بل تعني أيضاً دراسة جانب من تاريخ الخلافة العباسية والدولة الفاطمية بالإضافة إلى تاريخ الإمارات الأخرى التي عاصرتها.

استندتُ، في هذه الدراسة، إلى مصادر هامة ومتنوعة، لمؤرخين عاصروا الأحداث، واشتركوا فيها، فكتبوا ما شاهدوه، بالإضافة إلى مؤرخين متأخرين أتموا ما بدأه الأوائل، وأضافوا إلى الأحداث روايات أخرى لم ترد عند أولئك، أذكر منها الكتب التالية، على سبيل المثال لا الحصر:

ـ **الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل**، لعز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م). يأتي هذا المصدر في مقدم المصادر. وتضمَّن تفاصيل قلَّ أن نجدها في

مصدر آخر، ثم **الكامل في التاريخ**، لابن الأثير أيضاً، وهو تاريخ عام.

- ويعد كتاب **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، لشهاب الدين عبد الرحمن المعروف بأبي شامة (ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م) سجلاً مفصلاً لتاريخ دولة نور الدين محمود، ودولة صلاح الدين الأيوبي.

- ولا يقل كتاب **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، لجمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨ م)، أهمية عن كتاب أبي شامة.

- أما كتاب **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، لبهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٥ م)، فهو ترجمة لأعمال صلاح الدين الأيوبي.

- واعتمدت على كتاب **ذيل تاريخ دمشق**، لأبي يعلى حمزة ابن القلانسي، (ت ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م)، في تأريخ علاقة الدولة الزنكية بآل طغتكين في دمشق.

- وتعدُّ مؤلفات أبو عبد الله محمد، العماد الكاتب الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١ م) من الكتب الهامة. فكتاباه، **نصرة الفترة وعصرة القطرة في أخبار الوزراء السلجوقية**، و**البرق الشامي في تاريخ الدولة النورية والصلاحية**؛ مصدران لا يمكن الاستغناء عنهما في تأريخ الدولة الزنكية.

وقد اختصر قوام الدين الفتح بن علي البنداري، ت (٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م) الكتاب الأول تحت اسم **تاريخ دولة آل سلجوق** كما اختصر الثاني تحت اسم **سنا البرق الشامي**.

- وقدَّم أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م) الذي عاصر عماد الدين زنكي، ورافقه بعض الوقت، روايات مهمة عنه في كتابه **الاعتبار**.

- كما أعطانا شمس الدين قزاوغلي، المعروف بسبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م) في كتابه **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، المجلد الثامن، بعض الأخبار الخاصة بالدولة الزنكية.

- وهناك مصدر له أهميته في تاريخ شمالي بلاد الشام هو كتاب **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، للصاحب كمال الدين ابن العديم (ت ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م). وتُعدُّ رواياته عن نشاط نور الدين محمود في شمالي بلاد الشام بالغة الأهمية. وللمؤرخ كتاب آخر ترجم فيه لشخصيات هامة، أدَّت دوراً مميزاً في تاريخ بلاد الشام والجزيرة هو كتاب، **بغية الطلب في تاريخ حلب**.

ـ وأما المصادر الأجنبية، فيأتي في مقدمها كتاب **تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**، لمؤلفه وليم الصوري (ت ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م)، رئيس أساقفة صور، ومؤرخ الملك الصليبي عموري الأول، ومربي ابنه بلدوين الرابع ومستشاره. أمدَّنا وليم بروايات من شاهد عيان ومشارك في العمل السياسي، تختص بعلاقات الزنكيين بالصليبيين لا نجدها في المصادر العربية، كما أفاض في تدوين أخبار حملات عموري الأول على مصر.

وآمل، بما اعتمدت عليه، أن يُجلي الحقيقة التاريخية، كما آمل بأن تكون هذه الدراسة المتواضعة قد استوفت الحد الأدنى من شروط البحث العلمي، وقدَّمت ما هو حيوي، ونافع لأجيالنا الطالعة.

أما تشكيلات الموضوعات التي يراها القارىء بعناوينها الكبيرة فقد قسَّمتها إلى قسمين، عالجت في القسم الأول تاريخ الدولة الزنكية في الموصل، وتضمن ثلاثة أبواب موزعة على عدد من الفصول.

شمل الباب الأول ثلاثة فصول، عالجت فيها تاريخ إمارة الموصل قبيل حكم الزنكيين.

واحتوى الباب الثاني ثلاثة فصول، عالجت فيها تاريخ الدولة الزنكية في عهد مؤسسها عماد الدين زنكي، فتحدثت عن علاقته بالخلافة العباسية والسلطة السلجوقية وجيرانه من الأمراء المسلمين، والإمارات الصليبية في المنطقة.

وتضمَّن الباب الثالث ثلاثة فصول، عالجت فيها تاريخ الدولة الزنكية في عهد خلفاء عماد الدين زنكي، فتحدثت عن علاقاتهم الداخلية فيما بينهم، وعلاقاتهم الخارجية بينهم وبين القوى الإسلامية والصليبية في المنطقة. وقد زال هذا الفرع من الزنكيين في عام (٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م) فانتقلت السلطة إلى بدر الدين لؤلؤ النائب في الموصل.

وعالجت في القسم الثاني تاريخ الدولة الزنكية في بلاد الشام، حلب ودمشق، وتضمَّن باباً واحداً موزعاً على ثمانية فصول، تحدثت فيها عن تاريخ الزنكيين في عهد نور الدين محمود وخليفته الملك الصالح إسماعيل، وبيَّنت جهود نور الدين محمود في إتمام الوحدة الإسلامية حيث دخل من أجل ذلك في صراع مع جيرانه من الأمراء المسلمين، بالإضافة إلى جهاده في التصدي للصليبيين، ومحاولاته لإخراجهم من

المنطقة. وتضمَّن الفصل الأخير تأريخاً للدولة الزنكية في عهد خليفته الملك الصالح إسماعيل. وقد زال هذا الفرع من الزنكيين بوفاته في عام (٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م) وكان قبل وفاته قد أوصى بتسليم مدينة حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود الأول بن مودود.

وأنا على ثقة بأن القارىء سيجد في هذه الدراسة متعة وفائدة كما سيلمس فيها موضوعية في معالجة الأحداث.

والله أسأل أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها القارىء العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

بيروت في ١/٩/١٩٩٨

د. محمد سهيل طقوش

القسم الأول

الدولة الزنكية في الموصل

٥٢١ ـ ٦٣٠ هـ/ ١١٢٧ ـ ١٢٣٣ م

الباب الأول

دولة الموصل
قبيل حكم الزنكيين



الفَصْلُ الأَولُ

الوضع السياسي في الشرق الأدنى قبيل تأسيس الدولة الزنكية

تمهيد

ثمة حقيقة ظاهرة برزت في أوائل القرن السادس الهجري ـ الثاني عشر الميلادي، هي أن المجتمع الإسلامي قبيل ظهور الدولة الزنكية كان يسوده جو من التعقيد الذي اكتنف وضعه السياسي والاقتصادي والديني. فقد كانت تحكمه قوى مختلفة، متناقضة فيما بينها، وكثيراً ما كان الصراع سمة ذلك التناقض من أجل البقاء أو السيطرة. وتفشَّت فيه ظاهرة توزع الولاءات السياسية بين الخلافة العباسية في بغداد، التي تمثل روح المذهب السني، والدولة الفاطمية في القاهرة المدافعة عن المذهب الشيعي ـ الإسماعيلي، لكن أوضاعهما الداخلية كانت مرتبكة، وكانت كل قوة تحمل عوامل ضعفها في نفسها بفعل ما كان يدور بينها وبين القوة الأخرى من منازعات؛ مما جعل بلاد الشام ـ وهي المجال الحيوي للصراع المذهبي نظراً لأهميتها السياسية والدينية والاقتصادية ـ موزَّعة بين عدة إمارات صغيرة مستقلة أو شبه مستقلة.

وكانت مشاعر الشك والحقد المتبادلة بين هذه الكيانات السياسية الصغيرة، واضحة في العداء السياسي الذي سبَّب تنافرها، وحال دون توحيدها لمواجهة الخطر الصليبي.

ولما كانت لهذه القوى المتصارعة علاقة مباشرة بدراستنا، فمن المفيد أن نلمَّ إلمامة وجيزة بأوضاعها السياسية قبيل قيام الدولة الزنكية.

الخلافة العباسية

فَقَدَتْ الخلافة العباسية هيبتها السياسية منذ نهاية القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي، وتراجعت قوتها، فانتقلت من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم. وقامت في كنفها دول انفصالية مستقلة استقلالاً تاماً أو جزئياً مع الاعتراف بسلطان الخليفة الروحي. ودخلت شعوب جديدة في المجتمع الإسلامي تمكَّنت من الوصول إلى الحكم. ووقع الخلفاء تحت تأثير نفوذهم؛ مما أدَّى إلى تحجيم دورهم السياسي الفاعل، ففقدوا الاحترام الذي كان يتمتع به أسلافهم.

والراجح أن مردَّ هذا التغيير يكمن في الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشتها دولة الخلافة العباسية في العصر العباسي الأول، وقد حملت معها بذور الانفصال[1]، نذكر من هذه الدول الانفصالية، الدول السلجوقية، والإمارات الأتابكية.

ابتدأت العلاقات العباسية - السلجوقية بالظهور ابتداءً من عام (٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م) عندما أعلن طغرلبك (٤٢٩ - ٤٥٥ هـ/ ١٠٣٧ - ١٠٦٣ م) قيام دولته في خراسان[2]. وأضحى السلاجقة، منذ ذلك التاريخ يمثلون ظاهرة جديدة في حياة دولة الخلافة العباسية. فقد اختلف موقفهم منها عن موقف أسلافهم البويهيين[3]، فكانوا يحترمون الخلفاء تديناً ينبع من عقيدتهم ونشأتهم السنية.

ظلَّت العلاقات الطيبة قائمة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ما يقارب ثمانية عشر عاماً منذ أن أعلن طغرلبك قيام دولته في خراسان. والراجح أن الظروف السياسية التي أحاطت بالطرفين، ومن بينها مقاومة النفوذ الشيعي المتمثل بالبويهيين، وبأبي الحارث البساسيري، أحد قواد بني بويه الأتراك، والدولة الفاطمية، حتَّمت أن تكون هذه العلاقات وثيقة.

لكن سرعان ما نشب الخلاف بين الطرفين إثر دخول العراق ضمن دائرة

---

(١) انظر كتابنا: تاريخ الدولة العباسية ص ١٥٦ - ١٦٠.

(٢) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق: أزَاذْ دار، قصبة جوين، وبيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند: طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها. الحموي: جـ ٢ ص ٣٥٠.

(٣) سيطر البويهيون الشيعة على مقدرات الخلافة العباسية بين أعوام (٣٢٠ - ٤٤٧ هـ/ ٩٣٢ - ١٠٥٥ م) وهم من أصل ديلمي.

النفوذ السلجوقي، وسيطرة طغرلبك على بغداد في عام (٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م) حيث اعترف به الخليفة أبو جعفر عبد الله الملقب بالقائم بأمر الله (٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥ م) سلطاناً على جميع المناطق الخاضعة لسيطرته، وأمر بأن يُذكر اسمه في الخطبة، وفوَّضه حُكم ما يفتحه من المناطق الغربية[١].

والواضح أن محاولة طغرلبك الاستئثار بجميع السلطات في العراق حتى تلك المتعلقة باختصاصات الخلافة، دفعت بالعلاقات بين الجانبين إلى التدهور. فقد أناب السلطان السلجوقي عنه في حكم بغداد، وقبل أن يعود إلى عاصمته الري، موظفاً سلجوقياً أطلق عليه اسم «العميد»[٢]، وعيَّن موظفاً آخر لحفظ الأمن يُعرف بـ «الشحنة»[٣] يأتمر بأمره، ويتمتع بنفوذ كبير حتى على الخليفة. كما ترك في بغداد حامية عسكرية، وأقطع بعض المدن لخواصه، وحمل معه موارد العراق المالية إلى الخزانة السلجوقية. فأضحى الخليفة العباسي، نتيجة هذه الإجراءات، مجرداً تماماً من سلطاته، واستأثر نواب السلطان بالسلطة.

ومما زاد الأمور تفاقماً، محاولة ربط البيتين العباسي والسلجوقي بالمصاهرة. فخطب طغرلبك ابنة الخليفة، متجاوزاً بذلك تقاليد الخلافة العباسية، وهذا مطمح لم يسعَ إليه أحد من قبل من خارج الأسرة العباسية[٤].

استمرت العلاقات متوترة بين الجانبين العباسي والسلجوقي في ظل حكم السلطان ألب أرسلان (٤٥٥ ـ ٤٦٥ هـ/ ١٠٦٣ ـ ١٠٧٢ م)، الذي خلف طغرلبك.

ففي عام (٤٥٨ هـ/ ١٠٦٦ م) عيَّن السلطان ابنه «ملكشاه» ولياً للعهد، وأمر بأن يُخطب له في البلاد التي يحكمها، ومنها بغداد، من دون أن يأخذ رأي الخليفة في ذلك التعيين، وفي تلك الخطبة. ولم يبلِّغه إلا بعد ستة أعوام[٥].

وعيَّن السلطان في عام (٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢ م) أبا العلاء محمد بن الحسن، وزيراً

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ٧١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٨٧. والعميد موظف يعاون الشحنة في إدارة الولاية.

(٣) المصدر نفسه: ص ٨٩. والشحنة هو المحافظ في مفهومنا الحديث.

(٤) البنداري، الفتح بن علي: تاريخ دولة آل سلجوق. وهو اختصار لكتاب نصرة الفترة وعصرة القطرة في أخبار الوزراء السلجوقية للعماد الكاتب عماد الدين الأصفهاني. ص ٢١.

(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٠٣، ١١١.

دون علم الخليفة، الذي استاء من هذا التصرف، وعدَّه تدخلاً في شؤون الخلافة الخاصة، ورفض استقباله[1].

وتعرَّض الخليفة، في عهد السلطان ملكشاه الأول (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ/ ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢ م)، إلى كثير من الامتهان، وتجرَّأ بعض نوابه على مشاركته بعض مظاهر سيادته الدينية. فقد ضرب «سعد الدولة كوهرائين» شحنة بغداد، الطبول على باب داره رغماً عن الخليفة[2].

ازدادت العلاقات تدهوراً بين الخليفة والسلطان في أواخر حكم ملكشاه الأول، مما دفع هذا الأخير إلى التفكير الجدِّي بعزل الخليفة ونقل عاصمة الخلافة إلى أصفهان، لكن القدر كان بانتظاره. فكفى الخليفة شر عزله[3].

تعرَّضت دولة السلاجقة، بعد وفاة ملكشاه الأول، للانقسام والضعف بسبب النزاعات الأسرية، وقد انعكس ذلك على أوضاع الخلافة حيث تصرَّف الخلفاء، وفق ما تمليه مصلحتهم، للانعتاق من الطوق السلجوقي، فوقفوا موقف المتفرج أحياناً من هذه النزاعات، في حين تأرجحوا في اعترافهم بين مراكز القوى أحياناً أخرى، وكانوا يمنحونه لأكثر من شخص في وقت واحد، في بعض الأوقات بهدف ضرب القوى السلجوقية بعضها ببعض لتضعف قوتها.

وانتهز الخليفة أبو منصور الفضل الملقب بالمسترشد بالله (٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ/ ١١١٨ ـ ١١٣٥ م) ومن أتى بعده من الخلفاء هذه الفرصة، وأخذوا يعملون على استعادة ما للخلافة من سلطات، وساعدهم على ذلك ابتعاد السلاجقة عن بغداد بحيث أضحى الخليفة بعيداً عن تأثير النفوذ المباشر للسلطان السلجوقي. وقد سار المسترشد خطوات متقدمة في هذا الطريق، إلا أنه ذهب ضحية محاولته[4].

واستطاع الخليفة أبو عبد الله محمد الملقب بالمقتفي لأمر الله (٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ/ ١١٣٦ ـ ١١٦٠ م)، في السنوات الأخيرة من حكمه، أن يُحقِّق جزءاً كبيراً من الهدف

---

(١) البنداري: ص ٤٥.

(٢) المصدر نفسه. من المعروف أن هذا المظهر خاص بالخلفاء حيث تُضرب الطبول على أبوابهم خمس مرات في اليوم إيذاناً بدخول وقت الصلاة.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٢٥ ـ ١٢٦. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ ٥ ص ٢٨٨.

(٤) حاول هذا الخليفة أن يستفيد من النزاع الذي نشب بين السلطان طغرل بن محمد، وأخيه السلطان مسعود. انظر ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٩.

الذي أخفق المسترشد في تحقيقه، مستغلاً تطور الأوضاع السياسية لغير مصلحة السلاجقة. وكان هذا الخليفة، كما يقول السيوطي: «قد حدَّد معالم الإمامة، ومهَّد رسوم الخلافة، ولم تزل جيوشه منصورة حيثما يمَّمت»[1].

وكانت الدولة الزنكية، قد قامت آنذاك في الموصل، ولم يكن باستطاعة عماد الدين زنكي أن يظل بعيداً عن الأحداث، فانخرط في الأوضاع السياسية واضعاً مصلحة المسلمين العليا كأساس لهذا التحرك، وهذا ما سنبحثه في فصول لاحقة.

السلاجقة

أصل السلاجقة ـ قيام دولتهم في خراسان

ينحدر السلاجقة من قبيلة «قنق» الغزية التركية، وينتسبون إلى جدٍّ لهم هو سلجوق بن دقاق[2]. وكانت منازلهم في الصحراء الواسعة والسهوب الممتدة من الصين إلى شواطىء بحر الخزر[3]. اعتنقوا الدين الإسلامي على المذهب السني ونصروه بغيرة وحماس.

نزح السلاجقة من موطنهم الأصلي في عام (٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م) إلى بلاد ما وراء النهر[4] وخراسان، بسبب الظروف السياسية السيئة في تلك المناطق الصحراوية، أو بسبب الحروب التي كانت تدور بين القبائل المختلفة عادة فاصطدموا بالغزنويين[5] الذين كانوا يسيطرون على المنطقة.

وأسَّس السلطان طغرلبك دولة في خراسان في عام (٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م) وطرد الغزنويين من المنطقة في عام (٤٣١ هـ/ ١٠٣٩ م) على أثر انتصاره الكبير على السلطان مسعود الغزنوي في معركة داندانقان[6]. واعترف به الخليفة العباسي القائم

---

(١) تاريخ الخلفاء: ص ٢٩٢.

(٢) الحسيني، صدر الدين أبو الحسن: أخبار الدولة السلجوقية، ص ٢ ـ ٣.

(٣) فامبري، أرمينيوس: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر، ص ١٢٧.

(٤) بلاد ما وراء النهر: يراد بها ما وراء نهر جيحون بخراسان. الحموي: جـ ٥ ص ٤٥.

(٥) الغزنويون: أسرة من العشائر التركية، كان لأفرادها منزلة كبيرة عند السامانيين، حكام بلاد ما وراء النهر، فأسندوا إليهم المناصب العالية. أسس الدولة الغزنوية (٣٥١ ـ ٥٨٢ هـ/ ٩٦٢ ـ ١١٨٦ م) سبكتكين أحد موالي ألبتكين، وهو من الموالي الأتراك، اتخذ الحكام الغزنويون مدينة غزنة، في طرف خراسان، عاصمة لهم، فنُسبوا إليها.

(٦) تقع داندانقان بين سرخس ومرو.

بأمر الله سلطاناً في العام التالي[١].

واصل السلاجقة سياستهم التوسعية في فارس ضمن دائرة اعتراف الخلافة العباسية، بهدف القضاء على قوة البويهيين، تمهيداً لمد نفوذهم إلى العراق، فاستولوا على الري[٢] في عام (٤٣٢ هـ/ ١٠٤١ م)[٣]. ودخلوا جرجان[٤] وطبرستان[٥] في العام التالي[٦]. وضم طغرلبك أصفهان[٧] في عام (٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ م) واتخذها عاصمة له[٨]، كما استولى على إقليم أذربيجان[٩] بعد أربع سنوات[١٠].

وهكذا قامت دولة السلاجقة، في خراسان وفارس، وأضحت الجيوش السلجوقية، على أهبة الاستعداد لدخول العراق الذي كان يمر آنذاك باضطرابات داخلية بفعل الخلافات الأسرية داخل البيت البويهي المهيمن على مقدرات الخلافة.

وقد شعر الخليفة العباسي القائم بأمر الله بهذا التفكُّك والانحلال داخل الأسرة البويهية، ورأى أن دولتهم عاجزة عن إقرار الأمن في العراق، وأن مصلحة الخلافة تقضي باستدعاء القوة النامية في خراسان، فاستنجد بالسلطان السلجوقي طغرلبك طالباً مساندته ضد البساسيري، وهو أحد القادة البويهيين[١١].

---

(١) الراوندي، أبو بكر محمد بن علي: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٢) الري: مدينة مشهورة، قصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً. انظر: الحموي، جـ ٣ ص ١١٦.

(٣) الحسيني: ص ١٠.

(٤) جرجان: مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان. الحموي: جـ ٢ ص ١١٩.

(٥) طبرستان: بلاد مجاورة لجيلان وديلمان، والغالب عليها الجبال، وهي في البلاد المعروفة بمازندران. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ١٣.

(٦) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٠.

(٧) أصفهان وهي أصبهان، مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وهي اسم للإقليم بأسره وكانت مدينتها أولاً جَيًّا ثم صارت اليهودية، وهي من نواحي الجبل. انظر الحموي: جـ ١ ص ٢٠٦.

(٨) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٤.

(٩) أذربيجان: حدها من برذعة مشرقاً إلى أرزنجان مغرباً، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، أشهر مدنها تبريز. الحموي: جـ ١ ص ١٢٨.

(١٠) ابن العبري: تاريخ الزمان ص ٩٨.

(١١) الحسيني: ص ١٨.

انتهز السلطان هذه الفرصة، وسار بجيوشه إلى بغداد، ودخلها. وهكذا دخل العراق ضمن دائرة النفوذ السلجوقي.

التوسع السلجوقي في الشرق الأدنى

توفي السلطان طغرلبك في (شهر رمضان عام ٤٥٥ هـ/ شهر أيلول عام ١٠٦٣م) دون أن يعقب، فخلفه ابن أخيه ألب أرسلان بن جفري[١]. وبعد أن وطَّد أقدامه في خراسان وفارس، وقضى على الثورات التي قامت ضد حكمه، التفت إلى غربي آسيا، وقد أثاره احتمال تقارب بين البيزنطيين والفاطميين، فحرص على أن يحمي نفسه من بيزنطية بفتح أرمينية، والاستقرار في ربوعها قبل أن يمضي في تحقيق هدفه الأساسي وهو مهاجمة الفاطميين.

والواقع أن السلاجقة، وضعوا خطة عسكرية من شقين:

الأول: توسيع رقعة دولتهم على حساب البيزنطيين بهدف نشر الإسلام في ربوع آسيا الصغرى، الأمر الذي يطبع حروبهم بطابع الجهاد، ويرفع من قدرهم، ويكسبهم حب المسلمين جميعاً.

الثاني: التوجه إلى بلاد الشام، ومصر للقضاء على الدولة الفاطمية، الشيعية المذهب.

وهكذا شهدت سنوات حكمه اصطدامات حامية مع البيزنطيين توَّجها بانتصاره الكبير في معركة «مانزيكرت» (٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م)[٢] الشهيرة التي فتحت أبواب الأناضول أمام السلاجقة لينسابوا في ربوعه.

وسيطر السلاجقة في عهد ابنه ملكشاه الأول على بلاد الشام التي أسند حكمها إلى أخيه تاج الدولة تُتُش مؤسس دولة سلاجقة الشام في عام (٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م)، واتخذ دمشق مقراً له[٣].

---

(١) البنداري: ص ٢٧، ٣٠.

(٢) الحسيني: ص ٢٦ ـ ٥٣. مانزيكرت أو ملاذكرد: بلد بين خلاط وبلاد الروم (آسيا الصغرى) في شمالي بحيرة وان.

(٣) كان ملكشاه الأول قد أقطع أخاه تُتُش حكم الشام في عام (٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م). انظر ابن العديم، الصاحب كمال الدين: زبدة الحلب من تاريخ حلب: جـ ١ ص ٢٨٨.

تنازع السلاجقة وتراجع قوتهم

فَقَدَ السلاجقة، بعد وفاة ملكشاه الأول، وحدتهم السياسية التي جاهد لتحقيقها وتثبيتها بمعاونة وزيره نظام الملك[١]. وأدَّى التنافس على السلطة بين أولاده إلى:

- تجزئة الدولة إلى كيانات سياسية، مستقلة ومتنازعة. فبالإضافة إلى دولة السلاجقة العظام في خراسان وفارس، قامت دول سلجوقية في بلاد الشام، وآسيا الصغرى وكرمان[٢] والعراق. وأقامت هذه الدولة الأخيرة علاقات سياسية مع الأتابكية الزنكية التي قامت على أكتاف السلاجقة، وسنتحدث عنها في فصول لاحقة.

- إضعاف القوة السلجوقية أمام القوى الأخرى المتواجدة في المنطقة، الخلافتين العباسية والفاطمية، والصليبيين الذين دخلوا حديثاً إلى المنطقة.

- حدوث قلاقل في بلاد الشام، بشكل خاص، مكَّن الصليبيين من إنشاء كيانات سياسية لهم في المنطقة.

الأراتقة

أصل الأراتقة

ينتسب الأراتقة إلى جدهم أرتق بن أكسك[٣]، وينتمون إلى قبيلة الدقر التركمانية[٤]، وهي إحدى البيوت الكبيرة التي تنتمي إلى الغز[٥]. انتظمت هذه القبيلة في صفوف القوات السلجوقية بفعل استقطاب زعماء السلاجقة للقبائل

---

(١) هو الحسن بن علي بن إسحاق، أبو علي، وزر للملك ألب أرسلان وولده ملكشاه تسعاً وعشرين سنة، كان من خيار الوزراء. بنى المدارس النظامية في بغداد ونيسابور وغيرهما لتدريس الفقه على المذهب الشافعي. قتل في عام (٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م). انظر: ابن كثير، الحافظ أبو الفدا: البداية والنهاية: جـ ١٢ ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) كرمان: ولاية مشهورة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. الحموي: جـ ٤ ص ٤٥٤.

(٣) ابن خلدون: العبر... المعروف بتاريخ ابن خلدون: جـ ٥ ص ٤٦١. وقارن بابن الأثير: جـ ٨ ص ١٣٤. وابن خلكان: جـ ١ ص ١٩١، اللذين يذكران أن اسمه أكسب.

(٤) Setton: The History of the Crusades vol I, P. 158.

(٥) Rice, Tamara: The Seljukes in Asia Minor, P. 54.

التركمانية عن طريق منحهم الإقطاعات والاستقلال الذاتي داخل نطاق الدولة السلجوقية[١].

خدم أرتق السلطان ملكشاه الأول، وأدَّى دوراً بارزاً في بداية حياته السياسية أهَّله للحصول على مناصب قيادية، وإقطاعات عديدة في العراق وبلاد الشام وفلسطين، تُعدُّ النواة الأولى لكيان الأراتقة السياسي، ودفعه للبروز على المسرح السياسي والعسكري.

ففي عام (٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م) أرسله ملكشاه إلى البحرين لقتال القرامطة[٢] وإخضاعهم للسلطة السلجوقية[٣]، ووضعه بعد عامين تحت إمرة أخيه تاج الدولة تُتُش في الحملة السلجوقية التي توجهت إلى بلاد الشام، كما ولاَّه حلوان[٤] وأعمالها، والجبل[٥]، بعد نجاحه في ضمِّها إلى الأملاك السلجوقية[٦]، كما كلّفه بمساندة فخر الدولة بن جبير أثناء حملته العسكرية على ديار بكر.

ظل أرتق عاملاً على حلوان والمناطق المجاورة حتى عام (٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤م) حيث تراجعت علاقته الجيدة بالسلطان. وحتى يضمن استمراره في السلطة حاول الانضمام إلى الفاطميين والاستفادة من مساندتهم، ثم انضمَّ أخيراً إلى تُتُش، زعيم سلاجقة الشام، الذي ما لبث أن أقطعه بيت المقدس في عام (٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م) تمهيداً للاعتماد على مقدرته العسكرية، واستقر في إقطاعه حتى وفاته في عام (٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م)[٧].

ترك أرتق بعد وفاته ولدين هما: سقمان وإيلغازي، وقد تعرَّضا بعد مدة

---

(١) Setton: Op. Cit., P. 158.

(٢) القرامطة: ظهرت الحركة القرمطية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وهي استمرار للدعوة الإسماعيلية الشيعية. وتُنسب إلى حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط، وسُمي أتباعه بالقرامطة.

(٣) خليل، عماد الدين: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص ٥٨.

(٤) حلوان العراق، هي آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد. الحموي: جـ ٢ ص ٢٩٠.

(٥) الجبل أو الجبال: إقليم يقع بين أصفهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والري، وما بين ذلك من البلاد الجبلية والكور العظيمة، وهو اسم علم للبلاد المعروفة بعراق العجم. المصدر نفسه: ص ٩٩.

(٦) ابن خلدون: جـ ٥ ص ٤٦٢.

(٧) خليل: ص ٦٧.

قصيرة لفقدان إقطاعهما في بيت المقدس على يد الفاطميين، وتفرَّقا في البلاد[1]، لكنهما تمكَّنا من تحقيق مكاسب عديدة للعائلة الأرتقية بفضل طموحهما.

أقام الأخوان خلال مرحلة نشوئهما علاقات سياسية جيدة مع السلاجقة، إذ كانا مدينين لهم بما أتاحوا لهما من فرص واسعة للحصول على مزيد من الإقطاعات، فضلاً عن تولي إيلغازي منصب الشحنكية في بغداد في عام (٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م)[2]، الأمر الذي سمح له أن يؤدي دوراً هاماً في الأحداث التي شهدتها منطقة العراق وبلاد فارس خلال مدة الصراع بين السلطانين السلجوقيين محمد وبركياروق.

وأسَّس سقمان، الذي اتجه إلى الرها وأقام فيها بعد استيلاء الفاطميين على بيت المقدس، أولى الإمارات الأرتقية في ديار بكر في عام (٤٩٦ هـ/ ١١٠٢ م) وساعدته الظروف السياسية على الاستيلاء على أهم مدنها مثل ماردين[3] وحصن كيفا[4]، وتشكيل إمارة محلية. وقد أضحت هاتان المدينتان قاعدتين لإمارتي ماردين وحصن كيفا حيث حكم كلاًّ منها فرع من فروع البيت الأرتقي.

لم يستمر سقمان في الحكم بعد ذلك طويلاً، إذ توفي في (شهر صفر عام ٤٩٨ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٠٤ م)[5]، فانقسم الأراتقة بعد وفاته إلى قسمين. فقد وضع أخوه إيلغازي يده على ماردين وبعض الحصون الأرتقية الأخرى كرأس العين[6] بعد أن خُلع من شحنكية بغداد[7]. وسيطر إبراهيم بن سقمان على حصن كيفا، وما لبث هذا الأخير أن توفي، فخلفه أخوه داوود[8].

نتيجة لهذا التوزيع السياسي، أضحى هناك فرعان من بيت أرتق يتوليان

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٨٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٠٩.
(٣) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل في الجزيرة الفراتية تشرف على دنيسر ودارا ونصيبين. الحموي: جـ ٥ ص ٣٩.
(٤) حصن كيفا: بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على نهر دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر في ديار بكر. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٢٦٥.
(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٧٧.
(٦) رأس العين: إحدى مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودُنيسر. الحموي: جـ ٣ ص ١٤.
(٧) خليل: ص ٩٣.
(٨) حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، جـ ٤ ص ٨١ ـ ٨٢.

الحكم؛ أحدهما في ماردين التي صارت قاعدة لأبناء إيلغازي والأخرى حصن كيفا التي صارت قاعدة لأبناء سقمان.

الدولة العبيدية (الفاطمية)

أرسل ابن حوشب النمار، داعي الإسماعيليين[١] في اليمن، أبا عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب في عام (٢٨٨ هـ/ ٩٠١ م) لنشر الدعوة العلوية في تلك البلاد، بعد وفاة داعيي الإسماعيلية فيها وهما الحلواني وأبو سفيان. ونجح أبو عبد الله هذا في استقطاب جماعة من حجاج كتامة، وصحبهم إلى بلاد المغرب حيث بثَّ دعوته بين الناس، وقوي أمره بما التفَّ حوله من الأتباع. واستولى على القيروان[٢] في عام (٢٩٦ هـ/ ٩٠٩ م)، وأزال دولة الأغالبة.

واستدعى أبو عبد الله، عبيد الله الذي آلت إليه أسرار الدعوة، وكان في سلمية[٣]، للحضور إلى أفريقية لتسلم الأمر. رحَّب عبيد الله بالدعوة، فغادر سلمية، وتوجه إلى بلاد المغرب، ووصل إليها في عام (٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م) حيث بويع له بالخلافة، وتلقَّب بـ «المهدي أمير المؤمنين»، واضعاً بذلك الأساس الذي قامت عليه الدولة الفاطمية[٤].

وأدرك الفاطميون، بعد قليل من الوقت، أن بلاد المغرب لا تصلح لأن تكون

---

(١) ظهرت الدعوة الإسماعيلية في أواخر عهد دولة الخلافة الأموية عندما انضم عدد كبير من الزيدية إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق. وبعد وفاته انقسمت الشيعة الإمامية إلى قسمين بفعل اختلاف الرأي في كيفية تحديد الحق الوراثي لاختيار الإمام، وهما الإمامية الموسوية، وقد أطلق عليها فيما بعد «الإثنا عشرية»، اعتقد أتباعها بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو عندهم الإمام السابع، والإمامية الإسماعيلية الذين اعتقدوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو أكبر أولاد أبيه، ومع أن وفاته حصلت في حياة أبيه، فقد حوَّل أتباعه الإمامة إلى ابنه محمد المستور، وهو عندهم الإمام السابع، ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعية أو الإسماعيلية لتمييزهم عن الإثني عشرية.

(٢) القيروان: مدينة عظيمة بأفريقية، بناها عقبة بن نافع في عام (٥٠ هـ/ ٦٧٠ م). الحموي: جـ ٤ ص ٤٢٠.

(٣) سلمية: بليدة في ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين، وكانت تُعدُّ من أعمال حمص. الحموي: جـ ٣ ص ٢٤٠.

(٤) انظر فيما يتعلق بقيام الدولة الفاطمية، كتاب تاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ١ ـ ٥٠.

مركزاً لدولتهم بسبب ضعف مواردها الاقتصادية، فضلاً عن كثرة الاضطرابات فيها، لذلك اتجهت أنظارهم إلى مصر الغنية بمواردها، بالإضافة إلى موقعها الهام بفعل قربها من بلاد الشام، مما يجعلها صالحة لإقامة دولة مستقلة تنافس دولة الخلافة العباسية على زعامة العالم الإسلامي.

كانت الأوضاع السياسية والعسكرية آنذاك مؤاتية. فالدولة الأخشيدية[١] كانت تمر في مراحل شيخوختها بعد وفاة كافور في عام (٣٥٧ هـ/ ٩٦٨ م) وعدم وجود شخصية قوية تستطيع ملء الفراغ الذي تركه، وعمَّتها الاضطرابات بفعل صغر سن حفيده وخليفته أبو الفوارس أحمد، فاستغل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي هذه الحالة السيئة واستولى على البلاد في عام (٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م)[٢].

شكّلت الدولة الفاطمية تحدياً للزعامة الدينية السنية في بغداد. وحتى تؤكد زعامتها على العالم الإسلامي، ورغبة في تأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقي، والتصدي للصليبيين، تحتَّم على الفاطميين بعد أن انتهوا من الاستيلاء على مصر، واستقروا فيها، أن يولّوا وجههم شطر الشرق الإسلامي نحو بلاد الشام، وجعلوا هذا الأمر هدفهم الرئيسي.

واستطاعوا بين أعوام (٤٣٠ ـ ٤٥٠ هـ/ ١٠٣٨ ـ ١٠٥٨ م) أن يوطدوا مركزهم فيها، فبسطوا هيمنة سياسية على معظم أجزائها. وبذلك أضحت مصر وملحقاتها في بلاد الشام حتى دمشق، تابعة للفاطميين.

وهكذا قُدِّر للعالم الإسلامي في الشرق الأدنى أن يظل طوال قرنين من الزمن (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ/ ٩٦٩ ـ ١١٧١ م) منقسماً على نفسه بين مذهبين مختلفين، مما ترك أثراً خطيراً على قوة المسلمين، ظهرت نتائجه في عهد الحروب الصليبية[٣].

وشهد القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، صراعاً بين السلاجقة المدافعين عن المذهب السني، وبين الفاطميين المدافعين عن المذهب الشيعي ـ الإسماعيلي.

---

(١) الدولة الإخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩ م) أسسها في مصر محمد بن طغج بن جف الملقب بالأخشيد. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: جـ ٣ ص ٢٥١.
(٢) المصدر نفسه: جـ ٤ ص ١٨، ٢٤ ـ ٢٥.
(٣) عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية جـ ١ ص ٦٣.

ثم طرأت أحداث تسبَّبت في إضعاف الفاطميين، فدخلت الدولة الفاطمية في مرحلة التدهور السياسي بعد سيطرة الوزراء على الحكم، وانحسر دور الخليفة السياسي بعد أن فَقَد اختصاصاته كخليفة حاكم، لكنه احتفظ بقوة معنوية بوصفه إماماً للمسلمين الشيعة، له نفوذ روحي عليهم.

وكان للتنافس الداخلي الذي نشأ بين رجال الدولة على منصب الوزارة، واستعانة الطامعين بهذا المنصب بحكام الدول المجاورة، أثر سيء على أوضاع مصر الداخلية، الأمر الذي مهَّد السبيل للقضاء على الخلافة الفاطمية كما سيمر معنا.

الصليبيون

الحركة الصليبية

إذا كان لنا أن نذكر بإيجاز طبيعة هذه الحركة ودوافعها، نستطيع أن نقول إنها في حقيقة أمرها استمرار للصراع الطويل الذي قام منذ العصور القديمة بين الشرق والغرب، واتخذ، في كل عصر، شكلاً معيناً يتلاءم ومقتضيات الظروف وإن اتحد في الهدف والغاية.

فقد كان الصراع في العصور القديمة صراعاً سياسياً، عسكرياً في عالم يدين بالوثنية، حمل لواءه الفرس واليونان، بينما اتخذ الغرب في العصور الوسطى الدين ستاراً لتحقيق الغايات نفسها، فاصطبغ الصراع بالصبغة الدينية بعد أن اعتنق الأمبراطور الروماني قسطنطين الكبير الديانة المسيحية في عام ٣٢٣ م[(١)].

وبظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، قام المسلمون، بعد أن ثبَّتوا أقدامهم في داخل الجزيرة العربية؛ بالتوجه خارج جزيرتهم بهدف نشر مبادىء الدين الجديد. فزحفوا باتجاه العراق وبلاد الشام، واصطدموا بالفرس والبيزنطيين، وحقَّقوا، في سنوات قلائل، انتصارات مذهلة، كانت نتيجتها فتح العراق وبلاد فارس التابعة للأمبراطورية الفارسية، والولايات الشرقية التابعة للأمبراطورية البيزنطية.

---

(١) انظر فيما يتعلق باعتناق قسطنطين المسيحية وعلاقته بمذاهبها كتاب الدولة البيزنطية للسيد الباز العريني ص ٣٢ ـ ٣٧.

وخلاصة القول، إن الحركة الصليبية كانت تمثل في العصور الوسطى روح المجتمع الغربي والأفكار السائدة فيه من ناحيتي الدين والحرب؛ فنتج عن الدين ظاهرة الحج، بينما نتج عن الحرب ظاهرة الحرب المقدسة. لكن الدوافع الأخرى، وهي متنوعة، بعيدة كل البعد عن الناحية الدينية، وجد فيها المجتمع الغربي تنفسه من الأزمات التي كان يمر بها.

فالباحث في تاريخ الحروب الصليبية يستطيع أن يلمس أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في توجيهها وتحكُّمها بمصائرها، وأن الدين قد استُغِل استغلالاً واضحاً للدعاية لها، والعمل على إنجاحها تحقيقاً لأغراض أخرى لا تمت إلى الدين بأية صلة.

وعندما أسَّس سلاجقة الروم سلطنتهم[1] في آسيا الصغرى بعد معركة مانزيكرت؛ واصلوا حركة توسعهم في المنطقة، وفتحوا معظم بقاعها، بالإضافة إلى بعض الجزر القريبة من ساحلها الغربي.

وحاول الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين (٤٧٤ ـ ٥١٢ هـ/ ١٠٨١ ـ ١١١٨ م)، دون جدوى، وقف الزحف السلجوقي الذي هدَّد عاصمته القسطنطينية، فاضطر إلى الاتجاه نحو الغرب الأوروبي والبابوية لطلب المساعدة.

ولم ينتهِ القرن الحادي عشر الميلادي حتى تحوَّلت الحرب المقدسة إلى اتجاه عملي. فأبدى الفرسان في المجتمع الأوروبي استعدادهم للاستجابة لدعوة الكنيسة، والقتال من أجل استرداد الأماكن المقدسة في الشرق، بينما وقف الأمراء، في بادىء الأمر، بعيداً عن هذا الاتجاه، على أن فكرة امتلاك الأراضي جعلتهم يُقبِلون، بعد ذلك، على الاشتراك في الحرب المقدسة.

وعلى الرغم من أن الغرب الأوروبي قد استجاب لنداء بيزنطية من أجل حرب المسلمين، إلا أنه لم تكن هناك فكرة عن أي حرب صليبية في بيزنطية، وكانت قضية

---

(١) سلطنة سلاجقة الروم (٤٧٠ ـ ٧٠٤ هـ/ ١٠٧٧ ـ ١٣٠٤ م) أسسها سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق في آسيا الصغرى (تركيا الحالية)، وسميت بسلطنة سلاجقة الروم لأن البيزنطيين في العصور الوسطى الذين عرفهم العرب باسم الروم كانوا يسيطرون على هذه المنطقة، ولم تلبث أن سُميت باسمهم، فظلت قروناً عديدة تُعرف باسم بلاد الروم، ولما استقر السلاجقة فيها أطلق عليهم المؤرخون اسم سلاجقة الروم.

استعادة الأراضي المقدسة خيالية إلى حد بعيد، كما أنها لم تكن حيوية في سياسة بيزنطية الخارجية التي رأت نفسها وقد انغمست في غمرة الحروب الصليبية.

درج المؤرخون على الاهتمام بثماني حملات صليبية، اتجهت أربع منها نحو الأراضي المقدسة في فلسطين، وهي الأولى والثانية والثالثة والسادسة، واثنتان نحو مصر وهما الخامسة والسابعة، وواحدة إلى القسطنطينية وهي الرابعة، أما الثامنة فنزلت في شمالي إفريقية.

وتخلَّلت هذه الحملات ما كان يقوم به العامة من تنظيم مجموعات فاق بعضها، إنْ في الإعداد أو في الأهمية، ما قامت به بعض الحملات المعروفة.

الحملة الصليبية الأولى

بعد إعلان مولد الحركة الصليبية، على يد البابا أوروبان الثاني في كليرمونت[1] في أواخر عام (٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م)، بدأت استعدادات التنفيذ. فقام البابا المذكور بجولات دينية في بلدان الغرب الأوروبي لتعبئة الرأي العام، وكان يعتقد أن جيشاً منظماً تحت رعاية روحية واحدة وقيادة عسكرية موحدة، ستكفل للحملة التقدم والنجاح.

ولكن دعاته الذين بثهم في أرجاء بلدان أوروبا، سمحوا لكل من حمل الصليب بالتوجه إلى الأراضي المقدسة؛ فانتابت المجتمعات الأوروبية نتيجة ذلك، موجات عارمة من الحماس الديني، أسفرت عن قيام حملة الشعوب أو العامة، وضمَّت تشكيلة متنوعة من فئات مختلفة من فرنسا وإيطاليا وألمانيا.

واحتشد الآلاف من فقراء الرجال والنساء وقطاع الطرق واللصوص والغوغاء الذين لم يكن لهم أي وازع ديني أو أي علم بفنون القتال، وقد انضم إليهم بعض صغار النبلاء ممن كانت تدفعهم المطامع الشخصية الدنيوية.

خرجت الحملة الشعبية، هذه، على شكل مجموعات مختلفة تحت زعامة أشخاص عديدين مثل جوتييه، وبطرس الناسك، ووالتر المفلس وغيرهم، وقد

---

(١) راجع فيما يتعلق بمؤتمر كليرمونت: فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس ص ٣١ ـ ٣٧.
Robert the Monk: Historia Hierosolymitana in: R.H.C. occ vol III PP. 727 - 729.

اصطدموا أثناء تقدمهم بشعوب البلدان التي مروا بها مثل باڤاريا والمجر وبلغاريا، وقاموا بأعمال السرقة والسلب والقتل وحرق المدن، ولم تنجُ ضواحي القسطنطينية من تعدياتهم مما حمل الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين على اتخاذ مبادرة نقلهم إلى آسيا الصغرى مدركاً، في الوقت نفسه، بما له من خبرة وتجربة أن هذا الجمع الصليبي غير المنظَّم لا يثير الخوف في النفوس، وأنه إذا عبر المضيق إلى آسيا الصغرى فسوف يدمره سلاجقة الروم بسرعة[1]. وفعلاً، اصطدم هؤلاء بهم، وكانت كارثة حقيقية، إذ لم ينجُ منهم سوى ثلاثة آلاف من أصل عشرين ألفاً[2].

بعد قيام الحملات الشعبية، كانت الاستعدادات تجري في الغرب الأوروبي لتحرك الجيوش النظامية باتجاه الشرق، وقوامها الأمراء الإقطاعيون من فرنسا وإيطاليا ونورمنديا، وطبيعي أن يكون أفراد هذه الحملة أكثر تقديراً لخطة سيرهم بعد الاستعدادات بالسلاح والأموال والرجال والعتاد، والاتصال مسبقاً بأمراء وحكام النواحي الذين سيمرون في أراضيهم، حتى يمدوا لهم يد المساعدة.

لم تكن الحملة النظامية هذه تحت قيادة أمير واحد، كما كان لكل أمير رجاله وجنده، واختلفت أهواؤهم، فهم على تباين في نظراتهم إلى مفهوم الحركة الصليبية.

تكونت الحملة من أربعة جيوش نظامية. تولى بوهيموند وابن أخيه تانْكرِد قيادة القوات النورماندية. أما القوات البروڤنسالية فكانت تحت قيادة ريموند الرابع، كونت تولوز، والقوات الفرنسية، تحت قيادة إيتيين كونت بلوا وهيو كونت فرماندوا الابن الأصغر لهنري الأول ملك فرنسا، وروبرت الثاني كونت فلاندر. أما جودفري دي بوايون، دوق اللورين، وأخوه بلدوين، فقد قادا قوات اللورين السفلى[3].

اتخذت هذه الجيوش أربع طرق مختلفة لكنها اتفقت على الالتقاء عند أسوار القسطنطينية، وبلغ عدد أفرادها حوالي ثلاثين ألف مقاتل. ويذكر رنسيمان أن عدد أفراد الجيوش التي وفدت من الغرب ونزلت في أراضي الأمبراطورية البيزنطية، في

---

(١) Albirt d'Aix: Liber Christianne Expedition pro Eroptione et Restione Sameta Hierosol Vritanae Ecclesia in R.H.C. occ Vol. IV, PP. 283 - 284.

(٢) رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ١ ص ٢٠١ ـ ٢٠٦.

(٣) انظر، فيما يتعلق بجيوش الحملة الصليبية الأولى وأسماء زعمائها: الصوري، وليم: تاريخ الحروب الصليبية، وهو ترجمة تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، جـ ١ ص ١٩٥ ـ ٢٢٥.

المدة الواقعة بين صيف عام ١٠٩٦ وربيع عام ١٠٩٧ م، تراوح بين ستين ألفاً ومائة ألف[١].

وبعد محادثات مضنية مع الأمبراطور البيزنطي تمَّ نقلهم إلى آسيا الصغرى. والواقع أن ألكسيوس اشترط عليهم، في مقابل مساعدته لهم، بأن يُعطى له كل الأراضي التي سيتم الاستيلاء عليها من السلاجقة، إذا كانت هذه الأراضي تابعة للأمبراطورية من قبل[٢].

نتائج الحملة الصليبية الأولى

سقوط نيقية[٣]

وسرعان ما توجهت هذه الجموع الصليبية الهائلة، الممتلئة حماساً واندفاعاً، صوب حدود سلطنة سلاجقة الروم، وهدف قادتها الاستيلاء على نيقية، عاصمة السلطنة المذكورة، نظراً لموقعها الجغرافي المتميز، إذ لو بقيت بأيدي السلاجقة لشكل ذلك خطراً على خطوط مواصلاتهم مع بلاد الشام، وقد توحَّدت أهدافهم وأهداف بيزنطية، في هذه القضية.

وصلت القوات الصليبية إلى نيقية في (شهر جمادى الأولى عام ٤٩٠ هـ/ شهر أيار عام ١٠٩٧ م)، وضربت الحصار عليها. كان السلطان قلج أرسلان الأول (٤٨٥ ـ ٥٠٠ هـ/ ١٠٩٢ ـ ١١٠٧ م) سلطان سلاجقة الروم، آنذاك، خارج عاصمته. وعلى الرغم من ضخامة الحامية السلجوقية المرابطة داخل المدينة، فإنها احتاجت إلى إمدادات لم يتمكّن السلطان من تأمينها.

استمر الحصار خمسة أسابيع، سقطت المدينة بعدها بيد الصليبيين الذين سلموها إلى الأمبراطور البيزنطي، لأنها كانت من أملاكه[٤].

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية، جـ ١ ص ٢٥٧.

(٢) المرجع نفسه: ص ٢٣٣.

(٣) تبعد نيقية عن القسطنطينية حوالي مائة ميل.

(٤) انظر فيما يتعلق بسقوط نيقية في أيدي الصليبيين:

Anna Comnina: The Alexiad, PP. 268 - 270.

المؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٣٤ ـ ٣٦.

فوشيه شارتر: ص ٤٦ ـ ٤٧.

رنسيمان: جـ ١ ص ٢٦٤ ـ ٢٧٥.

تأسيس إمارة الرها

نجح الصليبيون في اختراق آسيا الصغرى بعد سقوط نيقية، ووصلوا إلى كيليكية وسيطروا عليها، ثم واصلوا تقدمهم باتجاه بلاد الشام، فبلغوا مدينة أنطاكية، وضربوا الحصار عليها، باستثناء ما كان من أمر بلدوين الذي انفصل عن الجيش الرئيسي عند عينتاب[1]، واتجه نحو الشرق بناءً على دعوة تلقاها من الأمير ثوروس حاكم الرها، لمساعدة المدينة أمام الزحف الإسلامي بقيادة كربوغا، حاكم الموصل، القادم لنجدة أنطاكية.

وكانت فرصة استغلها بلدوين بذكاء في تأسيس إمارة له في الرها حيث تبناه صاحبها وأشركه معه في الحكم. ولم تمضِ مدة طويلة حتى اغتال الأرمن ثوروس، فتزوج بلدوين امرأته وتسلم الحكم وذلك في (شهر ربيع الآخر عام ٤٩١ هـ/ شهر آذار عام ١٠٩٨ م). وهكذا قامت أول إمارة صليبية في الشرق الأدنى الإسلامي[2].

واستولى بلدوين على تل باشر[3] والراوندان[4] وسميساط[5] وسروج[6] بالإضافة إلى كثير من المواقع والمدن في شمالي الجزيرة، فامتدت هذه الإمارة الصليبية فوق مساحة من الأرض تقع شرق نهر الفرات وغربه، وجاورت إمارة الموصل، وهدَّدت مدن ديار بكر، مثل نصيبين[7] وماردين وحرّان[8]، بل شمالي

---

(١) عينتاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية، وكانت تعرف بدلوك، وهي الآن من أعمال حلب. الحموي: جـ ١ ص ١٧٦.

(٢) فوشيه شارتر: ص ٥١ ـ ٥٣. كان فوشيه قسيس بلدوين ومرافقه في الحملة الصليبية الأولى فهو يصف الأحداث كشاهد عيان.

(٣) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب يومان وأهلها نصارى أرمن ولها ربض وأسواق، وهي عامرة آهلة. الحموي جـ ٢ ص ٤٠.

(٤) الراوندان: قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة من نواحي حلب: المصدر نفسه، جـ ٣ ص ١٩.

(٥) سميساط: مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم (آسيا الصغرى) على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٢٥٨.

(٦) سروج: بلدة قريبة من حرّان من ديار مضر. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٢١٦.

(٧) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وبينها وبين الموصل ستة أيام. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٢٨٨.

(٨) حرّان: مدينة عظيمة مشهورة في جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٢٣٥.

العراق كله، كما سيطرت على الطرق المؤدية إلى حلب والموصل.

تمثَّلت أهمية هذه الإمارة في أنها أدَّت دور الحاجز في الشمال الشرقي بحيث تلقت الهجمات الإسلامية الأولى بدلاً من الإمارات الأخرى. وهنا قبع بلدوين فرحاً بما حقَّقه، ولم يعد يهتم بمساعدة جيش الصليبيين الرئيسي الذي كان لا يزال يحث الخطى نحو أنطاكية.

كانت إمارة الرها من أوسع الإمارات الصليبية، وأشدها أذى للمسلمين بسبب طمع أصحابها النورمان واجتهادهم في الحروب والغارات، ولكنها كانت مع ذلك أضعف هذه الإمارات بسبب توسطها بلاد المسلمين، وتعرضها بالضرورة لردود أفعالهم، بالإضافة إلى عدم تلقِّيها دعم الحجاج ولا إمدادات التجار الإيطاليين. وقد أدَّت دوراً بارزاً في علاقاتها مع الإمارة الزنكية مما سنبحثه في فصول لاحقة.

تأسيس إمارة أنطاكية

وصل الصليبيون إلى أنطاكية في شهر (ذي القعدة عام ٤٩٠ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١٠٩٧ م) وضربوا الحصار عليها. استمر الحصار مدة سبعة أشهر بدت خلالها معاناة الصليبيين واضحة، فتفشَّت المجاعة في معسكرهم، ولم تجد فرق السلب والنهب، التي شكلوها للإغارة على المناطق الريفية المجاورة، ما تنهبه، حتى باتوا في مأزق حقيقي.

وفي المقابل، كان المسلمون في داخل المدينة ينظمون صفوفهم ويعزِّزون وسائل الدفاع عن أملاكهم. أما المسلمون في خارج المدينة، فقد فشا بينهم التنازع والشقاق على الرغم من أن جيشاً إسلامياً بقيادة كربوغا أمير الموصل كان يشق طريقه لإنقاذ المدينة، لكنه وصل بعد فوات الأوان.

إذ في غمرة البؤس الصليبي، حاك بوهيموند المؤامرة التي رأى فيها وسيلة لتحقيق أطماعه ودفعته للانضمام إلى الحملة الصليبية، أي بناء إمارة نورماندية في الشرق الإسلامي. فأعلن عزمه على الرحيل إذا لم يوافق القادة الصليبيون على منحه حكم أنطاكية بعد الاستيلاء عليها.

ونتيجة للذعر الذي انتاب الصليبيين، وافق الزعماء على طلبه. وكان بوهيموند قد دبَّر مؤامرة مع أحد الأرمن على فتح البرج الذي يتولى حراسته. ودخل الصليبيون

المدينة، واستولى بوهيموند على القلعة ليعلن تأسيس إمارة أنطاكية الصليبية في (شهر جمادى الآخرة عام ٤٩١ هـ/ أوائل شهر حزيران عام ١٠٩٨ م)، وهي الإمارة الثانية التي يؤسسها الصليبيون بعد إمارة الرها[١].

تأسيس مملكة بيت المقدس

تقدم الصليبيون، خلال (شهر صفر عام ٤٩٢ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٠٩٩ م)، إلى بلاد الشام بعد تردد طويل، وأدرك أمراء المدن خطورة الموقف لعدم وجود قوة إسلامية كبرى تجاورهم وتحميهم من ذلك الخطر، لذلك آثروا اتباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدموا به من عروض، ولنا في سلطان ابن منقذ صاحب شيزر[٢]، وبني عمار في طرابلس مثل على ذلك.

وسيطر الصليبيون على الساحل الشامي وتوغلوا جنوباً[٣]، وعند أرسوف[٤] تركوا الطريق الساحلي المؤدي إلى يافا[٥]، وشقوا سبيلهم داخل البلاد إلى بيت المقدس مباشرة، وضربوا الحصار عليها. استمر الحصار خمسة أسابيع بين (شهري رجب وشعبان عام ٤٩٢ هـ/ شهري حزيران وتموز عام ١٠٩٩ م)، وتمكنوا من اقتحامها يوم الجمعة (٢٢ شعبان/ ١٥ تموز)، وأحدثوا في سكانها مذبحة مروعة، لم ينجُ منها سوى قائد الحامية الفاطمية، افتخار الدولة، وعدد من رجاله. ونصَّبوا عليها جودفري دي بوايون الذي اتخذ لنفسه لقب «حامي القبر المقدس»[٦].

وهكذا كانت نتيجة الحملة الصليبية الأولى، تأسيس إمارتين ودولة صغيرة، لم تلبث أن تحوَّلت إلى مملكة في (شهر رمضان عام ٤٩٣ هـ/ شهر تموز عام ١١٠٠ م) على أثر وفاة جودفري، واستدعاء بلدوين من إمارته في الرها ليتولى حكم بيت المقدس، وتمَّ تتويجه في (شهر صفر عام ٤٩٤ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٠٠ م).

---

(١) انظر فيما يتعلق بتأسيس إمارة أنطاكية: فوشيه شارتر: ص ٥٣ ـ ٦٧.
وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ حيث تفاصيل وافية.

(٢) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم. الحموي: جـ ٣ ص ٣٨٣.

(٣) فوشيه شارتر: ص ٦٧ ـ ٦٩.

(٤) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا. الحموي: جـ ١ ص ١٥١.

(٥) يافا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٤٢٦.

(٦) فوشيه شارتر: ص ٦٩ ـ ٧٧. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٤٤ ـ ٤٥٦ حيث تفاصيل وافية.

تأسيس إمارة طرابلس

كان لا بد للصليبيين، إذا قُدِّر لإماراتهم البقاء، أن يقوموا بالاستيلاء على الإمارات الإسلامية الفاصلة بين مملكة بيت المقدس في الجنوب وإمارتي أنطاكية والرها في الشمال. وتُعدُّ طرابلس الخاضعة لبني عمار أهم هذه الإمارات. والمعروف أن حاكم طرابلس فخر الملك أبو علي كان ذا نزعات سلمية، وسيطر في وقت من الأوقات على كل الطريق الساحلي الممتد من اللاذقية[١] وجبلة[٢] إلى بيروت التابعة للفاطميين[٣].

وتطلع ريموند، كونت تولوز، إلى إقامة إمارة له تتحكم في الطريق الساحلي، والطريق الداخلي الذي يصل إلى بيت المقدس عبر وادي العاصي على أن تكون حاضرتها حمص[٤]، غير أنه جعل هدفه الأول الاستيلاء على المدن الساحلية؛ فاستولى في (شهر جمادى الأولى عام ٤٩٥ هـ/ شهر شباط عام ١١٠٢ م) على أنطرطوس[٥]، وشوهدت قواته أمام طرابلس. غير أنَّ عدد جنوده كان من القلَّة بحيث حال دون استيلائه على المدينة. وحتى يضيق الحصار عليها بنى في (أواسط عام ٤٩٧ هـ/ ربيع عام ١١٠٤ م) قلعة على مسافة ثلاثة أميال إلى داخل المدينة اشتهرت عند المسلمين باسم «قلعة الصنجيل» أي قلعة «سان جيل»، وسيطر على كل ما يصل إليها من الطرق البرية.

أضحت طرابلس، نتيجة ذلك، في حصار دائم، غير أن ريموند توفي في (شهر جمادى الآخرة عام ٤٩٨ هـ/ شهر شباط عام ١١٠٥ م) دون أن يحقق هدفه، وكان ابنه ألفونسو جوردان صغيراً، فاختار جنوده ابن عمه وليم جوردان ليخلفه في الحكم. وقد واصل هذا سياسة سلفه فتعرضت طرابلس نتيجة ذلك إلى أسوأ أنواع الحصار، فقلَّت المؤن وانتشرت الأمراض.

حاول فخر الملك ابن عمار التخفيف من وطأة البؤس بالاستنجاد بالأمير

---

(١) اللاذقية: مدينة في ساحل بحر الشام، تُعدُّ من أعمال حمص، وهي غربي جبلة. الحموي: جـ ٥ ص ٥.

(٢) جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ١٠٥.

(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ٩٥.

(٤) حمص: مدينة بين دمشق وحلب في نصف الطريق. الحموي: جـ ٢ ص ٣٠٢.

(٥) أنطرطوس: بلد من سواحل بحر الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية، وأول أعمال حمص. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٢٧٠.

سقمان الأرتقي، صاحب ماردين، البعيد نسبياً عن طرابلس، متجاهلاً الاستعانة بجيرانه الفاطميين بسبب أطماعهم في أملاكه، كما كان على علاقات سيئة مع طغتكين أتابك دمشق، لكن سقمان توفي في الطريق، فعاد قادته إلى الجزيرة للتباحث بشأن ولاية الحكم، فما كان من فخر الملك إلا أن توجه إلى بغداد ليطلب النجدة من الخليفة العباسي، ولما عاد بعد أربعة أشهر وجد إمارته قد ضاعت منه؛ ذلك أن أعيان المدينة أدركوا أن ما من دولة إسلامية تستطيع مساندتهم سوى الخلافة الفاطمية، فطلبوا من الأفضل، الوزير الفاطمي، أن يرسل من قِبَله والياً يتولى إدارة المدينة، فاستجاب الأفضل لطلبهم وعيَّن شرف الدولة حاكماً عليها (في أواخر عام ٥٠١ هـ/ صيف ١١٠٨ م).

ومع أن فخر الملك فَقَدَ طرابلس، فإن الفاطميين لم يستطيعوا الاحتفاظ بها، كما لم يظفر بها وليم جوردان. فقد قدم، في ذلك الوقت، برتراند، الابن الأكبر لريموند الصنجيلي وصاحب الحق الشرعي في تركة أبيه، وكان حاكماً على إقليم تولوز.

ونتيجة للنزاعات بين الصليبيين حول اقتسام إرث ريموند، عُقد اجتماع في (شهر ذي القعدة عام ٥٠٢ هـ/ شهر حزيران عام ١١٠٩ م) خارج أسوار طرابلس حضره أمراء الشرق الصليبيون. وتقرر في هذا الاجتماع أن تكون جبيل من نصيب برتراند بالإضافة إلى طرابلس بعد الاستيلاء عليها.

وإذ انعقد الصلح بين الصليبيين نهضوا جميعاً للاستيلاء على طرابلس، ولم يتمكن الفاطميون من إيصال المساعدة المطلوبة لنجدة المدينة، في الوقت المناسب. ودكَّ الصليبيون أسوارها من البر، كما قطع أسطولا جنوة وبروڤانس خطوط مواصلاتها البحرية، عندئذ تخلَّت الحامية عن المقاومة، وسلَّمت المدينة للصليبيين الذين دخلوها في شهر (ذي الحجة/ تموز) وأضحى برتراند أميراً لطرابلس، فأكَّد تبعيته لمملكة بيت المقدس[١].

والحقيقة أن الصليبيين لم يتمكَّنوا من تأسيس إماراتهم الرئيسية الأربع في بلاد الشام إلا لتفرُّق المسلمين وضعفهم، رغم قلة موارد تلك الإمارات من الرجال والمال. ويعترف المؤرخ فيشر بأن جرأة المحاولة لتأسيس دول صليبية على نمط أوروبي

(١) انظر: فيما يتعلق بتأسيس إمارة طرابلس. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٣٠ ـ ٥٣٣.

تحت سماء شرقية لافحة، لم تلقَ ما لقيت من التوفيق إلا بسبب ما تردَّت فيه القوى الإسلامية وقتذاك من شقاق[1].

لم يركن الصليبيون إلى الهدوء، بعد تأسيس إماراتهم في الشرق الإسلامي، فعمدوا إلى توسيع الأراضي التي استولوا عليها، على حساب المسلمين، كما شهد وضعهم الداخلي نزاعات حادة كانت دامية أحياناً. واختلطت التحالفات بين القوى الصليبية والإسلامية في بلاد الشام، وهذا ما سنبحثه في سياق دراستنا.

الأمبراطورية البيزنطية

كانت بيزنطية أكثر الدول النصرانية اهتماماً بأمور بلاد الشام، إلا أنها دخلت في فترة ركود أخرى في القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي، بعد الصحوة التي مرَّت بها في القرن السابق، مما أتاح للسلاجقة فرصة طيبة للتوسع على حساب البيزنطيين في آسيا الصغرى توسعاً آمناً ومطَّرداً، فتوغلوا في ربوعها، كما شملت غاراتهم جميع أنحاء أرمينية.

واستعاد المسلمون في عام (٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م) إمارة أنطاكية من أيدي البيزنطيين، فقطعوا بذلك الاتصال بين الأمبراطورية والشرق الإسلامي. لكن الأمبراطور ألكسيوس كومنين، الذي اشتهر بحسن السياسة، أعاد بناء الأمبراطورية على أسس راسخة، واستغلَّ مرور الصليبيين في أراضيه، فتعاون معهم على أمل استعادة أنطاكية، والسيطرة على الطرق المؤدية إليها عبر آسيا الصغرى إلا أنه فشل في تحقيق هدفه. ولما توغل الصليبيون باتجاه الجنوب إلى فلسطين توقف تعاونه الفعلي معهم.

والجدير بالذكر أن السياسة البيزنطية التقليدية قامت، طوال القرن السابق، على محالفة الفاطميين لمناهضة العباسيين والسلاجقة، باستثناء ما حدث في عهد الحاكم بأمر الله، ولم يكن لدى الأمبراطور ألكسيوس من الدواعي ما يجعله يظن أن حكم الصليبيين سوف يكون أكثر قبولاً عند النصارى الشرقيين، لذلك امتنع عن المضي مع الجيش الصليبي الذي كان يزحف على بيت المقدس، لكنه، في الوقت نفسه، لم يستطع أن يظل بعيداً عن الأحداث التي ستقرر مصير المدينة المقدسة، لذلك

(١) فيشر، هربرت: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ص ١٨٥.

اتخذ الخطوات الضرورية التي تحفظ له حقوقه، فأبدى استعداده بأن يكشف للصليبيين عن نواياه الطيبة، غير أن مساعدته الفعلية سوف لا تتعدى التعاون في فتح الطرق التي تجتاز آسيا الصغرى. أما موقفه من النورمانديين في أنطاكية، فإنه ينم عن الكراهية الشديدة لهم، ولم يُظهر شيئاً من الحرص على استرداد الرها. والراجح أنه أدرك ما لهذه الإمارة من أهمية بوصفها معقلاً يواجه العالم الإسلامي.

الفَصْلُ الثَّاني

الجذور التاريخية

الأتابكة ـ أصلهم

كانت الإدارة البيروقراطية للخلافة العباسية، والدويلات التي قامت في كنفها قد أفسحت المجال تدريجياً أمام قيام نظام عسكري للحكم، وذلك خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. فقد جرى اختيار حكام المدن والأقاليم من بين القادة العسكريين أو الأمراء الذين كانوا، في معظم الأحيان، من الأتراك. ولم يتمتع هؤلاء الحكام بسيطرة غير مقيَّدة تقريباً على إقطاعاتهم فحسب، بل أقاموا لأنفسهم جيوشاً دائمة. وتعزَّز هذا الإغراء بالتأكيد على استقلالهم من خلال الطريقة التي بها اعتاد الخلفاء على تجريدهم من ممتلكاتهم، وحتى إعدامهم لمجرد الشبهة. فمجيء حاكم ضعيف لتولي الحكم أو نشوب خلاف بصدد الولاية كان يُعدُّ إيذاناً بتقطيع مملكة إلى عدد من الإمارات الصغيرة حيث ينهمك الحكام بالنزاعات حتى يستتب النظام للأقوى[١].

ولما برز السلاجقة على المسرح السياسي لم يُدخلوا أي تغيير مادي على هذا النظام. فقد تألف تنظيمهم السياسي والإداري من تجمُّع مفكَّك من الممالك تحت سيطرة أفراد مختلفين من البيت السلجوقي، يتخذ كل واحد منهم لقب ملك ويمنح ولاءه لرأس الأسرة في فارس الذي يتخذ لقب سلطان.

نجح هذا النظام في المحافظة على وحدة السلاجقة في ظل السلاطين الثلاثة الأوائل: طغرلبك، وألب أرسلان، وملكشاه الأول، لكن الضعف القديم أخذ

(١) جب، هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص ٥٢ ـ ٥٣.

يبرز من جديد بعد وفاة ملكشاه الأول في عام (٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م) وأدَّت أطماع القادة والأمراء إلى قيام حالة من الاقتتال الدائم في أنحاء مختلفة من البلاد، وبخاصة في بلاد الشام[١].

وثمة عامل آخر أسهم في نشوء الإمارات التركية المستقلة، أو ما يُعرف بالدول الأتابكية، كمؤسسة مختصَّة بالسلاجقة. ففي النظرية السلجوقية للإدارة توزعت الأقاليم على أعضاء من أفراد الأسرة الحاكمة على شكل إقطاعات، وأضحى هذا النظام الإقطاعي عنصراً هاماً من نظمهم السياسية والاجتماعية، ثم جرى إلحاق قائد تركي بكل واحد من هؤلاء الأمراء، كان يحمل لقب أتابك، ليعاونه في إدارة شؤون الحكم، ويتحمل مسؤولية تربيته العسكرية. وبما أن الأتابك كان على علاقة أبوية بالسلطان السلجوقي، فقد تمتَّع بسلطة تفوق سلطة القادة العاديين إلى حد كبير.

وبفعل صغر سن الأمير، وافتقاره إلى الخبرة والتجربة في الشؤون العامة، قفز الأتابكة إلى الواجهة السياسية، وأضحوا أصحاب النفوذ الفعلي في إدارة الولايات التي يُعهد إلى الأمراء بحكمها أو التي يُعهد إليهم بحكمها من قبل السلطان.

كان طبيعياً أن يحل الأتابكة محل الأمراء السلاجقة في الحكم بعد تصدُّع الدولة السلجوقية على أثر وفاة ملكشاه الأول، وفي ظل انقسام الأمراء السلاجقة على أنفسهم؛ ويؤسسوا إمارات وراثية. غير أن هذا الأمر لم ينطوِ على قطيعة محددة مع السلاطين السلاجقة، بل على العكس من ذلك، فقد استمروا في الحفاظ على موقف من الخضوع تجاه السلاطين، وتقبَّل هؤلاء من جانبهم هذا التطور السياسي دونما أي احتجاج[٢].

ومن أشهر الأتابكيات التي لها علاقة بدراستنا أتابكية أرمينية، التي أسسها سقمان القطبي مملوك قطب الدين إسماعيل الحاكم السلجوقي لمدينة مَرَنْد[٣]، وذلك في عام (٤٩٣ هـ/ ١١٠٠ م)، وأتابكية دمشق التي أسسها طغتكين مملوك تُتُش السلجوقي حاكم الشام في عام (٤٩٧ هـ/ ١١٠٣ م)، وأتابكية الموصل التي أسسها عماد الدين زنكي في عام (٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م)، وهي موضوع هذه الدراسة.

---

(١) جب: ص ٥٣.
(٢) المرجع نفسه: ص ٥٤.
(٣) مرند: من مشاهير مدن أذربيجان بينها وبين تبريز يومان. الحموي: جـ ٥ ص ١١٠.

قسيم الدولة آق سُنْقُر: ٤٧٩ ـ ٤٨٧ هـ/ ١٠٨٧ ـ ١٠٩٤ م

مكانته عند السلاجقة

ينتمي أبو سعيد آق سُنْقُر، والد عماد الدين زنكي إلى قبيلة ساب يو التركمانية، لم تحدد المصادر موطنها، كما لم تذكر طبيعة علاقتها بالسلاجقة، لكن يبدو أنها تمتَّعت بمكانة رفيعة بين القبائل السلجوقية[١].

كان آق سُنْقُر من أصحاب السلطان ملكشاه الأول وأترابه[٢]، وقيل إنه كان لصيقه، ومن أخصِّ أصدقائه[٣]، فقد نشأ الرجلان وترعرعا معاً، ولما تسلَّم ملكشاه الحكم عيَّنه حاجباً له، وحظي عنده فكان من المقرَّبين، وأنس إليه، ووثق به حتى أفضى إليه بأسراره، واعتمد عليه في مهماته، فكان أبرز قادته[٤].

ومن أقوى الدلائل على الحظوة التي حازها آق سُنْقُر عند السلطان، منحه لقب «قسيم الدولة»، وهذا يعني الشريك. وكانت الألقاب في تلك الآونة مصونة، لا تُعطى إلا لمستحقيها[٥]. ويبدو أنه قاسم ملكشاه شؤون الحكم والإدارة. بالإضافة إلى ذلك، فإن آق سُنْقُر كان يقف إلى يمين سدة السلطنة ولا يتقدمه أحد، وصار ذلك أيضاً لعقبه من بعده[٦].

والراجح أن منح آق سُنْقُر هذا اللقب يعود إلى ثلاثة أسباب:

الأول: محبة السلطان ملكشاه له ودعمه إياه.

الثاني: انتسابه إلى قبيلة تركية لها مكانتها وأهميتها بين القبائل السلجوقية الحاكمة، وأنه كان ذا مكانة رفيعة فيها.

الثالث: أنه أدَّى خدمات جليلة لملكشاه، استحقت منحه هذا اللقب[٧].

وصلت مكانة آق سُنْقُر عند السلطان ملكشاه إلى الحد الذي أثار بعض كبار

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب: جـ ٨ ص ٣٨٤٤.
(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ص ٤.
(٣) ابن العديم: جـ ٤ ص ١٩٥٤.
(٤) ابن الأثير: ص ٤.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) ضامن، محمد: إمارة حلب، ص ١٣٦.

رجال الدولة، أمثال الوزير نظام الملك، فعمل على إبعاده عن البلاط السلجوقي، وأشار على السلطان أن يوليه إمارة حلب، وأن يضيف إليه حكم غيرها من بلاد الشام[١].

وقد هدف نظام الملك من هذه المشورة إلى:

- كسب ثقة السلطان ومحبة آق سُنْقُر الذي سيصبح حاكماً على إمارة هامة.
- إبعاده عن مرافقة السلطان حتى لا ينافسه.
- عدم المساس بثقة السلطان به[٢].

وتدل الأحداث التي كانت تمر بها بلاد الشام آنذاك، أن ملكشاه وجد في نصيحة وزيره فرصة طيبة لتعيين شخص قادر على فرض الحكم السلجوقي في هذه المنطقة، ولعله أراد، كذلك، أن يتخذ من آق سُنْقُر حاجزاً بينه وبين أخيه تُتُش الطامع في بلاد الشام والسلطنة معاً.

وصوله إلى الحكم

شهد شمالي بلاد الشام، منذ عام (٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م)، صراعاً عسكرياً بين ثلاثة قادة هم: مسلم بن قريش العقيلي صاحب الموصل وحلب، وتُتُش صاحب دمشق، الطامع في بسط سيطرته على كامل المنطقة، وسليمان بن قُتُلْمُش سلطان سلاجقة الروم الطامع في توسيع سلطنته باتجاه بلاد الشام.

وحدث أن فتح سليمان مدينة أنطاكية[٣]، وضمَّ الثغور الشامية[٤]، في محاولة للسيطرة على حلب، مما شكَّل تهديداً مباشراً لوضع مسلم بن قريش وحكمه فيها، فنهض لمقاومته، ودخل الطرفان نتيجة ذلك في صراع مكشوف، والتقت قواتهما في عام (٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م) في طرف من أعمال أنطاكية على بئر راحل قرب نهر عفرين[٥] في معركة حامية انتصرت فيها قوات سليمان، وُقتل مسلم في المعركة[٦].

---

(١) ابن الأثير: ص ٤.

(٢) ضامن: ص ١٣٦.

(٣) انظر فيما يتعلق بفتح أنطاكية: ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ ١ ص ٣١٥.

(٤) الثغر: كل موضع قريب من أرض العدو وهو مواضع كثيرة منها ثغر الشام، وجمعه ثغور، أهم معاقله بياس المصيصة، عين زربة، أذنة، طرسوس، أنطاكية، وبغراس. الحموي: جـ ٢ ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٥) عفرين: اسم نهر في نواحي المصيصة يخرج من أعمال نواحي حلب. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ١٣٢.

(٦) ابن العديم: زبدة، جـ ١ ص ٣١٧.

اتجه سليمان بعد انتصاره إلى حلب، وهو يحمل جثة مسلم، فطرحها أمام سور المدينة، وهو يأمل بأن تستسلم له، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. إذ أصرَّ أحداث حلب، بقيادة الشريف حسن بن هبة الله الحتيتي، الذي تسلم زمام الأمور، وغدا الحاكم الفعلي للمدينة؛ على المقاومة، وقام في غضون ذلك، بمراسلة السلطان ملكشاه، فأعلمه بمصرع مسلم بن قريش، ودعاه للقدوم إلى حلب ليتسلمها[1].

استجاب السلطان لطلب الحتيتي، وخرج على رأس قواته باتجاه المدينة، لكن تحركه كان بطيئاً، مما أعطى الفرصة لسليمان للتضييق على حلب، فاضطر الحتيتي، تحت ضغط الأحداث، إلى مراسلة تُتُش صاحب دمشق، يستدعيه ويعده بتسليم المدينة[2].

وإذ أظهر تُتُش مطامعه وحسده، اغتبط بطلب الحلبيين، وكان يأمل بالاستيلاء على أنطاكية بعد حلب، لذلك أسرع على رأس جيش لمساعدة المدينة المحاصَرة، وكان ذلك في عام (٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م).

ولما علم سليمان بتقدم تُتُش، فكَّ الحصار عن حلب وسار نحو الدمشقيين وهو على غير تعبئة[3]. والتقى الجيشان السلجوقيان في مكان يُعرف بـ «عين سليم» بين أنطاكية وحلب، ودارت بينهما رحى معركة طاحنة، أسفرت عن خسارة سليمان ومقتله[4]، واستولى تُتُش على معسكره وملك حلب[5].

ووصلت في غضون ذلك، طلائع قوات ملكشاه إلى أطراف حلب، فاضطر تُتُش إلى الرحيل عنها متجنباً الاصطدام بأخيه أو حتى الاجتماع به، وانسحب عائداً بقواته إلى دمشق، ثم وصل السلطان إلى حلب فتسلمها كما تسلَّم القلعة[6].

وأمضى ملكشاه أياماً في حلب، رتَّب خلالها أُمور منطقة شمالي الشام وآسيا

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ١٤٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) أرسل تُتُش بعد المعركة يستدعي سليمان الذي انسحب إلى تل مجاور، للمثول أمامه، لكن هذا الأخير رفض دعوته بعدما اشتم منها رائحة الخطر على حياته، ولما أصرَّ أركان حربه على تلبية الدعوة، قتل نفسه.

(٥) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٦) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٤٠ ـ ١٤١.

الصغرى، فمنح حلب ومناطقها وحماة[1] ومنبج[2] واللاذقية وما يتبعها إلى قسيم الدولة آق سُنْقُر، وأقطع أنطاكية للأمير ياغي سيان، ومنح الرها لبوزان، وهو أحد ضباطه، وعيَّن الأمير برسق حاكماً على أملاك السلاجقة في آسيا الصغرى[3]، وكل ذلك التوزيع في المناصب حدث في(شهر شوال عام ٤٧٩ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٠٨٧ م).

حلب تحت حكم آق سُنْقُر

سياسته الداخلية

بدأت، مع تولي آق سُنْقُر الحكم في حلب، مرحلة جديدة من حكم السلاجقة المباشر لهذه المدينة، وانتهى حكم القبائل العربية لهذه الإمارة، وأُزيحت عن مسرح الأحداث في شمالي بلاد الشام[4].

ويُعَدُّ آق سُنْقُر أول حاكم سلجوقي لإمارة حلب بعدما عانت سنوات طويلة من التمزق والحروب بين القبائل العربية فيما بينها، ثم بينها وبين التركمان القادمين من الشرق. ودام حكمه ثماني سنوات تقريباً، كانت مرحلة هامة في تاريخ الإمارة والمنطقة بفعل أنها أحدثت تغييرات أساسية شملت كل جوانب الحياة[5].

لقد تسلم آق سُنْقُر الحكم في ظل حالة من الفوضى التامة بفعل عاملين داخلي وخارجي؛ يتمثل الأول بصراع الحكام، وتدبيرهم المؤامرات، واستعانتهم بالقوى

---

(١) حماة: مدينة عظيمة كثيرة الخيرات يحيط بها سوق محكم، ويجري أمامها نهر العاصي ويسقي بساتينها. الحموي: جـ ٢ ص ٣٠٠.

(٢) منبج: مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٢٠٦.

(٣) ابن القلانسي: ص ١٩٦. ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ٧.

(٤) حكمت مناطق الجزيرة وشمالي بلاد الشام منذ النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، بعض القبائل العربية التي أسست لها دولاً وإمارات مستقلة، لعل أهمها:
- الدولة العربية المستقلة في الموصل والتي عرفت بالدولة العقيلية، نسبة إلى بني عقيل.
- الدويلات العربية لبني نمير وقشير في حرَّان وقلعة جعبر.
- الدولة المرداسية المستقلة في حلب والأجزاء الشمالية من بلاد الشام مع أقسام من الجزيرة، أسسها صالح بن مرداس.
- دولة بني منقذ في شيزر وكفرطاب.

(٥) زكار، سهيل: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٠٩.

الكبرى في المنطقة كالخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في مصر، بالإضافة إلى الدولة السلجوقية الجديدة الطامعة في التوسع، ويتمثل الثاني بالصراعات السياسية والعسكرية بين ثلاث قوى في المنطقة هي:

- قوة القبائل العربية البدوية وبخاصة الكلابيين العقيليين والمرداسيين لاستعادة نفوذها المسلوب.
- قوة التركمان المدمرة التي بدأت تغير على المنطقة.
- قوة الدولة البيزنطية التي كانت تستغل الصراعات الداخلية لاستعادة نفوذها المفقود.

شهدت حلب نتيجة ذلك أوضاعاً من عدم الاستقرار السياسي انعكس سلباً على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية فيها.

في خضم هذه الصراعات، تغافل الحكام عن الاهتمام بالشؤون الداخلية للسكان، كما أهملوا تطوير الحياه الاقتصادية؛ مما أدَّى إلى تراجع واردات البلاد. وعمدوا إلى استنزاف السكان بفرض ضرائب أخرى وأتاوات باهظة، كلما أعوزهم المال، حتى أثقلوا كاهلهم، فتذمروا من سوء الأوضاع، وكثر انتشار اللصوص وقطاع الطرق، مما أدَّى إلى انعدام الأمن على الطرق، فتعطَّلت الحركة التجارية، وقلَّت السلع في الأسواق، وتراجعت موارد الزراعة لعدم تمكُّن الفلاحين من القيام بالحرث والزرع وجني المحصول، فبرزت، في هذه الظروف الصعبة، منظمة الأحداث التي أخذت على عاتقها رعاية مصالح أفرادها ومقاومة التعديات الخارجية[١].

وضع آق سُنْقُر نصب عينيه هدفاً راح يعمل على تحقيقه، تمثَّل في إعادة الأمور إلى نصابها، فنفذ عميقاً في كل جانب من جوانب الحياة العامة.

أقام الحدود الشرعية، وطارد اللصوص وقطاع الطرق وقضى عليهم، وتخلَّص من المتطرفين في الفساد، كما قضى على الفوضى التي كانت متفشية في البلاد، وعامل أهل حلب بالحسنى حتى «توارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر»[٢].

---

(١) مصطفى، شاكر: دخول الترك الغز إلى الشام، ص ٣٠٧، ٣١٤ ـ ٣١٥. المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام الأول. عمان ١٩٧٥ م.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ١٥٢.

لم يكتفِ آق سُنْقُر بحصر تدابيره الإصلاحية في حلب بل كتب إلى عمال الأطراف التي خضعت لحكمه أن يحذوا حذوه، وتابع أعمالهم بنفسه.

وأقرَّ قسيم الدولة مبدأ المسؤولية الجماعية، فإذا تعرض أحد التجار للسرقة في قرية ما، أو إذا هوجمت قافلة أو نُهبت، فإن أهل القرية التي جرت الحادثة فيها يكونون مسؤولين جماعياً عن دفع قيمة الضرر اللاحق بهؤلاء[1].

نتيجة لهذا المبدأ، هبَّ سكان القرى لمساعدة الحكام في فرض الأمن. فإذا وصل تاجر إلى قرية أو مدينة، وضع أمتعته وبضاعته إلى جانبه ونام وهو مطمئن، بحراسة أهلها، وهكذا شارك السكان بتحمل المسؤولية في حفظ الأمن، حتى أمنت الطرق، وتحدث التجار والمسافرون بحسن تدابيره وسيرته[2].

كان قسيم الدولة واثقاً من نفسه، مطمئناً إلى أن تدابيره الأمنية سوف تحقق هدفه، لذلك نادى في أنحاء إمارة حلب بأن لا يرفع أحد متاعه ولا يحفظه في طريق[3]. ونتيجة لاستتباب الأمن في كافة أرجاء إمارة حلب، نشطت التجارة، وامتلأت الأسواق بالبضائع الواردة إليها من كل الجهات، واستقر الوضع الاقتصادي، وتداعى الناس إليها للكسب فيها والعيش برغد[4].

تصرف آق سُنْقُر كحاكم مطلق له مبادئه الخاصة، ومفاهيمه الذاتية، ولا غرابة في هذا، متأثراً بنشأته في أحضان السلاجقة في فارس حيث تكوَّنت مفاهيمه الخاصة بالحكم والسياسة[5].

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) خرج آق سنقر يوماً يتصيد، فمر بقرية من قرى حلب، فوجد أحد الفلاحين قد فرغ من عمل الفدّان، وطرح عن البقر النير، ورفعه على دابة ليحمله إلى القرية، فقال له: ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع أحد متاعاً ولا شيئاً من موضعه؟ فقال له: حفظ الله قسيم الدولة وقد أمنا في أيامه، وما نرفع هذه الآلة خوفاً عليها أن تسرق، لكن هنا دابة يقال لها ابن آوى تأتي إلى هذا النير فتأكل الجلد الذي عليه، فنحن نحفظه منها ونرفعه لذلك. فعندما عاد قسيم الدولة من الصيد، أمر الصيادين فتتبعوا بنات آوى في إمارة حلب. فصادوها حتى أفنوها.

راجع ابن العديم: زبدة، جـ ١ ص ٣٢٦.

(٤) سبط ابن الجوزي مرآة الزمان: جـ ٨ ص ٢٤٤.

(٥) زكار: مدخل ص ٢١١.

والواقع أن تقاليد البلاط السلجوقي قامت على مبدأ حكم الفرد، وهي نبعت من أصول تركية تأثرت تأثراً شديداً بتقاليد فارس الإسلامية[١]. وجاء تطبيق هذه المبادىء في شمالي بلاد الشام، لأول مرة، بعد زوال الحكم العربي، بتجربة جديدة وخطيرة على أُناس اعتادوا منذ قرون عديدة على أساليب البدو العرب في الحكم، وعلى مبادئهم في السياسة والإدارة[٢].

وقد اعترف المؤرخون بحسن سياسة آق سُنْقُر الداخلية، والأمنية، وأجمعوا على مدحه، فقال عنه ابن القلانسي: «. . . وأحسن فيها السيرة، وبسط العدل في أهليها، وحمى السابلة للمترددين فيها، وأقام الهيبة، وأنصف الرعية، وتتبع المفسدين فأبادهم، وقصد أهل الشرفاء بعدهم، وحصل له بذلك من الصيت، وحسن الذكر، وتضاعف الثناء والشكر. . . فعمرت السابلة للمترددين من السفار، وزاد ارتفاع البلد بالواردين بالبضائع من جميع الجهات والأقطار»[٣].

وأورد سبط ابن الجوزي مثل هذا المدح بحق قسيم الدولة[٤]. ونقل ابن العديم آراء كثير من المؤرخين من الذين فقدت كتبهم، في سياسة آق سُنْقُر[٥]. وذكر ابن الأثير حين مدح قسيم الدولة: «وكان قسيم الدولة، أحسن الأمراء سياسة لرعيته، وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين رخص عام وعدل شامل، وأمن واسع»[٦]. وقال عنه ابن كثير: «. . . بأنه كان من أحسن الملوك سيرة، وأجودهم سريرة، وكانت الرعية في أمن وعدل ورخص»[٧].

أما من حيث إنجازاته العمرانية، فقد جدَّد عمارة منارة حلب بالجامع عام (٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ م) واسمه منقوش عليها إلى اليوم، وأمر بتجديد مشهد الدكة[٨].

---

(١) زكار: ص ٢١١.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ١٩٦.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٢٤٤.

(٥) انظر بغية الطلب: ص ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢.

(٦) الكامل جـ ٨ ص ١٧١.

(٧) البداية والنهاية: جـ ١٢ ص ١٤٧.

(٨) ابن القلانسي: ص ١٩٧. ابن العديم: زبدة، جـ ١ ص ٣٢٧. والدكة موضع بظاهر دمشق في الغوطة. الحموي: جـ ٢ ص ٤٥٩.

سياسته الخارجية

كانت بلاد الشام، عبر تاريخها، عرضة للنزاعات من أجل السيطرة بين الشمال والجنوب. وقد مثَّلت دمشق، منذ القرن السابع الميلادي، الجنوب، في حين مثَّلت حلب الشمال. وكانت المفارقات بين الشمال والجنوب في بعض الأحيان اجتماعية واقتصادية، لكن غالباً ما كانت سياسية، حيث حاول حكام دمشق من جهتهم، وحكام حلب أيضاً مدَّ سيطرتهم كلياً على بلاد الشام، وتبعاً لهذه القاعدة حدث صراع بين تُتُش وآق سُنْقُر[1].

ورأى قسيم الدولة، بعد أن نظَّم أوضاع إمارته الداخلية، وحقَّق الأمن والاستقرار، أن يقف في وجه تُتُش الطامع في بلاده، وأن يتوسع على حساب جيرانه. وبدا له قبل الإقدام على تنفيذ هذا المشروع التوسعي أن ينشيء جيشاً منظماً يعتمد عليه في حروبه. ويُذكر في هذا الصدد أن نواة هذا الجيش تمثَّلت بالقوة التي تركها ملكشاه معه عندما رحل عن حلب وتعدادها أربعة آلاف مقاتل، ثم تعدَّت الستة آلاف[2].

والواقع أن آق سُنْقُر اعتمد على نوعين من القوات العسكرية:

الأول: القوات النظامية التي كان يزداد عديدها باستمرار، وهي تنتمي إلى العنصر التركي.

الثاني: القوات الاحتياطية التي كان يجمعها حين يحتاج إليها، وكانت خليطاً من العرب والتركمان وغيرهم، وقد وصل عديدها في المعركة التي خاضها ضد تُتُش إلى عشرين ألفاً.

وكان تُتُش قد جهد منذ أن أصبح حاكماً على دمشق في عام (٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧م) في العمل على:

ـ بسط سلطانه على كامل بلاد الشام، وبخاصة المدن الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للدولة الفاطمية، أو تُحكم من قِبلها مباشرة.

ـ إنشاء دولة أخرى للسلاجقة في هذه البلاد يتولى حكمها بمعزل عن

(١) زكار: مدخل ص ٢١٥.
(٢) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٢٥.

السلاجقة العظام في خراسان، إلا أنه فشل في تحقيق الهدف الأول، ونجح في تحقيق الثاني إنما بعد وفاة ملكشاه الأول.

على أن الأوضاع التي آلت إليها البلاد لم تُرضِ تُتُش، فلجأ إلى السياسة، وطلب من أخيه، في عام (٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م)، تزويده بقوات ومعدات تمكّنه من طرد الفاطميين من بلاد الشام، وإخضاعها كلها لسلطان السلاجقة، بما فيها المدن الساحلية.

والواقع أن ملكشاه الأول كان يخشى تمدّداً فاطمياً باتجاه الأملاك السلجوقية في بلاد الشام والعراق، لذلك لبَّى طلب أخيه، وأمر كل من قسيم الدولة صاحب حلب، وبوزان صاحب الرها، بأن يقدِّما له كل ما يحتاجه في مهمته من عساكر وتجهيزات[١].

ويبدو أن الحاكمين لم ينفِّذا الأوامر السلطانية. فلم يذهب آق سُنْقُر بعيداً في مساعدة تُتُش وهو يعلم مدى خطورة أطماعه، وكذلك فعل بوزان. ومن جهته، فإن تُتُش لم يقم بأي عمل عسكري جدِّي ضد مدن الساحل[٢].

لكن الأوضاع تبدَّلت في عام (٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ م)، حين استولى الفاطميون على عكا وصور وصيدا وجبيل، كما أنه وصل إلى المعسكر الفاطمي، في غضون ذلك، خلف بن ملاعب صاحب حمص وأفامية[٣]، فاجتمع بالقائد الفاطمي، واعترف له رسمياً بسلطان الخليفة الفاطمي وسيادته عليه[٤]؛ مما شكَّل تهديداً مباشراً لسلطان السلاجقة في بلاد الشام.

ونتيجة لما اتفق عليه الطرفان من بسط السيادة الفاطمية على كامل بلاد الشام، قام خلف بن ملاعب بالاعتداء على أراضٍ تابعة لتُتُش، مما دفعه إلى الاستنجاد مجدداً بأخيه. كما أن الحكام السلاجقة في هذه البلاد شكوا إلى السلطان اعتداءات أمير حمص، وكذلك فعل السكان، بفعل أنه اتصف بالظلم.

ونظراً للأوضاع الخطيرة التي باتت عليها بلاد الشام، أمر السلطان أخاه تُتُش

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٦٠.
(٢) زكار: ص ٢١٦.
(٣) أفامية: مدينة حصينة وكورة من كور حمص. الحموي: جـ ١ ص ٢٢٧.
(٤) زكار: ص ٢١٦.

بتأديب ابن ملاعب، وطرد الفاطميين من البلاد، وضمِّها إلى الأملاك السلجوقية. وطلب، في الوقت نفسه، من ولاته فيها بالتحرك السريع لمساعدته[1].

انزعج كلٌّ من آق سُنْقُر وبوزان من قيادة تُتُش لهذه الحملة، وأدركا أنه سوف ينفرد بحكم ما سيستولي عليه، فخرجا مكرهين، غير مقتنعين بمساعدته[2]، ويبدو أن هذا الإحجام، وعدم الاندفاع الجدّي، سبّبا نجاحاً جزئياً لخطط تُتُش، كما سنرى.

وصلت القوات المتحالفة إلى حمص في عام (٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م) وحاصرتها، وضيَّقت عليها حتى استسلمت. وقُبض على ابن ملاعب، وأُرسل إلى السلطان ملكشاه الأول[3]. وانكشفت في غضون ذلك، أطماع الأطراف المتحالفة، فقد طلب كل من الأمراء حمصَ لنفسه، وكتب إلى السلطان بذلك، فأنعم بها على أخيه[4].

ثم حدث أن واصلت القوات المتحالفة مهمتها، فزحفت باتجاه عرقة[5] التي كانت تحت سيطرة بني عمَّار حكام طرابلس، واستولت عليها، ثم توجَّهت إلى طرابلس نفسها وحاصرتها في عام (٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م)[6].

ووجد جلال الملك بن عمَّار نفسه في موقف حرج لا يمكِّنه من التصدي لقوة المتحالفين، فعمد إلى السياسة لتفريق صفوفهم، ودخل، من أجل ذلك، في مفاوضات مع آق سُنْقُر، الذي أزعجه منح حمص لتُتُش، وخشي من ضمِّ طرابلس إليه. وأبرز ابن عمار وثائق موقَّعة من ملكشاه الأول يعترف فيها بسلطانه على طرابلس. والراجح أنه كان على بيِّنة من النزاع بين آق سُنْقُر وتُتُش، فاستغله لصالحه، وتمكَّن من إقناعه، بما بذله من مال، إلى إحداث شقاق بين الرجلين، تطور إلى مشادة وخصام، انسحب آق سُنْقُر على أثره، عائداً إلى حلب[7].

وأدرك آق سُنْقُر أن سياسته العدائية تجاه تُتُش تفرض عليه منعه من ضمِّ أي

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٦٠.
(٢) زكار: ص ٢١٦. ضامن: ص ١٤٤.
(٣) ابن القلانسي: ص ١٩٨.
(٤) ابن العديم: بغية الطلب، جـ ٧ ص ٣٣٥٤.
(٥) عرقة: بلدة تقع شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ. الحموي: جـ ٤ ص ١٠٩.
(٦) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ١٦٠.
(٧) المصدر نفسه ص ١٦٠ ـ ١٦١.

مدينة إلى أملاكه، لذلك جهد، أثناء عودته إلى حلب، في ضمِّ المواقع التابعة لخلف ابن ملاعب، ومنها أفامية التي سلَّمها إلى ابن منقذ صاحب شيزر[١]. ويبدو أنه هدف إلى:

- إقامة منطقة حاجزة بين أملاكه في شمالي الشام، وأملاك تُتُش في الجنوب، واعتقد أن الإمارة المنقذية، التي قامت بين أملاكهما، بإمكانها أن تقوم بهذا الدور.
- حرمان تُتُش من ضمِّ إمارة بني منقذ، وبالتالي إبعاده عن منطقة حلب.
- إيجاد حليف قوي يعتمد عليه في صراعه مع تُتُش.
- إبعاد بني منقذ عن التحالف مع تُتُش[٢]!.

والواقع أن ملكشاه الأول وقف على هذا الصراع على النفوذ في بلاد الشام، فعمد إلى وضع حدٍّ له، فاستدعى، في (شهر رمضان عام ٤٨٤ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١٠٩١ م)، جميع ولاته في بلاد الشام والجزيرة بالإضافة إلى أخيه تُتُش، ليبحث معهم مشاكل وقضايا مناطقهم، ولمشاركته له بذكرى المولد[٣].

استغل تُتُش وجوده عند أخيه وعرض خلافه مع آق سُنْقُر، واتهمه بعدم الإخلاص للقضية السلجوقية. وقام آق سُنْقُر يدافع عن نفسه متهماً تُتُش بالكذب، واستطاع إقناع السلطان بوجهة نظره، فرفض اتهام أخيه له كما رفض مساعيه للتخلص منه[٤].

ظلَّت العلاقة الطيبة، قائمة بين آق سُنْقُر وملكشاه الأول، طيلة حياة هذا الأخير. ولما توفي في (شهر شوال عام ٤٨٥ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١٠٩٢م)[٥]، طلب تُتُش السلطنة لنفسه في ظل صراع على السلطة بين أولاد السلطان المتوفى، وتجهَّز للزحف شرقاً لإخضاع البلاد لسلطانه، وكاتب كلاً من آق سُنْقُر وبوزان يطلب مساعدتهما[٦].

كان من المستحيل على آق سُنْقُر أن يظل بعيداً عن الأحداث السياسية وبخاصة أن

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب جـ ٤ ص ١٩٦١.
(٢) ضامن: ص ١٤٥.
(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٥٩.
(٤) ابن العديم: بغية الطلب جـ ٤ ص ١٩٥٦.
(٥) ابن القلانسي: ص ٢٠٠.
(٦) المصدر نفسه: ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

الأوضاع في خراسان كانت لا تزال غير واضحة. وأدرك، في الوقت نفسه، مدى خطورة تحركات تُتُش على وضعه في حلب، وأنه أعجز من أن يقف في طريقه، فاضطر تحت ضغط الأحداث إلى إجابة طلبه، وقَبِلَ مكرهاً الاعتراف بسلطانه، فخطب له في بلاده، وأبدى استعداده لوضع نفسه وقواته تحت تصرفه(١).

وفي (شهر محرم عام ٤٨٦ هـ/ شهر شباط عام ١٠٩٣ م)، مرَّ تُتُش بأراضي حلب في طريقه إلى خراسان، فانضم إليه آق سُنْقُر وبوزان وياغي سيان صاحب أنطاكية. وضمَّ أثناء زحفه مدن الجزيرة مثل الرحبة(٢) ونصيبين، وأخضع الموصل(٣). وقد أدَّى آق سُنْقُر دوراً بارزاً في المعارك التي خاضها تُتُش من أجل ذلك، ثم مَلَك آمد(٤) وتسلّم ميافارقين(٥) من حكام بني مروان الأكراد(٦).

استقرت في هذه الأثناء أوضاع السلطنة السلجوقية في خراسان، وانتهى الصراع على السلطة لصالح بركياروق(٧) الابن الأكبر لملكشاه الأول. ولما علم تُتُش بذلك، قرر الإسراع في زحفه باتجاه خراسان لمحاربة ابن أخيه. وعندما وصل إلى مدينة تبريز(٨)، حدثت المفاجأة، إذ تخلَّى عنه آق سُنْقُر وبوزان وانضما إلى بركياروق عند مدينة الري(٩)، فقوي موقفه بهما، وكان هذا الانسحاب محطماً لخطة، تُتُش، ويبدو أن هناك عدة أسباب دفعت آق سُنْقُر إلى هذا التصرف لعل أهمها:

ـ كان تُتُش منافساً خطيراً لآق سُنْقُر، وأن تأييده له حتَّمه واقع الظروف السياسية التي كان يمر بها.

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١٢.

(٢) وهي رحبة مالك بن طوق، وتقع بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات أسفل قرقيسياء أحدثها مالك بن طوق بن عتّاب التغلبي في خلافة المأمون، فنسبت إليه. الحموي جـ ٣ ص ٣٤.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢٠١. ابن الأثير: ص ١٢.

(٤) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأشهرها. الحموي: جـ ١ ص ٥٦.

(٥) ميافارقين: مدينة مشهورة في ديار بكر. المصدر نفسه جـ ٥ ص ٢٣٥.

(٦) ابن القلانسي: ص ٢٠٣. ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٢. الكامل جـ ٨ ص ١٦٦ ـ ١٦٧. أسس بنو مروان الأكراد دولة كردية في ميافارقين عرفت باسم الدولة المروانية.

(٧) الحسيني، صدر الدين بن علي: أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٨) تبريز: أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة في وسطها عدة أنهار جارية. الحموي: جـ ٢ ص ١٣.

(٩) ابن القلانسي: ص ٢٠٣.

ـ رأى آق سُنْقُر أن تبقى السلطنة محصورة في أبناء سيده ملكشاه الأول وفاءً منه له.

ـ شعر قسيم الدولة بأن تُتُش يُقرِّب ياغي سيان صاحب أنطاكية، ويميل إليه، وقد يعتمد عليه في حكم بلاد الشام في المستقبل[(١)].

ومهما يكن من أمر، فقد أدرك تُتُش حرج موقفه، وضعف قواته بعد الانسحابات التي حصلت في صفوفه، فاضطر إلى التوقف عن الزحف وقتال بركياروق، وآثر الانسحاب إلى الشام، فعاد أدراجه نحو ديار بكر، وتوقف في الرحبة، ثم حدث أن أقنع كل من آق سُنْقُر وبوزان، السلطان بركياروق بألاَّ يترك تُتُش وشأنه، وحذَّراه من أطماعه، وأشارا عليه بمطاردته[(٢)]. وفعلاً تحرك الجميع باتجاه الرحبة. فلما علم تُتُش بذلك تركها واجتاز الفرات قاصداً أنطاكية، التي بقي فيها مدة ثم عاد إلى دمشق[(٣)].

وفي الرحبة، عُقد اجتماع رباعي ضم السلطان بركياروق وآق سُنْقُر وبوزان وعلي بن مسلم بن قريش العقيلي، تمخَّض عن عقد تحالف بين الحاكمَين السلجوقيَين من جهة، والأمير العقيلي من جهة ثانية، تحت إشراف السلطان، هدفه الوقوف في وجه تُتُش، وعاد السلطان إلى بغداد، بعد أن ترك قوة عسكرية بتصرف آق سُنْقُر، في حين عاد بوزان إلى الرها، وآق سُنْقُر إلى حلب، فوصل إليها في (شهر ذي القعدة عام ٤٨٦ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١٠٩٣ م)[(٤)].

وهكذا قام آق سُنْقُر بدور بارز في إفشال مخططات تُتُش، ومنعه من الحصول على السلطنة، وساعد بركياروق على الاحتفاظ بها، مدركاً في الوقت نفسه، أن صاحب دمشق سوف ينتقم للضربة التي وجهت إليه، فأخذ يستعد للتصدي له وانتزاع دمشق منه هذه المرة، فطلب المساعدة من السلطان بركياروق فأمده بكربوغا، واستنجد بمن جاوره من الحكام أمثال بوزان حاكم الرها، ويوسف بن آبق حاكم الرحبة، كما انضم إليه جماعة من بني كلاب وأحداث حلب[(٥)].

---

(١) ضامن: ص ١٤٩.

(٢) ابن القلانسي: ص ٢٠٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه. ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ١٧١.

والواقع أن أوَّل ما فكَّر فيه تُتُش عند عودته إلى دمشق هو الانتقام من آق سُنْقُر وبوزان بعد أن خاناه وتخليا عنه في وقت الشدة[1]، فأخذ يستعد لقتالهما، وتحالف مع ياغي سيان صاحب أنطاكية بعد أن زوَّج ابنه رضوان من ابنته[2]، كما جنَّد قوات إضافية من بني كلاب. وخرج في (شهر جمادى الأولى عام ٤٨٧ هـ/ شهر أيار عام ١٠٩٤ م) من دمشق لقتال آق سُنْقُر والاستيلاء على حلب. وعندما علم هذا الأخير بخروجه، خرج هو الآخر من حلب على رأس جيش تعداده عشرين ألف مقاتل، فقطع نهر سبعين[3] قاصداً عسكر تُتُش، في الوقت الذي لم يتمكن فيه كربوغا وبوزان من قطع بعض السواقي، فظلت قواتهما في أماكنها، مما حرم آق سُنْقُر من قوة عسكرية هو بأمس الحاجة إليها، واضطر إلى خوض المعركة منفرداً.

والتقى الجيشان يوم السبت في (التاسع من شهر جمادى الأولى/ شهر أيار) عند تل السلطان[4] القريب من حلب. ويبدو أن آق سُنْقُر لم يثق بمن كان معه من العرب، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة ثم إلى القلب. والراجح أن هذا التبديل في المواقع العسكرية أثَّر على قدراته القتالية، فدارت الدائرة عليه، ووقع أسيراً في يد تُتُش الذي قتله على الفور، وفرَّت فلول جيشه إلى حلب[5]، كما قتل بوزان وأسر كربوغا[6].

بمقتل قسيم الدولة، انتهت مرحلة من مراحل الحكم السلجوقي المباشر لحلب نعمت فيها بالاستقرار والأمان اللذين لم تعرفهما منذ قرن ونيف، كما نشطت الحياة الاقتصادية ورخصت الأسعار على الرغم من المتاعب التي تحمَّلها أهلها بسبب الضرائب المتزايدة والأتاوات التي كان يتطلبها حكم آق سُنْقُر بهدف صرفها على جنوده وأتباعه ومظاهره.

وعلى الرغم من الخلاف الذي نشأ بينه وبين تُتُش وما تطلَّبه ذلك من

---

(١) عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية جـ ١ ص ١١٢.

(٢) ابن العديم: زبدة جـ ١ ص ٣٣١.

(٣) سبعين: قرية من قرى حلب وهي بباب حلب. الحموي: جـ ٣ ص ١٨٥.

(٤) تل السلطان: موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق، وفيه خان ومنزل للقوافل. الحموي: جـ ٢ ص ٤٢.

(٥) انظر فيما يتعلق بالمعركة ونهاية آق سنقر: ابن القلانسي ص ٢٠٦ ـ ٢٠٩.

(٦) ابن العديم: زبدة جـ ٢ ص ٤٨٢.

تضحيات، فقد أخلص سكان حلب له وساعدوه[1].

والواقع أن آق سُنْقُر اتبع سياسة عادلة، فأحسن السيرة في أهل حلب، ونشر العدل بينهم، وكان شديد التقوى، عميق الإيمان، أنفق الكثير من الأموال على بناء مسجد حلب، وأقام الحدود الشرعية![2].

---

(١) ضامن: ص ١٥٢.

(٢) ابن العديم: زبدة جـ ١ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.



الفصل الثالث

أمراء الموصل قبيل حكم الزنكيين

قوام الدولة كربوغا: ٤٨٩ ـ ٤٩٥ هـ/ ١٠٩٦ ـ ١١٠٢ م

كربوغا يستولي على الحكم

جاورت إمارة الموصل، إمارة الرها الصليبية من الغرب والجنوب، وإمارة ديار بكر وبلاد نيسابور(١) وأذربيجان وهمذان(٢) من الشرق، وواجهت البيزنطيين من الشمال. إنها إمارة واسعة تصل حدودها إلى شمالي بغداد.

تعرَّضت هذه الإمارة، كغيرها من الإمارات الإسلامية، إلى تهديدات الصليبيين بعد استقرارهم في الرها، فتطلب وضعها السياسي الدقيق أن يكون على رأسها رجل قادر يستطيع أن يتصدَّى للصليبيين ويوقف تقدمهم، ويحمي منطقة الجزيرة من تعدياتهم.

وتنامت، في مستهل القرن السادس الهجري ـ الثاني عشر الميلادي، فكرة التصدي للصليبيين بين أفراد قلائل من المسلمين في شمالي العراق أولاً، ثم في بلاد الشام ثانياً، لكنها لم تنضج تماماً، إلا أن الخوف من توسُّع الصليبيين في الشرق انتاب مختلف القوى الإسلامية، وأدرك هؤلاء أن الصليبيين في الرها لا بدَّ أن يتوسعوا على حسابهم إن عاجلاً أو آجلاً، لذلك نشطت حركة التصدي لهم وانتزاع الإمارة من أيديهم. لكن سياسة الجهاد وإن قام بها أُمراء مدن إلا

(١) نيسابور: مدينة في إيران الحالية، تبعد عن الري (طهران) مائة وستون فرسخاً، وعن سرخس أربعون فرسخاً. انظر الحموي: جـ ٥ ص ٣٣١.

(٢) همذان: مدينة كبيرة في إقليم الجبال. المصدر نفسه ص ٤١٠.

أنها بقيت ضمن إطار عام قاده سلاجقة خراسان والعراق.

ذكرنا، من قبل، أن تُتُش انتصر على تحالف مكوَّن من آق سُنْقُر الحاجب وبوزان وكربوغا في معركة تل السلطان، وقَتَلَ الأميرين الأولين وسجن الثالث في حمص. لكن تُتُش قُتِل بعد ذلك على يد ابن أخيه بركياروق، فتوزعت تركته بين ولديه فخر الملك رضوان، الذي حكم حلب، وشمس الملوك دُقاق، الذي حكم دمشق، وذلك دون أي اعتراض من بركياروق، إلا أن كل ما طلبه من رضوان، هو إطلاق سراح كربوغا. ولم يكد يُفرج عنه في عام (٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦ م) حتى حصل على إذن من بركياروق بـ:

- انتزاع الموصل من العقيليين وضمِّها إلى الأملاك السلجوقية.

- تزعم حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين[(١)].

وفعلاً استولى كربوغا على حرّان ونصيبين، وانتزع الموصل من يد آخر أُمرائها العقيليين، بعد أن حاصرها بضعة أشهر وذلك في (شهر ذي القعدة عام ٤٨٩ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١٠٩٦ م)[(٢)].

جهاده ضد الصليبيين

لعل أبرز ما قام به كربوغا، خلال مدة حكمه للموصل، هو مساندة القوى الإسلامية في أنطاكية أثناء تعرضها للحصار الصليبي في عام (٤٩٠ هـ/ ١٠٩٧م). فقد استنجد ياغي سيان، حاكم أنطاكية آنذاك، بالقوى الإسلامية المجاورة في الشام والجزيرة والعراق، وكان كربوغا من ضمن الأمراء الذين استدعاهم على عجل.

والجدير بالذكر أن حاكم الموصل كان يُعدُّ، آنذاك، أهم الأمراء المسلمين في أعالي الجزيرة، وقد أدرك ببصيرته وحكمته ما يهدِّد العالم الإسلامي كله، من الخطر الصليبي، لذلك أعدَّ جيشاً لنجدة أنطاكية، وسانده سلطانا السلاجقة في العراق وخراسان[(٣)]، وانضم إليه دُقاق صاحب الشام والأتابك طغتكين، وأرسلان تاش

---

(١) Elisséeff, Nikita: Nur AD-Din, Vol. II, P. 289.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص ١٥ ـ ١٦.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢١٨ . Elisséeff: Op. Cit, P. 289

صاحب سنجار[1]، وسقمان بن أرتق وغيره، ورفض رضوان صاحب حلب الاشتراك في الحملة[2].

غير أن ما ارتكبه كربوغا من أخطاء في التقدير، هيأ للصليبيين الفرصة للتنفُّس والراحة. إذ لم يشأ كربوغا أن يزحف مباشرة إلى أنطاكية، خشية أن ينقضَّ الصليبيون في الرها على جناح جيشه الأيمن، لذلك توقف أمام الرها في محاولة لانتزاعها من يد بلدوين[3]، ولم يدرك أن ما بذله من جهد وأنفقه من وقت إنما ضاع سدى، إلا بعد مضي الأسابيع الثلاثة الأخيرة من شهر أيار عام ١٠٩٨م، وهو يحاول عبثاً مهاجمة أسوارها[4]، وبعد أن كان، خلالها، بوهيموند قد أحكم خطته العسكرية لدخول أنطاكية.

وتخلى كربوغا في نهاية شهر أيار عن حصاره الفاشل الذي فرضه على الرها، وواصل زحفه باتجاه أنطاكية. ولما وصل إلى مشارفها في (أوائل شهر رجب ٤٩١ هـ/ شهر حزيران عام ١٠٩٨ م) كانت المدينة قد سقطت بأيدي الصليبيين، باستثناء القلعة، فضرب الحصار عليها (المدينة)[5].

عانى الصليبيون، كثيراً، من شدة الحصار حتى بلغوا درجة من اليأس جعلتهم يفكرون في الاستسلام. ولكن كربوغا رفض أن يعطيهم الأمان ليخرجوا من أنطاكية، وقال لهم: «لا تخرجون إلا بالسيف»[6].

وفشل كربوغا في مهمته. ذلك أن جيشه، الذي تكوَّن من فرق كان قادتها في تنافس متبادل؛ عانى من التصدُّع والشقاق، فحلَّت به الهزيمة بعد أن انفضَّ عنه كثير من الأمراء، فعاد إلى الموصل[7].

---

(١) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام وهي في لحف جبل عالٍ. الحموي: جـ ٣ ص ٢٦٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ١٨٦ ـ ١٨٧ Elisséeff, Op. Cit., P. 289.

(٣) رنسيمان: جـ ١ ص ٣٤٦.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٨٧.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه انظر اتجاهات الأمراء المسلمين عند: عاشور، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠. رنسيمان: جـ ١ ص ٣٧٠ ـ ٣٧١.

وفاة كربوغا

وانغمس كربوغا في النزاعات السلجوقية الداخلية التي قامت بين بركياروق وأخيه محمد، وقد ساند الأول في صراعه ضد الثاني(١).

وفي عام (٤٩٤ هـ/ ١١٠١ م) أرسله بركياروق على رأس عشرة آلاف فارس لقتال الملك مودود بن إسماعيل بن ياقوتي الذي خرج على حكمه في أذربيجان(٢).

ولأن حكمه في الموصل والجزيرة تعرَّض للتحدي والخطر، انكفأ عن بركياروق، الذي كان يزحف آنذاك باتجاه بغداد، عائداً إلى بلاده. ولما وصل إلى مراغة في أذربيجان في (شهر ذي القعدة ٤٩٤ هـ/ شهر أيلول عام ١١٠١ م)، مرض. وتوفي بعد ثلاثة عشر يوماً، بعيداً عن إمارته(٣).

شمس الدولة جَكَرْمِشْ: ٤٩٥ ـ ٥٠٠ هـ/ ١١٠٢ ـ ١١٠٦ م

جَكَرمِش يستولي على السلطة

جعلت وفاة أتابك الموصل كربوغا، الموقف مائعاً، وأدت إلى إثارة الحرب الأهلية. ذلك أن كربوغا أوصى بالولاية، من بعده، إلى سُنقرجه، وهو أحد أمرائه، وأمر الأتراك بطاعته، لكن نازعه موسى التركماني نائبه في حصن كيفا، بعد أن استدعاه أعيان الموصل، واستطاع أن يقتل منافسه ويفوز بحكم الموصل بوصفه نائباً عن السلطان بركياروق(٤).

استغل شمس الدولة جَكَرْمِشْ، صاحب جزيرة ابن عمر(٥)، فرصة الاضطرابات، ليتدخل في النزاعات الداخلية. فزحف إلى نصيبين واستولى عليها،

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٩٣، ١٩٧. Elisséeff: Op. Cit., P. 293.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٩٧.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢٢٧. ابن الأثير: الباهر ص ١٦. وقارن بالكامل حيث يذكر ابن الأثير أن كربوغا توفي في شهر ذي القعدة عام ٤٩٥ هـ. ص ٢١٠.

(٤) Elisséeff, Op. Cit., P. 294

(٥) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات، وهي فرضة لأرمينية وبلاد الروم ونواحي ميافارقين وأرزن، وتصل منها إلى الموصل المراكب مشحونة بالتجارة كالعسل والسمن والمن. ابن حوقل: صورة الأرض ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣. الحموي: جـ ٢ ص ١٣٨.

فهرب موسى إلى الموصل وتحصَّن بها، وهناك حاصره جَكَرْمِش مدة طويلة[1]. واضطر موسى إلى الاستعانة بسقمان الأرتقي في ديار بكر. فعرض عليه إعطاءه حصن كيفا ومَنْحه عشرة آلاف دينار، مقابل مساعدته. قَبِل سقمان هذا العرض وقدَّم له مساعدة عسكرية، فاضطر جَكَرْمِشْ إلى فكّ الحصار عن الموصل[2].

ولما خرج موسى لاستقبال سقمان، قتله بعض غلمانه في الطريق، فتشتَّت جيشه. وعاد سقمان مسرعاً إلى حصن كيفا، فاستولى عليه، بينما تقدم جَكَرمِش إلى الموصل، ودخلها وسط ترحيب سكانها[3].

علاقة جَكَرمِش بالصليبيين ـ معركة البليخ

استغل بلدوين الثاني دي بورج، صاحب الرها، انقسام المسلمين على أنفسهم ليتوسع على حسابهم؛ فقام بحملته الشهيرة على حرَّان في (أواسط عام ٤٩٧ هـ/ ربيع عام ١١٠٤ م). ونظراً لأهمية هذه المدينة، ووقوعها على مفترق الطريق الذي يصل العراق والجزيرة وبلاد الشام، فقد سانده جوسلين دي كورتناي صاحب تل باشر، وبوهيموند صاحب أنطاكية، وابن أُخته تانْكرِدْ، فضلاً عن عدد كبير من الأمراء الصليبيين ورجال الدين[4].

كان معنى استيلاء الصليبيين على حرّان، أنهم سيتمكنون من قطع الاتصالات بين المسلمين في العراق وفارس من جهة، وفي الشام من جهة أخرى، فضلاً عن أن سقوطها سيعطيهم فرصة لمهاجمة الموصل نفسها وتأمين السيطرة على إقليم الجزيرة، وقطع الاتصالات مع حلب[5].

ويبدو أنهم أضاعوا وقتاً ثميناً أمام حرّان، لأنهم لم يحاولوا اقتحامها، واكتفوا بحصارها حتى يضطرها الجوع إلى التسليم، ولم يعلموا أن جيشاً إسلامياً كبيراً كان في طريقه لإنقاذها وهو على وشك الوصول[6]. ذلك أن تهديد الصليبيين لحرَّان، جعل

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ٢١٠ ـ ٢١١.
(٢) المصدر نفسه. Elisséeff: Op. Cit., P. 294.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) Elisséeff: Op. Cit., P. 296.
(٥) Ibid.
(٦) وليم الصوري: مصدر سابق، جـ ١ ص ٥١٣ ـ ٥١٦.

اثنين من كبار القادة المسلمين، وهما جَكَرْمِش أتابك الموصل، وسقمان أرتق صاحب ماردين وديار بكر، يتناسيان ما كان بينهما من حزازات قديمة، وأن يتَّحدا سوياً لمهاجمة الرها، والتصدي للخطر الصليبي، قبل أن يتعرضا للهجوم. واجتمع الرجلان على الخابور عند رأس العين ثم توجها على رأس جيشيهما المشترك لمهاجمة الرها.

من جهة أخرى، احتشد الجيش الصليبي أمام حرّان، ولم تلبث المعركة أن دارت بين الطرفين في (شهر شعبان عام ٤٩٧ هـ/ شهر أيار عام ١١٠٤ م) على ضفة نهر البليخ[١]، حيث انسحب المسلمون وفق خطة عسكرية فتبعهم الصليبيون، عندئذ كرُّوا عليهم، وهزموهم، وأبادوا معظم قواتهم، وغنموا مقادير كبيرة من الأموال والممتلكات. ووقع بلدوين الثاني أمير الرها وجوسلين صاحب تل باشر في أسر المسلمين[٢].

نتائج معركة البليخ

كان لمعركة البليخ نتائج بالغة الأهمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي، لعل أهمها:

- أوقفت تقدم الصليبيين وتوسعهم باتجاه الشرق على حساب المسلمين، وقضت على آمالهم في التقدم نحو العراق، وإتمام سيطرتهم على إقليم الجزيرة.

- تلاشت أحلام بوهيموند في السيطرة على حلب، وتحويل إمارة أنطاكية إلى دولة كبيرة، وقضت على آمال الصليبيين بقطع الاتصال بين القوى الإسلامية في الشام والجزيرة وآسيا الصغرى عن طريق الاستيلاء على حلب.

- قرَّرت مصير إقليم الرها. ذلك أن هذه الإمارة تعرضت لكثير من المتاعب الداخلية التي أضعفتها، وبخاصة من جانب الأرمن الذين سرعان ما أبدوا تذمراً من الحكم اللاتيني بفعل تعسُّف هؤلاء مع الكنيسة الأرمينية، واضطهاد رجالها، مما

---

(١) البليخ: اسم نهر بالرقة، يجري نحو خمسة أميال ثم يسير إلى موضع قد بنى عليه مسلمة بن عبد الملك حصناً. الحموي جـ ١ ص ٤٩٣.

(٢) ابن القلانسي ص ٢٣٢. ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ٢٢١ - ٢٢٢. فولشر شارتر: ص ١٣٢ - ١٣٤.

دفع الأرمن إلى الاتصال بالأتراك، وأضحى احتمال سقوطها في أيدي المسلمين وشيكاً[١].

- أتاحت للمسلمين فرصة استعادة الأملاك التي خسروها في السابق، وضُمَّت إلى إمارة أنطاكية.

- أضحى تانكِرد، بعد أسر بلدوين، وصياً على إمارة الرها، كما أصبح بوهيموند أقوى الأمراء الصليبيين في الشمال.

- أدَّت ظروف الانتصار إلى زيادة التقارب بين القوى الإسلامية والبيزنطيين ضد عدوهم المشترك. وأوضح ابن القلانسي خطورة النتائج بقوله: «وكان نصراً حسناً للمسلمين، لم يتهيأ مثله، وبه ضعفت نفوس الإفرنج، وقلَّت عدتهم، وفلَّت شوكتهم وشكتهم، وقويت نفوس المسلمين، وأرهفت عزائمهم في نصرة الدين، ومجاهدة الملحدين، وتباشر الناس بالنصر عليهم، وأيقنوا بالنكاية فيهم، والإدالة منهم»[٢].

- حطَّمت أسطورة أن الصليبيين لا يقهرون[٣].

علاقة جَكَرمِش بالسلاطين السلاجقة

مزَّق العالم الإسلامي الشرقي في عام (٤٩٦ هـ/ ١١٠٣ م) ما جرى من قتال بين السلطانين الأخوين بركياروق ومحمد[٤]، على أنَّ الصلح انعقد بينهما في العام التالي، وبمقتضاه احتفظ بركياروق لنفسه ببغداد وهضبة فارس الغربية، بينما حصل محمد على شمالي العراق والجزيرة، وصارت له حقوق السيادة على ديار بكر وبلاد الشام. أما الأخ الثالث سنجر، فإنه حاز على خراسان وشرقي فارس[٥].

والواقع أن جَكَرْمِش كان ذا نزعات استقلالية، فرفض أن يسلِّم السلطان محمد

---

(١) Mathew of Edessa: Chronique in R.H.C. Arm Doc. Vol. I, PP. 80 - 81.

(٢) ابن القلانسي: مصدر سابق ص ٢٣٢.

(٣) انظر حول نتائج معركة البلخ: عاشور، جـ ١ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥. رنسيمان: جـ ٢ ص ٧٥.
Vasiliev, Alexander: History of the Byzantine Empire, PP. 410-411. Chanlandon, F: Essai sur le Règne d'Alexis Comnène P. 246.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٥) المصدر نفسه: ص ٢٢٠.

مدينة الموصل التي كانت من نصيبه، وأعلن أنه لا يدين بالولاء إلا لبركياروق، ولن يسلِّمها إلا إليه، عندئذ تقدَّم محمد نحو المدينة لانتزاعها منه[1].

غير أنه حدث أن توفي بركياروق في (شهر ربيع الآخر عام ٤٩٨ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٠٥ م) والسلطان محمد يحاصر الموصل. لكن يبدو أن الوفاة لم تؤثر في تغيير موقفه، وحتى يقاوم الحصار، جدَّد جَكَرْمِش سور الموصل، ورمَّم جميع ما يحتاج إلى الإصلاح، ورفض دفع المال المقرر عليه لمحمد الذي غدا السلطان الوحيد لسلاجقة فارس[2].

واعتمد جَكَرْمِش، إلى حد كبير، على ولاء أهل الموصل، ومحبتهم له، لحسن سيرته فيهم، الأمر الذي جعل السلطان محمد يشدِّد حصاره للمدينة، ولكن دون أن يظفر بغرضه[3].

ولما لم يعد لجَكَرْمِش من عذر يتذرَّع به، بعد وفاة السلطان بركياروق، ورغبة منه في إزالة الضغط عن الموصل؛ بادر إلى الإذعان، وخضع للسلطان محمد الذي اكتفى آنذاك بإعلان صداقته، وانسحب بجيوشه صوب الشرق دون أن يغامر بدخول المدينة، في موكب النصر[4].

والراجح أن ما أعدَّه جَكَرْمِش آنذاك، من حملة ضد الصليبيين، كان بناء على طلب السلطان محمد. إذ أن والي الموصل شكَّل حلفاً إسلامياً اشترك فيه رضوان صاحب حلب ونائبه الأصبهذ صباو، وإيلغازي الأرتقي، الذي خلف سقمان بعد وفاته، وصهره ألبي بن أرسلان تاش صاحب سنجار[5].

لكن السلطان محمد أزعجه ما كان لجَكَرْمِش من نزعات استقلالية، وقوة عسكرية متنامية، كما أنه ارتاب في عقده اتفاقاً مع قلج أرسلان الأول، سلطان سلاجقة الروم، لمناوأته، بدليل أن أتباعه سلَّموا مدينة حرّان إلى قلج أرسلان، بالإضافة إلى ذلك فإن جَكَرْمِش لم يفِ بما تعهد به للسلطان محمد من حمل المال إليه[6].

---

(١) ابن الاثير: جـ ٨ ص ٢٢٤. ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ الزمان ص ١٢٨.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٤.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥. رنسيمان: جـ ٢ ص ١٧٧.
(٥) رنسيمان: المرجع نفسه.
(٦) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٣٨.

نتيجة لهذا التبدل في التفكير السياسي، دفع السلطان محمد الحلفاء إلى الانفضاض عن جَكَرْمِش ومهاجمة أملاكه. وفعلاً مضوا سوياً وهاجموا نصيبين[1] في (شهر رمضان عام ٤٩٩ هـ/ شهر أيار عام ١١٠٦ م) غير أن أعوانه نجحوا في بث الشقاق بين رضوان وإيلغازي. وجرى قتال بين الطرفين، فنجا جَكَرْمِش الذي بادر إلى شن هجوم على الرها، إلا أنه عاد إلى الموصل ليواجه متاعب جديدة[2]. إذ لم يسع السلطان محمد إلا أن ينتزع الموصل والأعمال التابعة لها والتي بيد جَكَرْمِش، ويُقطعها إلى جاولي سقاوة، وذلك في (شهر محرم عام ٥٠٠ هـ/ شهر أيلول عام ١١٠٦ م)[3].

وسار جاولي إلى الموصل ليتسلمها، فامتنع عليه جَكَرْمِش وخرج للقائه، غير أنه انهزم أمامه إثر المعركة التي جرت بينهما خارج مدينة الموصل في قرية باكلبا، من أعمال إربل[4]، ووقع أسيراً في يد خصمه. ولما كان لجكرمش من محبة ومكانة عند سكان الموصل، بادر هؤلاء إلى تنصيب ابنه زنكي البالغ من العمر إحدى عشرة سنة، وخطبوا له[5].

نهاية جَكَرْمِش ـ تدخل قلج أرسلان الأول

في هذه الظروف الحرجة، راسل زنكي قلج أرسلان الأول يستنجد به، وكان آنذاك في ملطية، ووعده بتسليمه الموصل والأعمال التابعة لها[6].

استغل السلطان السلجوقي هذه الفرصة للتوسع على حساب الأمراء المتنازعين، فأسرع لنجدة زنكي. ولما علم جاولي بمسيره، انسحب من المدينة، لا سيما وقد توفي جَكَرْمِش فجأة وهو في الأسر، وكان ينوي اتخاذه أداة للمساومة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه أدرك أن لقلج أرسلان الأول من القوة ما لا يستطيع مجابهته

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.
(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ١٧٨.
(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٣٨. ابن العبري: ص ١٢٨.
(٤) إربل: قلعة حصينة، ومدينة كبيرة، ولقلعتها خندق عميق وهي شبيهة بقلعة حلب، تعد من أعمال الموصل وبينهما مسيرة يومين. الحموي: جـ ١ ص ١٣٨.
(٥) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٣٩.
(٦) ابن القلانسي: ص ٢٥٠.

في معركة سافرة، لذلك قرَّر تكوين حلف مناهض له حتى يدعم موقفه[1].

لكن قلج أرسلان الأول تمكَّن من دخول الموصل وسط ترحيب السكان، وقد وعدهم باحترام حرياتهم، وأجرى فيها بعض الترتيبات الإدارية[2].

أما جاولي فقد انسحب إلى سنجار، وأجرى مباحثات مع كل من إيلغازي الأرتقي ورضوان صاحب حلب، واتفق الجميع في نهايتها على طرد قلج أرسلان الأول من الموصل، والتوجه بعد ذلك لمهاجمة أنطاكية.

انتهت الحرب ضد قلج أرسلان الأول بهزيمته وغرقه في نهر الخابور[3]، في عام (٥٠٠ هـ/ ١١٠٧ م)، فأضحى بوسع جاولي أن يدخل الموصل، غير أن ما اقترن به حكمه من الوحشية لم يلبث أن جعله مكروهاً عند الناس، كما أنه لم يزد عن جَكَرْمِش فيما أظهره من الاعتراف بسلطة السلطان محمد على الرغم من أنه خطب باسمه في الموصل[4]، إذ أعلن استقلاله، وقطع كل صلة به، مما دفع السلطان محمد لأن يعهد في (شهر ذي القعدة عام ٥٠١ هـ/ شهر حزيران عام ١١٠٨ م) إلى أحد رجاله، وهو مودود بن التونتكين بطرد جاولي من الموصل والحلول مكانه في حكمها[5].

وهكذا اضطر جاولي إلى الفرار مجدَّداً من الموصل، وذهب إلى الجزيرة حيث التفَّ حوله جميع أعداء الدولة السلجوقية وعلى رأسهم قبيلة بني مزيد العربية، كما لم يتردد في محالفة القوى الصليبية المجاورة. فأطلق سراح بلدوين الثاني دي بورج أمير الرها، وعقد معه تحالفاً ضد السلاجقة[6]. ودخل مودود الموصل وسط ترحيب السكان في (شهر صفر عام ٥٠٢ هـ/ شهر أيلول عام ١١٠٨ م)[7].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤٠.

(٣) نهر الخابور: نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة. الحموي: جـ ٢ ص ٣٣٤.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٤١، ٢٥٢.

(٥) المصدر نفسه: ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٦) المصدر نفسه: ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

Setton: A. History of the Crusades, Vol. I, PP. 393- 394.

(٧) ابن الأثير: الباهر ص ١٧.

شرف الدولة مودود بن التونتكين: ٥٠١ ـ ٥٠٧ هـ/ ١١٠٨ ـ ١١١٣ م

حملة مودود الأولى ضد الرها

ظل الأتابك مودود، بعد توليه إمارة الموصل، متمسكاً بفكرة الجهاد ضد الصليبيين، وهي المهمة التي عهد إليه بها السلطان محمد السلجوقي. لذلك دعا جيرانه من الأمراء المسلمين لتكوين حلف من أجل هذه الغاية، ثم أعدَّ حملة عسكرية في (شهر شوال عام ٥٠٣ هـ/ شهر نيسان عام ١١١٠ م) لانتزاع مدينة الرها، وسانده إيلغازي الأرتقي أمير ماردين بعساكره من التركمان، وسقمان القطبي أمير أرمينية المعروف باسم شاه أرمن[١]، وكانت هذه أول مرة يجتمع فيها هذا العدد من الأمراء المسلمين لقتال الصليبيين، ولهذا تُعدُّ هذه الحملة فاتحة عهد جديد من النضال ضد الصليبيين، ونقطة تحول هامة من التفرق والتخاذل إلى التجمع والهجوم[٢].

وما إن علم الصليبيون في الرها بحشود المسلمين حتى أنفذ بلدوين دي بورج رسولاً إلى بيت المقدس يلتمس النجدة العاجلة من الملك بلدوين، متجاهلاً الاستعانة بـ «تانكْرِد» صاحب أنطاكية، إذ كان يشك في نواياه، وباتفاقه مع المسلمين ضد الرها.

كان الملك بلدوين آنذاك يحاصر مدينة بيروت، ولم يتحرك إلا بعد أن استولى عليها[٣]، فأسرع بالمسير نحو الشمال، وصحبه برترام أمير طرابلس، وانضم إليه، قرب سميساط، بعض زعماء الأرمن وعلى رأسهم كوغ باسيل[٤]، فوصل إلى الرها في (آخر شهر ذي الحجة/ أواخر شهر تموز).

ظل الأتابك مودود يحاصر الرها مدة شهرين دون أن يتمكَّن من اختراق استحكاماتها. فلما تراءى له جيش بيت المقدس، رفع الحصار عنها وتراجع إلى حرَّان وفق خطة عسكرية محكمة، وانضم إليه طغتكين أتابك دمشق[٥].

وقرَّر الملك بلدوين مطاردة الجيوش الإسلامية، إلا أنه كان عليه أن يوحِّد

(١) ابن القلانسي: ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٢) مؤنس، حسين: نور الدين محمود ص ١٢٣.
(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٣.
(٤) Stevenson: The Crusaders in the East, P. 88.
(٥) ابن القلانسي: ص ٢٧١.

كلمة الصليبيين قبل أن يقوم بهذا العمل، فاستدعى تانكْرِد صاحب أنطاكية، ونجح في تحقيق المصالحة بينه وبين أمير الرها[١].

كان مودود قد أمعن في انسحابه لاستدراج الصليبيين إلى مكان بعيد عن قاعدتهم، ثم تطويقهم بعد أن ينحرف فجأة إلى الشمال، لكن عملية المطاردة توقفت فجأة، وانفرط عقد التحالف الصليبي. فما الذي حدث على المسرح السياسي؟.

الواقع أنه تضافرت عدة دوافع جعلت الصليبيين يتوقفون عن المطاردة، ويتراجعون من المنطقة لعل أهمها:

- لقد تلقّى الملك بلدوين تحذيراً مبكراً بخطة الأتابك، ففكّ الحصار عن قلعة شناو التي تقع إلى الشمال الغربي من حرَّان، كما تلقّى إنذاراً من بيت المقدس بتحرك فاطمي ضد بيروت، فقرَّر التخلّي عن الحملة.

- راجت شائعات، في الأوساط الصليبية، بأن رضوان صاحب حلب يستعد لمهاجمة أنطاكية في ظل غياب أميرها، فاضطر تانكْرِد إلى التخلّي عن الحملة[٢].

وبناءً على نصيحة الملك، بأن لا جدوى من محاولة حماية الجهات الواقعة شرقي نهر الفرات، أوعز بلدوين إلى السكان بالجلاء إلى الجهات الواقعة على الضفة اليمنى، واحتفظ بحاميات عسكرية في حصني الرها وسروج الكبيرين، وبعض القلاع الصغيرة، مع تدعيم الإمكانات الدفاعية لها[٣]. أما مودود، فقد اكتفى بمهاجمة مؤخرة الصليبيين العابرين، وعاد إلى الموصل.

تانكْرِد يهاجم حلب

حدث في غضون ذلك، أن أغار رضوان ملك حلب على أنطاكية مستغلاً غياب أميرها على الرغم من وجود موادعة بينهما، معتقداً أن أمر الصليبيين أوشك على الانتهاء، على يد مودود وحلفائه أمام الرها، فطمع في اقتطاع ما يمكن اقتطاعه من إمارة أنطاكية[٤].

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ١٨٩ . Elisséeff: II, PP. 302-303.

(٢) المرجعان نفساهما.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٤) ابن العديم: زبدة: جـ ١ ص ٣٦٦.

لكن مجرى الأحداث تبدَّل فجأة، فلم يتمكَّن المسلمون من الاستمرار في محاولتهم لانتزاع الرها، مما انعكس سلباً على وضع رضوان الذي عجز عن الاستمرار في حملته على أنطاكية[1]. وجاء دور تانكْرِد للانتقام، وإنزال العقاب برضوان، فأغار في عام (٥٠٤ هـ/ ١١١٠ م) على حلب وأعمالها، وعاث فساداً في بعض نواحيها وأسرف في الانتقام من المسلمين الذين صادفهم. واستولى على قلعة النقرة الواقعة على الحدود، ثم زحف على الأثارب التي لا تبعد عن حلب إلا نحو عشرين ميلاً[2].

ولما لم يتلقَّ رضوان أية مساعدة من سائر الأمراء المسلمين بفعل مواقفه المتحفظة، لذلك حاول أن يدخل في مفاوضات مع تانكْرِد للحصول على هدنة، ولم يُعقد الصلح إلا بعد أن خسر الأثارب وزردنا[3] التي تقع على مسافة قصيرة إلى الجنوب منها، فضلاً عن دفع عشرين ألف دينار، وبذل عشرة من أجود خيوله[4].

رد فعل عامة المسلمين

الواقع أن الوضع السيء الذي بات فيه المسلمون، في أواخر القرن الخامس الهجري، أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، في بلاد الشام وأطراف العراق، أثار بينهم موجة عامة من الاستياء، فارتفعت الأصوات تندِّد بذلك الوضع وتدعو للجهاد؛ إذ أن سيطرة الصليبيين على كثير من المراكز والمعاقل في أرض الجزيرة وبلاد الشام، قطَّع أوصال العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، وحال دون انتقال القوافل والتجارة بين العراق وبلاد الشام ومصر والحجاز[5].

ونتيجة لتردِّي الأوضاع في حلب بشكل خاص، ذهب وفد ضمَّ بعض الصوفيين والتجار والفقهاء، إلى بغداد للتعبير عن استيائهم وطلب المساعدة ضد الصليبيين[6]، ويبدو أنهم لم يحصلوا إلا على وعود، مما دفعهم إلى إثارة أهل بغداد،

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٧٣. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٦.

(٢) ابن العديم: المصدر نفسه والأثارب: قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ. الحموي: جـ ١ ص ٨٩.

(٣) زردنا: بليدة من نواحي حلب الغربية. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ١٣٦.

(٤) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٥) عاشور: جـ ١ ص ٤٦٠.

(٦) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٨.

فقصد الجميع جامع السلطان وقت صلاة الجمعة، وأنزلوا الخطيب عن المنبر وحطَّموه، ونادوا بوجوب القيام بالجهاد[(١)].

وتكرَّر هذا الحادث في يوم الجمعة التالي حين قصد الناس جامع القصر بدار الخلافة في بغداد، فاقتحموا الجامع وكسروا شباك المقصورة والمنبر[(٢)]. عندئذ أدرك الخليفة أبو العباس أحمد الملقب بالمستظهر بالله (٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١١٨م)، خطورة الموقف، فأرسل إلى السلطان السلجوقي محمد «يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه»[(٣)].

وكان الخليفة قد استقبل، قبل وصول الوفد الحلبي، سفارة من الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين للتباحث بشأن القيام بعمل مشترك ضد تانكْرِد[(٤)]، الأمر الذي جعل المسلمين في بغداد يصيحون في السلطان: «أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى قد أرسل إليك في جهادهم!»[(٥)].

حملة مودود الثانية ضد الرها

نتيجة للضغط الشعبي، أمر السلطان محمد الأتابك مودود، بإعداد حملة كبيرة لحرب الصليبيين، وجعل القيادة الاسمية لابنه مسعود[(٦)]. واجتمع تحت قيادة مودود، حاكم الموصل، جميع حكام الأقاليم في دولة السلاجقة: سقمان القطبي صاحب خلاط[(٧)] وتبريز[(٨)] وبعض ديار بكر، وإيلغازي الأرتقي الذي أناب عنه ابنه أياز، والأميران الكرديان أحمديل صاحب مراغة[(٩)]، وأبو الهيجاء صاحب

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٧٦.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٦١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن القلانسي: ص ٢٧٧.

(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٦٢.

(٦) المصدر نفسه: ص ٢٦١.

(٧) خلاط: بلدة عامرة، مشهورة، ذات خيرات واسعة، وهي قصبة أرمينية الوسطى، ولها بحيرة، ليس لها في الدنيا نظير، يُجلب منها السمك المعروف بالطَّريخ إلى سائر البلاد. الحموي: جـ ٢ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

(٨) تبريز: من أشهر مدن أذربيجان، مدينة عامرة حُسناً، ذات أسوار محكمة بالآجر والجص، في وسطها عدة أنهار جارية، والبساتين محيطة بها والفواكه بها رخيصة. المصدر نفسه: ص ١٣.

(٩) مراغة: بلدة مشهورة عظيمة، أعظم وأشهر بلاد أذربيجان. الحموي: جـ ٦ ص ٩٣.

إربل، فضلاً عن بعض أمراء فارس بزعامة الأميرين أيلنكي وزنكي ابني بُرسُق أمير همذان[١].

بدأت قوات التحالف عملياتها العسكرية في (شهر محرم عام ٥٠٥ هـ/ شهر تموز عام ١١١١ م) بفتح عدة مواقع صليبية شرقي الفرات[٢]، ومن ثَمَّ اتجه أفرادها لحصار الرها.

أثارت الحملة الذعر بين السكان، لكن في الحقيقة لم تغيِّر الموقف فيها، فقد أعيت المسلمين بسبب مناعتها وصمود أهلها، عندئذ رأى مودود أن يعبر الفرات لمهاجمة تل باشر[٣].

ولما انتشرت أخبار الحملة في الأوساط الإسلامية في شمالي بلاد الشام، حاول كل أمير استغلالها لصالحه. فاستنجد سلطان بن علي صاحب شيزر، الذي كان يعاني من ضغط صليبي، بمودود. كما طلب رضوان صاحب حلب مساعدته ضد تانكْرِد[٤]. وحتى يخفف الضغط عن تل باشر، أقام جوسلين الثاني علاقات سرية مع أحمديل، الذي نجح في إقناع المسلمين بفك الحصار عن هذه المدينة والاتجاه نحو حلب لنجدة رضوان[٥].

وإذ تأثر مودود بتغير الموقف السياسي لصاحب حلب، فكَّ الحصار عن تل باشر بعد خمسة وأربعين يوماً، وقاد جيوشه لمساعدته[٦]. ويبدو أن رضوان لم يكن صادق النية، إذ لم تكد القوات الإسلامية المتحالفة تقترب من حلب، حتى أغلق أبواب المدينة في وجهها، بعد أن أثارت كثرتهم العددية مخاوفه. واعتقد أن ما يمكن أن يشكلوه من خطر بسبب مطامع بعض الأمراء، ربما فاق خطر تانكْرِد، ولم يلبث أن تحالف مع هذا الأخير للوقوف في وجه الخطر المشترك، واتخذ من إجراءات الحيطة لمنع المظاهرات المعادية لمسلكه، فأمر باعتقال عدد كبير من أعيان المدينة

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٢) Stevenson: P. 91.

(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٨. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٤٥. Ibid
ابن العديم: المصدر نفسه. ابن القلانسي: ص ٢٧٩.

(٤) ابن القلانسي: المصدر نفسه. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٤٥.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان: جـ ٨ ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٦) Grousset, R.: Histoire De Croisade Vol. I P. 465, Stevenson: P. 92.

واتخذهم رهائن[١].

نتيجة لهذا الانقلاب في موقف رضوان، اتجه مودود بجيشه جنوباً إلى حوض نهر العاصي لاسترداد الأماكن التي استولى عليها تانكْرِد مؤخراً والمجاورة لمعرة النعمان[٢]، وهناك حضر إليه طغتكين، أتابك دمشق، وانضم إلى قواته[٣]. ويبدو أن هذا الأتابك خشي من أن ينتزع منه بعض الأمراء المشاركين في الحملة، دمشق، فحاول إقامة علاقات سرية مع الصليبيين، إلا أنه فشل في ذلك بفعل الأوضاع المضطربة بين الطرفين الإسلامي والصليبي، واضطر أخيراً إلى مصادقة مودود، فاكتملت بذلك رابطة المسلمين، ولم يعد متخلفاً سوى رضوان صاحب حلب.

أما تانكْرِد، الذي عسكر أمام شيزر، فإنه تراجع إلى أفامية، وأرسل إلى الملك بلدوين يستنجد به. استجاب الملك لنداء الاستغاثة، وأرسل إلى أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس وتل باشر للاجتماع به[٤].

والواقع أن الأحداث لم تجرِ على نحو طيب في صفوف المسلمين؛ إذ أن طغتكين لم يشأ أن يبذل المساعدة لمودود قبل أن يتعهد بالمضي إلى الجنوب لانتزاع طرابلس رغم خطورة هذه الحملة من الناحية العسكرية[٥]. أما بُرسُق الكردي فقد أصابه المرض، فقرَّر العودة إلى بلاده. ومات سقمان فجأة في بالس[٦]، فانسحبت قواته صوب الشمال. وبادر أحمديل إلى الانسحاب بعساكره كيما يحاول أن ينتزع له جانباً من إرث سقمان، وبقي أياز بن إيلغازي بعساكره[٧].

وفي الوقت الذي انفرط فيه عقد الجيش الإسلامي، أخذت القوى الصليبية

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٩.

(٢) معرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة. ماؤهم من الآبار، وعندهم الزيتون الكثير والتين، ومنها كان أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري. الحموي: جـ ٥ ص ١٥٦.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢٨٢. Elisséeff: II, P. 306.

(٤) وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٤٥. Stevenson: P. 93.

(٥) رنسيمان: جـ ٢ ص ١٩٩.

(٦) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة على ضفة الفرات الغربية. الحموي: جـ ١ ص ٣٢٨.

(٧) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٦٣.

تتجمع من جديد لمواجهة الخطر الناجم عن اتحاد كلمة المسلمين، فبلغ عديدها ستة عشر ألفاً[1].

تحصَّن مودود آنذاك وراء أسوار شيزر، متجنباً خوض معركة مكشوفة مع الصليبيين نظراً لتناقص قواته يوماً بعد يوم، كما أنه لم يكن راغباً في أن يقضي فصل الشتاء بعيداً عن قاعدته[2].

وأخيراً اجتمعت القوى الصليبية قرب أفامية على الضفة الشرقية لنهر العاصي، في حين عسكر مودود على الضفة الغربية للنهر بتشجيع من صاحب شيزر الذي هوَّن عليه أمر الجهاد[3]. وعبر المسلمون نهر العاصي إلى الضفة الشرقية، واشتبكوا مع الصليبيين في مناوشات كانت عنيفة أحياناً، انسحب بعدها مودود عائداً إلى الموصل، كما غادر كل أمير إلى إمارته[4].

وهكذا فشل مودود في طرد الصليبيين من إمارة الرها. وإن دلَّ هذا الفشل على شيء، فإنه يدل على عدم قيام تحالف صادق بين المسلمين، مما يجعلهم يشنون هجوماً مضاداً طالما اتحد الصليبيون. وبذلك نجت إمارات الصليبيين، وبخاصة الرها، في الوقت الراهن[5].

حملة مودود الثالثة ضد الرها

ومع أن مودوداً وجد نفسه وحيداً في حركة الجهاد الإسلامي إلا أنه قام في (شهر ذي القعدة ٥٠٥ هـ/ شهر أيار ١١١٢ م)، بمهاجمة الرها فجأة، وحاصرها. لكن المدينة صمدت في وجه الحصار، فرأى عندئذ أن يترك حولها قوة عسكرية، ويهاجم سروج في (شهر محرم عام ٥٠٦ هـ/ شهر تموز عام ١١١٢ م) بوصفها المعقل الثاني للصليبيين شرقي الفرات[6]. وبهذه الخطة العسكرية يكون مودود قد قسَّم قواته وأضعفها، متخلياً عن حذره في مواجهة الصليبيين. وكانت النتيجة أن لحق به

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ١٩٩.
(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٦٣.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه. ابن العديم: جـ ٢ ص ٥٢٥. Elisséeff: II, PP. 306-307.
(٥) setton: Op. Cit., P. 400.
(٦) ابن القلانسي: ص ٢٨٩. Elisséeff: Op. Cit., P. 307.

جوسلين صاحب تل باشر وهزمه وقتل عدداً كبيراً من رجاله، فلم يسعه عند ذلك إلا التراجع نحو الرها، لكن جوسلين سبقه إليها لمساعدة بلدوين دي بورج في الدفاع عنها[(١)].

وفي الوقت الذي كانت تدور فيه هذه الأحداث، تآمر الأرمن في الرها ضد بلدوين، واتصلوا بمودود ليخلِّصهم من حكم الصليبيين، وجرى الاتفاق على أن يساعدوه في الاستيلاء على قلعة تسيطر على القطاع الشرقي من المدينة، مما يمكِّنه بعد ذلك من الاستيلاء على بقية المدينة بسهولة[(٢)]، لكن وصول جوسلين السريع حال دون تنفيذ الاتفاق، ورُدَّ المسلمون على أعقابهم، فلم يتمكنوا من انتزاع المدينة من أيدي الصليبيين[(٣)].

حملة مودود ضد إمارة بيت المقدس: معركة الصنبرة[(٤)]

ظل مودود متمسكاً بفكرة جهاد الصليبيين، وهي المهمة التي عهد إليه بها السلطان محمد السلجوقي، بوصفه ممثله في إقليم الجزيرة وبلاد الشام، فتحرك في (مطلع عام ٥٠٧ هـ/ شهر حزيران عام ١١١٣ م) على رأس تحالف إسلامي لقتال الصليبيين في بيت المقدس، بناءً على استنجاد طغتكين أتابك دمشق به، بعد أن تعرضت إمارته لهجمات شديدة من صليبيي بيت المقدس، الذين نفذوا من وادي التيم إلى البقاع، ووصلوا إلى بعلبك، وانضم: تميرك صاحب سنجار، وأياز بن إيلغازي أمير ماردين إلى هذا التحالف[(٥)].

كان هدف المسلمين منطقة فلسطين. فنجحوا في استدراج الملك بلدوين إلى أراضي دمشق حتى جسر الصنبرة، الواقع في المجرى الأعلى لنهر الأردن. وفي الثالث عشر من شهر محرم حدث اللقاء الذي انتهى بانتصار المسلمين، ونزلت بالصليبيين

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٨٩. Stevenson: Op. Cit., P. 95.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٢٠١. Elisséeff, Op. Cit., P. 307 ،Setton: Op. Cit., P. 401.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢٨٩. رنسيمان: المرجع نفسه. Stevenson: Op. Cit., P. 95 .

(٤) الصنبرة: موضع بالأردن مقابل لعقبة أفيق، بينه وبين طبرية ثلاثة أميال. الحموي: جـ ٣ ص ٤٢٥.

(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٦٦.

هزيمة ساحقة، فارتد ملك بيت المقدس إلى طبرية[١]، ولم يلبث أن وصل لنجدته روجر أمير أنطاكية، وبونز أمير طرابلس، في حين لم يستطع أمير الرها الحضور لأن إمارته كانت بحاجة إلى حماية دائمة[٢].

ومضى المسلمون في زحفهم، بعد المعركة، حتى بلغوا طبرية، غير أنهم لم يغامروا بمواجهة التحالف الصليبي، وبخاصة أنه دخل فصل الشتاء، فقرروا الانسحاب إلى دمشق[٣]. وكان ذلك أول مرة تتعاون الموصل ودمشق في حرب الصليبيين في مملكة بيت المقدس.

تكمن أهمية الأتابك مودود في أنه:

- أعاد للمسلمين الثقة بأنفسهم، فتحولوا من الدفاع إلى الهجوم في علاقاتهم مع الصليبيين.
- بلور فكرة الاتحاد بين المسلمين، وأعطاها بُعداً سياسياً وعسكرياً، فأضحى أمراؤهم على استعداد للتعاون المثمر بنوايا صادقة.

مقتل مودود

دعا طغتكين، بعد هذا الانتصار مودوداً لقضاء بعض الوقت في دمشق. فخرج في آخر يوم جمعة من (شهر ربيع الآخر عام ٥٠٧ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١١٣م) إلى المسجد، وأثناء تنقله في صحنه، طعنه أحد الحشيشية[٤]، بخنجر، فلقي

---

(١) طبرية: بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهي في طرف جبل، وجبل الطور مطلٌّ عليها، وهي من أعمال الأرن في طرف الغور بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، وكذلك بينها وبين بيت المقدس. الحموي: جـ ٤ ص ١٧.

(٢) ابن القلانسي: ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٩٧.

(٤) انقسمت الطائفة الإسماعيلية، الشيعية المذهب، بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله في عام (٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م) إلى فرقتين: النزارية التي تمسكت بإمامة ابنه نزار، والمستعلية التي سارت وراء ابنه الآخر المستعلي، وساند الحسن بن الصباح، الذي كان موجوداً آنذاك، في مصر، نزاراً، وغادر مصر إلى بلاد الشام بعد أن تعرض للمضايقة، ثم إلى فارس حيث دعا إلى إمامة نزار، وسُمي أتباعه بالإسماعيليين النزاريين، كما سُموا بالباطنية، بفعل تفسيرهم أحكام الشريعة تفسيراً باطنياً، كما سموا بالحشيشية لأنهم، على ما يبدو، كانوا يتعاطون بالأعشاب (الحشائش) ليصنعوا منها مركبات دوائية. والشائع أن الحسن بن الصباح، قد أنشأ لأتباعه جنة ملأها بألوان الجمال والفتنة، وأنه كان يسقي أحدهم الحشيش الذي جلبه معه من مصر، ثم ينقله إلى تلك الجنة وهو =

مصرعه، وبادر طغتكين إلى قتل الجاني، وروَّج رضوان أمير حلب بأنه هو الجاني، في حين حمَّله العامة المسؤولية[١].

ارتاح الصليبيون من ذلك الرجل الذي آمن بفكرة الجهاد الإسلامي، وعُرف بالتقوى والورع من ناحية، واحتفظ بولائه لسلطان السلاجقة من ناحية أخرى، مما جعله يسبِّب لهم رعباً كثيراً[٢].

آق سُنْقُر البُرسُقي

المرة الأولى: ٥٠٧ ـ ٥٠٩ هـ/ ١١١٣ ـ ١١١٥ م.

المرة الثانية: ٥١٥ ـ ٥٢٠ هـ/ ١١٢١ ـ ١١٢٦ م.

حملة البُرسُقي ضد الرها

عيَّن السلطان محمد السلجوقي، بعد وفاة الأتابك مودود، ممثله في دار الخلافة آق سُنْقُر البُرسُقي أتابكاً على الموصل وأعمالها، وسيَّر معه ابنه الملك مسعود، وأمره بقتال الصليبيين، وكتب إلى سائر الأمراء بطاعته. فلما وصل إليها، انضمت إليه عساكرها وفيهم عماد الدين زنكي بن آق سُنقُر الحاجب، كما اتصل به تميرك صاحب سنجار وغيرهما[٣]، فأضحى من واجبه أن يستأنف حركة الجهاد.

وضع البُرسُقي خطة عسكرية تقضي بمهاجمة الرها، وكان بحاجة إلى تضافر كافة القوى الإسلامية في المنطقة. ويبدو أن الأراتقة في ماردين قد دخلوا في مرحلة جديدة في علاقاتهم السياسية، بعد مقتل مودود، فتقرَّبوا من الصليبيين، ونازعوا الأمراء

= غائب عن الوعي، فإذا استيقظ، ظنَّ أنه انتقل إلى السماء، وقضى الساعات مستمتعاً بما يحيط به من متع الروح والحسِّ، ثم يُسقى الحشيش ويعاد إلى مكانه الأول. ويقول له الرؤساء، إن عودتك مرهونة برضى الشيخ عنك، ثم يكلفه الشيخ بمهمة انتحارية لقتل أعداء الطائفة.

(١) ابن القلانسي: ص ٢٩٨. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٦٦. عاشور: جـ ١ ص ٤٢٦.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٢٠٦. Elisséeff: Op. Cit., P. 309.
وصف ابن تغري بردي مودوداً بأنه «كان من خيار الملوك، ديناً، وشجاعة وخيراً»، النجوم الزاهرة: جـ ٥ ص ٢٠٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٢٦٨. وقارن بالباهر حيث يذكر ابن الأثير أن السلطان أقطع الموصل وأعمالها للأمير جيوش بك بعد مقتل مودود وسيّر معه ولده الملك مسعود إلى الموصل، ثم إنه جهَّز آق سنقر البرسقي بالعساكر لقتال الصليبيين، ص ١٩. ابن خلكان: جـ ١ ص ٢٤٢.

المسلمين، لذلك، لم يتعاون إيلغازي الأرتقي مع البُرسُقي، في بادىء الأمر، والراجح أن سبب هذا التحول هو العداء الذي نشب بين الرجلين، فاضطر هذا الأخير إلى مهاجمة الأملاك الأرتقية قبل مهاجمة المواقع الصليبية لإرغامه على أن يمده بقواته من التركمان، فسار إلى ماردين وضيَّق عليها[1]. عندئذ لم يسع إيلغازي إلا أن يوافق على إنفاذ ابنه أياز مع جماعة من الأجناد التركمان مدداً للبُرسُقي[2].

وغادر البُرسُقي ماردين إلى الرها على رأس جيش إسلامي مؤلف من خمسة عشر ألف فارس، وحاصرها في (شهر ذي الحجة ٥٠٨ هـ/ شهر أيار ١١١٥ م)[3]، واستمر الحصار مدة شهرين. وإذ كان في المدينة حامية قوية، وتوافرت بها المؤن، على حين أن ما استولى عليه المسلمون من المؤن من ضواحيها لم يكد يكفي لسد حاجاتهم؛ فاضطر البُرسُقي أن يرفع الحصار عن المدينة، واكتفى بتخريب القرى المجاورة مثل سروج وبَلَد[4] وربض الرها وسميساط[5]، مما حمل بعض أمراء هذه المناطق على إعلان طاعتهم له وعلى رأسهم أرملة كواسيل صاحبة مرعش وكيسوم ورعبان، كما أعلن الأرمن عن رغبتهم في التحالف معه للتخلص من الضغط الصليبي[6].

وبعد أن حقَّق هذه الانتصارات الجزئية، توجه البُرسُقي إلى منطقة شبختان جنوبي ديار بكر، واعتقل أياز بن إيلغازي انتقاماً منه لعدم حضور والده، كما قام بنهب المناطق الزراعية المحيطة بماردين، فأسرع إيلغازي إلى حصن كيفا للاستنجاد بابن أخيه ركن الدولة داود بن سقمان، فاستدعى هذا قواتٍ ضخمة من التركمان وسار مع عمه للقاء البُرسُقي. والتقى الطرفان وجرى بينهما قتال شديد، انتهى بهزيمة البُرسُقي، وتفرق قواته، فانسحب إلى الموصل، ونجا أياز من الاعتقال[7].

---

(١) ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٢٦٨.

(٢) المصدر نفسه. رنسيمان: جـ ٥ ص ٢٠٨. Elisséeff: Op. Cit., PP. 309 - 310 .

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٦٩.

(٤) بَلَد: مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل، بينهما سبعة فراسخ، وبينها وبين نصيبين ثلاثة وعشرون فرسخاً. الحموي: جـ ١ ص ٤٨١.

(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٦٩.

(٦) Grousset: Histoire des Croisades, Vol. I, P. 492.

(٧) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٦٩.

نتيجة لفشل آق سُنْقُر البُرسُقي في إخضاع إيلغازي، عزله السلطان عن ولاية الموصل في عام (٥٠٩ هـ/ ١١١٥ م)، وأقطعها لجيوش بك وسيَّر معه ولده الملك مسعود، وأقام البرسقي في إقطاعه بالرحبة إلى أن توفي السلطان محمد في (شهر ذي الحجة عام ٥١١ هـ/ شهر نيسان عام ١١١٨ م)، فأقطع خلفه وابنه محمود، أخاه الملك مسعود الموصل، وأرسله إليها مع أتابكة جيوش بك[١].

ودفعتهما طموحاتهما إلى الخروج على الإدارة المركزية السلجوقية في عام (٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م) إلا أنهما خسرا المعركة أمام السلطان محمد وعُزِلا عن الموصل، فأقطعها السلطان آق سُنْقُر البُرسُقي مجدداً في (شهر صفر عام ٥١٥ هـ/ شهر نيسان عام ١١٢١ م)، بسبب ملازمته إياه في حروبه[٢].

استمر البُرسُقي والياً على الموصل بشكل متقطع تولى خلالها شحنكية بغداد حتى مقتله في (شهر ذي القعدة عام ٥٢٠ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٢٦ م)، فخلفه ابنه عز الدين مسعود، وأقرَّه السلطان على ما كان بيد أبيه من الأعمال، لكنه توفي في عنفوان شبابه بعد عام من تسلمه الحكم. وكان نجم عماد الدين زنكي يسطع في سماء المنطقة، فعيَّنه السلطان أتابكاً على الموصل، بعدما استبعد أخا عز الدين مسعود الأصغر وأتابكه جاولي[٣].

(١) ابن الأثير جـ ٨: ص ٢٧٣، ٢٧٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٠٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٢٠ ـ ٣٢١. ابن خلكان: جـ ١ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

الباب الثاني

الدولة الزنكية في عهد عماد الدين زنكي

٥٢١ ــ ٥٤١ هــ/ ١١٢٧ ــ ١١٤٦ م



الفصل الرابع

علاقة عماد الدين زنكي بالدول والإمارات الإسلامية

علاقة عماد الدين زنكي بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية

البدايات الأولى

ترك قسيم الدولة آق سُنْقُر ولداً واحداً هو عماد الدين زنكي، وكان يومئذٍ صبياً له من العمر عشر سنين، فالتفَّ حوله مماليك والده، وأصحابه[1].

نشأ عماد الدين زنكي، بعد وفاة والده، نشأة بعيدة عن النفوذ والسلطان. ويبدو أن العوامل الرئيسية التي ساعدت على ظهوره، تكمن في ذلك الدور الهام الذي أدَّاه والده في خدمة الدولة السلجوقية، وجهده الدائب في تدعيم كيانها، حتى أنه ضحَّى بحياته في سبيل الولاء للسلطان بركياروق، بالإضافة إلى المكانة الرفيعة التي حصل عليها نتيجة حكمه لإمارة حلب، وسيرته الحسنة في أهلها.

والواقع أن بركياروق لم ينسَ ما قدَّمه والد عماد الدين زنكي من تضحيات في سبيل الاحتفاظ بعرشه، فتعهد ابنه بالرعاية والعناية والاهتمام، وكان يقيم آنذاك في حلب[2].

ودخل عماد الدين زنكي في خدمة أتابكة الموصل منذ عام (٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦م)، فخدم كربوغا، الذي اعتنى به عناية خاصة، نظراً لما كانت تربطه بوالده

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٦.

من علاقات طيبة[1]، فضمَّ مماليكه إلى جنده، وأقطعهم الإقطاعات، وجمعهم عليه، واستعان بهم في حروبه. فعندما توجّه إلى آمد لينتزعها من الأراتقة، اصطحبه معه، وهو أول مصاف حضره بعد مقتل والده[2].

استمرت العلاقات جيدة بين عماد الدين زنكي، وجَكَرْمِش الذي خلف كربوغا في حكم الموصل في (عام ٤٩٥ هـ/ ١١٠٢ م)، وتوثقت العلاقات بينهما، بفضل معرفته بمكانة والده، وظل عماد الدين زنكي ملازماً له حتى وفاته في عام (٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م)[3].

خلف جَكَرْمِش في حكم الموصل جاولي سقاو (٥٠٠ ـ ٥٠١ هـ/ ١١٠٦ ـ ١١٠٧ م). وكان عماد الدين زنكي قد بلغ مرحلة الشباب، فبدت عليه علامات الشهامة والشجاعة. فتعاون مع حاكم الموصل في بداية حكمه، قبل أن ينفر منه، وينفصل عنه، بعد ذلك، بسبب خروجه على حكم السلطان محمد السلجوقي في عام (٥٠١ هـ/ ١١٠٨ م)[4].

أثبت عماد الدين زنكي بموقفه من حركة جاولي، شدَّة تمسُّكه بولائه للسلطان، وتأييده له، مما كان له أبعد الأثر في توثيق عرى الارتباط بين الرجلين، وعندما عين السلطان محمد الأمير مودود بن التونتكين حاكماً جديداً على الموصل في (شهر ذي القعدة عام ٥٠١ هـ/ شهر حزيران عام ١١٠٨ م)، انضم عماد الدين زنكي إليه، وأضحى من كبار أمرائه، وحصل منه على مزيد من الإقطاعات[5]، وخاض معه عدة معارك ضد الصليبيين في الجزيرة وبلاد الشام أظهر خلالها شجاعة نادرة ومقدرة قتالية فذَّة، وبخاصة أثناء حصار طبرية، لفتت إليه الأنظار، وأكسبته شهرة واسعة لدى المسلمين.

واشتهر عماد الدين زنكي في هذه الآونة بلقب «زنكي الشامي» تميزاً له عن

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٧. أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: جـ ١ ص ٦٨.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه. يذكر أن مودوداً دخل الموصل في شهر صفر عام ٥٠٢ هـ/ شهر أيلول عام ١١٠٨ م.

أحد الأمراء وهو زنكي بن بُرسُق صاحب همذان[١].

انضم عماد الدين زنكي إلى خدمة آق سُنْقُر البُرسُقي، الذي خلف مودوداً في حكم الموصل بعد مقتله على أيدي الحشيشية في (شهر ربيع الآخر عام ٥٠٧ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١١٣ م)[٢]، فاشترك معه في الحروب ضد الصليبيين، في الرها وسميساط وسروج[٣]، مما زاد من شهرته لدى المسلمين.

وعندما توفي السلطان محمد في (شهر ذي الحجة عام ٥١١ هـ/ شهر نيسان عام ١١١٨ م)، حاول جيوش بك، تنصيب ابنه مسعود في بغداد، وكان أتابكه وسانده عماد الدين زنكي، إلا أن المحاولة فشلت، واستتب الأمر للسلطان محمود الذي خلف والده السلطان محمد في الحكم[٤].

وكرَّر جيوش بك المحاولة بعد ثلاثة أعوام، وسعى لاستمالة عماد الدين زنكي إلى جانبه، إلا أن هذا الأخير رفض الفكرة، وكانت قد توثقت العلاقات بينه وبين السلطان محمود، الذي حفظ له هذا الموقف، وأوصى صاحب الموصل العناية به وتقديمه على سائر الأمراء[٥].

استطاع عماد الدين زنكي أن يكتسب رضا سلاطين السلاجقة، وأن يتنقَّل في حكم البلاد، بفضل ما أُوتي من حزم وشجاعة. ففي عام (٥١٦ هـ/ ١١٢٢م)، عُيِّن آق سُنْقُر البُرسُقي شحنة على العراق[٦]، فاصطحبه معه، وخاضا معاً الحروب التي نشبت ضد دُبيس بن صدقة أمير الحلة[٧] الطامع في السيطرة على بغداد، ثم ولاَّه واسط[٨] للوقوف في وجهه. وتمكَّن عماد الدين زنكي أن ينتصر على دُبيس، وضمَّ

---

(١) ابن الأثير: ص ١٩.
(٢) ابن القلانسي: ص ٢٩٨.
(٣) ابن الأثير: ص ١٩ ـ ٢٠.
(٤) ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٢٧٧.
(٥) ابن الأثير: الباهر ص ٢٤.
(٦) ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٣٠٩.
(٧) الحلَّة: مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد. الحموي: جـ ٢ ص ٢٩٤.
(٨) واسط: في العراق، أول أعمالها من شرقي دجلة فم الصلح؛ ومن الجانب الغربي زُرْفامية، وآخر أعمالها من ناحية الجنوب البطائح. بناها الحجاج بن يوسف الثقفي بن أعوام (٨٤ ـ ٨٦ هـ). المصدر نفسه ص ٣٤٧ ـ ٣٥٣.

إليه النعمانية[1]، مما دفع البُرسُقي إلى إضافة البصرة إلى ولايته للتصدي لهجمات الأعراب الدائمة عليها[2]. وأظهر عماد الدين زنكي كفاءة إدارية ومقدرة عسكرية فائقة، فنجح في القضاء على الفوضى التي انتشرت في ربوع البصرة، وأوقف هجمات الأعراب عليها، مما زاد من مكانته بين رجال الدولة السلجوقية[3].

وجد دُبيس بن صدقة نفسه أمام رجل صلب، فتجنَّب الاصطدام به، وفضَّل تركيز جهوده على مهاجمة بغداد، إلا أن البُرسُقي وعماد الدين زنكي لم يمكِّناه من تحقيق أهدافه، وساندا قوات الخليفة المسترشد بالله وأحرزت القوات المتحالفة انتصاراً واضحاً عليه في عام (٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م)، بفضل الخطة التي وضعها ونفَّذها عماد الدين زنكي[4].

والواضح أن عماد الدين زنكي لم يشترك في هذه المعركة بسبب التزامات مسبقة تجاه الخليفة، وإنما لكونه موظفاً من موظفي الدولة السلجوقية يرتبط بشحنتهم في العراق، ويلتزم بأوامرهم، وكان السلاجقة يقفون آنذاك إلى جانب الخليفة ضد عبث أمير الحلة[5]. وعندما كانت تسوء العلاقات بين الخلافة والسلطنة السلجوقية، كان عماد الدين زنكي يقف إلى جانب السلاجقة، كما حصل، في عام (٥١٩ هـ/ ١١٢٥م)، عندما نشب النزاع بين الخليفة المسترشد بالله والسلطان محمود الطامع في فرض سيطرته المباشرة على العراق[6].

في عام (٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م) عزل البُرسُقي من شحنكية العراق وأعيد إلى الموصل لجهاد الصليبيين، فاستدعى عماد الدين زنكي، وكان في البصرة، لمرافقته، إلا أن هذا الأخير آثر البقاء في أصفهان مع السلطان محمود، ويبدو أنه هدف إلى أن يصبح واحداً من الأمراء لا مجرد تابع يقاتل لحساب أمراء عديدين، فقرَّبه السلطان

(١) النعمانية: بليدة بين واسط وبغداد في نصف الطريق على ضفة دجلة، معدودة من أعمال الزاب الأعلى وهي قصبته. الحموي: جـ ٥ ص ٢٩٤.
(٢) ابن الأثير: الباهر ص ٢٦ ـ ٢٨.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٣١٠ ـ ٣١١.
(٥) خليل، عماد الدين: عماد الدين زنكي ص ٣٩ ـ ٤٠.
(٦) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

إليه وزوَّجه من أرملة كندغدي، وهو أحد كبار أمرائه[1]، وأقطعه البصرة في العام التالي[2]، وعيَّنه شحنة على العراق في (شهر ربيع الآخر عام ٥٢١ هـ/ شهر نيسان عام ١١٢٧ م) بالإضافة إلى ما بيده من الولايات[3]، وأتابكاً لولديه ألب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي، وفقاً للتقاليد السلجوقية السائدة آنذاك. ومنذ ذلك الوقت أُطلق على نور الدين زنكي لقب «أتابك»[4]، وأضحى كل من ولدي السلطان محمود تحت إشرافه المباشر.

قضى عماد الدين زنكي في منصبه الجديد مدة أربعة أشهر قبل أن يُعهد إليه في (شهر رمضان/ شهر أيلول) بولاية الموصل والجزيرة وما يفتحه من بلاد الشام[5]. ودفعته الظروف السياسية بعد وفاة عز الدين مسعود بن البُرسُقي، والي الموصل، إلى اعتلاء هذا المنصب[6].

والواقع أن وفاة كل من البُرسُقي وابنه مسعود، أضعفت الموقف الإسلامي في منطقة الجزيرة، وشجَّعت الصليبيين على التوغل في المناطق الإسلامية. فقد تولى الحكم في الموصل، بعد وفاة مسعود، أخوه الصغيرو تحت ولاية الأمير جاولي الذي انفرد بتدبير شؤون الحكم، فأرسل إلى السلطان محمود يطلب منه أن يقر ولد البُرسُقي على الحكم تقديراً للخدمات التي كان أبوه وأخوه قد أدياها للسلاجقة من قبل، وبذل الأموال الكثيرة في ذلك. وقد تألف الوفد الذي أرسله من القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين محمد الياغسياني، أمير حاجب البُرسُقي[7].

ويبدو أن جاولي لم يكن يعلم بنوايا رجال وفده وموقفهم منه. ذلك أنه لم يحظَ بالتأييد المطلوب نظراً لسوء سيرته، فعمل المبعوثان على إبعاده عن الولاية، وتزكية

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ٢٧. في الكامل أن عزله عن شحنكية العراق كان في عام ٥١٨ هـ، جـ ٨ ص ٣١٦.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص ٢٧.

(٣) ابن الأثير، الكامل: جـ ٨ ص ٣٢٣. ابن خلكان: جـ ٢ ص ٣٢٧.

(٤) البنداري، ص ١٨٨. ابن خلكان: المصدر نفسه، ص ٣٢٨.

(٥) ابن الأثير: الباهر ص ٣٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٢.

(٧) المصدر نفسه: ص ٣٤ ـ ٣٥.

عماد الدين زنكي لتولي الحكم، وتمكَّنا من إقناع السلطات السلجوقية بكفاءة عماد الدين زنكي وقدرته على مواجهة الخطر الصليبي[1]. كما انتهز عضوا الوفد وجودهما في بغداد فاجتمعا بعماد الدين زنكي، واستطاعا أن يقنعاه بما كانا يطمحان إليه من اختياره لإدارة شؤون الموصل، ووعدهما عماد الدين زنكي بتولية القاضي الشهرزوري قضاء البلاد، والياغسياني الحجابة وإمرة الجيش[2].

وبتوليته الموصل، أُتيحت لعماد الدين زنكي فرصة نادرة لتحقيق طموحه، وإشباع نزعته الاستقلالية التي بدأت تبرز مع تدرجه في المناصب الإدارية والعسكرية.

وفي (الثالث من شهر رمضان عام ٥٢١ هـ/ الثالث عشر من شهر أيلول عام ١١٢٧ م)، غادر عماد الدين زنكي ورجاله بغداد نحو الموصل لتسلم مهام منصبه الجديد[3]. وباعتلاء عماد الدين زنكي سدة الحكم في الموصل قامت الدولة الزنكية.

عماد الدين زنكي بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية

تسلَّم عماد الدين زنكي المدينة من الأمير جاولي، وأقطعه الرحبة وأعمالها[4]، ثم انصرف إلى تنظيم شؤون إمارته إدارياً وعسكرياً مستنداً في ذلك إلى ما كان سائداً عند السلاجقة من نظم الحكم، فولّى نصير الدين جقر قلعة الموصل، وفوَّض إليه أمر الولاية جميعها، وعيَّن الياغسياني أمير حاجب، والقاضي الشهرزوري، قاضي بلاده وما يفتحه من بلاد[5]، ثم انصرف إلى العمل على تحقيق هدفين وضعهما نصب عينيه هما:

- تأسيس دولة وراثية وتوسيعها عن طريق ضمِّ المدن والإمارات المحلية في الجزيرة وبلاد الشام، وتوحيدها مع إمارة الموصل.

- تكوين جبهة إسلامية متماسكة تستطيع مواجهة الصليبيين، وتطردهم من

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ٣٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل: جـ ٨ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٣) ابن الأثير، الباهر: ص ٣٢ ـ ٣٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٤.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٥.

الشرق الإسلامي، فدخل من أجل ذلك في علاقات سياسية وعسكرية مع الأمراء المحليين.

ويبدو أنه لم يتمكَّن من المضي قدماً في تحقيق هدفيه، في بادىء الأمر، بسبب انغماسه في أحداث العراق، مما صرفه عن ميدان بلاد الشام، إذ شهد هذا البلد آنذاك صراعاً بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، من أجل الاستئثار بالنفوذ، تدخل فيه عماد الدين زنكي، وانتهى بانتصار واضح لصالحه، وتحديد مستقبله السياسي.

تراوحت علاقاته بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بين التعاون المثمر والعداء الشديد وفقاً للمصلحة العامة والشخصية في الوقت نفسه، على أن هذه التقلبات لم تؤثر على مركزه في ولاية الموصل والجزيرة وبلاد الشام. فقد تعرَّض، في بداية حكمه، لمحاولة استهدفت عزله عن منصبه وإحلال دُبَيس بن صدقة، أمير الحلَّة، مكانه. ذلك أن هذا الرجل كان قد التحق بخدمة السلطان سنجر، سلطان السلاجقة العظام في خراسان، وأضحى من أمرائه المقربين. وحدث أن توجه محمود سلطان سلاجقة العراق إلى خراسان لتصفية المشاكل القديمة مع عمه سنجر[1]، وأثناء المباحثات التي جرت بينهما طلب سنجر من ابن أخيه محمود أن:

- يعزل عماد الدين زنكي عن الموصل والجزيرة وبلاد الشام، ويوليها لدُبَيس.
- يطلب من الخليفة تحسين علاقاته به بعد المشاكل التي أثارها ضد الخلافة[2].

ويبدو أن محموداً استجاب لطلب عمه، فعندما وصل إلى بغداد في (مطلع عام ٥٢٣ هـ/ آخر عام ١١٢٨ م) سعى لدى الخليفة المسترشد بالله لتحقيق ذلك، كما طلب من عماد الدين زنكي التخلي عن منصبه، وتسليمه لدُبَيس[3].

كان هذا الطلب كافياً للقضاء على آمال عماد الدين زنكي وتطلعاته السياسية. لذلك تحرك على وجه السرعة لإحباط هذا التدبير، فقدم إلى بغداد، وتمكَّن، بعد مباحثات طويلة، من إقناع السلطان بضرورة إبقائه على ولاية الموصل لمجابهة

---

(١) انظر فيما يتعلق بهذه المشاكل: الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص ٨٨ ـ ٩٠.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: جـ ١٠ ص ٨ ـ ٩. ابن كثير: البداية والنهاية: جـ ١٢ ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل: جـ ٨ ص ٣٢٨.

الصليبيين، كما أكَّد طاعته وإخلاصه له، فخلع عليه وجدَّد له ولايته، وكتب له منشوراً جديداً بحكم الموصل والجزيرة والشام، تأكيداً لمنشور عام ٥٢١هـ[١].

ويبدو أنه تلقى المساندة من الخليفة الذي كان يضمر الكراهية لدُبَيس بسبب تعاونه مع الصليبيين ضد المسلمين، وموقفه العدائي منه، وشنِّه الغارات على بغداد[٢]. كما أنه لم يكن في صالح السلطان محمود نفسه عزل عماد الدين زنكي عن الموصل، وهو الذي وقف إلى جانبه في الأوقات الحرجة. ولعله لم يقم بمحاولة العزل إلا تحت ضغط عمه سنجر صاحب السلطة العليا على السلاجقة، هذا فضلاً عن أن تعيين دُبَيساً والياً على الموصل قد يتيح لسنجر أن يتخذ منه ذريعة لزعزعة نفوذه وتقويض سلطانه في العراق[٣].

وفي عام (٥٢٥ هـ/ ١١٣١ م)، ساءت العلاقات بين عماد الدين زنكي والخليفة المسترشد بالله. فقد طلب الخليفة منه تسليمه دُبَيس بن صدقة، وكان معتقلاً في دمشق[٤]، إلا أن عماد الدين زنكي أطلق دُبَيساً واستقطبه بما بذل له من المال. ويبدو أنه أراد أن يراقب تحركاته عن كثب، وأن يحدَّ من نشاطه المعادي له. أما الخليفة فقد هدف من وراء القبض على دُبَيس أن يضع حداً لمطامعه في العراق[٥].

اطمأن عماد الدين زنكي إلى ولايته طيلة الأعوام الأخيرة من حكم السلطان محمود. وعندما توفي هذا الأخير في (شهر شوال عام ٥٢٥ هـ/ شهر أيلول ١١٣١م)، طلب من الخليفة، أن يقيم الخطبة في بغداد للأمير السلجوقي ألب أرسلان[٦]، لكن الخليفة اعتذر عن إجابة الطلب متعلِّلاً:

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص٣٢٨ . ابن الجوزي: جـ ٨ ص ١١. ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: جـ ١ ص ٤٠.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه.

(٣) خليل: ص ٥١.

(٤) كان دُبيس في طريقه إلى الحلة بعد هزيمته في العراق. فضلَّ الطريق، وقبض عليه حسان بن كلثوم الكلبي، فحمله إلى دمشق، وباعه أميرها تاج الملوك بن طغتكين بوري لعماد الدين زنكي لقاء خمسين ألف دينار. ابن القلانسي ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٥) حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام. . . : جـ ٤ ص ٧١.

(٦) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٣٣.

ـ بصغر سن ألب أرسلان وبعدم صلاحيته للحكم.

ـ بأن السلطان كان قد عهد بالسلطنة من بعده، وهو بأصفهان، إلى ابنه داوود.

ـ بأن حكام الولايات قد بدأوا فعلاً بإقامة الخطبة له، وأضاف، بأنه لن يقدم على اتخاذ أي إجراء بهذا الصدد قبل أن تصله رسالة من السلطان سنجر زعيم السلاجقة الكبار في خراسان[1].

وهكذا فوَّت الخليفة فرصة ذهبية على عماد الدين زنكي للاستفادة من وفاة السلطان محمود، الذي لو نجح في اغتنامها لأتاحت له مجالات جديدة في العمل السياسي، ودفعته إلى الخروج عن الولاء للسلاجقة بتنصيب أحد أمرائهم المقيم تحت إشرافه في الموصل سلطاناً على سلاجقة العراق فيصبح بذلك المتحكم الفعلي في شؤون العراق باسم السلطان الجديد[2].

أدَّت وفاة السلطان محمود (في عام ٥٢٥ هـ/ ١١٣١ م) إلى نزاعات أُسرية من أجل الفوز بحكم الدولة السلجوقية في العراق، اشترك فيها عماد الدين زنكي والخليفتان المسترشد والراشد بحكم موقع كل منهم السياسي.

وفي خضم النزاعات السلجوقية، سعى كل طامع في السلطة في العراق إلى استقطاب عماد الدين زنكي للاستفادة من قدراته العسكرية. ففي (عام ٥٢٦ هـ/ ١١٣٢م) استماله مسعود بن محمد بن ملكشاه، حاكم أذربيجان، لمساعدته في المطالبة بعرش السلاجقة في العراق، ووعده بتقليده مدينة إربل الحصينة، الواقعة شرقي الموصل، وتمَّ الاتفاق بينهما على أن يتوجه عماد الدين زنكي إلى بغداد ويطلب من الخليفة المسترشد بالله إقامة الخطبة لمسعود، والاعتراف به سلطاناً على العراق[3].

لكن حدث أن سبق سلجوقشاه، الطامع أيضاً في اعتلاء عرش السلطنة في العراق، أخاه مسعوداً إلى بغداد، وطلب من الخليفة إقامة الخطبة باسمه. لكن الخليفة رفض الاستجابة لطلبه، وعلم في غضون ذلك، بتقدم قوات عماد الدين زنكي باتجاه بغداد لفرض سلطة مسعود[4]. رأى الخليفة أن في ذلك تحدياً لسلطته، وكان يجاهد

---

(١) ابن واصل: جـ ١ ص ٤٦.

(٢) خليل: ص ٥١ ـ ٥٢.

(٣) ابن واصل: جـ ١ ص ٤٧.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٣٦.

للانعتاق من الطوق السلجوقي وانتزاع استقلالية القرار العباسي، لذلك توجه إلى تكريت لإيقاف تقدمه[1].

والتقت قواتهما عند قصر المعشوق على الجهة المقابلة لسامراء، وانتهى اللقاء بهزيمة واضحة لعماد الدين زنكي، وأسر عدد كبير من قواته، انسحب عماد الدين زنكي بعد المعركة إلى تكريت[2] حيث أكرم حاكمها نجم الدين أيوب وفادته، وسهَّل له سبيل عودته إلى الموصل[3].

كان السلطان سنجر يراقب تطورات الأحداث السياسية في العراق، بهدف انتهاز فرصة للتدخل والهيمنة على مقدرات الأمور وإخضاع سلاجقة العراق لإشرافه المباشر. وحتى يدعم موقفه، رأى أن يستقطب كلاً من عماد الدين زنكي ودُبَيس بن صدقة، فطلب منهما التوجه إلى بغداد والاستيلاء عليها وإقامة الخطبة فيها له ولخليفته الملك طغرل بن محمد بن محمود، وتعهد بإضافة شحنكية بغداد إلى عماد الدين زنكي، وبإقطاع الحلة لدُبَيس[4]. فوافق عماد الدين زنكي على هذا العرض لاعتقاده بأن النصر سيكون حليف سنجر، وبذا يستطيع أن يحقِّق مزيداً من مطامحه.

أدرك كل من مسعود وسلجوقشاه أن الصراع بينهما سوف يتيح الفرصة لتدخل عمهما سنجر ويقضي على مصالحهما في العراق، فعقدا صلحاً بينهما، ووحَّدا قواتهما للوقوف في وجهه، لكن سنجر انتصر على جيوشهما، وأجلس طغرل بن محمد على عرش سلاجقة العراق في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٢٦ هـ/ شهر نيسان عام ١١٣٢ م)[5]. في هذه الأثناء، كان عماد الدين زنكي ودُبَيس قد اقتربا من بغداد، واشتبكا مع قوات الخليفة في (أواخر شهر رجب/ شهر أيار)، وحلَّت بهما الهزيمة، فتراجع عماد الدين زنكي إلى الموصل، وقام

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٣٦.

(٢) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة، وهي غربي دجلة. الحموي: جـ ٢ ص ٣٨.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٣٦.

(٤) ابن الجوزي: جـ ١٠ ص ٢٦. ابن الأثير، الكامل: جـ ٨ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٥) الحسيني: ص ١٠٠ ـ ١٠١.

دُبَيس بمحاولة فاشلة لاستعادة الحلة[1].

استطاع مسعود، بعد سلسلة من الحروب، أن يقضي على منافسيه ويجلس على عرش سلاجقة العراق بموافقة سنجر في (شهر صفر عام ٥٢٧ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٣٢ م)[2].

كان للحروب التي حدثت بين السلاجقة فيما بينهم من جهة، ثم فيما بينهم وبين الخلافة العباسية من جهة أخرى، واشتراك عماد الدين زنكي فيها، نتائج هامة على وضعه السياسي والعسكري، منها:

- أنه خسر علاقته الودية بالسلطنة السلجوقية التي استفاد منها في أيام السلطان محمود، إلا أنه حصل على مدينة إربل المهمة عسكرياً.
- اتسعت شهرته كأمير ذي قوة مؤثِّرة في الصراع الدائر في المنطقة.
- خرج من تلك الحروب وقد تعرَّف على عائلة بني أيوب، مما سيكون له أثر كبير في تطور هذه العائلة، وازدياد نشاطها.
- تدهورت العلاقات بينه وبين الخلافة العباسية[3].

وحدث في (شهر ربيع الأول عام ٥٢٧ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٣٣م)، أن أرسل الخليفة إلى عماد الدين زنكي، كتاباً يُنحي فيه باللائمة عليه بسبب مواقفه العدائية منه. ويبدو أن الرسول الذي حمل الكتاب أغلظ القول له، مما دفع زنكي إلى القبض عليه[4].

استغل الخليفة هذه الحادثة ليوجه له ضربة انتقامية. فجهَّز جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل، وخرج من بغداد في (شهر رمضان/ شهر تموز)، باتجاه الموصل. ولما علم عماد الدين زنكي بخروجه، قرَّر التصدي له. فخرج من الموصل على رأس قسم من جيشه وعسكر بظاهر سنجار لاعتراض تقدمه، وقطع طرق الإمدادات عليه، بينما أبقى القسم الآخر في الموصل بقيادة نصير الدين جقر ليقوم بمهمة الدفاع عنها[5].

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ٤٥ ـ ٤٦.
(٢) الراوندي: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.
(٣) خليل: ص ٥٤.
(٤) ابن واصل: جـ ١ ص ٥٢.
(٥) ابن الأثير، الكامل: جـ ٨ ص ٣٤٠. ابن واصل: المصدر نفسه.

نجح جيش الخليفة في الوصول إلى الموصل، وضرب الحصار عليها الذي استمر مدة ثمانين يوماً دون أن يتمكن من اقتحامها، وكان عماد الدين زنكي في غضون ذلك، يشنُّ الهجمات عليه، حتى أضحى محاصراً، فتناقصت أقواته، وساء وضعه القتالي[١].

وعلى الرغم من هذا الموقف الصعب الذي وجد الخليفة فيه نفسه، إلا أن عماد الدين زنكي لم يتمكَّن من النيل منه. وكان تراجع الخليفة العسكري الذي حصل بعد ذلك نتيجة لعوامل خارجية. إذ استغل السلطان مسعود فرصة انهماك الخليفة بحصار الموصل، فتوجه إلى بغداد لتعزيز مركزه فيها، واستعان بدُبَيس بن صدقة للاستيلاء عليها[٢]. تلقى الخليفة هذه الأنباء المقلقة، وهو يحاصر الموصل، ففكَّ الحصار عنها وعاد إلى بغداد ليدافع عن عاصمته، فوصل إليها في (العاشر من شهر ذي الحجة)[٣]. وبذلك تخلَّص عماد الدين زنكي من الخطر الذي كاد يقضي على آماله.

وحتى يجابه القوة السلجوقية اضطر الخليفة إلى التقرُّب من عماد الدين زنكي، فأجرى معه مفاوضات ناجحة، وعُقد الصلح بين الجانبين في (مطلع عام ٥٢٨ هـ/ أواخر عام ١١٣٣ م) وتبودلت الهدايا، وأرسل عماد الدين زنكي ابنه سيف الدين غازي إلى الخليفة ليؤكد طاعته وولاءه له[٤].

والواقع أنه جمعت الطرفان مصلحة مشتركة تمثَّلت في عدائهما للسلطان مسعود. واستنجد الخليفة به في (شهر جمادى الأولى عام ٥٢٩ هـ/ شهر شباط عام ١١٣٥ م) أثناء صراعه مع السلطان المذكور. وكان عماد الدين زنكي آنذاك يحاصر دمشق، ففك الحصار عنها، وعقد صلحاً مع حكومتها، حتى لا يُطعن من الخلف، وعاد مسرعاً إلى بغداد لنجدة الخليفة، إلا أنه وصل متأخراً، إذ انتصر السلطان مسعود على الخليفة في المعركة التي دارت بينهما في (العاشر من شهر رمضان/ شهر حزيران) ووقع في الأسر، وظل مأسوراً حتى منتصف ذي القعدة، حين هاجمه جماعة من الحشيشية وقتلوه[٥].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٤٠. ابن واصل: جـ ١ ص ٥٢.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المنتظم: جـ ١٠ ص ٣٤. ابن الأثير: الباهر ص ٤٧ ـ ٤٨.
(٥) ابن الأثير، الكامل: جـ ٨ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٩.

أُخذت البيعة بعد مقتل المسترشد بالله لابنه أبو جعفر منصور الملقب بالراشد بالله (٥٢٩ ـ ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ ـ ١١٣٦ م) بموافقة السلطان مسعود[١]. وهكذا ضاعت فرصة أخرى من يد عماد الدين زنكي للسيطرة على العراق.

نتيجة لهذه التطورات السياسية ازداد التوتر بين عماد الدين زنكي والسلطان، وقد بلغ حداً دفع الثاني إلى تدبير مؤامرة لاغتيال الأول حتى يتخلَّص من خطره بشكل نهائي، فاستدعاه إلى أصفهان، لكن دُبَيساً أخبره بنواياه وحذَّره من التوجه إلى بلاطه، فامتنع عن الذهاب، ولما علم السلطان بما فعله دُبَيس قتله على الفور[٢].

وما لبثت العلاقات أن تدهورت بين الخليفة الجديد وبين السلطان مسعود. واجتمع لدى الراشد من المبررات ما دفعه إلى محاولة التخلص منه، لعل أبرزها الثأر لمقتل والده. فألَّب الأمراء عليه، واستعان بعماد الدين زنكي بعد أن استدعاه إلى بغداد، واتفق معه على إقامة الخطبة لألب أرسلان[٣].

غير أن الخليفة، نكث بوعده بعد ذلك، فحوَّل الخطبة إلى داوود بن محمود[٤]، مما أحدث فتوراً في العلاقات بينهما. لكن سياسة التفاهم عادت مجدَّداً، بسبب استيلاء سلجوقشاه على واسط، فاضطر الخليفة أن يطلب مساعدة عماد الدين زنكي لاسترداد هذا الموقع الهام الواقع جنوبي بغداد[٥].

فشل عماد الدين زنكي في أداء هذه المهمة. وانتهى زحفه على واسط بعقد صلح مع سلجوقشاه[٦]، مما أعاد الشكوك ثانية بين الرجلين. إلا أن الخليفة الذي كان في وضع حرج، نتيجة الضغط السلجوقي، اضطر إلى التفاهم مجدَّداً، معه، للاعتماد عليه في مواجهة السلطان مسعود الذي نجح في دخول بغداد. وخلعه عن سدة الخلافة وولَّى المقتفي لأمر الله مكانه في (شهر ذي الحجة عام ٥٣٠ هـ/ شهر أيلول عام ١١٣٦ م)[٧].

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ٥٠. الكامل: جـ ٨ ص ٣٤٩.
(٢) ابن الجوزي: جـ ١٠ ص ٥٣. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٤٤.
(٣) ابن الجوزي المصدر نفسه: ص ٥٥.
(٤) المصدر نفسه. ابن واصل: جـ ١ ص ٦٤.
(٥) ابن الأثير: الباهر ص ٥١ ـ ٥٢.
(٦) ابن الأثير، الكامل: ص ٣٥٤.
(٧) المصدر نفسه: ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥. ابن واصل: جـ ١ ص ٦٥ ـ ٦٦.

غادر الراشد بغداد متوجهاً إلى الموصل بصحبة عماد الدين زنكي. والجدير بالذكر أن الخطبة للمقتفي اقتصرت على بعض أنحاء العراق، بينما استمرت مناطق الموصل والجزيرة وبلاد الشام تخطب للراشد الذي كان يتمتع بحماية عماد الدين زنكي[١]، غير أن هذا التحالف لم يدم طويلاً، فقد شعر كل منهما بضعف موقفه أمام موقف السلطان والخليفة الجديد، لذلك أسرعا بإرسال الرسل للتوسط لديهما، وإنهاء حالة الحرب[٢].

وأضحى عماد الدين زنكي، على الرغم من ضعف موقفه، القوة التي تتطلع إليها الأطراف المتنازعة لاستقطابها. وهكذا استماله أعوان المقتفي، إلى جانبهم، وكافأه الخليفة، بأن أقطعه بعض أملاكه وزاد في ألقابه[٣]. واضطر تحت ضغط الأحداث السياسية والعسكرية إلى التخلي عن حليفه الراشد.

كانت التقلبات السياسية السريعة لعماد الدين زنكي تهدف إلى ضمان استمرار حكمه، وتحقيق وحدة الصف الإسلامي في الموصل والجزيرة والشام لتكوين جبهة إسلامية موحَّدة تقف في وجه الصليبيين[٤]، وكان من الطبيعي أن تتحسَّن العلاقات بينه وبين السلطان مسعود، الذي أرسل إليه في (شهر ربيع الأول عام ٥٣٢ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٣٧ م) التشريف الكامل والخلع[٥].

وأدرك عماد الدين زنكي خطورة الأوضاع في شمالي الشام بفعل تهديد الصليبيين لمدينة حلب التي كانت تعاني من الفوضى في ظل صراع على السلطة بعد وفاة حاكمها إيلغازي الأرتقي في (شهر رمضان عام ٥١٦ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٢٢ م)، فأرسل قاضيه الشهرزوري ليشرح للسلطان هذا الوضع، ويطلب منه مساعدة عسكرية لإبعاد الصليبيين عن المنطقة[٦].

نجح الشهرزوري في مهمته، وتمكَّن من إقناع السلطان بإمداده بقوة عسكرية،

---

(١) ابن القلانسي: ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤.
(٢) ابن الجوزي: جـ ١٠ ص ٦٧. ابن الأثير: الباهر ص ٥٤.
(٣) ابن الأثير: المصدرنفسه.
(٤) حسن: جـ ٤ ص ٧٤.
(٥) ابن القلانسي: ص ٤١٤.
(٦) ابن العديم: جـ ١ ص ٤٠٦. ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٣٦٠. ابن الأثير: الباهر ص ٦٢ ـ ٦٣.

إلا أن رسالة عاجلة وصلت إلى بغداد من عماد الدين زنكي، أفادت بأن الصليبيين، رحلوا عن حلب، وأنه لم يعد بحاجة، إلى المدد العسكري[1]. وتدليلاً على العلاقات الجيدة بين السلطنة السلجوقية والدولة الزنكية، فقد أرسل السلطان مسعود رسالة تهنئة إلى عماد الدين زنكي وهو على أبواب حمص بمناسبة انتصاره على الصليبيين، وخلع عليه الخلع السلطانية، إلا أن هذه العلاقات تبدَّلت في عام (٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م)، حين حاول السلطان مسعود، الذي خشي من طموحات عماد الدين زنكي، واتساع رقعة إمارته، وتنامي قوته العسكرية؛ توجيه ضربة حاسمة له، معتقداً بأنه وراء القلاقل التي كان يقوم بها أمراء الأطراف ضد حكمه في العراق، وأن هؤلاء لا يلتزمون بسياسته.

والراجح أن عماد الدين زنكي هدف إلى إلهاء السلطان لمنعه من مضايقته، وبذلك يستطيع، وهو مطمئن، أن يوطد نفوذه في الموصل ويوسع رقعة أملاكه على حساب الأمراء المسلمين المجاورين، ويحارب الصليبيين[2].

ولما علم بنوايا السلطان أرسل إليه يستعطفه ويستميله. وفعلاً جرت مفاوضات بين الطرفين أدَّت إلى إعادة الوفاق بينهما. وكان من أهم بنود الصلح أن:

- يدفع عماد الدين زنكي للسلطان مبلغ مائة ألف دينار.
- يتنازل له عن بعض إقطاعاته في بغداد.
- يحضر شخصياً إلى بلاطه لإعلان الطاعة[3].

والواضح أن تراجع السلطان عن موقفه العدائي تجاهه يعود إلى أمرين:

الأول: أنه أدرك خطورة الوضع في الجزيرة وشمالي الشام حيث غدا الصليبيون يشكلون خطراً مباشراً على المنطقة، وأن عماد الدين زنكي هو القوة الوحيدة التي يمكن أن تقف في وجههم، وترغمهم على التراجع.

الثاني: أنه جوبه بمعارضة شديدة من رجال دولته ومواطنيه من أجل إبقاء إمارة الموصل كحاجز قوي متماسك أمام أطماع الصليبيين، وقد أوضحت هذه المعارضة أن عماد الدين زنكي هو الأمير الوحيد في المنطقة الجدير بالتصدي لتلك

---

(١) ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٣٦٠. الباهر: ص ٦٢ ـ ٦٣.
(٢) حسن: جـ ٤ ص ٧٥.
(٣) ابن الجوزي: جـ ١٠ ص ١٠٨. ابن الأثير: الباهر ص ٦٥.

الأطماع، وأن القضاء عليه يعني فتح الطريق أمام الصليبيين إلى العراق[1].

بعد إقرار الصلح، أرسل عماد الدين زنكي عشرين ألف دينار كدفعة أولى تنفيذاً للبند الأول من الاتفاق، ثم تنازل السلطان عن المبلغ المتبقي بهدف استقطابه وكسب وده حتى لا ينضمَّ إلى أمراء الأطراف الذين خرجوا على حكمه، كما تغاضى عن تنفيذ البند الخاص بحضوره إلى البلاط السلجوقي، وعذره بسبب انهماكه في جهاد الصليبيين، إلا أنه اشترط عليه فتح الرها[2].

وقامت علاقات عماد الدين زنكي مع الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله على الود والتعاطف، واستمرَّت الصلات المتبادلة بينهما، وازدادت هذه العلاقات وثوقاً بعد أن فتح عماد الدين زنكي الرها في عام (٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م)، حيث منحه عدداً من الألقاب، كالأمير الكبير، العادل، المؤيد، المظفر، المنصور[3].

وهكذا يتضح أن عماد الدين زنكي اتبع سياسة مستقلة إلى حد كبير، تجاه علاقته بكل من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، وأضحى يشكل قوة مؤثِّرة، ضاغطة، في الأحداث التي شهدها العراق، مستغلاً علاقات الخلافة المتقلبة بالسلطنة السلجوقية لتحسين وضعه السياسي، غير أن هذه السياسة لم تؤدِّ إلى استقرار وضعه، بل على العكس، هدَّدت حكمه بين الفينة والفينة، ولولا نجاحه في مقاومة الصليبيين، وإقامة إمارة حاجزة في الموصل، بينهم وبين العراق، لكان من المحتمل أن تتعرَّض إمارته لخضَّات سياسية شديدة وخطيرة، ربما أودت بجهوده في بناء دولة[4].

عماد الدين زنكي يتوسع في شمال بلاد الشام وإقليم الجزيرة (٥٢١ ـ ٥٤١ هـ/ ١١٢٧ ـ ١١٤٦ م)

ضمُّ حلب:

بعد تثبيت أقدامه في الموصل، التفت عماد الدين زنكي إلى تنفيذ الشق الأول من خطته، القاضي بإنشاء دولة وراثية، وتوسيعها عن طريق ضمِّ الإمارات الإسلامية، في الجزيرة وبلاد الشام، والمناطق الشرقية، وتوحيدها مع إمارة الموصل،

---

(١) خليل: ص ٦٤.
(٢) ابن الأثير: الباهر ص ٦٥.
(٣) ابن القلانسي: ص ٤٤٣.
(٤) خليل: ص ٦٦.

تمهيداً للانتقال إلى الشق الثاني من الخطة وهو مجابهة الصليبيين؛ مدركاً في الوقت نفسه أنه لا يستطيع أن يطمئن أثناء زحفه نحو بلاد الشام إلا إذا ضمَّ هذه الإمارات الصغيرة المنتشرة في المناطق المذكورة، حتى لا تتعرض مؤخرة جيشه لخطر الهجوم عليها.

والواقع أنه توسع في اتجاهين متباعدين، ففي الغرب، فقد هدف إلى توحيد القوى الإسلامية، وتكوين جبهة متماسكة ليواجه الصليبيين في الرها وبلاد الشام. أما في الشرق فقد كانت إمارات المدن الإسلامية تقف حجر عثرة في توغله شرقاً باتجاه بلاد فارس. ويبدو أنه أراد أن يبسط هيمنة فعلية على العراق والمناطق الشرقية على حساب السلاجقة.

والواضح أن منطقة الجزيرة وشمالي بلاد الشام قد شهدت خلال هذه الآونة قيام عدد كبير من المدن والإمارات التي استأثر بحكم كل منها أمير مستقل أو شبه مستقل، لم يتمكَّن من إنشاء دولة واسعة أو إمارة وراثية، باستثناء بعض الإمارات مثل الإمارات الأرتقية، وأتابكية دمشق.

وقد ساعدت الظروف السياسية المضطربة، التي كانت تمر بها المنطقة والبلاد المشار إليها، على تكوين مجتمعات منعزلة، إلى حد ما، نتيجة لضعف الرابطة السياسية، بين هذه الإمارات المحلية المختلفة، واستقلال كل منها في مواجهة مشكلاتها، ومعالجة شؤونها، فأضحى لكل وحدة من هذه الوحدات السياسية - الاجتماعية كيانها الخاص وذاتيتها المتميزة إلى حد كبير[1]. ورأى عماد الدين زنكي ضرورة ضمِّ هذه المدن والإمارات المحدودة الاتساع، والضعيفة نسبياً، كي تغدو سلطته في هذه المناطق أمراً واقعاً. واستغرقت عملية الضمِّ حتى عام (٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م)، كان ينتقل خلالها من مدينة إلى أخرى لضمها وفقاً لتطور الأوضاع السياسية.

وتطبيقاً لهذه السياسة، ضمَّ البوازيج[2] في عام (٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م) الواقعة

---

(١) أحمد، محمد حلمي محمد: مقدمة لكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة ص ٣.

(٢) البوازيج: بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة. الحموي: جـ ١ ص ٥٠٣.

على طريق الموصل عند مصب نهر الزاب الأسفل، مستهدفاً اتخاذها قاعدة لحماية مؤخرته ضد جاولي الوصي على حاكم الموصل آنذاك[١]، ثم ضمَّ جزيرة ابن عمر، وتقع إلى الشمال على بعد ثلاثة أميال من الموصل؛ نظراً لأهميتها العسكرية والاقتصادية، وكان يحكمها أحد مماليك البُرسُقي[٢]، ثم تطلع إلى ضمِّ حلب.

وتُعدُّ حلب ذات أهمية بالغة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الصليبيين، بفضل ما تتمتَّع به من حصانة عسكرية، ومركز متميز، وإمكانات اقتصادية وبشرية وسياسية هامة؛ بالإضافة إلى موقعها على خطوط المواصلات بين فارس والعراق من جهة، وبين الشام وآسيا الصغرى من جهة أخرى، ثم بين إمارتين صليبيتين هما الرها وأنطاكية، وغدت، منذ عهد طويل، قاعدة لا يمكن بدونها السيطرة على الجهات الشمالية والوسطى من بلاد الشام، في الوقت الذي يمكنها فيه الاتصال بالقوى الإسلامية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمالي بلاد الشام وأواسطه، مما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد، وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين، لذلك كان ضمها من قبل أي قائد إسلامي، بمثابة فتح الطريق أمامه لتبؤ مركز القيادة في حركة الجهاد[٣].

وساعدته الظروف السياسية التي كانت تمر بها إمارة حلب، التي وجدت نفسها في حالة شديدة من الفوضى، عقب وفاة الأتابك عز الدين مسعود بن البُرسُقي في عام (٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م)، وتعدُّد المطالبين بالسلطة وتنازعهم.

فقد استأثر قتلغ أبه، نائب الأتابك المتوفى، بإدارة شؤونها[٤]، في الوقت الذي طمع فيها كل من جوسلين الثاني أمير الرها، وبوهيموند الثاني أمير أنطاكية، لاتخاذها قاعدة لمد نفوذه باتجاه الشرق والجنوب الشرقي.

وشنَّ الصليبيون هجمات عنيفة للاستيلاء عليها، رافقها تدهور حاد في أوضاعها الاقتصادية، وانتشار الخوف والقلق بين السكان[٥] مما دفع هؤلاء إلى الالتفاف حول نائب حلب السابق سليمان بن عبد الجبار الأرتقي وقد تزعم الثورة

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ٣٥.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٦.
(٣) خليل: ص ٧١.
(٤) ابن العديم: جـ ١ ص ٤٣٠ ـ ٤٣١.
(٥) ابن الأثير: الباهر ص ٣٤، ٣٧ ـ ٣٨.

ضد قتلغ أبه الذي اتصف بالتعسف[1]. ويبدو أن سليمان لم يتمكن من وضع حد لتدهور الأوضاع، على الرغم من أنه عقد هدنة مع جوسلين الثاني تنازل له بموجبها عن بعض المناطق الزراعية المحيطة بالجهات الغربية لحلب[2].

لكن يقظة عماد الدين زنكي أفسدت على الجميع خططهم ومشاريعهم. وقد سعى إلى ضمِّ حلب بوصفه يملك منشوراً من السلطان السلجوقي بحكم الموصل والجزيرة وبلاد الشام. ومهَّد لخطواته هذه، بإرسال الرسل إليها حتى يشرحوا لسكانها أحقيته في تولي أمورها، كما أرسل حاجبه الياغسياني لتنظيم أمورها الإدارية وتمهيد الطريق له لدخولها، ثم غادر الموصل في طريقه إليها، وضمَّ في طريقه بزاعة[3] ومنبج، ولما وصل إلى مشارف المدينة في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٢٢ هـ/ شهر حزيران عام ١١٢٨ م) خرج سكانها لاستقباله آملين ببداية عهد جديد من الأمن والاستقرار، بعدما سئموا من الفوضى التي سادت مدينتهم، فدخل القلعة، وبدأ بتنظيم أُمورها، وأقطع أعمالها لأمرائه وأجناده[4].

وحتى يثبِّت أقدامه في حلب، ويقطع الطريق على المفسدين، ضايق عماد الدين زنكي زعماء المدينة المعارضين لحكمه، وذوي المصالح القديمة فيها، فقضى على بعضهم وفرَّ البعض الآخر من وجهه، فقتل قتلغ أبه، وفرَّ إبراهيم بن رضوان ابن تتش إلى نصيبين، وغادر سليمان بن عبد الجبار المدينة، والتجأ فضائل بن بديع، رئيس حلب السابق، إلى قلعة جَعْبَر القريبة من حلب[5]. وبذلك تحقّقت الوحدة بين الموصل وحلب، مرة أخرى، وحصل عماد الدين زنكي على موقع هام، وأَمِن جانب المعارضة، وتهيأت له الفرصة للتدخل في الأوضاع السياسية لبلاد الشام لتوحيد صفوف المسلمين ومجابهة أخطار الصليبيين، كما أدَّى ذلك إلى عزل إمارة الرها عن بقية الإمارات الصليبية في الغرب والجنوب.

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٤٣١.

(٢) ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٣٢٦.

(٣) بزاعة: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب. الحموي: جـ ١ ص ٤٠٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٣٧. العظيمي، محمد بن علي: تاريخ العظيمي، مختارات من تاريخ العظيمي عن كتاب الحروب الصليبية للدكتور سهيل زكار: جـ ٢ ص ٦٧٨.

(٥) ابن العديم: المصدر نفسه ص ٤٣٨.

ضمُّ سنجار

لم يتعرض عماد الدين زنكي، أثناء زحفه على حلب، للمدن والحصون الواقعة على الطريق بينها وبين الموصل، لأنه خطَّط لضمِّ حلب أولاً. وبعد أن أقرَّ الأوضاع فيها اتجه في (أواخر عام ٥٢٢ هـ/ أواخر عام ١١٢٨ م) إلى سنجار الواقعة في منتصف الطريق بين المدينتين المذكورتين، وحاصرها، فاضطر سكانها إلى مصالحته. والراجح أنهم أدركوا عدم جدوى المقاومة، فدخلها وأرسل قسماً من جيشه إلى الخابور وضمَّها هي الأخرى(١).

ضمُّ حرَّان

كانت حرَّان تابعة لعز الدين مسعود بن البُرسُقي، وكانت قد تعرضت بعد وفاته لتهديدات الصليبيين الذين كانوا قد استولوا على بعض المواقع القريبة منها كالرها وسروج، فاستدعى أهلها عماد الدين زنكي في عام (٥٢٣ هـ/ ١١٢٩م)، للدفاع عنهم معلنين طاعتهم له، فأقطعها أحد ضباطه وهو سوتكين الكرجي(٢).

ويبدو أن سوتكين هذا كان ذا نزعات استقلالية، فاستقلَّ بحرَّان، ولم تسنح لعماد الدين زنكي الفرصة لإعادة بسط سيطرته عليها إلا في عام (٥٣٣ هـ/ ١١٣٩ م)، إذ انتهت المشكلة بوفاة سوتكين(٣).

ضمُّ إربل

وضمّ عماد الدين زنكي إربل إلى أملاكه في عام (٥٢٦ هـ/ ١١٣٢ م)، نتيجة صفقة سياسية عقدها مع السلطان مسعود. فحتى يستقطبه إلى جانبه ضد منافسيه من أجل الحصول على عرش سلاجقة العراق، ضحَّى السلطان السلجوقي بهذه المدينة، ووافق عماد الدين زنكي على ذلك كي يتيح لنفسه موقعاً هاماً قد يساعده في المستقبل على التوغل شرقاً(٤).

---

(١) أبو شامة: جـ ١ ص ٧٧.
(٢) ابن الأثير: الباهر ص ٣٧.
(٣) ابن واصل: جـ ١ ص ٨٤.
(٤) المصدر نفسه: جـ ١ ص ٩٧. Setton: I, P. 429.

والواقع أن هذا التوسع في ناحية الشرق ليس له علاقة مباشرة بخططه لمواجهة الصليبيين، إنما بإنشاء دولة وراثية واسعة.

وتُعدُّ إربل بمثابة الباب الشرقي الذي يصل الموصل ببلاد فارس والشرق، ونقطة الدفاع الرئيسية في الطريق الذاهب غرباً باتجاه بلاد الشام[١]. ولا شك بأنه أدرك أهمية موقعها بالنسبة لمشاريعه، فتسلَّمها وعين عليها نائباً من قبله[٢].

ضـمُّ الرقة[٣]

مرَّ عماد الدين زنكي بالرقة في عام (٥٢٩ هـ/ ١١٣٥ م) وهو في طريقه إلى دمشق في محاولة لضمِّها، فرأى أن يضمها إلى أملاكه. فانتهز هذه الفرصة ونفَّذ خدعة ذكية. فأعلن عن رغبته بالاستحمام في حمام البلد، فقام حاجبه الياغسياني بتدبير هذا الأمر واتفق مع مسيِّب بن مالك صاحب الرقة، الذي لم يشك في نوايا عماد الدين زنكي ورجاله، على السماح للجيش بدخول المدينة. وما أن أصبح آخر جندي داخل السور حتى أمر عماد الدين زنكي قواته بالاستيلاء على المدينة، فأبعد المسيِّب وأقطعها أحد أمرائه[٤].

ضـمُّ دقوقا[٥] وشهرزور[٦]

وضمّ عماد الدين زنكي دقوقاً في عام (٥٣١ هـ/ ١١٣٧ م) عنوة[٧]، ودخل بعد ثلاث سنوات قلعة شهرزور الواقعة وسط سهل واسع يمتد من إربل إلى همذان، ويقطنه الأكراد[٨].

وقد ارتبط هذا الضمُّ بالمدى الذي وصلت إليه العلاقات بين الأمير قفجاق

---

(١) خليل: ص ١٧٥.
(٢) ابن واصل: جـ ١ ص ٩٧.
(٣) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حرَّان ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي. الحموي: جـ ٣ ص ٥٨ ـ ٥٩.
(٤) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٥٠.
(٥) دقوقا: مدينة بين إربل وبغداد. الحموي: جـ ٨ ص ٤٥٩.
(٦) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٣٧٥.
(٧) ابن الأثير، الكامل: جـ ٨ ص ٣٥٩.
(٨) الحموي: جـ ٣ ص ٣٧٥.

ابن أرسلان تاش التركماني حاكم شهرزور، وبين السلطان السلجوقي مسعود، فخشي عماد الدين زنكي أن يتنازل الأمير التركماني عن بعض أملاكه للسلطان ومنها شهرزور فيغدو مجاوراً لإمارة الموصل، فيشكل عندئذ خطراً جدّياً عليه[١].

التوسع باتجاه الجنوب

توسع عماد الدين زنكي بين عامي (٥٣٦ ـ ٥٣٨ هـ/ ١١٤١ ـ ١١٤٣ م) في الجنوب الغربي، فضمَّ الحديثة، الواقعة على الفرات[٢]، وعانة القريبة منها[٣].

وفي عام (٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م) كان قد بلغ درجة من القوة مما دفعه إلى ضمِّ قلعة جَعْبَرَ المطلة على الفرات، عملاً بخطته القاضية «بألاَّ يبقى وسط بلاده ما هو ملك لغيره»[٤]. وكانت هذه القلعة تحت حكم العقيليين، فهاجمها على حين غرَّة وحاصرها، وتوغلت قواته في ربضها. واستمر القتال حتى اليوم الخامس من شهر ربيع الآخر، حيث اغتيل عماد الدين زنكي. فساد الاضطراب صفوف جيشه، فاضطر أفراده إلى فك الحصار[٥]، مما سنبحثه مفصلاً في فصل لاحق.

علاقة عماد الدين زنكي بالأكراد

تمهيـد

تُعدُّ المناطق الجبلية المحيطة بالموصل من جهاتها الشمالية والشمالية الشرقية، ذات أهمية بالغة لضمان أمنها، وازدهارها، وذلك بفعل قربها منها، بالإضافة إلى إمكاناتها الاقتصادية العالية، فضلاً عن الأخطار التي يمكن أن تنشأ عن عدم سيطرة عماد الدين زنكي على القبائل الكردية، المنتشرة في تلك المناطق؛ الأمر الذي حتَّم عليه مدَّ نفوذه إليها كي يضمن لإمارته خطوطاً دفاعية طبيعية تحمي ظهره في أثناء

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) حديثة الفرات: تقع على جزيرة وسط الفرات وهي غير حديثة الموصل الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة بالقرب من مصب الزاب الأعلى. الحموي: جـ ٢ ص ٢٣٠.

(٣) عانة: بلد مشهور، بين الرقة وهيت، يُعد في أعمال الجزيرة. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٧٢. ابن الجوزي: جـ ١٠ ص ١٠٢. ابن الأثير: المصدر السابق ص ٦٤.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق ص ٧٣.

(٥) المصدر نفسه: ص ٧٤ ـ ٧٥.

انهماكه بحروبه ومشاكله بعيداً في بلاد الشام أو في الجزيرة أو العراق[(١)].

انقسم الأكراد آنذاك إلى قبائل وطوائف عديدة[(٢)]، انتشرت في أصقاع الجزيرة الفراتية، لم يهاجم عماد الدين زنكي منها سوى ما جاور إمارة الموصل، كالطائفة الحُميدية في منطقة عقر[(٣)]، والطائفة الهكارية في منطقة العمادية[(٤)] والخابور، والطائفة المهرانية، والطائفة اليشنوية في منطقة جزيرة ابن عمر. والجدير بالذكر أن المدة الزمنية التي سبقت حكم عماد الدين زنكي أو عاصرته، خلت من وجود أية دولة كردية ذات شأن في مناطق الجبال المحيطة بالموصل.

الأكراد الحميدية

بدأ عماد الدين زنكي بضمِّ مناطق الأكراد الحميدية بسبب قرب حصونهم من الموصل. وكان الحميديون يقومون في كثير من الأحيان، بمهاجمة قرى ومزارع الموصل الشرقية، ونهب فلاحيها، مما سبَّب قلقاً وخوفاً لفلاحي الموصل. وعندما أسس عماد الدين زنكي إمارة الموصل، أقرَّ الأمير عيسى الحميدي على ولايته «ولم يعترضه بشيء مما في يده»[(٥)].

وخضع الحميديون لحكمه، إلا أنهم كانوا منتهزي فرص، إذ سرعان ما انقلبوا عليه حين حاصر الخليفة العباسي المسترشد الموصل في عام (٥٢٧ هـ/ ١١٣٣ م) وانضموا إلى جيوش الخليفة. ولما فشل الحصار وانسحب الأخير عائداً إلى بغداد أدرك عماد الدين زنكي أن وجود الحميديين في جبال الموصل الشرقية يُشكل تهديداً مباشراً لدولته، وأن القضاء عليهم هو السبيل الوحيد لإزالة هذا الخطر. لذلك هاجم قلاعهم، وحاصرها، وقاتلها قتالاً شديداً، ثم دخل عاصمتهم العقر، منهياً

---

(١) خليل: ص ١٠١. Elisséeff: Op. Cit., P. 374.

(٢) ذكرها المقريزي في السلوك: جـ ١ ص ٤، وعدَّدها القلقشندي في صبح الأعشى: جـ ٤ ص ٣٧٣ ـ ٣٧٩، مشيراً إلى مناطق كل طائفة وعدد محاربيها، وإلى من كان لها أمير يدير شؤونها.

(٣) عقر: قلعة حصينة في جبال الموصل، أهلها من الأكراد وهي شرقي الموصل، وتُعرف بعقر الحُميدية. الحموي: جـ ٤ ص ١٣٦.

(٤) العمادية: قلعة حصينة عظيمة في شمالي الموصل ومن أعمالها، عمَّرها عماد الدين زنكي في سنة ٥٣٧ هـ، وكانت قبلها حصناً للأكراد. المصدر نفسه ص ١٤٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٣٤٣.

بذلك أسباب القلق التي سادت أوساط الفلاحين في الموصل، كما ضمَّ الحصون الحميدية المجاورة[1]. ونتيجة لضمِّ قلاع الحميدية، حقق عماد الدين زنكي هدفين:

الأول: أمَّن المركز العسكري المسيطر على أمن الموصل بفعل ما كانت تشغله الإمارة الحميدية من موقع هام.

الثاني: حصل على موطىء قدم مهد الطريق أمامه للتوغل في بلاد الأكراد الجبلية[2].

الأكراد الهكارية

أدرك أبو الهيجاء الهكاري، صاحب قلعة آشب، مدى قوة عماد الدين زنكي، وخطورة النصر الذي حقَّقه، على وضع الأكراد بعامة، فاستعطفه بمبلغ من المال، وتوسل إليه ألا يتعرض له، ثم ما لبث أن قدم إلى الموصل لإعلان ولائه[3]. والجدير بالذكر أن طائفة الأكراد الهكارية كانت تقطن في المنطقة المعروفة بهكاريا إلى الشمال من نهر الخابور الذي يصب في أعالي دجلة، وكانت قلعة آشب مركزهم الرئيسي، وتنتشر حولها عدة قرى زراعية ترتبط بها وتؤمِّن لها التموين الغذائي.

استمرت العلاقات الجيدة بين عماد الدين زنكي وبين الهكاريين حتى عام (٥٣٧ هـ/ ١١٤٢ م)، إذ توفي في ذلك العام، أبو الهيجاء، فدبت الفوضى في إمارته بسبب النزاعات الأسرية. وبرز في هذه الصراعات باو ألارجي، نائب أبي الهيجاء في حكم الإمارة، الذي ساند الطفل علي بن أبي الهيجاءِ ليهيمن من خلاله على شؤون الإمارة ويحكم باسمه، في حين ساند عماد الدين زنكي أخاه أحمد[4].

ونجح عماد الدين زنكي في ضمِّ قلعة آشب بعد أن هزم باو وأنصاره، ثم غادر المنطقة عائداً إلى الموصل بعد أن ترك فيها نائبه نصر الدين جقر ليتم ما بدأه بضمِّ

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٤٣.
(٢) خليل، ص ١٠٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٢٤٣.
(٤) ابن الأثير الباهر ص ٦٤.

منازل الهكارية، فاجتاح هذا القائد القلاع المتبقية وسيطر على المنطقة[1].

الأكراد المهرانية

بدأ عماد الدين زنكي هجماته على الأكراد المهرانية في عام (٥٣٧ هـ/ ١١٤٢ م) والجدير بالذكر أن هذه الفئة تقطن عدداً من القلاع المنتشرة في المنطقة الجبلية المتاخمة لجزيرة ابن عمر، وأهمها كواشي الواقعة في جبال الجودي، شرقي نهر دجلة، والزعفراني، والشعباني وغيرها[2].

والواقع أن ضمَّ المنطقة الخاصة بالمهرانية يُعد خطوة متممة لضمِّ المنطقة الخاصة بالهكارية، بفعل تجاورهما. فبعد أن انتهى عماد الدين زنكي من ضمِّ المنطقة الثانية انتقل إلى ضمِّ المنطقة الأولى. واستطاع أن يفرض سيطرته على عدة قلاع، منها المذكورة أعلاه. وألقت هذه الانتصارات السريعة الرعب في قلوب حاميات القلاع الأخرى المجاورة مما دفعها إلى طلب الأمان، وخضعت لحكم عماد الدين زنكي.

الأكراد اليشنوية

التفت عماد الدين زنكي بعد ذلك إلى مناطق الأكراد اليشنوية في بلاد الزوزان الواقعة في الأراضي الممتدة من جبال أرمينية شمالاً حتى الموصل جنوباً، ومن أذربيجان شرقاً حتى إقليم ديار بكر غرباً[3].

وكان أمراء اليشنوية قد أنشأوا عدداً من الحصون لعل أهمها حصن فنك المطل على نهر دجلة، واتخذوه مركزاً رئيسياً لهم نظراً لما يتمتع به من حصانة طبيعية ومتانة. وكان أميرهم آنذاك حسام الدين اليشنوي[4] قد اشترك، مع عدد من الأمراء الأكراد القاطنين شمالي الموصل في إثارة الفتن والاضطرابات

---

(١) يذكر ابن الأثير ضمَّ عماد الدين زنكي لقلاع الهكارية وكواشي في حوادث عام ٥٢٨ هـ إلا أنه يستدرك بأنه نقل هذا الخبر عن بعض فضلاء الأكراد، وأنه لا يعلم تاريخ ضمِّها، في حين أنه يذكر أن فتح قلعة آشب تمَّ في عام ٥٣٧ هـ. الكامل: جـ ٨ ص ٢٤٣، جـ ٩ ص ٥ ـ ٦.

(٢) انظر ابن الأثير: الباهر ص ٦٤. الكامل: جـ ٨ ص ٢٤٣.

(٣) خليل: ص ١١٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ١٢.

ضد إمارة عماد الدين زنكي. فهاجمها هذا الأخير وأخضعها لسلطانه، باستثناء حصن فنك الذي أوكل مهمة إخضاعه إلى قائده زين الدين علي كجك، في حين توجه هو لحصار قلعة جَعْبَر. وفرض كجك الحصار على الحصن. وصادف أن اغتيل عماد الدين زنكي أثناء حصار قلعة جَعْبَر، فاضطر كجك إلى فك الحصار والانسحاب إلى الموصل[1].

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٢.

الفَصْلُ الخَامِسُ

علاقة عماد الدين زنكي بالدول والإمارات الإسلامية

علاقة عماد الدين زنكي بالأراتقة

اهتمامات عماد الدين زنكي بديار بكر

ما إن أسس عماد الدين زنكي إمارة له في الموصل في عام (٥٢١ هـ/ ١١٢٧م)، حتى وجَّه اهتمامه إلى ضمِّ ديار بكر التابعة للأراتقة. ومن جهتهم انصبَّت اهتمامات هؤلاء على تحديد موقفهم من مشاريعه التوحيدية في المنطقة، وخشوا من ازدياد نفوذه في شمالي العراق على كيانهم السياسي، فكان أن اتخذوا موقفاً يتوافق مع مصالحهم، اتصف في معظم الأحيان بالدفاعي، مما أدَّى إلى انقسام خطير في سياستهم أثَّر بشكل مباشر على قوتهم العسكرية التي تراجعت، وأضحت مواقعهم مهدَّدة، وهدفاً سهلاً له[١].

وكان على عماد الدين زنكي، بعد استقراره في الموصل، أن يؤمِّن الجسر الذي يصلها بحلب التي كانت هدفه التالي. وشكَّلت الإمارات الأرتقية في منطقة ديار بكر قلب ذلك الجسر، وعائقاً رئيسياً في مواصلاته مع بلاد الشام، وبخاصة في حالات صدامه مع الصليبيين[٢]، لذلك قرَّر إخضاع الأراتقة إلى سلطانه.

(١) خليل، عماد الدين: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص ١٥ ـ ١٦.
(٢) المرجع نفسه: ص ١١٣.

ضمُّ نصيبين

بدأ عماد الدين زنكي حركته التوسعية الهادفة إلى توحيد الإمارات الإسلامية بالهجوم على نصيبين التابعة لإمارة ماردين. وقد اختارها أولاً بفعل كونها أقرب المواقع إلى الجهات التابعة لحكمه، فضرب عليها حصاراً مركَّزاً، فاستنجد حاكمها حسام الدين تمرتاش بداوود بن سقمان صاحب حصن كيفا، لصدِّه وإرغامه على فك الحصار عنها، فوعده بالمساعدة[١].

استعمل عماد الدين زنكي الحيلة لإضعاف مقاومة السكان، وتسهيل دخول المدينة. فقد أرسل تمرتاش، من ماردين، رسالة عاجلة إلى سكان نصيبين على جناح طائر يحثهم على الصمود، وأعلمهم بأنه وابن عمه جادّان في إبعاد عماد الدين زنكي عن البلد، وأن النجدة سوف تصل خلال ثلاثة أيام[٢]. غير أن الرسالة وقعت في يد عماد الدين زنكي، فحوَّرها، وزاد من المدة الزمنية، فأضحت عشرين يوماً، وذلك بهدف إدخال اليأس إلى قلوب السكان، ثم أرسلها إلى جهتها[٣]. فلما تبلَّغ السكان والأجناد الرسالة، خشوا على أنفسهم لأنهم كانوا عاجزين عن الصمود في وجه الحصار الشديد طيلة تلك المدة الطويلة، فراسلوه وسلموه مدينتهم[٤].

معركة دارا

مهَّد ضمُّ نصيبين الطريق أمام عماد الدين زنكي لتحقيق أهدافه في ديار بكر بعد أن تأكد من عجز الحكام المحليين عن مواجهته، إذ غدا هذا الموقع قاعدة انطلاق للانتشار في المنطقة. ومن جهتهم، أدرك أمراء هذا الإقليم مدى خطورة توسع عماد الدين زنكي على أملاكهم، فتداعوا في عام (٥٢٤ هـ/ ١١٣٠ م) إلى عقد حلف للوقوف في وجهه، اشترك فيه الأميران الأرتقيان حسام الدين تمرتاش وابن عمه ركن الدولة داوود، وانضمَّ سعد الدولة أبو منصور إيكلدي صاحب آمد إلى الحلف، بالإضافة إلى عدد كبير من أمراء التركمان الموالين لداوود[٥].

ولما سمع عماد الدين زنكي بحشود الأمراء، قرَّر مباغتة القوم قبل أن يتهيأوا

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ٣٦.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٦ ـ ٣٧.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٧.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ ٨ ص ٣٣١.

للقتال. فانطلق على رأس أربعة آلاف مقاتل، والتقى بهم بالقرب من دارا[١] التابعة لتمرتاش، وانتصر عليهم. كانت النتيجة الفورية للمعركة، سيطرة عماد الدين زنكي على عدد من المواقع القريبة كحصن سرجي[٢] ودارا[٣].

وحتى يعرقل توغله في المنطقة، قرَّر داوود مهاجمة جزيرة ابن عمر التابعة للموصل، مما دفع عماد الدين زنكي إلى ترك ديار بكر والتوجه إليه لإيقافه عند حده، لكنه لم يتمكَّن من التوغل بعيداً بسبب وعورة المسالك، وانتشار التركمان في المنطقة، فاكتفى باستقطاب السكان في الجهات التي بلغها ثم قفل عائداً[٤].

التحالفات السياسية بين عماد الدين زنكي والأراتقة

أدرك عماد الدين زنكي مدى خطورة سياسة التحالف بين أمراء الأراتقة على مشاريعه في منطقة ديار بكر، ورأى ضرورة اتباع سياسة التفرقة في صفوفهم كي يسهل عليه بعد ذلك إضعافهم وضمُّ أراضيهم، واعتقد أن خير وسيلة لتحقيق ذلك هي التحالف مع أحد هؤلاء الأمراء والاستعانة به ضد الآخرين، فاختار التحالف مع حسام الدين تمرتاش الذي اتصف بالمرونة السياسية، بعد أن استبعد استقطاب داوود الذي اتصف بالتصلب والحقد الشديد، كما تغاضى عن التحالف مع صاحب آمد بسبب ضعف إمكاناته العسكرية.

أخذ عماد الدين زنكي يتقرَّب من تمرتاش، فأوقف هجماته على ممتلكاته. وإذ شعر هذا الأخير باتجاه زنكي الودي منه، رأى ضرورة مبادلته بالمثل، والتحالف معه ليتجنَّب خطره، واجتمع الحليفان في عام (٥٢٨ هـ/ ١١٣٤ م) ووضعا خطة لاقتسام ديار بكر. وكان أول عمل عسكري لهما، هو محاولة ضمِّ آمد، فتوجها إليها وحاصراها، فاستنجد صاحبها إيكلدي بداوود الذي أمدَّه بقوة عسكرية. وحدث اللقاء بين الطرفين المتنازعين عند أسوار الحصن في (شهر جمادى الآخرة من العام المذكور/ شهر نيسان)، وانتهى بانتصار عماد الدين زنكي وحليفه. لكن آمد صمدت للحصار على الرغم من هذه الخسارة، ولم يتمكَّن الحليفان من النيل منها، ولما رأى

---

(١) دارا: بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين. الحموي: جـ ٢ ص ٤١٨.

(٢) سرجي أو سرجة: حصن بين نصيبين ودُنيسر ودارا. الحموي: جـ ٣ ص ٢٠٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ٣٣١.

(٤) المصدر نفسه.

عماد الدين زنكي صعوبة الوضع العسكري، رضي ببعض المال ورفع الحصار عنها[1]. ثم اتجه الحليفان، بعد ذلك، إلى قلعة الصَوْر[2] القريبة، وهي من ممتلكات داوود، ويحكمها ابنه قرا أرسلان، فحاصراها وأرغماها على الاستسلام، وأهداها عماد الدين زنكي لحليفه تقديراً لمساعداته وتأكيداً لتحالفهما[3].

نتيجة لهذا الانقسام في الصف الأرتقي، اتسعت شقة الخلاف بين تمرتاش وبين ابن عمه داوود، وبدت في الأفق السياسي بوادر نزاع مسلح بينهما، في الوقت الذي ازداد فيه التحالف بين الأول وعماد الدين زنكي متانة وصلابة. وقام الحليفان بشن هجوم مشترك على جبل جور[4] والسيوان في عام (٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م) وتمكَّنا من ضمهما، ومنحهما زنكي لحليفه تماشياً مع خطته في تقوية التحالف معه[5].

أدت هذه الانتصارات السريعة إلى إلقاء الرعب في روع قرا أرسلان بن داوود، الذي أدرك أنه أمام عدو صلب وقوي، وبالتالي عدم جدوى المقاومة، فغادر المنطقة إلى قاعدة أبيه في حصن كيفا، تاركاً مناطق ولايته لقمة سائغة في يد عماد الدين زنكي. وحاول تمرتاش الإفادة من تحالفه مع عماد الدين زنكي في توسيع رقعة إمارته بضم بعض المواقع القريبة. وتمكَّن في عام (٥٣٠ هـ/ ١١٣٦م) من ضم قلعة الهُتَّاخ[6] وهي آخر الحصون المروانية في ديار بكر[7].

تعرَّض التحالف الزنكي ـ الأرتقي إلى الاهتزاز في عام (٥٣٣ هـ/ ١١٣٨م)، وبدا في الأفق السياسي ما يشير إلى فتور في العلاقات بين الحليفين[8]. ويبدو أن مرد ذلك يعود إلى:

---

(١) ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٣٤٣.
(٢) الصَوْر: قلعة حصينة عجيبة على رأس جبل قرب ماردين بين الجبال من أعمال ماردين. الحموي: جـ ٣ ص ٤٣٤.
(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٤٣. ابن منقذ، أسامة: كتاب الاعتبار، ص ١٩٩ ـ ٢٠١. لقد حضر أسامة بن منقذ حصار الحصن وروى الحادثة كشاهد عيان.
(٤) جبل جور: اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية. الحموي: جـ ٢ ص ١٠٢.
(٥) خليل: مرجع سابق ص ١١٩.
(٦) الهُتَّاخ: قلعة حصينة في ديار بكر قرب ميافارقين. الحموي: جـ ٥ ص ٣٩٢.
(٧) خليل: ص ١١٩.
(٨) المرجع نفسه.

ـ التجاء الأمير أبي بكر، نائب عماد الدين زنكي في نصيبين، إلى حسام الدين تمرتاش، بعدما خرج عليه، فرفض الأخير تسليمه إلى عماد الدين زنكي رغم إلحاحه. وجرت بينهما منازعات طويلة بسبب ذلك، فاضطر تمرتاش إلى تسليمه إلى السلطان مسعود الذي سلَّمه بدوره إلى عماد الدين زنكي لينال عقابه.

ـ أدرك تمرتاش مدى الأخطار التي ستتعرض لها إمارته بإضعاف خصومه الأراتقة، حيث سيختل ميزان القوى بين الأطراف المتصارعة لصالح عماد الدين زنكي، الذي ربما انقلب عليه بعد أن يقضي على أعدائه.

ـ اختلاف الطرفين على توزيع الغنائم.

لكن هذا الجفاء بين الطرفين لم يؤد إلى الاصطدام، إذ رأى عماد الدين زنكي أن مصالحه في المنطقة، القاضية بفرض سيطرته التدريجية عليها، تفرض عليه الإبقاء على عرى التحالف قائمة، وساعدته الظروف السياسية على تحقيق هدفه هذا عندما هاجم داوود قلعة أرزن في أقاصي ديار بكر، وسبى أهلها، فالتجأ أميرها حسام الدين قرتي إلى تمرتاش في ميافارقين طالباً الحماية[1].

أدَّت هذه الحادثة إلى تعميق الخلاف بين الزعيمين الأرتقيين من جهة، وإعادة تنشيط التحالف بين تمرتاش وعماد الدين زنكي من جهة ثانية، وفعلاً عقد الصلح بينهما.

أغار داوود في عام (٥٣٥ هـ/ ١١٤٠ م) على ميافارقين، ونهب أطرافها، وحاصر المدينة مدة ثمانية أيام، واستولى على تل شيح القريبة منها، وقام عماد الدين زنكي، خلال ذلك، بمهاجمة ممتلكات داوود لتخفيف الضغط عن المدينة المحاصرة، واصطدم بقرا أرسلان بن داوود بالقرب من قلعة بهمرد القريبة من حصن كيفا، وانتصر عليه، ودخل القلعة[2]. ويبدو أنه اكتفى بهذا الانتصار بفعل حلول فصل الشتاء واشتداد البرد، فغادر المنطقة عائداً إلى الموصل.

أدرك الأمراء الأراتقة، الذين اشتد النزاع بينهم، أن قوتهم آخذة بالضعف، وأن عماد الدين زنكي هو المستفيد الوحيد من تلك النزاعات، وإن استمر الوضع

---

(١) تاريخ الأزرق الفارقي على هامش ذيل تاريخ دمشق: ص ٢٦٧.
(٢) المصدر نفسه. ص ٢٧٤.

على ذلك فسوف يقضي على إماراتهم، ويحل محلهم في حكم ديار بكر، فقرروا وضع حد لخلافاتهم. من أجل ذلك، دخل تمرتاش في مفاوضات مع ابن عمه داوود في ميافارقين بعد سنوات من العداء، والصدام، انتهت إلى التفاهم(١).

كما أدرك عماد الدين زنكي فوراً أن الصلح الذي تمَّ بين الأميرين الأرتقيين سوف يكون على حسابه، وسيؤدي إلى عزله، ويقضي على تطلعاته لضم المنطقة، فتحرك لإحباطه، واكتساب حليف جديد ضد منافسيه، فتمكَّن، في أقل من عام، من تحقيق هذين الهدفين. فاستقطب صاحب آمد الذي أعلن طاعته له، وخطب باسمه في بلاده(٢)، كما عقد صلحاً مع خصمه داوود بن سقمان، فكسب بذلك حليفاً قوياً(٣)!.

رأى تمرتاش نفسه وحيداً، ولما لم يكن باستطاعته مواجهة عماد الدين زنكي منفرداً، مال إلى التفاهم معه مجدَّداً؛ فأرسل وزيره شرف الدين حبشي لإجراء مفاوضات معه حول ما يجب أن تستقر عليه العلاقات بينهما. ونجح عماد الدين زنكي في استمالة حبشي إلى جانبه، وحصل معه على وعد سرِّي بتسليمه ميافارقين فور عودته إليها(٤)، ويبدو أنه استهدف، من خلال خطوته السياسية هذه، إضعاف تمرتاش من جهة، واتخاذ ميافارقين قاعدة لتوسيع نفوذه في المنطقة، وإسقاط الحكم الأرتقي، من جهة أخرى.

العلاقة الزنكية ـ الأرتقية في أواخر عهد عماد الدين زنكي

وشهد (أواخر عام ٥٣٧ هـ وأوائل عام ٥٣٨ هـ/ منتصف عام ١١٤٣م) قيام عماد الدين زنكي بحملة واسعة ضد عدد كبير من الحصون الواقعة في أقاصي ديار بكر، وضمَّها إلى أملاكه، ثم توجه إلى ميافارقين لتنفيذ الاتفاق المبرم مع الوزير شرف الدين حبشي، وعسكر في إحدى ضواحيها بانتظار أن يقوم هذا الأخير بفتح أبواب المدينة أمام قواته، إلا أن الخطة اكتُشفت، واغتيل حبشي، فتبدل، نتيجة ذلك، الموقف العسكري، وأضحى من الصعوبة

(١) ابن واصل: جـ ١ ص ٨٩.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص ٦٤. في الكامل أن هذا الحدث حصل في عام ٥٣٦ هـ جـ ٩ ص ٥.

(٣) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٦٥. Elisséeff: Op. Cit., P. 373.

(٤) تاريخ الفارقي: ص ٢٧٤.

السيطرة على ميافارقين، فاضطر زنكي إلى الانسحاب إلى نصيبين[1].

وتوفي في (مطلع عام ٥٣٩ هـ/ منتصف عام ١١٤٤ م) داوود بن سقمان صاحب حصن كيفا، فخلفه ابنه فخر الدين قرا أرسلان[2]، ويبدو أن هذا الأخير لم يكن يتمتع، كأبيه، بمقدرة سياسية أو عسكرية، فرأى أن خير وسيلة لإيقاف عماد الدين زنكي هي إعادة التحالف القديم بين إمارتي حصن كيفا وماردين، فقام بالخطوة الأولى في هذا السبيل، فصاهر تمرتاش.

استغل عماد الدين زنكي ضعف قرا أرسلان، فتوسع على حسابه، وضمَّ مناطق واسعة من إمارة الحصن. وقد أدَّت العمليات العسكرية التي نفَّذها إلى تعميق الخلاف بينه وبين تمرتاش وبخاصة أنه هاجم قلعتي الجور والسيوان وضمهما إلى أملاكه، بعد أن كان قد منحهما لهذا الأخير.

والواقع أن عماد الدين زنكي لم يأبه لهذا النزاع بعد أن أضحى مركزه قوياً في ديار بكر، فقرَّر استئناف هجماته على الأملاك الأرتقية. فاتجه إلى آمد في محاولة لضمها، إلا أنه انهمك بمهاجمة إمارة الرها الصليبية، فأنقذ تمرتاش من هجوم جديد ضد أملاكه؛ وجاء مقتله في عام (٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م) أمام قلعة جَعْبَر متنفساً للأراتقة الذين خلَّصهم القدر من خطر داهم.

علاقة عماد الدين زنكي بإمارة دمشق

ضمُّ حماة

أدرك عماد الدين زنكي أنه لا يستطيع مواصلة الجهاد ضد الصليبيين إلا إذا ضمَّ دمشق والمدن المحيطة بها إلى أملاكه، وأقام محور الموصل ـ حلب ـ دمشق لأن قطع الشام عن الجزيرة كان يجعله محتاجاً إلى البقاع وحوران، لتموينه بالحبوب، بالإضافة إلى هدف سياسي يعود إلى وجود مملكة بيت المقدس اللاتينية في الجنوب.

والواقع أن ممتلكات المسلمين في بلاد الشام كانت تتوزيع آنذاك بين ثلاث قوى:

---

(١) تاريخ الفارقي: ص ٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٦٧.

الأولى: محورها بوري بن طغتكين، أتابك دمشق، الذي يسيطر على دمشق وحماة في الشمال، وحوران في الجنوب. والجدير بالذكر أن آل طغتكين ورثوا حكم هذه المنطقة الحيوية من سلاجقة الشام، وكانت مشكلتا دمشق الرئيسيتان تتمثلان في تجنُّب قوة الزنكيين في الموصل وحلب، وقوة الصليبيين في بيت المقدس، والاحتفاظ بالسيطرة على السهلين الزراعيين، البقاع في الشمال الغربي، وحوران في الجنوب الشرقي، اللذين يؤمِّنان لها القمح والعلف.

الثانية: محورها صمصام الدولة خير خان بن قراجا، أمير حمص.

الثالثة: محورها سلطان بن منقذ، الأمير العربي الذي يسيطر على شيزر.

وحتى يحقق هذا الهدف كان عليه أن يضم حماة وحمص أولاً، الواقعتين على الطريق المؤدي إلى دمشق، نظراً لما يمنحه ذلك من قواعد عسكرية هامة، ومراكز للتموين لا يمكن الاستغناء عنها عند القيام بهجوم ضد المدينة الأخيرة، أو فرض الحصار عليها[1].

ورأى عماد الدين زنكي أن يستعمل الأساليب والمناورات السياسية لضمِّ حماة وحمص، ويتجنَّب ما أمكن استعمال القوة. فأرسل إلى بوري بن طغتكين في دمشق يخطره بنيته في محاربة الصليبيين، ويلتمس منه المساعدة، فكتب بوري إلى ابنه سونج في حماة يأمره بالخروج مع عسكره لنجدة عماد الدين زنكي، كما أرسل من دمشق قوة عسكرية مؤلفة من خمسمائة فارس، لتنضمَّ إلى القوات الإسلامية.

رحَّب عماد الدين زنكي بقدوم سونج، وأحسن لقاءه، لكنه لم يلبث أن قبض عليه، وعلى عدد من أمرائه وقادته، وأرسلهم إلى حلب، ثم تقدم مسرعاً إلى حماة، منتهزاً خلوها من الدفاعات، ودخلها في (شهر شوال عام ٥٢٤ هـ/ شهر أيلول عام ١١٣٠ م)، وسلَّمها لحليفه خير خان صاحب حمص، الذي كان يرافقه في عملياته[2].

---

(١) خليل: عماد الدين زنكي ص ١١٩.

(٢) ابن القلانسي: ص ٣٦١ ـ ٣٦٢. العظيمي: جـ ٢ ص ٦٧٩. يذكر ابن الأثير في الكامل أن ضمَّ حماة حصل في عام ٥٢٣ هـ جـ ٨ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٤٠.

محاولة ضمِّ حمص

ويبدو أن هذه الخطوة كانت خدعة من عماد الدين زنكي ليطمئن حليفه قبل أن يضربه. وفعلاً، انقلب عليه بعد ذلك، فقبض عليه، وأمره بمراسلة أهل حمص لتسليمه المدينة قبل أن يرسله إلى حلب، ثم أسرع بمهاجمتها[(١)].

لكن أهل حمص أغلقوا أبواب مدينتهم في وجهه، ودافعوا عنها ببسالة، فاضطر إلى فكِّ الحصار عنها بعد أربعين يوماً، وعاد إلى حلب، حيث أرسل سجناءه إلى الموصل[(٢)]، وكرّر، في العام التالي، محاولة ضمِّ حمص، لكنه جوبه بمقاومة شديدة، فآثر الانسحاب وانتظار فرص أخرى مؤاتية[(٣)].

ولا شك بأن فشل عماد الدين زنكي أمام حمص كان ضربة قوية عرقلت وحدة المسلمين في شمالي الشام بضع سنوات[(٤)].

محاولة التفاهم مع حكام دمشق

وحدث في (شهر رجب عام ٥٢٦ هـ/ شهر حزيران عام ١١٣٢ م) أن توفي بوري بن طغتكين، فخلفه ابنه شمس الملوك إسماعيل[(٥)] الذي اتصف بالطموح والاندفاع الزائد. ونجح هذا الحاكم الجديد في استعادة حماة في (أول شهر شوال عام ٥٢٧ هـ/ شهر آب عام ١١٣٣ م)[(٦)] مستغلاً انهماك عماد الدين زنكي بمشاكله مع الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية. غير أن إسماعيل لم يلبث أن أساء السيرة، وبالغ في ظلم الأهالي ومصادرة أموالهم، كما أسرف في التخلص من معارضيه؛ حتى أضحى كل شخص يخشى على حياته، فاضطربت أحوال دمشق، وتألّب الجميع عليه[(٧)].

ويبدو أن إسماعيل أدرك عاقبة أفعاله، وإصرار عماد الدين زنكي على ضمِّ

---

(١) ابن القلانسي: ص ٣٦٢. ابن العديم: ص ٤٤١.
(٢) المصدران نفساهما.
(٣) ابن واصل: جـ ١ ص ٤٦، ٧١.
(٤) عاشور: الحركة الصليبية، مرجع سابق: جـ ١ ص ٥٦٧.
(٥) العظيمي: جـ ٢ ص ٦٨٠ ـ ٦٨١.
(٦) ابن القلانسي: ص ٣٧٠، ٣٧٨ ـ ٣٧٩.
(٧) المصدر نفسه: ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

دمشق. وحتى لا يقع بين فكي الكماشة، السكان من الداخل، وعماد الدين زنكي من الخارج، راسل هذا الأخير في عام (٥٢٩ هـ/ ١١٣٥ م)، وطلب منه الحضور على وجه السرعة لتسلم المدينة(١) وذلك بنية استقطابه بهدف القضاء على المعارضة الدمشقية، لأنه اشترط عليه أن يمكِّنه من خصومه السياسيين وأعيان المدينة، وحذَّره إن لم يسرع بتلبية طلبه فسيقوم بتسليمها للصليبيين(٢)، وعمد في الوقت نفسه إلى مطاردة معارضيه، فألقى القبض على كبار رجال دولته وغيرهم من أعيان دمشق، مما كوَّن رأياً عاماً معارضاً لحكمه، وأوضح هؤلاء المعارضون لوالدته، صفوة الملك زمرد خاتون، العواقب السيئة التي ستجرها عليهم سياسة ابنها الرعناء(٣).

وجد عماد الدين زنكي في ذلك العرض فرصته التي طالما تمنَّاها لتوحيد بلاد الشام الإسلامية، فأسرع من الموصل لاستلام دمشق. لكن في الوقت الذي كان يشق طريقه إليها، حدثت فيها تطورات سياسية، بدَّلت الأوضاع القائمة، إذ قُتل إسماعيل ابن بوري نتيجة مؤامرة دبرتها والدته بالاتفاق مع الفئات المعارضة في (شهر ربيع الآخر عام ٥٢٩ هـ/ أوائل شهر شباط عام ١١٣٥ م)، ونصَّب هؤلاء أخاه شهاب الدين محمود في الحكم مكانه(٤)، فبايعه الناس والتفوا من حوله.

كان عماد الدين زنكي آنذاك قد خرج من الموصل، وعبر الفرات في طريقه إلى دمشق. وعندما بلغته أنباء التغييرات التي حصلت، لم يقطع أمله في إيجاد وسيلة للتفاهم مع الحكام الجدد، لذلك واصل سيره حتى بلغ أرباض المدينة، وأرسل رسولاً إلى حكامها للتفاوض بشأن شروط التسليم، اعتقاداً منه بعدم قدرتهم على المقاومة(٥).

حصار دمشق

الواقع أن الدمشقيين رفضوا التفاوض معه وأصروا على المقاومة(٦). وأصرّ هو، من جهته، على مهاجمة دمشق، فضرب الحصار عليها في أوائل جمادى الأولى،

---

(١) ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٣٤٦.

(٢) ابن القلانسي: ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٨٩.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٩٠ ـ ٣٩١.

(٦) المصدر نفسه: ص ٣٩١.

ونفَّذ غارات على أطرافها، فردَّ عليه الدمشقيون بغارات مضادة، وتزعم حركة المقاومة معين الدين أنر، أحد مماليك طغتكين[1]. ولما فشل في اقتحام المدينة، اضطر، تحت ضغط الظروف السياسية والعسكرية المستجدَّة، إلى عقد صلح مع الدمشقيين في (آخر شهر جمادى الأولى عام ٥٢٩ هـ/ شهر أذار عام ١١٣٥ م)، وقفل عائداً إلى حلب[2].

والواضح أن الظروف التي دفعته إلى فك الحصار، تكمن في الأحداث التالية:

- قيام الدمشقيين بمضايقة جيشه في الوقت الذي أخذت أقواته في التناقص.

- تسلُّل بعض جنوده إلى دمشق، وانضمامهم إلى الدمشقيين.

- بَعَثَ حكام دمشق إلى الخليفة العباسي المسترشد بالله مبلغاً من المال، قدره خمسون ألف دينار، وطلبوا منه دفع عماد الدين زنكي عنهم، وتعهدوا، إذا نجح في ذلك، بأن يرسلوا مبلغاً مماثلاً كل سنة. فقبل الخليفة هذا العرض، وأرسل إليه يأمره بفك الحصار عن دمشق، والتوجه على رأس قواته إلى بغداد لمعاونته ضد السلطان مسعود[3].

وهكذا فشلت الجهود التي بذلها عماد الدين زنكي لضمِّ دمشق، كما ظلَّت هذه المدينة أمداً طويلاً تمثل عقبة في سبيل إتمام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام[4].

تجدُّد الغارات على حمص

تمكَّن عماد الدين زنكي، أثناء عودته إلى حلب، بعد أن فكَّ الحصار عن دمشق، من إعادة ضمِّ حماة إلى أملاكه، كما هاجم حمص، إلا أنه فشل في دخولها[5]. ويبدو أن هذه المدينة ظلت طيلة السنوات الثلاث التالية (٥٣٠ ـ ٥٣٢ هـ/ ١١٣٥ ـ ١١٣٧ م) عرضة لهجماته. إذ شهد عام (٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م) محاولة أخرى لضمها، فوجد صاحبها قريش بن خير خان نفسه عاجزاً عن صدِّه، فاستنجد

---

(١) ابن القلانسي: ص ٣٩١ ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٣٤٦.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم مصدر سابق: جـ ١٠ ص ٤٣.

(٤) عاشور: جـ ١ ص ٥٧١.

(٥) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٥١ ـ ٤٥٢.

بشهاب الدين محمود صاحب دمشق يلتمس منه إرسال من يراه كفئاً لتولي شؤون الحكم فيها على أن يعوِّضه عنها بإحدى مدن إمارته. وافق حاكم دمشق على هذا العرض الذي يتيح له ضمَّ مدينة كبيرة وهامة كحمص إلى إمارته، فتسلمها في (شهر ربيع الأول عام ٥٣٠ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٣٥ م)، وأقطعها معين الدين أنر[١].

لم يركن الزنكيون إلى الهدوء، وتابعوا شن الغارات على حمص بقيادة سوار ابن أيتكين، غير أن المدينة صمدت، وانتعشت بما كان يدخلها من الميرة والأقوات، فاضطر سوار إلى طلب التفاوض، واستقر الصلح بين الطرفين على قاعدة عدم تعرض أي منهما للطرف الآخر[٢].

آمن عماد الدين زنكي دائماً بأن قيام الجبهة الإسلامية المتحدة في بلاد الشام، يجب أن يسبق أية خطوة عملية يتخذها ضد الصليبيين[٣]، فرفض من هذا المنطلق، إقرار الهدنة التي عقدها نائبه في حلب، وجدَّد الهجوم على حمص في (شهر شعبان عام ٥٣١ هـ/ شهر أيار عام ١١٣٧ م)، إلا أنه فشل في اقتحامها بسبب المقاومة الشديدة التي أبداها معين الدين أنر من جهة، وظهور بوادر تحالف خطير بين الزعماء الصليبيين من جهة أخرى؛ إذ قام فولك أنجو، ملك بيت المقدس، برفقة ريموند الثاني، أمير طرابلس، بنجدة المدينة[٤].

الهدنة مع دمشق

اضطر عماد الدين زنكي إلى عقد هدنة مع حكام دمشق كي يتفرغ للتصدي للصليبيين الذين احتشدوا في حصن بارين المنيع، فانتصر عليهم[٥]. وتهيأت له الفرصة مرة ثانية لمهاجمة ممتلكات آل طغتكين، وتوحيد بلاد الشام، فقام في (أوائل عام ٥٣٢ هـ/ أواخر عام ١١٣٧ م) بمهاجمة بعلبك إلا أنه قنع بما بذله له صاحبها

---

(١) ابن القلانسي: ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٩٨. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ١٦٥. Stevenson: Op. Cit., P. 142.

(٣) عاشور: جـ ١ ص ٥٧٤. Grousset: II, P. 132.

(٤) ابن القلانسي، ص ٤٠٧. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤.

(٥) ابن القلانسي: المصدر نفسه. وبارين بُليدة بين حمص والساحل. وتلفظه العامة بعرين وهو خطأ. الحموي: جـ ١ ص ٤٥٢.

من المال، فتركها وتوجه إلى حصن المجدل[1]، وضمَّه إلى أملاكه. ودخل إبراهيم بن طرغت صاحب بانياس في طاعته[2]، وتوقف مع حلول فصل الشتاء، قبل أن يستأنف حركته التوسعية في الربيع، معتمداً على قوته المتنامية، فدخلت في طاعته معظم المواقع القريبة من إمارة آل طغتكين، ولم يبقَ أمامه لدخول دمشق سوى ضمِّ مدينة حمص.

وبلغ عماد الدين زنكي درجة عالية من القوة أتاحت له أن ينقض الهدنة التي عقدها مع حكام دمشق في العام الماضي، ثم هاجم المدينة، ولم ينقذها هذه المرة من السقوط سوى تهديد الأمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين (٥١٢ ـ ٥٣٨ هـ/ ١١١٨ ـ ١١٤٣ م) للأملاك الإسلامية في شمالي بلاد الشام. إذ أخطرته كشافته بغارات البيزنطيين، فعجَّل بإرسال العساكر بقيادة سوار لتعزيز حامية حلب، وكان الأمبراطور يأمل في مباغتتها، إلا أنه عندما وصل إلى أسوارها في (شهر شعبان عام ٥٣٢ هـ/ شهر نيسان عام ١١٣٨ م) وقام بمهاجمتها بمساندة بعض القوى الصليبية من أنطاكية والرها؛ تبين له أنها منيعة الاستحكامات، فتركها وتوجه نحو الجنوب، فاحتل الأثارب، ومعرة النعمان، وكفرطاب[3]، وأضحى جيشه عند أبواب شيزر[4].

وأمل يوحنا، نتيجة حرص أبو العساكر سلطان بن منقذ، على أن يحافظ على استقلاله عن عماد الدين زنكي؛ ألا يحفل هذا الأخير بمصير المدينة. على أن تملُّك شيزر يتيح للنصارى السيطرة على الوادي الأوسط لنهر العاصي، ويمنع عماد الدين

(١) المجدل: بلد طيب بالخابور إلى جانبه تل عليه قصر وفيه أسواق كثيرة. الحموي: جـ ٥ ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) ابن القلانسي: ص ٤١٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٥٩. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٥٥. وبانياس قلعة قديمة، ترجع تسميتها إلى وجود دير Panium على مقربة منها. ولبانياس شهرة تاريخية وقيمة عسكرية تتجدَّد في كل عصر من العصور التاريخية. تقوم القلعة في مكان يشرف على بقاع كثيرة حيث تنتهي بلاد الشام الوسطى والسلسلة الشرقية، وتبتدىء بلاد الشام الجنوبية، وسهول الحولة وطبرية. وربما كان الهدف من بنائها حفظ الطريق الرئيسية بين بلاد الشام الوسطى والجنوبية. انظر: المقدسي ص ١٤٠. عمار، يحيى حسين: تاريخ الملك العادل نور الدين محمود: ص ١٦٦ ـ ١٦٨.

(٣) كفرطاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب. الحموي: جـ ٤ ص ٤٧٠.

(٤) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٥٦ ـ ٤٥٨. Grousset: II, P. 127.

زنكي من مواصلة التقدم في بلاد الشام، لذلك تخلّى عماد الدين زنكي عن حصار حمص ومضى إلى شيزر لمساندتها، ويبدو أن المدينة، استعصت على المهاجمين، كما أن نفور الصليبيين من البيزنطيين كان سبباً آخر، اضطر معه الأمبراطور البيزنطي إلى التخلي عن حملته على بلاد الشام، وانسحب من المنطقة، عائداً إلى بلاده[1].

وتهيأت لعماد الدين زنكي فرصة أخرى لضمِّ حمص، محاولاً هذه المرة استخدام الأساليب السياسية من خلال إقامة علاقات عائلية، مع حكام دمشق. فعرض أن يتزوج صفوة الملك زمرد خاتون، ويزوج ابنته من الأتابك محمود، مقابل تسليمه حمص، على أن يعوِّض نائبها بعدد من الحصون القريبة؛ وتمَّ عقد الزواج خلال (شهر رمضان عام ٥٣٢ هـ/ شهر حزيران عام ١١٣٨ م)[2].

وظن عماد الدين زنكي أن بهذا الرباط العائلي ستصبح دمشق في متناول يده، إلا أنه لم يكسب شيئاً، باستثناء الحصول على حمص فقط، أما ضمُّ دمشق الذي كان هدفه الأساسي من هذا الزواج، فلم يتحقق. ويقول ابن الأثير في ذلك: «إنما حمله على الزواج بها ما رأى من تحكيمها في دمشق، فظن أنه يملك البلد بالاتصال بها. فلما تزوجها خاب أمله، ولم يحصل على شيء، فأعرض عنها»[3]. فما الذي تغير في الأوضاع السياسية في دمشق وحال بين عماد الدين زنكي وبين تحقيق هدفه؟ الواقع أنه ما إن غادرت زمرد خاتون دمشق حتى فقدت مكانتها السياسية العالية التي كانت تتمتع بها، حيث غدت الكلمة الأولى لابنها محمود وحاشيته.

تجدُّد هجمات عماد الدين زنكي على دمشق

شكَّلت سنة (٥٣٣ هـ/ ١١٣٩ م) نقطة تحول هامة في تاريخ دمشق، فقد هوجمت هذه المدينة من اتجاهين متباعدين. فقد هاجمها الصليبيون في بيت المقدس من الجنوب، في حين هاجمها عماد الدين زنكي من الشمال. ولم يدرك الدمشقيون أي

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٧.

(٢) ابن القلانسي: ص ٤١٨ ـ ٤١٩. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ١٦٥ . Grousset: II, P. 127.

(٣) الكامل: جـ ٨ ص ٣٥٩.

الخطرين كان أشد على وضع مدينتهم، إلا أن الجبهة الجنوبية، شهدت هدوءاً يكاد يكون تاماً بعد حملة عام (٥٢٣ هـ/ ١١٢٩ م)، ثم تحقَّق السلام بين الجانبين في عام (٥٢٨ هـ/ ١١٣٤ م)، والذي كان من الممكن أن يتجدَّد. أما سياسة عماد الدين زنكي تجاه دمشق، فقد اختلفت كلياً، فإنه بوصفه المدافع الأول عن المسلمين، فقد رأى توحيد صفوفهم تحت رايته، لكن دمشق وقفت عقبة أمام تحقيق ذلك فكان عليه تذليلها.

وشهدت دمشق خلال (شهر شوال/ شهر حزيران) تطورات سياسية متسارعة أدَّت إلى مقتل شهاب الدين محمود على أيدي رجاله، وتنصيب أخ له غير شقيق هو جمال الدين محمد، صاحب بعلبك. والراجح أن معين الدين أنر كان وراء هذه الأحداث بهدف السيطرة على الحاكم الجديد والتفرد باسمه بالسلطة الفعلية. وفعلاً حقَّق أنر هدفه بعد أن فوَّض إليه الأتابك أمور المدينة وأقطعه بعلبك[١]. وهكذا أدَّت تلك التطورات السياسية إلى ازدياد نفوذ أنر مما حمل ابن الأثير على وصفه بأنه صار هو «الجملة والتفصيل»[٢].

لم تكن هذه التطورات في صالح عماد الدين زنكي، كما عزَّ على زمرد خاتون، التي كانت تقيم في حلب، أن يُقتل ابنها ويحل محله في حكم دمشق ابن ضرتها، فأرسلت إلى عماد الدين زنكي، وكان في الموصل، تستدعيه طالبة الثأر لولدها والسيطرة على دمشق[٣]. كما أن الأمور لم تستتب للحكام الجدد بسهولة، إذ كان للأتابك جمال الدين محمد أخ يدعى بهرام شاه، عزَّ عليه أن يتجاهله أنر بعد مقتل شهاب الدين محمود، فلجأ إلى حلب، ومنها سار إلى الموصل، طالباً مساعدة عماد الدين زنكي[٤].

وبذلك تهيأت لعماد الدين زنكي فرصة أخرى للتدخل في شؤون دمشق. فأعدَّ جيشاً خرج على رأسه في (شهر ذي القعدة عام ٥٣٣ هـ/ شهر تموز عام ١١٣٩ م)، قاصداً دمشق لاقتحامها قبل أن تستتب الأمور فيها، ويبدو أنه أدرك أن مهاجمة

---

(١) ابن القلانسي: ص ٤٢١ ـ ٤٢٢. Grousset: II, P. 128.

(٢) الكامل: جـ ٨ ص ٣٦٤. الواضح أن أنر لم يشأ أن يبتعد عن دمشق خلال هذه الآونة، فأناب عنه أحد رجاله في حكم بعلبك كما فعل عندما تولى حمص وبارين.

(٣) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٦٢.

(٤) المصدر نفسه.

دمشق ليس بالأمر الهيِّن، وهي المدينة التي أخلص أهلها لبيت بوري. إذ لم يكد سكانها يسمعون بأخبار الزحف باتجاه مدينتهم حتى صمَّموا على الدفاع والمقاومة.

انطلاقاً من هذا الواقع، وضع خطة عسكرية من شقين:

الأول: تنفيذ حصار شديد على دمشق، وعزلها عن بقية ممتلكاتها.

الثاني: تكوين جبهة مناهضة لحكامها.

وتنفيذاً للشق الأول هاجم بعلبك، التي كانت إقطاعاً لأنر، ودخلها في (شهر صفر عام ٥٣٤ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٣٩ م)، ووضع يده عليها[١]. والواضح أن ضمَّ بعلبك في هذه الأونة وحمص وحماة وبانياس والمجدل من قبل، هيَّأ له تحقيق الشق الأول من خطته بعزل دمشق ومنع حكامها من الاتصال ببقية أجزاء الإمارة لطلب المساعدة العسكرية والاقتصادية، الأمر الذي سيضعف من مقاومتها إلى حد كبير[٢].

وتنفيذاً للشق الثاني، قام بجهود سياسية لتقوية موقفه، فراسل رضوان ابن الولخشي، الوزير الفاطمي، الذي كان في طريقه إلى دمشق هرباً من ثورة الجند عليه، وأغراه بالانضمام إليه. وفعلاً استجاب الوزير الفاطمي ومال إلى مساندته[٣]. ويبدو أن أنر أدرك خطورة هذا التحالف على وضعه الداخلي، فسعى لإحباطه، وأرسل أسامة بن منقذ إلى رضوان ليقنعه بالعدول عن هذا التحالف، وبذل له من الأموال ما أغراه[٤].

ظل عماد الدين زنكي قابعاً في بعلبك حتى (شهر ربيع الأول عام ٥٣٤ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٣٩ م)، أعاد خلالها تنظيم أمورها الإدارية، وعين عليها نجم الدين أيوب، ثم زحف نحو دمشق. وعسكر في سهل البقاع، ورأى، قبل أن يهاجمها، استقطاب الأتابك جمال الدين لتسليمه المدينة، مقابل منحه حمص وبعلبك، إلا أن هذا الأخير رفض هذا العرض، وسانده رجال دولته وعلى رأسهم معين الدين

---

(١) ابن القلانسي: ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٦٣. العظيمي: جـ ٢ ص ٦٨٦.

(٢) خليل: مرجع سابق ص ١٢٧.

(٣) أسامة بن منقذ: ص ٣٧ ـ ٤٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٨ ـ ٣٩.

أنر[١]. عندئذ، اضطر إلى التقدم نحو المدينة وفرض الحصار عليها، ودارت عدة اشتباكات بين الطرفين لم تكن حاسمة إنما جاءت لمصلحة عماد الدين زنكي، الذي أوقف القتال مدة عشرة أيام لإعطاء المحاصَرين فرصة أخرى للتسليم[٢]. ويبدو أن جمال الدين محمد اقتنع أخيراً، بعدم جدوى المقاومة، وضرورة حقن الدماء، إلا أنه جوبه بمعارضة أنر، فوجد نفسه مضطراً لاستئناف القتال[٣].

وفي (شهر شعبان عام ٥٣٤ هـ/ شهر أذار عام ١١٤٠ م) توفي جمال الدين محمد، مما أتاح لعماد الدين زنكي، في ظل النزاع بين الورثة حول الفوز بحكم دمشق، فرصة مؤاتية لتوجيه ضربة حاسمة ضد المدينة، إلا أن أنر أسرع بتعيين مجير الدين أبق بن محمد أميراً على دمشق، فاضطر عماد الدين زنكي، الذي «ضعفت نفسه وضاق صدره»، إلى التراجع قليلاً، بعدما رأى إصرار الدمشقيين على المقاومة، لكنه استمر في حصاره أملاً في انهيار الحالة الاقتصادية في دمشق، ومن ثم استسلام المدينة[٤].

التحالف بين دمشق وبيت المقدس

وأمام استمرار الحصار، واشتداد الخطر الزنكي، رأى أنر أن يستعين بالصليبيين، فأرسل أسامة بن منقذ إلى فولك أنجو، ملك بيت المقدس، لإجراء مفاوضات معه تستهدف طلب المساعدة، وأبدى استعداده، بأن:

- يدفع عشرين ألف دينار كل شهر، وهي نفقات القوات الصليبية التي ستأتي لمساعدته.

- يعيد له حصن بانياس بعد انتزاعه من حاكمه التابع لزنكي.

- يسلمه عدداً من كبار أمرائه ليكونوا رهائن ضماناً لحسن التنفيذ، وأوضح له أنه إذا نجح عماد الدين زنكي في ضمِّ دمشق فإن مقدرات بلاد الشام ستصبح بين يديه مما يشكل خطراً كبيراً على الصليبيين.

---

(١) ابن القلانسي: ص ٤٢٤.
(٢) المصدر نفسه: ص ٤٢٥.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٦٧. خليل: ص ١٢٩.

وفعلاً، أدرك الملك فولك ومجلسه الاستشاري أن عماد الدين زنكي الذي بات يمتلك الموصل وحلب وحماة وحمص وبعلبك، لا ينبغي، بأي حال، أن يمتلك دمشق، وإلا فإن تحقيق الوحدة الإسلامية في بلاد الشام وشمالي العراق ستصبح واقعاً، وهذا معناه طردهم من الشرق الإسلامي. وأقنعتهم الظروف السياسية والعسكرية بضرورة التعاون المثمر مع أنر، وساد بينهم الشعور بأنه لا بدَّ من قبول عرضه، وبخاصة أنهم كانوا يتطلعون إلى استعادة حصن بانياس[١].

وسرعان ما اتجه الصليبيون شمالاً بقيادة فولك لنجدة حليفهم. أما عماد الدين زنكي، الذي ظل يراقب الوضع عن كثب، فقد فكَّ الحصار عن دمشق حتى لا يقع بين فكي الكماشة، وأسرع للتصدي للصليبيين منفردين قبل أن يقتربوا من دمشق، وعسكر في إقليم حوران في شهر (رمضان/ نيسان) بانتظار وصولهم[٢]. ويبدو أن فولك، الذي كان يتقدم بحذر، فضَّل التوقف قرب بحيرة طبرية، مما دفع عماد الدين زنكي إلى معاودة حصار دمشق، بيد أنه ما لبث أن فكَّ الحصار عندما سمع بتقدم الصليبيين لنجدة حلفائهم، وعاد إلى حمص، وتمكَّن الحليفان من الاستيلاء على بانياس في شهر (شوال/ أيار) وتسلمها فولك وفقاً للاتفاق المبرم مع أنر[٣].

والواقع أن التحالف بين دمشق وبيت المقدس، أنقذ الأولى دون أن ينشب القتال. وتخلَّص أنر من أخطر وآخر محاولة جدِّية من عماد الدين زنكي لضمِّها إلى أملاكه، الأمر الذي أعاق جهوده بتوحيد المسلمين في بلاد الشام، إلا أنه ظل على الرغم من ذلك، يفكر طوال سنوات حكمه المتبقية بتحقيق هذا الهدف[٤].

---

(١) وليم الصوري: مصدر سابق: جـ ٢ ص ٦٧٨ ـ ٦٧٩ . Stevenson: Op. Cit., PP. 141-142.
ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٦٣.

(٢) ابن القلانسي ص ٤٢٦.

(٣) المصدر نفسه: ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

(٤) خليل: ص ١٣١.

الفصل السادس

علاقة عماد الدين زنكي بالصليبيين

تمهيد

يمثِّل القرن السادس الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي، حلقة من أخطر حلقات الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب النصراني. فقد ألقى الغرب بكل ثقله في المنطقة الإسلامية، وتمكَّن من إقامة إمارات صليبية في الشام وفلسطين. وفي الوقت الذي بدأت فيه القوى الإسلامية تستعيد قواها وتتحد لطرد الصليبيين من المنطقة، برزت الأمبراطورية البيزنطية محاولة السيطرة على الشرق الإسلامي وإعادة بسط نفوذها على المنطقة.

وهكذا بات يتصارع على منطقة الشرق الإسلامي ثلاث قوى: القوة الإسلامية صاحبة البلاد، والقوى الصليبية الغربية التي تمكَّنت من فرض سيطرتها على المنطقة، والأمبراطورية البيزنطية التي خرجت سابقاً، وتحاول الآن الدخول إليها مرة أخرى.

وتشعبت المشاكل الشرقية إزاء هذه القوى المتعددة، وزاد في تعقيدها أن المسلمين لم يكونوا متحدين، فكثيراً ما نجد الصراع بين سلاجقة الروم وآل دانشمند، وحكام بلاد الشام وسلاجقة العراق، حيناً، وما نجده أيضاً من خلافات بين الحكام الصليبيين في وقت ما، ثم اتفاقهم في وقت آخر، وأخيراً صراع هذه القوى مع بعضها حيناً وتحالفها مع البعض الآخر أحياناً.

الصدامات الأولى

استغل الصليبيون تدهور أوضاع المسلمين في الشرق الأدنى، وسعوا إلى توسيع نفوذهم في المنطقة، فكانت سراياهم تبلغ «آمد. . . ونصيبين ورأس العين. وأما

الرقة وحرّان فكانتا تعيشان على الخوف من استضعاف الفرنج وهجماتهم. وانقطعت الطرق إلى دمشق، إلا الرحبة وبادية الشام، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف، وركوب المفازة، تعباً ومشقَّة، ويخاطرون بالقرب من العرب بأموالهم وأنفسهم. ثم زاد الأمر، فجعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً وأتاوة، يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم عنهم... وأما حلب فإنهم أخذوا مناصفة أعمالها، وأما باقي بلاد الشام، فكان حالها أشد من حال هذه البلاد، وكان ملوك المسلمين عاجزين عن نصرة دينهم، حتى خيل للناس ولمن يرقبون تطور الأحداث آنئذ أن الوضع قد صفا للصليبيين»[1].

وغدت الظروف السياسية والعسكرية في الجزيرة وبلاد الشام، بعد مقتل البُرسُقي في (شهر ذي القعدة عام ٥٢٠ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٢٦ م)، تُحتِّم ظهور أمير قوي يتمكَّن من القضاء على تنازع الأمراء المحليين وتوحيد إماراتهم في جبهة إسلامية واحدة، قبل أن يتصدى للصليبيين. وقد قُدِّر لعماد الدين زنكي أن يقوم بهذا الدور.

والواقع أن بروزه على مسرح الأحداث لم يكن وليد الصدف، ولكنه نشأ على مقربة مما كان يجري من نضال بين القوتين الإسلامية والصليبية، بل اشترك في بعض الحوادث التي جرت بينهما، ثم إنه لمس، منذ أن كان يافعاً، التناحر بين القوى الإسلامية مما جعله يلمُّ بأحوال العالم الإسلامي المضطربة إبّان تلك المرحلة.

كانت أولى المعارك، التي شهدها واشترك فيها إلى جانب مودود بن التونتكين والي الموصل، تلك الحملة التي استهدفت فتح الرها في عام (٥٠٥ هـ/ ١١١١ م) ويبدو أن المدينة استعصت على القوات الإسلامية، مما حمل مودوداً على رفع الحصار لمهاجمة مواقع أسهل منالاً. فمرَّ على تل باشر، وفرض الحصار على معرة النعمان وهناك انضم إليه بعض الأمراء المسلمين ومنهم طغتكين حاكم دمشق، لكن الأحداث السياسية والعسكرية لم تجرِ على نحو طيب لصالح المسلمين، كما أن طغتكين أقام علاقات سرية مع الصليبيين، مما أدَّى إلى انفضاض معظم الأمراء. «ولما رأى مودود تفرق العساكر وصلح طغتكين

(١) ابن الأثير: الباهر ص ٣٢ ـ ٣٣.

للفرنج، ضعفت نفسه وعاد عنهم، ولم يكن في عسكره من برز اسمه غير عماد الدين زنكي»[1].

وشارك عماد الدين زنكي في عام (٥٠٧ هـ/ ١١١٣ م) في الهجوم الذي شنَّه تحالف مودود وطغتكين ضد ممتلكات إمارة بيت المقدس، وقد أظهر خلال المعارك شجاعة فائقة «لم يُسمع بمثلها»[2]. وبعد اغتيال مودود، أمر السلطان محمد السلجوقي، الأمير آق سُنْقُر البُرسُقي، بعد أن عيَّنه حاكماً على الموصل، بقتال الصليبيين في الرها وأردفه بقوات من الموصل، فكان عماد الدين زنكي من أبرز الذين انضموا إليه، فأظهر من الشجاعة «ما لا يوصف، لا سيما بعدما فعله بطبرية»[3].

ويبدو أن الرها استعصت على المهاجمين، فرحل آق سُنْقُر إلى سميساط، وخرَّب بعض المواقع الصليبية، ثم عاد إلى بغداد. و «أبلى عماد الدين زنكي في هذه المواقف كلها بلاءً حسناً، وعادت العساكر تتحدث بما فعله، وما ظهر له من الشجاعة»[4].

موقف عماد الدين زنكي من الصليبيين في بداية حكمه

أدَّت مواقف عماد الدين زنكي من الصراع ضد الصليبيين دوراً بارزاً في تحديد مستقبله السياسي، إذ دفعت السلطان محمد السلجوقي إلى توليته الموصل والجزيرة وما يفتحه من بلاد الشام إثر وفاة واليها عز الدين مسعود بن البُرسُقي في عام (٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م). ويبدو أن السلطان اقتنع بأنه الرجل الكفء الذي يستطيع أن يملأ الفراغ الذي تركه حكام الموصل من قبل، مما يؤكد حرصه على الاستفادة من قدراته لصد الخطر الصليبي الجاثم على حدود العراق الغربية[5].

لم يمارس عماد الدين زنكي، في بداية حكمه للموصل، أي نشاط عسكري ضد الصليبيين قبل أن يُثبِّت أقدامه في إمارته الجديدة، ويُعزِّز إمكاناتها الاقتصادية

---

(١) ابن الأثير: ص ١٧ ـ ١٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٨ ـ ١٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٩.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٩ ـ ٢٠.

(٥) خليل: ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

والعسكرية، ويوحِّد ما أمكنه من الإمارات الصغيرة المتناثرة حولها لتأمين خطوط تحركاته في الجزيرة وبلاد الشام إلى الحد الذي يمكّنه من التصدي لهم.

ولعل ما يدل على بُعد نظره في هذا الصدد، أنه وقَّع هدنة مع جوسلين الثاني أمير الرها لمدة سنتين أخذ أثناءها يوطّد سلطانه في بلاد الشام[1]، لم تشر المصادر إلى شروطها، إلا أن ابن الأثير يذكر أنها تمَّت على ما اختاره عماد الدين زنكي[2]. ويبدو أن المشاكل التي جابهت صاحب الرها، اضطرته إلى قبول هدنة لصالح عدوه المسلم[3].

كان هدف عماد الدين زنكي من عقد الهدنة التفرغ لضمِّ حلب إلى أملاكه واتخاذها نقطة انطلاق له في بلاد الشام[4]. ونجح في تحقيق هذا الهدف، وانطلق بعد ذلك لاكتساح ما كان يقف في طريقه من حصون مستقلة وإمارات محلية منتهزاً فرصة الهدنة.

مشكلة الوراثة الأنطاكية

صادف في عام (٥٢٤ هـ/ ١١٣٠ م) أن اجتازت إمارة أنطاكية الصليبية ظروفاً صعبة كادت تنتهي بسقوطها في يد عماد الدين زنكي، أو بخضوعها لطاعته على الأقل، وذلك أن أميرها بوهيموند الثاني كان يطمع في أن يعيد لإمارته كل البلاد التي كانت تشملها. والمعروف أن سلطة أنطاكية في كيليكية قد تداعت، بينما لا زالت طرسوس[5] وأذنة[6] بيد الصليبيين، واستطاع الأمير ثوروس الأول (١١٠٠ ـ ١١٢٩ م) أن يؤسس إمارة أرمينية قوية في هذه المنطقة، وانتزع من البيزنطيين سيس وعين زربة. واتخذ الأولى حاضرة له[7]. لكن ثوروس توفي في عام (٥٢٣ هـ/ ١١٢٩ م)، ثم لحق به ابنه قسطنطين بعد

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٢٩١. Setton: Op. Cit I, P. 429.

(٢) الباهر: ص ٣٧.

(٣) خليل: ص ١٣٩. Setton: Op. Cit I, P. 429.

(٤) ابن الأثير: ص ٣٧.

(٥) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم، بينها وبين أذنة ستة فراسخ، ويشقها نهر البردان. الحموي: جـ ٤ ص ٢٨.

(٦) أذنة: بلد من الثغور، قرب المصيصة، مشهور. المصدر نفسه: جـ ١ ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٧) رنسيمان: جـ ٢ ص ٢٩٢. سيس وعين زربة بلدان بالثغور الشامية.

عدة أشهر نتيجة لما وقع في البلاط الأرميني من مؤامرات، فخلفه ليون الأول، شقيق ثوروس؛ مما جعل الإمارة الأرمينية تعاني كثيراً من المطامع الخارجية والمتاعب الداخلية[١].

وجاء الخطر الكبير الذي هدَّد الإمارة من جانب الأمير إيلغازي الدانشمندي، صاحب ملطية[٢]، من ناحية الشمال، الذي امتدت أملاكه إلى جبال طوروس، ومن جانب بوهيموند الثاني صاحب أنطاكية من الجنوب، واعتقد هذا الأخير أن الوقت قد حان ليستعيد عين زربة. فسار في (شهر ربيع الأول عام ٥٢٤ هـ/ شهر شباط عام ١١٣٠ م) على رأس جيش بمحاذاة نهر جيحان[٣] نحو هدفه. وإذ ارتاع ليون، لم يسعه إلا الاستنجاد بالأمير إيلغازي الدانشمندي. لم يعلم بوهيموند الثاني شيئاً عن هذه المساعدة، ولم يلبث أن تقابل الخصمان الأتراك والنورمان في سهل عين زربة، انتصر فيها إيلغازي وقُتل بوهيموند الثاني مع جميع رجاله[٤].

كان بوهيموند الثاني قد تولى حكم أنطاكية، بمقتضى حق الوراثة، ورأى الصليبيون فيها أن تنتقل حقوقه إلى وريثه وفقاً لقانون الإقطاع الغربي، على أنه لم يرزق من زواجه من أليس، ابنة الملك بلدوين الثاني، إلاّ بابنة هي الأميرة كونستانس، ولم تكن قد تجاوزت آنذاك الثانية من عمرها، فبادرت أليس إلى تولي شؤون الوصاية على أنطاكية بنفسها دون أن تنتظر ما قد يقوم به والدها من تعيين وصي بوصفه سيداً أعلى على كافة الصليبيين في الشرق، ويبدو أنها كانت شديدة الطموح لحكم الإمارة. وسرعان ما تردَّدت شائعة في أنطاكية، بأنها أرادت أن تحكم على أنها أميرة مستقلة لا مجرد وصية على العرش[٥].

هرع بلدوين الثاني، فوراً نحو الشمال عندما سمع بنبأ مقتل بوهيموند الثاني حتى يرعى وريثة أنطاكية، وليعيِّن وصياً على الإمارة، فوجدت أليس نفسها في موقف حرج مما اضطرها إلى الاستعانة بعماد الدين زنكي. فأرسلت إليه رسولاً يحمل

---

(١) رنيسمان: جـ ٢ ص ٢٩٢ . Iorga, N.: L'Armenie Cilicienne, PP. 92-93.

(٢) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة تتاخم الشام. الحموي: جـ ٥ ص ١٩٢.

(٣) جيحان: نهر بالمصيصة بالثغر الشامي، ومخرجه من بلاد الروم ويمرُّ حتى يصب بمدينة تُعرف بكفربيا بإزاء المصيصة. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ١٩٦.

(٤) العظيمي: جـ ٢ ص ٦٧٩. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٦٤٨ ـ ٦٥٠. Setton: Op. Cit, P. 431.

(٥) العظيمي: المصدر نفسه. رنسيمان: جـ ٢ ص ٢٩٣.

رسالة سرية تطلب مساعدته مقابل إقرارها كأميرة على أنطاكية، وتعهدت بالتبعية له، لكن الرسالة لم تصل إلى عماد الدين زنكي بفعل إلقاء القبض على الرسول وإعدامه.

ويوضح لنا مثل هذا التصرف، مدى ما كان للزعيم المسلم من نفوذ في المنطقة، وهو ما جعل بلدوين الثاني يسرع إلى أنطاكية، عندما سمع بهذه الأخبار السيئة[١].

ولما ظهر أمام أسوارها، أعلنت أليس الثورة على أبيها، وأغلقت أبواب المدينة في وجهه، إلا أن أعيان أنطاكية وأمراءها الصليبيين لم يوافقوا على تلك التصرفات من جانب أليس. فثاروا ضدها، وفتحوا للملك وعساكره أبواب مدينتهم، وتقرر عزل أليس، ونفاها والدها إلى اللاذقية وجبلة[٢]. وهكذا خسر عماد الدين زنكي فرصة ثمينة كانت ستتيح له فتح أهم إمارات الصليبيين في الشمال.

فتح الأثارب

لم تكد سنة (٥٢٤ هـ/ ١١٣٠ م) تنتهي حتى كان عماد الدين زنكي قد أنهى معظم مشاكله وحروبه ضد أمراء ديار بكر، وامتدت سيادته المطلقة على بلاد الشام حتى جنوبي حمص. فانتهز فرصة اختلال أوضاع أنطاكية وقرر البدء بمهاجمة المواقع الصليبية، مستهدفاً أدناها وأشدها خطراً على كيانه السياسي في حلب. فخرج على رأس جيشه وعسكر أمام الأثارب الذي فقده رضوان في عام (٥٠٤ هـ/ ١١١٠ م) وهو من أمنع الحصون الصليبية المتاخمة لحلب حيث دأب الصليبيون على مضايقة الحلبيين الذين كانوا يقاسمونهم كافة أعمالها الغربية، ويقومون بغارات مستمرة عليهم، وقد حشدوا فيه خيرة فرسانهم نظراً لخطورة موقعه وأهميته بالنسبة لأهدافهم في المنطقة[٣].

ارتأى عماد الدين زنكي، بعد وقوفه على الوضع العسكري، أن يخوض المعركة بعيداً عن الأثارب، ففكَّ الحصار عن الحصن وابتعد عنه، فتبعه الصليبيون الذين فقدوا، بهذه الحركة، عنصري القوة والحماية اللذين كان الحصن سيوفره لهم. واصطدم الطرفان في رحى معركة قاسية، انتهت بانتصار المسلمين ومصرع عدد كبير

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٦٥٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٣٣١.

من عساكر الصليبيين، ومن بقي حياً وقع في الأسر[١].

اتجه عماد الدين زنكي بعد المعركة إلى الحصن وفتحه عنوة، وأسر أفراد حاميته، ثم أمر بتخريبه كي يقطع على الصليبيين كل أمل باستعادته واتخاذه قاعدة تهدد أمن المسلمين في حلب[٢]، ثم تقدم نحو حارم، الواقعة على طريق أنطاكية، وضرب الحصار عليها، فبذل له أهلها نصف دخل بلدهم، والتمسوا مهادنته، فأجابهم إلى ذلك، ثم قفل عائداً إلى حلب[٣]، ليستعد لجولة أخرى مع الصليبيين، وقد ذاعت شهرته على أنه بطل المسلمين في جهادهم ضد الصليبيين[٤].

عماد الدين زنكي يهاجم أنطاكية

يبدو أن الأحداث التي تلت فتح الأثارب أخذت تتجه، في بلاد الشام، اتجاهاً جديداً لصالح المسلمين، الأمر الذي جعل الصليبيين يدركون أن عليهم مجابهة قوة جديدة قذف بها العالم الإسلامي لم تكن في حسابهم، وقد أجبرتهم على تحويل خططهم القتالية من الهجوم إلى الدفاع، وبخاصة بعد وفاة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس في عام (٥٢٥ هـ/ ١١٣١ م)، لتنتهي مرحلة التوسع الصليبي الذي قادها هذا الملك، وتبدأ مرحلة التوازن بين المسلمين والصليبيين في الشمال، ويتجه الجانبان إلى الأطراف حيث الخلافة الفاطمية الضعيفة[٥].

انهمك عماد الدين زنكي طيلة السنوات بين (٥٢٥ ـ ٥٢٨ هـ/ ١١٣١ ـ ١١٣٤ م)، بتنظيم شؤون إمارته وتوسيعها، ولم يستطع أن يوجه اهتمامه إلى الصليبيين على الرغم من المنازعات التي نشبت بينهم إثر وفاة الملك بلدوين الثاني[٦]. وما افتقر إليه هؤلاء من الزعامة القوية، يُعد أمراً بالغ الخطورة في مقابل اليقظة الإسلامية التي شهدتها المنطقة الإسلامية، وتصاعد نفوذ عماد الدين زنكي الذي حصر قوته وسخَّر موارده العسكرية في خدمة الجهاد

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ٣٣١.
(٢) ابن الأثير: الباهر ص ٣٩ ـ ٤٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ٤٢.
(٤) Stevenson: Op. Cit., PP. 128-129.
(٥) قاسم، عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص ١٣٥.
(٦) رنسيمان: جـ ٢ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

الإسلامي. فقد جهد العلماء والمفكرون، بالإضافة إلى المدارس، بخلق مناخ للرأي العام المطالب بوجوب الجهاد.

والواقع أن عماد الدين زنكي الذي تصاعد نفوذه، ووجد فيه المسلمون الرجل القوي القادر على توحيدهم وقيادتهم، جاء نتيجة استجابة تاريخية للمطلب الإسلامي العام. على أن الرجل انغمس في أحداث العراق اعتباراً من عام (٥٢٥ هـ/ ١١٣١م) على أثر وفاة السلطان السلجوقي محمود، ولم يكن بوسعه أن يستفيد من وضع الصليبيين المتدهور إلا عن طريق الأمير سوار، واليه على حلب، الذي دخل في خدمته جماعات مختلفة من التركمان المغامرين بناءً على تشجيعه، فاستعان بهم في مهاجمة إمارة أنطاكية في (شهر رجب عام ٥٢٧ هـ/ شهر أيار عام ١١٣٣م)، كما هاجم تل باشر التابعة لإمارة الرها[١].

واستبد الجزع بأهل أنطاكية الذين استنجدوا بالملك فولك، الذي خلف بلدوين الثاني في حكم مملكة بيت المقدس، لإنقاذهم. وتقدم هذا الملك نحو معسكر المسلمين في قنَّسرين، وقام ليلاً بهجوم مفاجىء على المعسكر، فأرغم سواراً على الانسحاب[٢]، إلا أن الانتصار لم يكن تاماً، ففي الاشتباكات التي أعقبت ذلك، دمَّر المسلمون عدداً من القوات الصليبية[٣]، غير أن فولك نجح في دخول أنطاكية قبل أن يعود إلى فلسطين في صيف عام ١١٣٣ م. ولم يكد يغادرها حتى تجدَّدت غارات سوار على ممتلكاتها[٤].

تجدُّد الهجمات الإسلامية على أنطاكية بقيادة عماد الدين زنكي

انقضت سنة (٥٢٨ هـ/ ١١٣٤ م) بهدوء نسبي، باستثناء ما حدث من غارات على المناطق الحدودية، على أنه وقع في العالم الإسلامي، في السنة التالية، من القلاقل والثورات ما أضعف الصف الإسلامي. ففي مصر حاول الخليفة الفاطمي الحافظ، أن يحدَّ من نفوذ الوزراء، فعيَّن ابنه الحسن وزيراً، غير أن هذا الشاب أساء السيرة

---

(١) ابن القلانسي: ص ٣٧٤. ابن الأثير: الكامل: جـ ٨ ص ٣٣٩، ٣٤١. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٤٥.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣٣٩. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٦٦١ ـ ٦٦٢.
(٣) ابن الأثير، المصدر نفسه.
(٤) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣١١ ـ ٣١٢.

فاندلعت الفتنة، واضطر الخليفة إلى التضحية بابنه لإخمادها. ثم عيَّن في منصب الوزارة بهرام الأرمني الذي راح يقرِّب النصارى ويحجم عن مهاجمة الصليبيين. أما دمشق فإنها أضحت أيضاً عاجزة، ذلك أن إسماعيل الذي خلف أباه بوري بن طغتكين في الحكم في عام (٥٢٦ هـ/ ١١٣٢ م) مال إلى القسوة الطاغية، وفرض الضرائب الجائرة، وأدَّى سلوكه هذا إلى محاولة لاغتياله، فأصدر الأوامر بالإعدام لأتفه الأسباب، بل إنه لم يُبقِ على حياة أخيه سونج، ثم دبَّر أمر التخلُّص من يوسف بن فيروز، حاجب أبيه، وموضع ثقته، وانتهى أمره بالقتل. وفشل عماد الدين زنكي في ضمِّ دمشق بعد تدخل الخليفة المسترشد بالله[١].

هيأت هذه الأحداث فرصة نادرة للصليبيين لاسترداد بانياس، والقيام بشن هجوم شديد على المسلمين. غير أن الملك فولك لم يغتنمها، إذ أن عماد الدين زنكي استخدم كل قواته، بعد أن أنهى مشاكله مع إمارة دمشق، في مهاجمة أنطاكية عام (٥٢٩ هـ/ ١١٣٥ م)، بينما أخذ نائبه سوار يهدد تل باشر وعينتاب وعزاز[٢] التي شكَّلت الخط الدفاعي الذي يحمي أنطاكية من هجمات المسلمين، فقطع سبل الاتصال بين جيوش أنطاكية والرها.

وتجاوز عماد الدين زنكي في زحفه ما يقع على الحد الشرقي لأنطاكية من الحصون، أمثال كفرطاب ومعرة النعمان وزردنا، ففتحها الواحدة بعد الأخرى، وبذلك فقدت أنطاكية معاقلها على الحدود[٣]. وأدَّت هذه الانتصارات التي حقَّقها ضد الصليبيين إلى: تنبيههم إلى تزايد خطره على ممتلكاتهم في بلاد الشام، وإلى ضرورة توجيه ضربة حاسمة إليه.

وحملت هذه الكوارث التي نزلت بهم الملك فولك على المسير من جديد نحو الشمال ليرتب أوضاع الإمارات الصليبية، ويدفعها إلى محاربة عماد الدين زنكي. وكانت مشكلة الحكم في الإمارة الأنطاكية على رأس اهتماماته، وقد نجح في اختيار زوج مناسب للأميرة كونستانس، هو ريموند بواتييه، الابن الأصغر لوليم التاسع دوق أكويتانيا، الذي كان يقيم بإنكلترا في بلاط الملك هنري الأول، فاستدعاه على

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣١٣ ـ ٣١٤.
(٢) عزاز: بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما يوم. الحموي: جـ ٤ ص ١١٨.
(٣) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٥١. رنسيمان: جـ ٢ ص ٣١٣ ـ ٣١٤. Setton: Op. Cit. I, P. 435.

عجل وعقد قرانه عليها، وتولى حكم الإمارة[1].

فتح بارين

لم يشأ عماد الدين زنكي أن يهاجم الصليبيين وقد تعرَّض جناح جيشه لخطر الدمشقيين. ففي (شهر شوال ٥٣١ هـ/ شهر حزيران ١١٣٧ م)، زحف على حمص التي حازها أنر إقطاعاً من أتابك دمشق، وظل مرابطاً أمام المدينة نحو أسبوعين حتى جاءته الأنباء بأن جيشاً صليبياً بقيادة ريموند، صاحب طرابلس، يدنو منه لمباغتته والقضاء عليه، فاضطر إلى رفع الحصار عن حمص حتى لا يقع بين شقي الرحى، وقام بحركة التفاف حول القوات الصليبية وأجبر ريموند على التراجع[2].

ورأى أن خير وسيلة، يستدرج بها الصليبيين وتتيح له تولي زمام المبادرة، هو أن يتظاهر بمهاجمة حصن بارين الصليبي الضخم الواقع على المنحدرات الشرقية لتلال النصيرية، والذي يحرس المنفذ المؤدي إلى البقيعة[3].

وإذ ضرب الحصار عليه لم يكن بوسع ريموند التصدي له بمفرده،.فأرسل إلى بيت المقدس يطلب النجدة من الملك فولك. وفعلاً هرع هذا الملك بكل ما استطاع أن يحشده من الرجال للحاق بريموند حتى بلغا سوياً حصن بارين[4].

ويبدو أن الرحلة كانت شاقة، فقد أصاب جنودهما التعب والإرهاق. فابتعد عماد الدين زنكي حينما اقتربا منه، غير أنه لما علم بسوء أوضاعهما عاد واقترب منهما عند خروجهما من بين التلال القريبة من الحصن، وفاجأهما[5]. ودارت بين الطرفين رحى معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين، ولقي معظم الصليبيين مصرعهم في ساحة المعركة، ووقع آخرون في الأسر، منهم صاحب طرابلس، بينما فرَّ فولك إلى الحصن[6].

---

(١) وليم الصوري: مصدر سابق: جـ ٢ ص ٦٦٢ ـ ٦٦٣، ٦٩٠ ـ ٦٩١. رنسيمان: جـ ٢ ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٢) ابن القلانسي: ص ٤٠٧. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٥٣.

(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٢٤.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٦٩١ ـ ٦٩٢.

(٥) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٢٤.

(٦) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٦٨٦ ـ ٦٨٨. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٥٨.

وقبل أن يتقدم عماد الدين زنكي لحصار الحصن، أرسل الملك فولك رسالة عاجلة إلى وليم، بطريرك بيت المقدس، وإلى جوسلين صاحب الرها وريموند أمير أنطاكية، يطلب منهم بذل المساعدة، فاستجاب هؤلاء لندائه[1].

وفي (شهر ذي القعدة/ نهاية شهر تموز) احتشدت في البقيعة القوة القادمة لإنقاذ الملك فولك، كما برزت بوادر تحرك بيزنطي في الشمال باتجاه أنطاكية[2]، مما ضايق عماد الدين زنكي الذي تقدم نحو الحصن وضرب عليه حصاراً شديداً، وهو ينوي فتحه بسرعة قبل جهوز النجدة الصليبية.

ويبدو أن اليأس استبد بالملك فولك في بارين، بعد أن انقطعت عنه أنباء العالم الخارجي بفعل الحصار المركَّز، وتناقص مؤونته، في الوقت الذي كانت فيه مناجيق المسلمين تقذف أسوار القلعة ليلاً ونهاراً، الأمر الذي اضطر معه أن يبعث برسول إل عماد الدين زنكي يطلب منه شروطه لفك الحصار، وانتهت مفاوضات الصلح وفق الشروط التالية:

- يسلم الملك فولك حصن بارين إلى المسلمين.
- يخرج الملك ورجاله منه، وهم آمنون.
- إطلاق سراح الأسرى من الفرسان البارزين، ومنهم صاحب طرابلس.
- يدفع الملك، إلى عماد الدين زنكي مبلغاً قدره خمسون ألف دينار[3].

والواقع أن ما اشتهر به عماد الدين زنكي من الجلد والصبر ساعده في تحقيق أهدافه، وهو على يقين بما يفعله. فلم تكن بارين قلعة غير ذات أهمية، إذ أن تملُّكها سوف يمنع الصليبيين من أن ينفذوا إلى أعالي وادي نهر العاصي، كما أن موقعها الاستراتيجي يجعلها تسيطر على حماة وحمص، ويُعدُّ فتحها بالغ الأهمية في مشاريعه المستقبلية[4].

---

(١) وليم الصوري: المصدر نفسه. ابن القلانسي: ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٥٨. وليم الصوري: المصدر نفسه ص ٦٨٩. رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٢٦.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٦٨٦ ـ ٦٩٢. إنه يصف معاناة الصليبيين داخل الحصن والتي أجبرتهم على طلب الصلح.

(٤) المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٥٨. رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٢٧.

يوحنا كومنين يغزو بلاد الشام

ظروف قيام الحملة

ذكر ابن الأثير أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصر الملك فولك في بارين، أرسلوا طالبين النجدة من الأمبراطور البيزنطي والغرب الأوروبي. «فدخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية، مستنصرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ حصن بارين ومن فيه من الفرنج، ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم الحامي عنها، وأن المسلمين ليس لهم إلا قصد البيت المقدس، فحينئذ اجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام مع ملك الروم»[١].

والواقع أنه إذا كانت الأميرة الأنطاكية أليس لم تنجح في الاتصال بعماد الدين زنكي لمساندتها في صراعها مع والدها والنبلاء الآخرين، فنجدها تلجأ إلى طريقة أخرى هي الاتصال بالأمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين تعرض عليه زواج ابنتها الأميرة كونستاس من ابنه مانويل[٢].

ولا شك بأن مثل هذا العرض صادف قبولاً حسناً من قبل الأمبراطور، لأن ذلك يعني دخول أنطاكية، في تبعية بيزنطية، وهي ما تسعى إليه جاهدة منذ الحملة الصليبية الأولى، وهو الأمر الذي لا يقرُّه بقية الزعماء الصليبيين. لذلك سارعوا بتزويج كونستانس من ريموند دي بواتييه. وقد غضب يوحنا من هذا الزواج الذي تمَّ دون استشارته لأن أنطاكية تابعة له من الناحية الاسمية، وبذلك أضحى الصدام وشيكاً بين يوحنا وريموند[٣].

والحقيقة أن العداء قد اشتد بين البيزنطيين والصليبيين منذ وصول هؤلاء إلى أطراف بلاد الشام والعراق، ورفضهم التقيد بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم للأمبراطور البيزنطي بتسليمه كافة المدن والبلدات التي كانت فيما مضى من ممتلكات الأمبراطورية البيزنطية، قبل أن يفتحها المسلمون، وقد تركَّز جزء كبير من العداء بين الطرفين في العلاقات بين الأمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية، لأن هذه الأمارة،

---

(١) الكامل: جـ ٢ ص ٣٥٨.

(٢) عمران، محمود وسعيد: معالم التاريخ الإسلامي الوسيط: ص ٢٠٥.

(٣) المرجع نفسه. Stevenson: Op. Cit., P. 138.

بالإضافة إلى إمارة الرها، كانت تشكل أهمية دينية وعسكرية وتجارية في السياسة البيزنطية، وعدَّت بيزنطية هذه البلدان جزءاً من ممتلكاتها.

والواضح أن هذه البلاد كانت تتيح للأرمن، الذين سكنوها منذ أكثر من مائة عام، التوغل داخل الأراضي البيزنطية وتهديدها، ثم إن إقامة الصليبيين في بلاد الشام كان يعني توطيد النفوذ اللاتيني المضر بالمصالح البيزنطية، مما يعرِّض للخطر تجنيد المرتزقة الصليبيين ضمن إطار النظام العسكري البيزنطي. بالإضافة إلى ذلك، فإن مدنها الرئيسية كانت تشكل رؤوساً للجسور التجارية البالغة الحيوية في التجارة البيزنطية، فضلاً عن أنها كانت أكثر الإمارات الصليبية في بلاد الشام، تطرفاً إلى جهة الشمال؛ مما جعل حدودها تجاور الحدود البيزنطية في كيليكية[1].

ويُذكر أن الأمبراطور يوحنا كومنين حدَّد السياسة البيزنطية في الشرق الأدنى، عند اعتلائه العرش على الشكل التالي:

- إعادة الحدود الآسيوية للأمبراطورية إلى ما كانت عليه قبل الغزو السلجوقي.
- طرد سلاجقة الروم من الأناضول.
- طرد الأرمن من كيليكية.
- إجبار الصليبيين في أنطاكية على الاعتراف بسيادة الأمبراطورية.
- استعادة عدد من المواقع الإسلامية في شمالي الشام[2].

وحتى يؤمن مؤخرة جيشه أثناء زحفه نحو بلاد الشام، عقد يوحنا اتفاقيات أمنية مع سلاجقة الروم في الأناضول في عام (٥٣١ هـ/ ١١٣٧ م). أما الدانشمنديون في سيواس، فقد انهمكوا في منازعات أسرية، فلم يشكلوا أي خطر جدِّي على الأمبراطورية، فأضحى بوسعه بعد ذلك، التدخل في أمور بلاد الشام وهو مطمئن[3].

(١) Vasiliev: History of the Byzantine Empire Vol. II, PP. 408-409.

(٢) Ostrogorsky: A History of the Byzantine States, P. 335.

(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

السيطرة على كيليكية

تقدم الأمبراطور من أنطاكية على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى باتجاه الشرق، وتولى الأسطول الأمبراطوري حراسة جناحه. والواقع أن الصليبيين والأرمن دُهشوا من هذا الزحف البيزنطي باتجاه أراضيهم، وحاولوا مقاومته، إلا أنهم فشلوا في وقفه. فتراجع الأمير الأرميني ليون إلى جبال طوروس تاركاً عين زربة غنيمة سهلة في يد الأمبراطور الذي أذعنت له أذنة والمصيصة[1] وطرسوس.

السيطرة على أنطاكية

ولما فرغ الأمبراطور البيزنطي من السيطرة على القلاع الأرمينية في كيليكية، تابع زحفه نحو الجنوب. فاجتاز إسكندرونة، وعبر الدروب الشامية إلى أنطاكية التي كانت الهدف الثاني لحملته بعد كيليكية، فظهر أمام أسوارها، وضرب الحصار عليها، فاضطر صاحبها، ريموند بواتييه، أمام ضخامة وقوة الجيش البيزنطي من جهة، وعدم حصوله على مساعدات الصليبيين في الرها وبيت المقدس من جهة أخرى، إلى الخضوع لإرادة الأمبراطور، بعد حصوله على موافقة الملك فولك[2].

وتسلَّم الأمبراطور البيزنطي المدينة، إلا أنه لم يُصر على الدخول إليها، غير أن العلم الأمبراطوري ارتفع بأعلى القلعة[3].

زحف الحملة على حلب

وجرت مباحثات بين الصليبيين والبيزنطيين أدَّت إلى ما يلي:

- قيام تحالف بينهم.

- توحيد الجهود العسكرية وتوجيهها للقيام بحملة نصرانية كبرى ضد مسلمي بلاد الشام بهدف:

- تحطيم قوة عماد الدين زنكي في حلب.

---

(١) المصيصة: مدينة على شاطىء نهر جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس، وكانت من مشهور ثغور الإسلام. الحموي: جـ ٥ ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) انظر: وليم الصوري: جـ ٢ ص ٦٩٧ ـ ٦٩٩.

(٣) انظر: رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٤١.

- القضاء على إمارة بني منقذ في شيزر.

- انتزاع حمص من أتابكة دمشق.

- إقامة إمارة صليبية تشمل الجهات الداخلية من بلاد الشام بما فيها حلب وشيزر وحماة وحمص.

- تعيين ريموند بواتييه أميراً على تلك الإمارة.

- ترك ريموند إقليم أنطاكية للأمبراطور البيزنطي.

- إنجاز هذا العمل التوسعي في الصيف القادم (١١٣٨ م)(١).

دلَّت المفاوضات على ما يشعر به الصليبيون من الضيق والقلق نحو الأمبراطور البيزنطي، إذ أن موافقة الملك فولك أملتها، فيما يبدو، واقعية الظروف السياسية السيئة التي كان يمر بها الصليبيون، حيث كان يُدرك جيداً أن عماد الدين زنكي هو العدو الأكبر للصليبيين، ولذا لم يشأ أن يقاوم القوة البيزنطية وينهكها وهي الوحيدة القادرة على وقف تقدمه.

ومن جهته، فإن يوحنا كومنين كان واقعياً في تفكيره السياسي، فأدرك أن مصلحة النصارى العامة تقضي بعدم طرد الصليبيين من أنطاكية دون أن يُبذل لهم تعويض، يضاف إلى ذلك، أنه أراد أن يقيم على امتداد الحدود إمارات تابعة يتحكم في سياساتها العامة، وتتحمل في الوقت نفسه صدمات المسلمين، كما تجلَّت أطماعه في أملاك المسلمين بالشام.

ويبدو أن أخبار هذا الاتفاق قد تسربت إلى أهالي حلب الذين قاموا بأعمال التحصين وحفر الخنادق، كما أن الأمير سوار قام بمهاجمة الجيش البيزنطي أثناء عودته من أنطاكية إلى أرمينية لقضاء فصل الشتاء وظفر «بسرية وافرة العدد من عسكره، فقتل وأسر، ودخل بهم إلى حلب»(٢).

ورغم ما كان يضمره يوحنا من سوء النية، وما كان يبيته من هجوم على حلب في العام التالي، إلا أنه تظاهر بالود تجاه عماد الدين زنكي، فأرسل إليه رسولاً أخبره

---

(١) Grousset: Op. Cit. II, P. 97.
Stevenson: Op. Cit., P. 139. Setton: Op. Cit, I, P. 439.

(٢) ابن العديم ص ٤٥٤. Setton: Op. Cit, I. P. 439.

بأنه ذاهب لقتال الأرمن، وأن البيزنطيين ليسوا راغبين في أن يبادروا إلى مهاجمته، وهو ينوي خداعه حتى يطمئن إليه[١].

حصار حلب

وفي (منتصف عام ٥٣٢ هـ/ بداية عام ١١٣٨ م)، أرسل الأمبراطور مبعوثيه إلى ريموند بواتييه وجوسلين الثاني صاحب الرها يخطرهما بالاستعداد للقتال لتنفيذ اتفاق عام (٥٣١ هـ/ ١١٣٧ م). وحتى لا تتسرب أخبار الاستعدادات النصرانية إلى عماد الدين زنكي، أمر الأمبراطور باعتقال كل التجار المسلمين، والمسافرين القادمين من حلب والبلاد الإسلامية المجاورة[٢].

غادر يوحنا كيليكية في (شهر رجب عام ٥٣٢ هـ/ شهر نيسان عام ١١٣٨م) في طريقه إلى بلاد الشام. ولما وصل إلى أنطاكية انضم إليه أميرها وصاحب الرها، فضلاً عن كتيبة من الداوية[٣]، ثم عبرت القوات المتحالفة الأراضي الإسلامية واحتلت البلاط[٤]، وظهرت أمام البزاعة، بيت حلب ومنبج، واحتلتها بعد حصار دام سبعة أيام[٥].

ولا شك في أن الوقت الذي أضاعه النصارى في الاستيلاء على البزاعة سبَّب لهم خسارة كبيرة، لأنه أفقد حركتهم عنصر المفاجأة، وأتاح للمسلمين في حلب بعامة، وعماد الدين زنكي بخاصة، فرصة طيبة للاستعداد «فتحرز الناس وتحفظوا وكاتبوا أتابك زنكي بذلك»[٦].

---

(١) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٥٥. setton: p 439.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الداوية: Templers، طائفة عسكرية دينية، تطلق على جماعة فرسان المعبد. تأسست هذه الطائفة سنة ١١١٩ م لحماية طريق الحجاج النصارى بين يافا وبيت المقدس، ثم تحولت بعد ذلك إلى هيئة عسكرية. وقد منح بلدوين الثاني ملك بيت المقدس أفرادها خاناً يقيمون فيه بالقرب من معبد سليمان، فلذلك سموا بفرسان المعبد. أدَّت هذه الطائفة دوراً كبيراً في الحروب الصليبية.
انظر فيما يتعلق بتأسيس هذه الطائفة: وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٧٦ ـ ٥٧٨.

(٤) البلاط: مدينة عتيقة بين مرعش وأنطاكية، وهي من أعمال حلب. الحموي: جـ ١ ص ٤٧٧.

(٥) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٥٦.

(٦) ابن القلانسي: ص ٤١٦. عاشور: جـ ١ ص ٥٨٥.

كان عماد الدين زنكي آنذاك ينزل بعساكره أمام حمص يحاول طرد حامية دمشق منها. وعندما علم بأنباء زحف النصارى، أرسل فوراً بعض قواته تحت قيادة سوار لتعزيز حامية حلب، فضاعت على الأمبراطور فرصة مباغتتها، وهو الذي عقد آماله في أخذها على حين غرَّة، وأدرك بعد فوات الأوان أنه ارتكب خطأً عسكرياً في تمهله في الزحف، مما أتاح للمدينة فرصة الحصول على إمدادات قوية من عماد الدين زنكي(١).

لذلك ما إن وصل إلى أسوارها في (شهر شعبان/ أواخر شهر نيسان) وقام بمهاجمتها تبينت له أنها منيعة الاستحكامات، كما ضايقه الحلبيون بما كانوا يشنُّونه من غارات خاطفة وسريعة على معسكراته، فانصرف عنها بعد ثلاثة أيام من الحصار، وزحف باتجاه الجنوب، فاستولى على الأثارب، بعد أن انسحبت الحامية الإسلامية منها، وأقام عليها حامية بقيادة القائد البيزنطي توماس(٢).

حصار شيزر:

اتجهت القوات المتحالفة بعد ذلك إلى معرة النعمان، بعد أن نقل الأمبراطور أسرى البزاعة إلى قلعة الأثارب. ويبدو أن الحامية التي تركها في الأثارب لم تكن كافية، مما أتاح لبعض الأسرى أن يفرُّوا إلى حلب حيث أخبروا سواراً بضعفها، فأسرع هذا الأخير بالإغارة على القلعة وأطلق سراح بقية الأسرى المسلمين «فسرَّ أهل حلب بهذه النوبة سروراً عظيماً»(٣).

ودخل يوحنا والقوات المتحالفة معرة النعمان وكفرطاب، وأضحوا على أبواب شيزر المدينة الإسلامية الكبرى ذات الحصانة الطبيعية، والتي تسيطر على وسط حوض نهر العاصي(٤)، وكانت تحت حكم الأمير العربي أبي العساكر سلطان من بني منقذ؛ وفرضوا الحصار عليها، ساعين بذلك إلى الاستيلاء على موقع هام يمنح النصارى السيطرة على وادي نهر العاصي، ويقف سداً منيعاً أمام مطامع عماد الدين زنكي البعيدة في المنطقة(٥).

---

(١) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٥٦. العظيمي: جـ ٢ ص ٦٨٤.
(٢) ابن القلانسي: ص ٤١٧. ابن واصل: جـ ١ ص ٧٨.
(٣) ابن القلانسي: المصدر نفسه. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٥٧ ـ ٤٥٨.
(٤) ابن واصل: جـ ١ ص ٧٨.
(٥) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٦٩٥ ـ ٦٩٦. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٦٠. رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٤٥.

استهلت القوات المتحالفة حصار المدينة باندفاع ملحوظ، وضربتها بالمنجانيق، وسرعان ما احتلت جانباً من أسفلها. وقد شهد أسامة، ابن أخ صاحب شيزر، ما ألحقته مجانيق النصارى بالمدينة من أضرار بالغة، وسجَّل ما شاهده من تهديم وتخريب[١].

استنجد أبو العساكر سلطان بعماد الدين زنكي، رغم حرصه على أن يحافظ على استقلاله عنه. فاتجه فوراً على رأس قواته باتجاه الشمال، وعسكر على ضفة نهر العاصي، بينها وبين حماة. وأرسل القاضي كمال الدين الشهرزوري إلى بغداد لطلب المساعدة من السلطان السلجوقي مسعود. وتعهد الأمير داوود الأرتقي بأن يرسل من الجزيرة جيشاً مؤلفاً من خمسين ألف تركماني. وجرى إنفاذ الرسل إلى الدانشمنديين في كبادوكيا تدعوهم للإغارة على الأملاك البيزنطية لتخفيف الضغط عن الجبهة الشامية، في انتظار وصول المساعدات[٢].

لم يشأ عماد الدين زنكي أن يغامر بشن هجوم عام على القوات المتحالفة بسبب تفوقها العددي، فلجأ إلى استعمال الخدعة. فكان يخرج كل يوم «هو وعسكره، ويسيرون إلى شيزر، ويقفون بحيث يراهم الروم، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفر به منهم، ثم يعودون في آخر النهار»[٣]. إلا أنه قام بدور كبير في مناوشة المتحالفين، وأخذت عساكره تتخطَّف العساكر الصليبية والبيزنطية التي تخرج لطلب المؤن أو للقيام بأعمال النهب. ولما يئس المتحالفون من الاستيلاء على المدينة، رفعوا الحصار عنها بعدما أحرقوا آلاتهم وتركوا البعض الآخر، وقد نقله المسلمون بعد ذلك إلى حلب[٤]، واستمر حصار شيزر ثلاثة وعشرين يوماً.

أسباب فشل الحملة

يهمنا، بعد هذا العرض الموجز للعمليات العسكرية، أن نوضح أسباب فشل هذه الحملة التي يمكن تحديدها بما يلي:

---

(١) كتاب الاعتبار: ص ١٤٥ ـ ١٤٧.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٦٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٦٩٧ ـ ٦٩٨. ابن القلانسي: ص ٤١٧. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

ـ عدم قيام الصليبيين بواجباتهم العسكرية وانصرافهم عن مساندة الأمبراطور[١].

ـ اشتداد المنافسة بين كل من ريموند بواتييه وجوسلين الثاني، فخشي الأول أنه إذا سقطت شيزر بيد النصارى سيُجبر على أن يقيم بها، وفقاً للاتفاقية المبرمة بين الحلفاء، وهي تقع على الخط الأمامي للممتلكات النصرانية المواجهة للمسلمين، وسيبتعد نتيجة ذلك عن أنطاكية ومباهجها. أما جوسلين الثاني الذي يكنُّ في قرارة نفسه الكراهية لريموند بواتييه، فإنه لم يود أن يراه مستقراً في شيزر، وفي حلب فيما بعد، فحاول الإيقاع بينه وبين الأمبراطور، ونجح في ذلك[٢].

ـ انتهز مسعود سلطان سلاجقة الروم فرصة تواجد الأمبراطور يوحنا بعيداً عن الأمبراطورية، وانشغاله بأمر الصليبيين وعماد الدين زنكي؛ فقام بمهاجمة مدينة أذنة. ولا شك بأن مثل هذه الأنباء قد أزعجت الأمبراطور لأنه خرج بجيشه من أجل العمل على ضمِّ أنطاكية إلى أملاك بيزنطية، لا من أجل فقدان بعض أملاك الأمبراطورية، مما حمله على فك الحصار وشرع في العودة إلى بلاده لحمايتها من السلاجقة[٣].

ـ اتبع عماد الدين زنكي خطة عسكرية ذكية يمكن أن نطلق عليها «الحرب النفسية» إذا جازت هذه التسمية في ذلك الوقت[٤]. ذلك أنه راسل المتحالفين، وهم في مواقعهم الحصينة عند مدينة شيزر يقول لهم: «إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين من شركم»[٥]. وكادت الخطة تنجح حين أشار الصليبيون على الأمبراطور بالنزول إليه وقتاله، ولكن يوحنا خشي مغبَّة ذلك، وأجاب: «أتظنون أنه ليس من العسكر إلا ما ترون؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجيء إليه من نجدات المسلمين ما لا حدَّ عليه»[٦].

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٦٩٧ ـ ٦٩٨.
(٢) المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٦٩٦ ـ ٦٩٧. رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦.
(٣) عمران: ص ٢٠٩.
(٤) المرجع نفسه.
(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٦٠.
(٦) المصدر نفسه.

وفي الوقت نفسه، كان يراسل صليبيي الشام يحذِّرهم من أمبراطور الروم، ويعلمهم أنه إذا استولى على حصن واحد في الشام أخذ البلاد التي بأيديهم منهم. ويرسل من جهة أخرى إلى الأمبراطور يخوِّفه من أن الصليبيين في بلاد الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه لتخلَّوا عنه[1]. فاستنفر كل طرف من الطرف الآخر وسادت الشكوك بينهما، وكان قد بلغ الأمبراطور أن قرا أرسلان بن داوود الأرتقي قد عبر الفرات في جموع عظيمة في طريقه إلى شيزر[2]، مما كان دافعاً له على فك الحصار.

ـ حدث أثناء الحصار أن راسل ابن منقذ الأمبراطور سراً، عندما رأى إمارته تتعرض لمثل هذا الخطر، وعرض عليه تعويضاً كبيراً عن نفقات الحرب وهدايا قيِّمة وضريبة سنوية كرمز للتبعية. وإذ اشتدت كراهيته للصليبيين المتخاذلين، لم يسعه إلا قبول العرض بعد أن كان قد رفضه أكثر من مرة في بادىء الأمر[3].

ذيول فشل الحملة

أثَّر فشل الحملة الصليبية البيزنطية المشتركة وانسحاب المتحالفين من أمام شيزر على موقف الأطراف المتصارعة في بلاد الشام. فبالإضافة إلى التباعد بين القوى الصليبية والبيزنطية، فإن عماد الدين زنكي شعر بأنه في غير حاجة إلى المساعدة التي طلبها من السلطان السلجوقي بفعل أن مصالحه في بلاد الشام تتعارض مع قدوم حملة سلجوقية كبرى يمكن أن تعزِّز نفوذ السلطان على حسابه، لذلك أرسل على الفور يلغي طلبه السابق، ويعلن عن عدم حاجته إلى مساعدة السلطان نظراً لرحيل البيزنطيين[4].

ولم يكد الصليبيون ينسحبون من إقليم شيزر حتى أرسل حاجبه الياغسياني، ففتح كفرطاب في (شهر رمضان عام ٥٣١ هـ/ شهر أيار عام ١١٣٧ م)[5]، في حين سار هو إلى حصن عرقة وهو من أعمال طرابلس، فحاصره وفتحه عنوة، وأسر من

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٦٠.
(٢) ابن القلانسي: ص ٤١٧. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٥٩.
(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٦٩٧.
(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.
(٥) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٥٩.

فيه من الصليبيين، ثم أمر بتخريبه[1]. وما لبث أن اتجه في (مطلع عام ٥٣٣ هـ/ خريف عام ١١٣٨ م) إلى حصن البزاعة وفتحه عنوة، ثم حاصر حصن الأثارب وفتحه، وقفل عائداً إلى الموصل[2].

وانصرف عماد الدين زنكي في السنوات الأربع التالية إلى العمل على إتمام خطته بتوحيد المسلمين في الشرق الأدنى كي يكون أكثر قدرة على مجابهة الصليبيين. فقام بعدة عمليات عسكرية في جهات الجزيرة، وجدَّد محاولته لضم دمشق[3].

فتح الرها

أوضاع الصليبيين في بلاد الشام قبيل فتح الرها

شعر الصليبيون بارتياح حين علموا بوفاة الأمبراطور يوحنا كومنين في عام (٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م)، غير أنهم لم يلحظوا أن عماد الدين زنكي، وهو أكبر أعدائهم، كان أكثر سروراً. وإذا كان فولك ملك بيت المقدس قد اهتم بشكل خاص بتحصين الحدود الجنوبية للصليبيين في بلاد الشام، إلا أن الخطر الذي هدَّد هؤلاء في أواخر الثلاثينات من القرن السادس الهجري/ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، جاء من الشمال، إذ في الوقت الذي نجح فيه ملوك بيت المقدس في حماية ممتلكاتهم عن طريق التحالف مع دمشق، في حين لم يشكل الفاطميون آنذاك، أي خطر جدِّي على الصليبيين، إذا بصاحبي الرها وأنطاكية جوسلين الثاني وريموند بواتييه يجدان نفسيهما وجهاً لوجه أمام عماد الدين زنكي. وعلى الرغم من أن جهود الزعيم المسلم قد تعثَّرت بسبب تحالف الصليبيين مع البيزنطيين ضد المسلمين في بلاد الشام، إلا أن هذا التحالف لم يلبث أن تصدَّع، وتحوَّل الموقف بينهما إلى عداء سافر، مما أتاح له أن يستأنف جهاده ضد الصليبيين من جديد[4].

وفي (شهر جمادى الأولى عام ٥٣٨ هـ/ تشرين الثاني عام ١١٤٣ م) كان البلاط في بيت المقدس ينعم بالهدوء الذي هيأه عماد الدين زنكي بارتداده عن

---

(١) ابن واصل: جـ ١ ص ٨٤.

(٢) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٦٠.

(٣) خليل: ص ١٤٨.

(٤) عاشور: جـ ١ ص ٦٠٣. Setton: Op. Cit. I, P. 459.

دمشق. وفجأة توفي الملك فولك إثر جراحة أصيب بها أثناء رحلة صيد، مخلفاً ولدين هما بلدوين، الذي كان في الثالثة عشرة من عمره، وعموري، الذي لم يتجاوز السابعة، فتولَّت الملكة ميليسند الحكم، ونصَّبت ابنها بلدوين قيِّماً معها[١].

والواضح أن ولاية ميليسند جلبت ضرراً بالغاً على أوضاع الصليبيين، فما كان لملك بيت المقدس من مكانة رفيعة، بوصفه سيداً أعلى للإمارات الصليبية، قد تلاشت ولم يولِ أمراء شمالي الشام اهتماماً كبيراً لسيادة امرأة أو طفل. فحينما كانت المنازعات تنشب بين أميري الرها وأنطاكية، يبادر ملك بيت المقدس إلى التدخل، وإجبارهما بالقوة على تسوية نزاعاتهما، أما الآن فليس بوسع الملكة أو الملك الطفل أن يؤديا الدور نفسه[٢].

والواقع أن ميليسند لم تهتم بالمصالح الصليبية العامة، بل اتصفت بالتقلبات السياسية، وانهمكت بنسج المؤامرات، فضلاً عن انشغالها بصدِّ هجمات الدمشقيين[٣]. أما الملك بلدوين الثالث، فهو حديث السن، ضعيف الشخصية، الأمر الذي جعل أمراء الشمال يبتعدون عن هيمنة ملك بيت المقدس، ويلتفتون إلى الاهتمام بمصالحهم وتقوية نفوذهم.

أما فيما يتعلق بالتحالف الصليبي ـ البيزنطي، فقد انتهى في عام (٥٣٧ هـ/ ١١٤٢ م)، وحلَّ محله عداء شديد، وحروب مستمرة. والواضح أن ريموند بواتييه أمير أنطاكية، استعاد الثقة بنفسه منذ وفاة الأمبراطور يوحنا كومنين، وارتداد عماد الدين زنكي عن دمشق، فأرسل على الفور، إلى الأمبراطور مانويل الذي خلف أباه يوحنا يطلب منه، استعادة كيليكية، فلما رفض هذا الأخير الطلب، بادر ريموند بغزوها[٤]. أما علاقاته مع جوسلين الثاني، فقد ازدادت سوءاً. ذلك أنه حدث قبل عدة أشهر أن أضاف ريموند بواتييه إلى أملاكه من بلاد حلب ما امتد إلى البزاعة، في حين زحف جوسلين الثاني إلى الفرات ليلتقي به، وينسق معه لمهاجمة حلب. غير أن ما قام به هذا الأخير فجأة من عقد هدنة مع سوار، والي حلب، حطَّم ما وضعه ريموند بواتييه من خطط. والراجح أن جوسلين الثاني رفض في عام (٥٣٤ هـ/

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٣١ ـ ٧٣٢. setton: P. 444.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(٣) Grousset: Op. Cit. II, PP. 174 - 175. Setton: Op. Cit. I, P. 444.

(٤) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨. Stevenson: Op. Cit., PP. 148-149.

١١٤٠ م) الاعتراف به سيداً أعلى إلا مكرهاً، فلم تجمعهما محبة خالصة. وأثار ريموند بواتييه ما كان من تدخل جوسلين الثاني لصالح رادولف بطريرك القسطنطينية، فلما انعقدت الهدنة بين جوسلين الثاني ووالي حلب أضحى الاختلاف صريحاً بينهما[١].

أوضاع إمارة الرها الداخلية

كانت ظروف الرها الداخلية مؤاتية لعماد الدين زنكي، إذ اتصف أميرها جوسلين الثاني بضعف الشخصية، وانسياقه وراء العواطف والأهواء، وعدم امتلاكه مقدرة سياسية، وبُعد نظر. والواقع أن جوسلين الثاني تأثر في نشأته بالميول الأرمينية بفعل أن والدته كانت منهم، فترعرع وفي نفسه ميل إلى الأرمن وغيرهم من السكان الأصليين من الطوائف النصرانية الشرقية، وفضَّلهم على النصارى الغربيين، الأمر الذي أثار الفرسان الصليبيين، وأوجد نوعاً من عدم الاستقرار داخل الإمارة.

وعُرف عن صاحب الرها أنه كان من ذلك النوع الذي يؤثر الراحة والعافية، حتى أنه في الوقت الذي هاجم فيه عماد الدين زنكي إمارته، اختار أن يترك مدينته ليقيم في تل باشر على الضفة الغربية للفرات، وإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين أحاطوا بهذه الإمارة من كل جانب، وفصلها نهر الفرات عن بقية الممتلكات الصليبية في بلاد الشام؛ لاستطعنا أن نكوِّن فكرة عامة عن العوامل التي ساعدت على سقوطها.

والجدير ذكره أن هذه الإمارة شكَّلت خطراً كبيراً على المواصلات الإسلامية بين حلب والموصل وبغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، كما كانت عائقاً حال دون قيام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة بسبب تدخلها المستمر لصالح خصوم عماد الدين زنكي من الأمراء المسلمين في المنطقة[٢]، فكان فتحها ضرورة سياسية وعسكرية واقتصادية.

عمليات الفتح

أخذ عماد الدين زنكي يراقب تطور المنازعات بين الأمراء الصليبيين، وقرَّر،

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧١٥. رنسيمان: المرجع نفسه ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨.
Grousset: II, PP. 174 - 175.

(٢) عاشور: جـ ١ ص ٦٠٤.
Ibid: II. PP. 172-173.

بعد أن فشل في ضمِّ دمشق، نقل نشاطه الجهادي إلى جهة أخرى، فلم يجد غير إمارة الرها الموغلة في أراضي المسلمين. ويبدو أن حرصه على ضمِّ دمشق إنما هو تمهيد لتوحيد الصف الإسلامي، وتأمين حدوده الجنوبية الشرقية قبل أن يضرب الرها. وقد أتاحت له مواقف الأطراف في المنطقة فرصة تجميع قواه وتوجيهها إلى هذه الإمارة، وبخاصة أن وفاة الأمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين قد أراحته من عدو شديد البأس، إذ ليس بوسع الدمشقيين القيام بعمل ضده إلا بمساعدة الصليبيين، ولم يكن بوسع مملكة بيت المقدس أن تقوم بمغامرة عسكرية غير مضمونة النتائج، أما ريموند بواتييه وجوسلين الثاني، فقد انهمكا في النزاعات بسبب مشكلة كيليكية والتوسع في بلاد الشام.

تذرَّع عماد الدين زنكي للقيام بحملته بما حصل مؤخراً من تحالف بين جوسلين الثاني وقرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا، فرأى أنه موجَّه ضده، بالإضافة إلى أنه يهدِّد وجوده في المنطقة[١]. وقضت سياسته التمهيدية بإنهاك العدو بالحملات المتلاحقة، فانصرف الصليبيون نتيجة ذلك إلى تقوية حصونهم، وشيئاً فشيئاً تحوَّلت الاصطدامات إلى حرب حصون. ففي عام (٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م) أُتيح لعماد الدين زنكي استغلال مركزه القوي في ديار بكر، وقام بفتح عدد من المواقع والحصون الصليبية العائدة لإمارة الرها، والمنتشرة في المناطق القريبة من ماردين، مثل جملين والموزر وتل موزن وغيرها من حصون إقليم شبختان، وهو أحد أقاليم ديار بكر[٢]، وقد هدف إلى قطع الاتصال بين جوسلين الثاني وقرا أرسلان الأرتقي. وبذلك مهَّد الطريق أمامه لإنزال ضربته المباشرة بالرها نفسها، وتحقيق حلمه الذي طالما راوده عبر سني صراعه الطويل مع الصليبيين. فكان ذكر هذه المدينة «جائلاً في خلده، وأمرها ماثلاً في خاطره وقلبه»[٣].

وسعى لإخراج جوسلين الثاني وقواته من المدينة، مدركاً، في الوقت نفسه، أنه لن يستطيع فتحها ما داموا فيها. فاتجه إلى آمد التابعة للأراتقة، وأظهر أنه يعتزم حصارها، وبثَّ عيونه في منطقة الرها لترصد تحركات أميرها.

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٧٩.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٧.
(٣) ابن القلانسي: ص ٤٣٦.

وفعلاً خرج جوسلين الثاني على رأس قواته من مقر إمارته قاصداً نهر الفرات لمساندة حليفه قرا أرسلان عن طريق قطع الاتصالات بين عماد الدين زنكي وحلب[1]، على أن عيون عماد الدين زنكي بحرّان أخطرته بتحركاته، فبادر فوراً إلى إرسال فرقة عسكرية من جيشه بقيادة الياغسياني، أمير حماة، لمباغتة المدينة، غير أن الياغسياني ضلَّ الطريق بفعل الظلام الدامس والمطر الغزير في تلك الليلة، فلم يبلغ الرها إلا بعد أن وصل إليها عماد الدين زنكي بجيشه الكثيف في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٣٩ هـ/ أواخر شهر تشرين الثاني عام ١١٤٤ م) وحاصرها[2].

عندما علم جوسلين الثاني بذلك التجأ إلى تل باشر، معتقداً بأن قواته لم تكن من القوة ما يكفي لخوض معركة مع الجيش الإسلامي، بالإضافة إلى أنه اتصف بالجبن، ومال إلى الدعة، وظنَّ بأن استحكامات الرها الضخمة سوف تقاوم الحصار مدة من الزمن، وفي وسعه، وهو بتل باشر، أن يقطع طريق الإمدادات التي يطلبها عماد الدين زنكي من حلب[3]. ويبدو أنه قنع بالبقاء حيث هو، على الرغم من استغاثة رئيس الأساقفة الكاثوليكي هيو الثاني به. ولعله ركن إلى وصول النجدات التي طلبها من كافة الإمارات الصليبية في بلاد الشام وبخاصة من أنطاكية وبيت المقدس[4].

أما في أنطاكية، فلم يشأ ريموند بواتييه أن يفعل شيئاً لمساعدته، واعتذر عن تلبية طلبه، وربما يكون ذلك بسبب عدم الوفاق بين الأميرين أو خشية ريموند من تحول عماد الدين زنكي إليه بعد الرها. ولم يغامر جوسلين الثاني بمهاجمة عماد الدين زنكي بدون مساعدته، فاستمر قابعاً في تل باشر بانتظار وصول النجدة من بيت المقدس[5].

والواقع أن الملكة ميليسند، دعت فور تبلغها طلب الاستغاثة إلى عقد مجلس فوَّضها حشد قوة عسكرية بقيادة الكندسطبل منيس، وفيليب صاحب نابلس،

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٧٩.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨ . Elisséeff: Op. Cit. II, PP. 379-380.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٣٧ ـ ٧٣٨.

(٤) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

(٥) المرجع نفسه: ص ٣٨٠.

وأليناند بورس أمير الجليل[1]، لكن هذه القوة لم تصل إلا بعد فوات الأوان، بينما ازداد عدد أفراد جيش عماد الدين زنكي بما انضم إليه من المتطوعة من شمالي العراق. واشتد الحصار على الرها بما توافر للمسلمين من أدوات الحصار الجيدة. وأغلق عماد الدين زنكي كل المداخل المؤدية إليها سداً محكماً، فمنع بذلك الدخول إليها أو الخروج منها. وترتب على ذلك أن عانى المحاصَرون من النقص الشديد في المؤن والتجهيزات[2].

تولى الدفاع عن الرها هيو الثاني رئيس أساقفة اللاتين، وشاركه باسيل أُسقف يعاقبتها، ويوحنا أسقف الأرمن، وقد أبديا تضامناً قوياً مع الصليبيين في الدفاع عن أسوار المدينة وقلعتها[3].

وحاول عماد الدين زنكي، في إحدى مراحل الحصار، استمالة النصارى الشرقيين لدفعهم إلى الخروج على اللاتين، إلا أنه فشل في ذلك. لكن كلاً من باسيل ويوحنا مالا أخيراً تحت ضغط الأحداث العسكرية إلى التسليم، بينما رفض هيو الثاني، واستمر في المقاومة. على أن عدد المدافعين عن المدينة كان قليلاً لأن جوسلين الثاني اصطحب معه كل قادته اللامعين، كما افتقروا إلى الخبرة بأمور القتال، ولذا لم ينجح ما قاموا به من هجمات مضادة، ومن محاولات لوقف أعمال النقَّابين[4].

وفي (٢٦ جمادى الآخرة/ ٢٣ كانون الأول)، انهار جانب من السور قرب باب الساعات بفعل الضرب الشديد والمتواصل طيلة أربعة أسابيع، فاندفع المسلمون إلى داخل المدينة، كالسيل، وفرَّ السكان فزعين لا يلوون على شيء باتجاه القلعة للاحتماء بها، فإذا هيو الثاني قد أغلق أبوابها في وجههم، وظل هو داخل المدينة يحاول عبثاً إعادة الأمن إلى نصابه. وهلك في الفوضى الناشبة آلاف الناس تحت الأقدام، وكان هيو نفسه من بين القتلى. وأجهزت عساكر عماد الدين زنكي على الفارين. ثم ما لبثت أن استسلمت القلعة، بعد يومين، وقام القس اليعقوبي برسوما

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ٧٣٨. ابن العبري: ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٣) Nerses, Shnorhali: Sur la Prise d'Edesse Doc. Arm Vol. I, PP. 247-255.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٣٨ ـ ٧٣٩. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨. رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٨٠.

بإجراءات التسليم. ودخل عماد الدين زنكي المدينة راكباً في موكب النصر، فأصدر أوامره إلى جنده بإيقاف أعمال القتل والأسر، وأبقى على حياة الوطنيين من أرمن وسريان وروم، وأعاد لهم ما خسروه من سبي وغنائم، بينما تم تطويق اللاتين، وتقرر قتلهم وبيع نسائهم رقيقاً[١].

سياسة عماد الدين زنكي في الرها

رأى عماد الدين زنكي، بعد أن فتح الرها، أن ذلك البلد «لا يجوز في السياسة تخريب مثله»[٢]، لذلك لم يتبع فيه السياسة نفسها التي سبق أن اتبعها في كثير من المدن التي فتحها، وإنما لجأ إلى سياسة حكيمة ليضمن بقاءها في قبضته. إذ لم تكد تنتهي موجة الاضطرابات والفوضى التي أعقبت الفتح، حتى عيَّن كوجك، صاحب إربل، والياً على الرها، وجعل للنصارى الشرقيين من الأرمن واليعاقبة فضلاً عن الروم قدراً من الاستقلال الذاتي تحت حمايته، فمنع جنوده من الاعتداء عليهم أو على أملاكهم. وخصَّ الأسقف السرياني باسيل بالعطف والرعاية، وسمح لمن غادر منهم المدينة تحت تأثير الاضطهاد الذي تعرضوا له من الصليبيين الكاثوليك بالعودة، كما لم يتعرض لكنائسهم. ولا شك بأن هذه السياسة الحكيمة، دلَّت على بُعد نظره من أجل إيجاد دعامة محلية تؤيده، ويستند إليها في حكم الرها[٣].

وهكذا اطمأن أهل الرها الوطنيون على مصيرهم ومستقبلهم «وعاد البلد إلى حاله الأولى» قبل استيلاء الصليبيين عليه في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي؛ ذي طابع نصراني، معظم سكانه من النصارى الشرقيين، ويدين بالتبعية للمسلمين[٤].

نتائج فتح الرها

حقَّق عماد الدين زنكي بفتح الرها أهم إنجازاته التي قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه، وكانت لهذا النصر نتائج هامة في العالمين الإسلامي والنصراني

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٣٩ ـ ٧٤٠. ابن العبري: ص ١٥٦ ـ ١٥٧. رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨.

(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٨٢ Michel Le Syrien: Vol. III, PP. 262-268

(٤) Grousset: Op. Cit. II, P. 190.

بالإضافة إلى عماد الدين زنكي نفسه[1]. فعلى صعيد العالم الإسلامي يمكن رصد النتائج التالية:

- كان نجاح المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي تعزيزاً لجهود التوحيد. فقد تجدَّد الأمل عندهم بعد أن تحطَّمت أول إمارة صليبية قامت في جوف بلادهم.

- عُدَّ فتح الرها نصراً كبيراً للإسلام «لم ينتفع المسلمون بمثله وطار في الآفاق ذكره، وطاف بها نشره، وسارت به الرفاق، وامتلأ به المحافل في الآفاق. وكان هذا فتح الفتوح حقاً، وأشبهها ببدر صدقاً...»[2].

- أثبت هذا الانتصار قدرة المسلمين على مجابهة الصليبيين وانتزاع أقوى حصونهم منهم، ومهَّد الطريق أمام الذين أعقبوا عماد الدين زنكي لإتمام عمله، وفتح باقي المعاقل الصليبية في المنطقة.

- كان سقوط الرها في يد المسلمين كسباً عسكرياً كبيراً، فقد جرى تطهير الطرق الممتدة بين الموصل وحلب من الصليبيين، وتمَّ انتزاع الإسفين الذي وضعه هؤلاء بين الأتراك في فارس، والأتراك في الأناضول، وهو الذي أعاق الاتصال بين سلاجقة فارس والعراق وآسيا الصغرى، فضمن المسلمون السيطرة على طرق المواصلات التي تربط بين شمالي الشام والعراق والجزيرة، وعاد الاتصال بين هذه القوى مرة أخرى، كما جعل وادي الفرات كله منطقة إسلامية.

- غيَّر فتح الرها موازين القوى في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي، ودفع المسلمين إلى محاولة استعادة أراضيهم بعدما لمسوا ضعف الكيان الصليبي.

أما على صعيد العالم النصراني، فيمكن ملاحظة النتائج التالية:

- شكَّل سقوط الرها صدمة عنيفة مؤلمة للصليبيين تردَّدت أصداؤها في كل مكان، إذ أن المدينة كانت ترتبط بتراث النصرانية الباكر، وأن سقوطها بعد أقل من خمسين عاماً من استيلاء بلدوين دي بوايون عليها، كان نذير شؤم عليهم[3].

- لم يكد نبأ سقوط الرها يصل إلى بيت المقدس، حتى أرسلت الملكة ميليسند إلى أنطاكية تستشير حكومتها حول إمكانية إرسال سفارة إلى روما لتنهي هذا النبأ إلى

---

(١) خليل: ص ١٥٣.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص ٦٩.

(٣) قاسم: مرجع سابق ص ١٣٧.

البابا، وطلب حملة صليبية جديدة[1].

- لم يدرك الصليبيون للوهلة الأولى مغزى سقوط الرها بيد المسلمين، ولم يعلموا أن هذه الخطوة جاءت بالنسبة لهؤلاء فتح الفتوح، وبالنسبة لهم الخطوة الأولى في هدم البناء الذي شيدوه في الشرق الأدنى الإسلامي.

- زاد فتح الرها في إضعاف الروح المعنوية للصليبيين، وأثار خوفهم وقلقهم، واقتصر وجودهم على البلاد التي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

- دفع فتح الرها، ريموند بواتييه أمير أنطاكية إلى الاعتقاد بعدم قدرته على مواجهة عماد الدين زنكي بمفرده، ولما لم يكن باستطاعته التفاهم مع جوسلين الثاني، فقد ذهب إلى القسطنطينية يلتمس المساعدة من الأمبراطور البيزنطي، وأعلن تبعيته له.

- لم يدفع، فتح الرها الأمبراطور البيزنطي إلى القيام بأي عمل عسكري ضد المسلمين في بلاد الشام.

- كان سقوط الرها صدمة كبيرة للنصارى في غربي أوروبا، نبَّههم إلى خطورة الأوضاع في الشرق الأدنى، وأدركوا لأول مرة، أن الأمور لم تجر على نحو سليم هناك، بعد أن تحولت إلى اتجاه مضاد لمصالحهم وأهدافهم، فنهضت حركة تدعو إلى إرسال حملة صليبية جديدة.

- وعلى الرغم من أهمية الرها عند النصارى بعامة، وخطورة فتحها على كيان الصليبيين، إلا أن أيّاً منهم لم يقم بعمل سريع مباشر ضد عماد الدين زنكي، وذلك بسبب تدهور أوضاعهم. إذ كان بلدوين الثالث، ملك بيت المقدس، لا يزال قاصراً تحت وصاية والدته، وكان ريموند بواتييه أمير أنطاكية أضعف من أن يقوم بإجراء جادٍّ ضد المسلمين، ومن ثَمَّ لم يستطع الصليبيون مجابهة المسلمين إلا بعد وصول الحملة الصليبية الثانية[2].

أما على صعيد عماد الدين زنكي وإمارته، فيمكن تدوين النتائج التالية:

- عزَّز فتح الرها مركز عماد الدين زنكي تجاه السلطان السلجوقي مسعود،

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٩٧.

(٢) خليل: ص ١٥٦.

والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب، التي حازها عن جدارة، كالأمير المظفر، ركن الإسلام، عمدة السلاطين، زعيم جيوش المسلمين، ملك الأمراء، أمير العراقين والشام[١].

- جعل هذا النصر عماد الدين زنكي، المدافع الأول عن الدين، والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله[٢].

- دارت في المحافل الإسلامية، أحاديث تمحورت حول شخصه، تصور لنا مدى التقدير والإعجاب اللذين نالهما إثر تحقيقه هذا النصر الكبير[٣].

- مهَّد هذا الفتح الطريق أمام عماد الدين زنكي لاستكمال فتح الحصون المجاورة، وفرض سيطرته التامة على أملاك أعدائه في المنطقة.

- أدَّى فتح الرها دوراً كبيراً في إنقاذ إمارة عماد الدين زنكي من خطر استمرار الغارات الصليبية عليها، «فأصبح أهلها بعد الخوف آمنين»[٤].

الأحداث العسكرية بعد فتح الرها

كان فتح الرها بداية لها ما بعدها، إذ لم يكن من الصعب على عماد الدين زنكي أن يستكمل مهمته بفتح باقي المعاقل الصليبية التابعة لهذه الإمارة، فاستغل فرصة تضعضع أحوال الصليبيين في المنطقة، وأخذ يسعى لفتح ما تبقى من الحصون والمراكز التابعة لهم شرقي الفرات. فتوجه إلى سروج، ثاني حصون الإمارة، وفتحه في (شهر رجب عام ٥٣٩ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٤٥ م) بعد أن تخلَّت حاميته عنه، وما لبثت الحصون المجاورة أن أخذت بالسقوط في يده الواحدة تلو الأخرى. «وجعل لا يمر بعمل من أعمالها، ولا معقل من معاقلها، إلا سُلِّم إليه في الحال»[٥].

ثم تقدم إلى البيرة، المدينة الكبيرة التي تتحكم في أهم مخاضة على نهر الفرات، على الطريق إلى تل باشر، وكانت من أهم المدن التي بقيت في قبضة جوسلين الثاني،

---

(١) ابن القلانسي: ص ٤٤٣.
(٢) ابن الأثير: مصدر سابق ص ٦٩ ـ ٧٠.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه. أبو شامة: جـ ١ ص ٩٤ ـ ٩٧. خليل: ص ١٥٥.
(٤) المصدران نفساهما: ص ٦٩. جـ ١ ص ٩٧.
(٥) ابن القلانسي: ص ٤٣٧.

وأشدِّها مناعة، فضرب الحصار عليها في (شهر رمضان/ شهر آذار) وقطع عنها ما كان يصل إليها من القوت والميرة والمعونة، حتى أشرف سكانها على الاستسلام[١].

وتردَّدت آنذاك شائعات في معسكره، بما وقع من الاضطرابات في الموصل، ففك الحصار عنها وأسرع بالتوجه إلى الموصل لإقرار الأوضاع فيها، خوفاً من حدوث نتائج خطيرة تهدِّد حكمه[٢]. ولما وصل إليها اكتشف أن الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، قتل نائبه جقر محاولاً بذلك أن يوطد نفوذه[٣].

والواقع أن أرسلان أخطأ في توقيت إعلان حركته، وأساء اختيار الفرصة، لأن عماد الدين زنكي بلغ وقتذاك ذروة مجده في العالم الإسلامي، فتقرَّر عزله عن الإمارة وإعدام مستشاريه[٤].

ويبدو أن سكان البيرة خشوا من تجدُّد هجمات عماد الدين زنكي على مدينتهم، وهم أعجز من أن يصدُّوه أو يقفوا في وجهه، فرأوا أن يدعموا موقفهم بالتحالف مع قوة إسلامية مناهضة له، ولم تكن هذه القوة سوى حسام الدين تمرتاش الأرتقي صاحب ماردين، وعدو عماد الدين زنكي. وكان للأراتقة مصلحة فعلية في الحد من نفوذه بعد أن أضحى خطراً يهددهم في الشمال. وهكذا وضع سكان البيرة مدينتهم تحت حماية تمرتاش[٥].

ونتيجة لسقوط الرها والتنازل عن البيرة، لم يبقَ من إمارة الرها في يد جوسلين الثاني سوى عدد من الحصون المنتشرة غربي الفرات، وهي تل باشر وسميساط ودُلوك[٦] ومرعش[٧] وعينتاب وعزاز والراوندان[٨]، لكن إمارة الرها الصليبية، فقد زالت من الوجود[٩].

---

(١) ابن الأثير: ص ٧٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه ص ٧١.

(٤) ابن القلانسي: ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠. ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٧٢. أبو شامة: جـ ١ ص ١٠٤.

(٥) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ١٠.

(٦) دُلوك: بليدة من نواحي حلب بالعواصم. الحموي: جـ ٢ ص ٤٦١.

(٧) مرعش: مدينة بالثغور بين الشام وبلاد الروم. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ١٠٧.

(٨) الراوندان: قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة من نواحي حلب. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ١٩.

(٩) Grousset: Op. Cit, II, P. 192.

لم يكن عماد الدين زنكي بغافل عن المباحثات التي جرت بين ريموند بواتييه، صاحب أنطاكية، والأمبراطور البيزنطي مانويل، والتي تمخَّض عنها قرار بإرسال حملة أخرى إلى بلاد الشام. فقرَّر أن يؤجل القيام بهجوم آخر على الصليبيين في الشمال وأن يوجه اهتمامه من جديد إلى دمشق[١].

ولم يكد يفرغ من إخماد فتنة الموصل حتى أعدَّ حملة كبيرة وزودها بآلات الحصار. وفي أثناء اجتيازه الرها في (شهر شعبان عام ٥٤٠ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٤٦ م)، علم أن الأرمن يحاولون التخلص من حكمه، وإعادة جوسلين الثاني، ذلك أن الأرمن في الرها حاكوا مؤامرة استهدفت الفتك بالمسلمين، والتخلص من الحامية الصغيرة التي تركها عماد الدين زنكي في المدينة، وإعادة الحكم إلى السيطرة الصليبية، واستدعوا جوسلين الثاني من أجل هذه الغاية[٢].

إلا أن عماد الدين زنكي سرعان ما أحبط هذه المؤامرة، وألقى القبض على المتآمرين وأعدمهم، ونفى عدداً من السكان الأرمن كي لا يتاح لهم مرة أخرى أن يسعوا إلى طعن المسلمين من الخلف وتسليم مواقعهم للصليبيين[٣].

حصار قلعة جَعْبَر ـ مقتل عماد الدين زنكي

اختار عماد الدين زنكي في (نهاية عام ٥٤٠ هـ/ صيف عام ١١٤٦ م) إخضاع قلعة جَعْبَر الواقعة على الفرات بين بالس والرقة، قرب صفين، على الطريق إلى دمشق. وكانت هذه الإمارة العربية الصغيرة تابعة لبني عقيل، لكن وضعها الجغرافي كان متداخلاً مع أملاكه الجديدة، الأمر الذي دفعه إلى ضمِّها قبل أن يقوم بحملته على دمشق، وبخاصة أن أميرها عز الدين علي بن مالك بن سالم العقيلي رفض الاعتراف بسيادته.

حاصر عماد الدين زنكي القلعة، وضيَّق عليها دون أن يتمكَّن من امتلاكها. ثم جرت مفاوضات مع حاكمها، وافق بنتيجتها على تسلُّم مبلغ ثلاثين ألف دينار مقابل فك الحصار عنها. وما إن وصل الرسول إلى معسكره حاملاً المبلغ حتى ردَّه

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥. Michel le Syrien: Op. Cit, III, P. 267.

(٢) ابن القلانسي: ص ٤٤١. ابن العديم: جـ ٢ ص ٢٦٩. Ibid: PP. 267-268. Setton: Op. Cit, I, P. 462.

(٣) المصدران نفساهما. Ibid.

من حيث جاء بعد أن وردته أنباء تشير إلى قرب سقوط القلعة[1]. وأرسل في الوقت نفسه حملة عسكرية بقيادة علي كوجك لحصار قلعة فنك، المجاورة لجزيرة ابن عمر وهي للأكراد اليشنوية[2].

وبينما كان يحاصرها حدث في (مساء ٦ ربيع الآخر عام ٥٤١ هـ/ مساء ١٥ أيلول عام ١١٤٦ م) أن دخل عليه أحد خدامه وقتله وهو نائم[3].

ظروف مقتل عماد الدين زنكي

تُجمع المصادر والمراجع على أن عماد الدين زنكي اغتيل في التاريخ المذكور أعلاه أثناء حصاره لقلعة جَعْبَر عندما انقضَّ عليه، وهو نائم، أحد مماليكه المكلفين بحراسته ويدعى يرنقش، وقتله. وهرب القاتل بعد الحادثة إلى القلعة وأعلم سكانها بحقيقة الأمر، ففتحوا له الأبواب، وأنه ما إن انتشر نبأ الاغتيال في معسكره حتى اضطرب أمر جيشه وسادت الفوضى صفوفه، فاضطر قادته إلى فك الحصار والرحيل[4].

لكن هذه المصادر، والمراجع تختلف في ثلاثة أمور هي: تفاصيل العملية وهوية القاتل وسبب القتل[5].

فمن حيث تفاصيل عملية القتل، يشير العماد الأصفهاني إلى أن عماد الدين زنكي إذا نام، «ينام حول سريره عدة من خدامه، يشفقون عليه في حالتي يقظته ومنامه. ويذودون عنه ذود الآساد في ملاحمه، ويزورونه زور الخيال في أحلامه... وهو يحبِّهم ويَحْبوهم، ولكنه مع الوفاء منهم يجفوهم وهم أبناء الفحول القروم، من الترك والأرمن والروم. وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه وأقصاه، واستبقى ولده عنده وخصاه. وإذا استحسن غلاماً استدام مرّوديته بالخصي والسَّل... فهم على أنهم من ذوي الاختصاص ينتهزون فيه فرصة الاقتصاص. فنام تلك الليلة...

---

(١) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٧٠.

(٢) ابن واصل: جـ١ ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص١٣. ابن واصل: المصدر نفسه ص٩٩.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه. أبو شامة: جـ١ ص١٠٧ ـ ١٠٨. ابن واصل: المصدر نفسه ص٩٩ - ١٠٠.

(٥) خليل: ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

وحوله مماليكه. فانتبه وهم قد شرعوا في اللعب، وأخذوا في الشرب والطرب. فزبرهم وزجرهم... فحرك رأسه يتوعدهم، وهينم بلسانه يتهددهم... فتولى كبيرهم الأمر والباقون ساكتون... وكان اسمه يرنقش، فخفَّ إليه، وبرك عليه، وفرشه على فراشه، وغشيه في غشاشة. وذبحه في نومه... وخرج ومعه خاتمه، وهو لا يُرتاب به لأنه خاص عماد الدين زنكي وخادمه». فأخبر أهل القلعة وحراسها الذين كانوا في ضيق شديد من شدة الحصار، بما أقدم عليه، فأسرعوا بإشاعة الخبر في داخل القلعة وبين صفوف قواته كي يشيعوا الاضطراب فيها ويجبروها على الانسحاب، وقد نجحوا في ذلك[1].

ويتفق كل من ابن القلانسي وسبط ابن الجوزي مع العماد الأصفهاني في هذه الرواية مع اختصار أو حذف بعض التفاصيل. أما ابن العديم فيذكر أن عماد الدين زنكي تهدَّد يرنقش خلال النهار فخاف منه، فقتله في الليل في فراشه[2].

ومن حيث هوية القاتل فيشير كل من ابن القلانسي ورنسيمان وأليسييف إلى أن القاتل كان من أصل إفرنجي. أما حسن حبشي فيقول: «ولعل القاتل كان باطنياً»[3].

ومن حيث سبب القتل، فيبدو أن صاحب قلعة جَعْبَر هو الذي حرَّض على قتله كي يتخلص من الحصار، وأنه كان على صلة بالقاتل بدليل ما أورده ابن العديم من أن حساناً البعلبكي، صاحب منبج، تقدم إلى أسوار القلعة ونادى علي ابن مالك وقال له: «يا أمير علي، أيش بقى يخلصك من أتابك؟»، فقال له: «يا عاقل، يخلصني الذي خلَّصك من حبس بلك، يعني حين قُتل بلك على منبج وخلص حسان» يضاف إلى ذلك أن يرنقش التجأ إلى القلعة بعد حادثة الاغتيال[4].

والراجح أن يرنقش نفَّذ عملية الاغتيال مدفوعاً بثلاثة عوامل: شخصية ونفسية وسياسية[5].

ـ أما العامل الشخصي فيتمثَّل بتهديد عماد الدين زنكي له، وخشيته عاقبة هذا

---

(1) البنداري ص١٩٠ ـ ١٩١.

(2) ابن القلانسي: ص٤٤٤. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص١٩٠ ـ ١٩١. ابن العديم: جـ٢ ص٤٦٩.

(3) ابن القلانسي: المصدر نفسه، رنسيمان: جـ٢ ص٣٨٥. حبشي: نور الدين والصليبيون: ص٤٠.
Elisseéff: op. cit. II p.385.

(4) ابن العديم: جـ٢ ص٤٧٠.

(5) خليل: ص١٨٤.

التهديد، فأسرع باغتيال سيده دفاعاً عن نفسه.

ـ ويتجلَّى تأثير العامل النفسي في انزعاج يرنقش من معاملة عماد الدين زنكي القاسية له، وزجره إياه ثم شعوره العميق بما أصابه من ظلم نتيجة إخصائه، فحاول أن يرد هذا الظلم، وبخاصة أنه كان من أشد المقربين له، وقد بلغ عنده منزلة رفيعة ظنَّ معها أنه أضحى فوق الشبهات، وبمنأى عن أن يناله أذى أو تمسه إهانة. فلما كانت تلك الليلة وأهانه عماد الدين زنكي أمام رفاقه شعر بالمرارة، واعتقد أنه طُعن في كرامته؛ مما كان دافعاً إلى إقدامه على تنفيذ عملية القتل[1]. ويشير العماد الأصفهاني إلى تأثير هذا العامل النفسي من خلال تصويره لحركات يرنقش «فأسرع إلى زنكي، وبرك عليه وفرشه على فراشه وغشيه في غشاشة وذبحه في نومه»[2].

ـ أما العامل السياسي لعملية الاغتيال فيرتكز على قاعدتين:

الأولى: احتمال أن يكون يرنقش قد اتفق سراً مع صاحب قلعة جَعْبَر لاغتيال عماد الدين زنكي، وإنهاء الحصار للقلعة بعد أن كادت تسقط. ويدخل في هذا الاحتمال أن يكون يرنقش ذا ميول باطنية نظراً للعطف الذي كان يبديه أمراء جَعْبَر تجاه هذه الفرقة[3].

الثانية: احتمال أن يكون يرنقش ذا أصل نصراني، أقدم على فعلته إما باتفاق سري مع الصليبيين أو بدافع شخصي يعود إلى حرصه على مصالح قومه التي كان عماد الدين زنكي يوجه إليها ضربات شديدة وحاسمة[4].

أهمية عماد الدين زنكي

انتهت بوفاة عماد الدين زنكي الحلقة الأولى من سلسلة المحاولات الإسلامية في تكوين جبهة قوية متحدة لمقاومة الصليبيين، وطردهم من الشرق الأدنى الإسلامي، واضعاً بذلك أول حجر في هذا البناء، وتاركاً لمن يأتي بعده مهمة إنجاز هذا العمل الذي بدأه، كما طويت صفحة مجيدة من صفحات الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين.

---

(١) خليل: ١٨٤ ـ ١٨٥.
(٢) البنداري: ١٨٩ ـ ١٩٠.
(٣) خليل: ص١٨٥.
(٤) المرجع نفسه.

استطاع عماد الدين زنكي أن يؤسس، خلال مدة قصيرة نسبياً، دولة قوية متماسكة شملت حدودها ما بين شهرزور شرقاً إلى سواحل بلاد الشام غرباً، ومن آمد وديار بكر وجبال الأكراد شمالاً إلى الحُديثة جنوباً. وكان ظهوره على مسرح الأحداث فاتحة عصر جديد حالف النصر فيه المسلمين. وتُعد وفاته خسارة فادحة لهم حتى لقد صاح أهل قلعة جَعْبَر عندما نمى إليهم القاتل بالنبأ: «لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله»[1].

وتمكّن عماد الدين زنكي أن يحقق جانباً كبيراً من برنامجه المزدوج الذي أعدّه، مكوّناً لنفسه مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسي بارز، وعسكري بارع، ومسلم مدرك للأخطار التي أحاقت بالعالم الإسلامي من قِبَل الصليبيين؛ فقلب موازين القوى في منطقة الشرق الأدنى لصالح المسلمين.

ويتضح من خلال علاقاته بالقوى الإسلامية في الجزيرة وبلاد الشام، والقبائل الكردية والتركمانية؛ مدى قدرته السياسية على استقطاب الحلفاء، وإقامة علاقات سلمية مع الأصدقاء، بالإضافة إلى براعته العسكرية في الدخول في معركة والخروج منها منتصراً، ثم بُعد نظره في تقييم الأمور.

لقد تسلم الحكم في الموصل في عام (٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م) بموجب منشور من السلطان السلجوقي يقر فيه سلطته فيها، وأضاف إليه ما يفتحه من بلاد الشام وإقليم الجزيرة، فكان عليه أن يثبّت سلطته الفعلية فيها وسط عدد لا يحصى من إمارات المدن والأقاليم، مدركاً في الوقت نفسه، أنها:

- عاجزة عن التصدي للخطر الصليبي الزاحف نحو الشرق نتيجة للسياسة السلبية التي اتبعها أمراؤها تجاه الصليبيين.

- تُشكّل عقبة أمام تحقيق برنامجه السياسي بتوحيد المسلمين بوصفها عامل تشتيت لإمكاناتهم البشرية والعسكرية والاقتصادية.

- عامل خطر ضد إمارته، لقربها منها ولوقوعها في نقاط استراتيجية، كما عدّها مرتفعة جغرافياً تنحدر باتجاه الموصل محتمية بخطوط خلفية من السلاسل الجبلية والأنهار المتشابكة والحصون المنيعة، هذا في الوقت الذي كان يعمل فيه على إزالة

---

(١) ابن العديم: جـ ٢ ص٤٧٠.

العقبات التي تقف أمام توحيد الإمارات المتفرقة في جبهة إسلامية موحدة تستطيع أن تقف في وجه الصليبيين، فنهض لإخضاعها، أو وضعها تحت إشرافه، لكنه جوبه بمعارضة قوية نتج عنها قيام أحلاف معادية له، كما حدث مع الأراتقة وأتابكية دمشق. وعلى الرغم من ذلك مضى في تحقيق أهدافه بطموح شخصي وشجاعة نادرة، مطمئناً إلى وجود قاعدة شعبية وعسكرية تؤمن به وتخلص له.

ومن ثَمَّ تبدو لنا أهمية الدور الذي أدّاه في التاريخ الإسلامي. إذ يُعد أول قائد قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معيَّن ليجابه الصليبيين الذين عجزت المحاولات الجدِّية التي سبقته عن التصدي لهم.

والراجح أنه لو تمَّ له ضمُّ دمشق وتوحيد بلاد الشام الإسلامية كلها لتغير وجه الأحداث، وبخاصة أن خطوته التالية كانت فتح إمارة طرابلس بهدف فصل الصليبيين في الشمال عن الصليبيين في الجنوب، ليسهل بعد ذلك مهاجمتهم منفردين.

كان عماد الدين زنكي خبيراً بشؤون الجند، يسوسهم بحكمة القائد البارع. فقد اجتمعت تحت قيادته آلاف كثيرة من العساكر، بعضهم نظاميون، كالعرب والأتراك والأكراد، وبعضهم غير نظاميين يلتفون حوله وقت الحرب وينفضُّون عنه وقت السلم، كالتركمان والبدو. وقد اجتهد في ضبط أمور هذه الجموع. فعندما اقتحم جنده الرها وكادوا يأتون على ما فيها، كفَّ أيديهم وحافظ على البلد، ورأى أن الجندي ينبغي أن يكرس حياته للجندية ولهذا كان ينهي جنده عن اقتناء الأملاك ويقول: «مهما كانت البلاد لنا فأي حاجة لكم في الأملاك، فإن الإقطاعات تغني عنها، وإن خرجت البلاد من أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية، وتعدُّوا عليهم، وغصبوا أملاكهم».

كان عماد الدين زنكي رجلاً تقياً مواظباً على الفرائض، عادلاً، حتى أنه غضب على رجل من أعيانه، هو عز الدين أبو بكر الدبيسي، لأنه غصب داراً ليهودي وسكن فيها «فنظر إلى الدبيسي نظر مغضب، ولم يكلمه كلمة واحدة، فتأخر القهقرى، ودخل البلد فأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد».

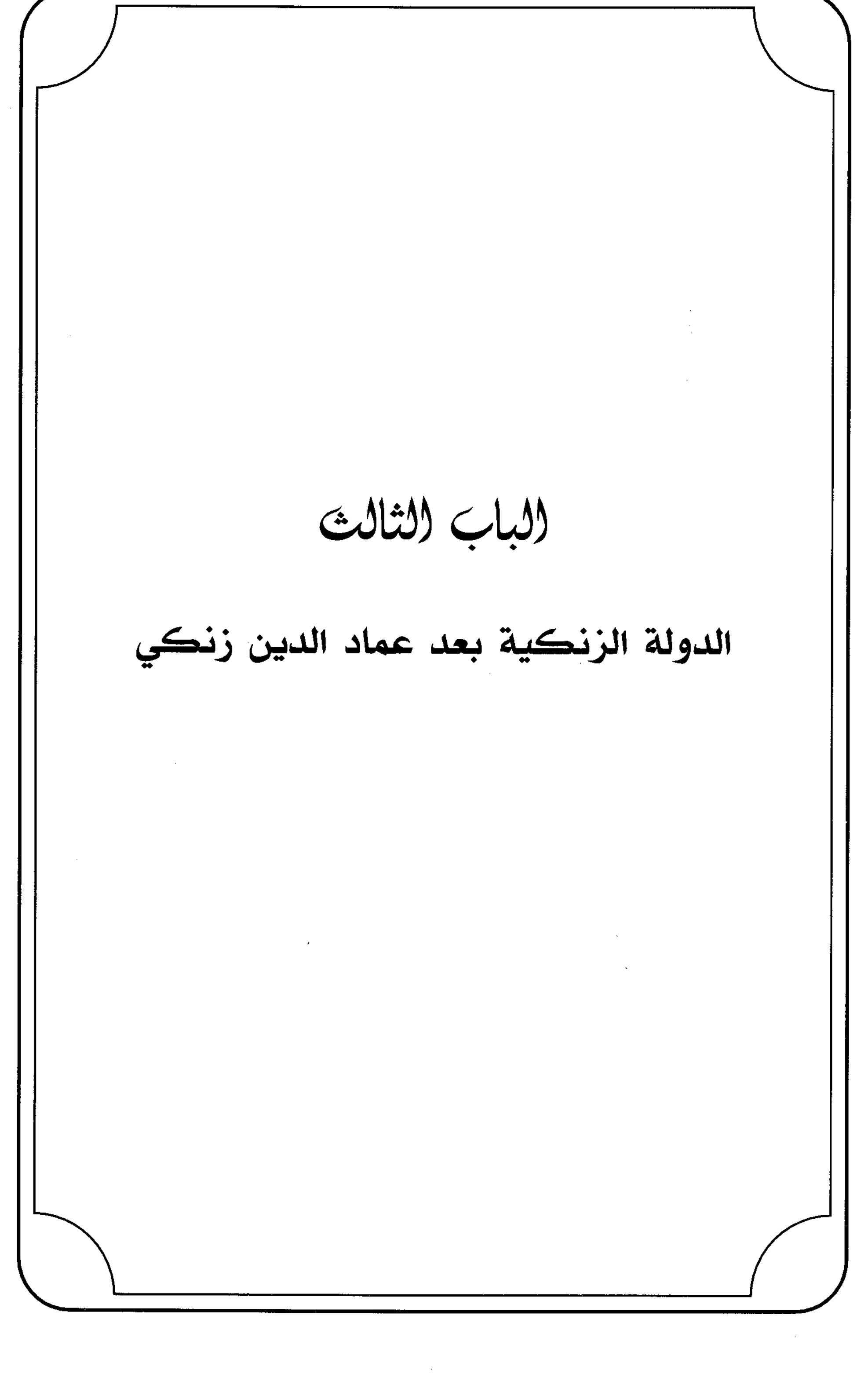
«وأما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية فيهما، وبه كانت تضرب الأمثال ويكفي في معرفة ذلك، جملةً، أن ولايته أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها، بيت سقمان، وركن الدولة داوود، صاحب حصن كيفا، وابن عمه صاحب ماردين، ثم الفرنج ودمشق،

وكان ينتصف منهم ويغزو كلاً منهم في عقر داره ويفتح من بلادهم ما عدا السلطان مسعود، فإنه كان لا يباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيكون الحاكم على الجميع، وكان يداريه ويخضع له[1].

وبذلك اختفى ذلك البطل الذي واصل جهاد مودود وإيلغازي وآق سُنْقُر البُرسُقي وبلك ومهَّد الطريق لنور الدين محمود. وقد أدركته المنية في ميدان الحرب فحقَّت له الشهادة، ولهذا يسمى عند مؤرخي العصر بأتابك الشهيد.

---

(١) راجع فيما يتعلق بسيرة عماد الدين زنكي: ابن الأثير. الباهر ص٧٦ ـ ٨٤.



الباب الثالث

الدولة الزنكية بعد عماد الدين زنكي



الفصل السابع

العلاقات الداخلية بين الزنكيين في الموصل وحلب

في عهد سيف الدين غازي الأول (٥٤١ ـ ٥٤٤ هـ/ ١١٤٦ ـ ١١٤٩ م)

تمهيد

ترك عماد الدين زنكي أربعة أولاد من الذكور هم: سيف الدين غازي، وهو أكبرهم، ثم نور الدين محمود، وهو الملك العادل، ونصرة الدين أمير أميران، وأبو الملوك قطب الدين مودود وهو أصغرهم[1]. لم يصادف هؤلاء الإخوة صعوبة في الاحتفاظ بملك أبيهم بفضل مساعدة اثنين من رجال عماد الدين زنكي الأوفياء هما: جمال الدين محمد الأصفهاني، رئيس الديوان، وصلاح الدين الياغسياني أمير حاجب. كان الأول في عداد الحملة التي حاصرت قلعة جَعْبَر، فأدَّى دوراً كبيراً في الحفاظ على البلاد وإبقائها في أيدي أولاد زنكي.

اتصل الأميران فور إعلامهما بنبأ الاغتيال، بالأمير زين الدين علي كوجك بن بكتكين، نائب عماد الدين زنكي في الموصل، وأخبراه بحادثة الاغتيال، وأشارا عليه بأن يستدعي ابنه سيف الدين غازي من شهرزور، حيث كان يقيم، وقام هذا الأخير فعلاً باستدعائه[2].

أما الابن الثاني نور الدين محمود، فإنه كان بصحبة والده، فأخذ خاتمه من يده ويمَّم وجهه شطر حلب ودخلها في (شهر ربيع الآخر عام ٥٤١ هـ/ شهر أيلول عام ١١٤٦ م)، وأخضع جميع ما كان لأبيه في بلاد الشام، مثل الرها وحرَّان

(١) ابن الأثير: الباهر ص٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٨٤ ـ ٨٥.

وسروج وحمص وحماة[١]، والتحق صلاح الدين الياغسياني بخدمته ليدبِّر أمور دولته. وكانت مدينة حماة تحت حكمه وهي إقطاعه من عماد الدين زنكي، فلما استقر نور الدين محمود في حلب أخذها منه وعوَّضه عنها بحمص[٢].

والتحق جمال الدين الأصفهاني بخدمة غازي الأول بعد أن ضلَّل الملك ألب أرسلان السلجوقي الطامع في حكم الموصل ليبعده عن التوجه إليها بانتظار وصول غازي الأول لاستلام الحكم، وبعد أن استقر في الحكم أعاد تعيين علي كوجك نائباً ووالياً على المدينة، واتخذ الأصفهاني وزيراً تقديراً لجهوده في المحافظة على البلاد[٣].

وافق السلطان السلجوقي مسعود على ما استقرت عليه الأمور في الموصل، وأرسل الخلع إلى غازي الأول[٤]. والجدير بالذكر، أن حاكم الموصل الجديد كان لا يفارق مقر السلطنة السلجوقية بناءً على أمر والده عماد الدين زنكي[٥]، ومن أجل ذلك، سارع السلطان مسعود بالاعتراف بحكمه.

ويبقى أن نذكر أن الأخوين الآخرين لم يشكلا أية عقبة في اقتسام الإرث الزنكي. فقد كان قطب الدين مودود في رعاية أخيه غازي الأول في الموصل في حين حكم نصرة الدين أمير أميران حرّان تابعاً لأخيه نور الدين محمود[٦].

وهكذا انقسمت مملكة عماد الدين زنكي إلى قسمين: القسم الشرقي تحت حكم ابنه الأكبر غازي الأول ومقره الموصل، والقسم الغربي تحت حكم ابنه نور الدين محمود ومقره حلب، وكان نهر الخابور هو الحد الفاصل بين أملاك الأخوين. وأدَّى الوضع الجغرافي للقسم الشرقي إلى أن:

- يرث غازي الأول المشاكل الداخلية، مع كل من الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في العراق.

---

(١) ابن القلانسي: ص٤٤٥. ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص١٣. ابن العديم: جـ٢ ص٤٧٢.
(٢) ابن الأثير: الباهر ص٨٥. ابن واصل: جـ ١ ص١١٠.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه ص٨٦.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) البنداري: ص١٠٠.
(٦) رنسيمان: جـ٢ ص٣٩٣. Stevenson: op. cit p154.

- يحمي حدود الإمارة من غارات سلاجقة فارس.

- يحمي ثغور الإمارة الشمالية من تعديات سلاجقة الروم والدانشمنديين والبيزنطيين في آسيا الصغرى.

أما في القسم الغربي، فقد ورث نور الدين محمود المشكلتين الكبيرتين المتمثلتين بأتابكية دمشق والإمارات الصليبية المنتشرة في مختلف بلاد الشام.

وسنرصد في الفصول التالية تاريخ كل قسم بشكل منفصل مبتدئين بأتابكية الموصل.

ترتيب أوضاع البيت الزنكي

كان من الطبيعي أن تنشأ بين البيتين الزنكيين، في كل من الموصل وحلب، علاقات وثيقة، بفعل الروابط الأسرية، من جهة، واشتراك آل زنكي بعامة بهدف واحد، هو الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام، وكانت حلب تشكل، بالنسبة للموصل، خط الدفاع الأول وصمَّام الأمان ضد أي خطر تتعرض له، فنشأت نتيجة ذلك علاقات جيدة بين سيف الدين غازي الأول، صاحب الموصل، وأخيه نور الدين محمود، صاحب حلب، ثم بين الأمراء الذين توالوا على حكم الموصل بعد غازي الأول، إلا أن هذه العلاقات الودية القائمة على التعاون والدفاع المشترك، شهدت في بعض الأوقات فتوراً عاماً، كان لا يلبث أن يتلاشى لتعود المحبة والألفة.

فبعد استقراره في الموصل والجزيرة وبعض مناطق بلاد الشام كحمص والرحبة والرقة، كان على سيف الدين غازي الأول أن ينسِّق مع أخيه نور الدين محمود في حلب، ويتعاون معه لاستكمال سياسة والدهما القاضية بالتصدي للصليبيين، مدركاً في الوقت نفسه أهمية هذا التعاون، خشية أن يستغل أعداء الأسرة فرصة انقسام الإمارة الزنكية لمهاجمتها، بالإضافة إلى الظهور بمظهر القوة أمامهم. لذلك، رأى ضرورة الاجتماع بأخيه بين وقت وآخر لتسوية ما قد ينشأ بينهما من أزمات داخلية بسبب توزيع الإرث الزنكي.

ويبدو أن العلاقات بين الأخوين تعرضت لأزمة عابرة عقب وفاة والدهما، بدليل أن سيف الدين غازي الأول أرسل إلى أخيه نور الدين محمود يدعوه للحضور

إليه، إلا أن صاحب حلب تأخر في تلبية الدعوة معلِّلاً تصرفه بانهماكه في محاربة الصليبيين، إلا أن السبب الحقيقي يكمن في خشيته على نفسه من غدر أخيه[١]. والراجح أن هذا الفتور في العلاقات يعود إلى ثلاثة أسباب:

الأول: عدَّ سيف الدين غازي الأول تصرف أخيه نور الدين محمود بعد مقتل والدهما أمام قلعة جَعْبَر خروجاً على التقاليد الأسرية عند القبائل التركية التي تقضي بأن تكون السيادة للابن الأكبر[٢].

الثاني: رأى سيف الدين غازي الأول أنه كان يجب على أخيه الوقوف إلى جانبه عندما تعرض الحكم الزنكي في الموصل لخضة سياسية أثارها الملك ألْب أرسلان السلجوقي بهدف الاستيلاء على السلطة، وذلك حتى تستقر الأوضاع لهما في البلاد، ثم يستأذنه في العودة إلى بلاد الشام.

الثالث: رأى سيف الدين غازي الأول في تصرف أخيه انفصالاً واضحاً عن الدولة الزنكية، لأن استئثار نور الدين محمود بأملاك الأسرة في حلب يعني تكوين حكم انفصالي عن دولة الأتابكة في الموصل.

دفعت هذه العوامل سيف الدين غازي الأول إلى الإلحاح على أخيه نور الدين محمود للاجتماع به وتسوية الأمور بينهما. وقد تصرف صاحب الموصل بحكمة بالغة لإزالة أسباب التوتر، كما أنه لم يعارضه عندما استولى على الرها، التي كانت تدخل في منطقة نفوذه، بعد محاولة جوسلين الثاني استردادها من أيدي المسلمين في (أواخر عام ٥٤١ هـ/ ربيع عام ١١٤٧ م)[٣]. والواقع أنه أرسل قوة عسكرية لمساندة أخيه لإنقاذ الرها المهدَّدة، لكنها وصلت بعد أن نجح نور الدين محمود في استعادتها[٤].

وأخيراً حصل اللقاء بين الأخوين في الخابور. وفي هذا الاجتماع، اعتذر نور الدين محمود لأخيه عن تأخره في الحضور، وأظهر له الطاعة والاحترام. ومن جهته، تصرف سيف الدين غازي الأول بشكل أوحى بالثقة لأخيه، الذي اطمأن إلى موقفه

---

(١) سبط ابن الجوزي: مصدر سابق جـ ٨ ص١٩٢.

(٢) الجميلي، رشيد: دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي ص٦٩ ـ ٧٠.

(٣) ابن العديم: جـ٢ ص٤٧٣. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص١٩٢. ابن واصل: جـ١ ص١١١.

(٤) ابن الأثير: الباهر ص٨٧.

الودي منه، فسكن روعه وعاد إلى حلب[1]، حيث جمع عساكره وتجهّز، ثم عاد للاستقرار في كنف أخيه، ووضع نفسه تحت تصرفه. إلا أن سيف الدين غازي الأول أمره بالعودة إلى بلاده وقال له: «لا غرض لي في مقامك عندي، وإنما غرضي أن نُعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنا، فلم يرجع نور الدين ولزمه حتى قضيا ما كانا فيه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده»[2].

تعاون الأخوين في التصدي للصليبيين

الحملة الصليبية الثانية

كان لسقوط الرها في أيدي المسلمين ردة فعل عنيفة في الغرب الأوروبي، وباعثاً على السرعة في إرسال حملة صليبية جديدة، بعد أن أثار سقوطها الرعب في النفوس، لا بسبب المكانة الدينية التي تتمتع بها هذه المدينة في تاريخ النصرانية فحسب، بل لأنها كانت أيضاً، أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق الأدنى، فجاء سقوطها إيذاناً بتزعزع البناء الكبير الذي شيده الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى في الشرق الأدنى، وأدرك الغرب الأوروبي أنه إذا لم يسارع إلى ترميم ذلك البناء فإنه لن يلبث أن ينهار.

نبتت فكرة الحملة الصليبية الثانية في بلاط لويس السابع، ملك فرنسا، في عام (٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م)، ثم تأكدت في مجمع فزيلاي في العام التالي، واستجاب لها الأمبراطور الألماني كونراد الثالث[3].

وهكذا اكتسبت هذه الحملة، التي خرجت في عام (٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م)، طابعاً مختلفاً عن الحملة الأولى التي خرجت في عام (٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م). فبينما اتخذت هذه الأخيرة شكل هجرة ضخمة ضمَّت جموعاً مختلفة من النصارى الغربيين الذين انتسبوا إلى جنسيات ودول متعددة، إذا بالحملة الصليبية الثانية تتألف من جيشين كبيرين ينتميان إلى أكبر دولتين في الغرب الأوروبي، ويقودهما أكبر عاهلين

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص٨٧ ـ ٨٨.

(٢) المصدر نفسه: ص٨٨.

(٣) Setton: Op. Cit. I pp.467- 469. Grousset: II p.226.

كاثوليكيين هما كونراد الثالث أمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا[١].

وانعدمت الوحدة بين القوات الصليبية عندما سار كل من الملكين مستقلاً عن الآخر. فخرج كونراد الثالث أولاً، وعندما وصل إلى حدود الأمبراطورية البيزنطية تكرَّرت المشاهد نفسها التي حدثت عند زحف الحملة الصليبية الأولى، وذلك من ناحية عدوان أفراد جيشه على أهالي البلاد التي مرُّوا بها كما أثاروا المشاكل مع البيزنطيين عندما وصلوا إلى القسطنطينية في (شهر ربيع الآخر عام ٥٤٢ هـ/ شهر أيلول عام ١١٤٧ م)، إلا أن عودة الوفاق بين كونراد والأمبراطور البيزنطي مانويل سمح للأول بالعبور إلى آسيا الصغرى. ومن نيقية تقدم الجيش الألماني باتجاه بلاد الشام بمساعدة الأدلاء البيزنطيين الذين غرَّروا به وأرشدوه إلى الطريق الخطأ، نحو الجبال، التي يسيطر عليها سلاجقة الروم حيث تصدى له هؤلاء وتمكنوا من إبادته[٢].

وفي الوقت الذي كانت فيه الاشتباكات دائرة بين القوات السلجوقية والجيش الألماني، عبر لويس السابع إلى آسيا الصغرى، وبلغه، وهو في نيقية، أنباء هزيمة كونراد الثالث. ثم اجتمع العاهلان في نيقية وقررا توحيد قواتهما وسلوك الطريق الساحلي الذي يسيطر عليه البيزنطيون، إلا أن صحة كونراد الثالث ساءت عندما وصلا إلى مدينة أفسوس[٣]، مما حمله على البقاء فيها قبل أن يعود إلى القسطنطينية، بينما تابع الجيش الفرنسي تقدمه حتى بلغ أنطاليا[٤]، ومنها عبر البحر إلى السويدية فأنطاكية فبلغها في (شهر ذي الحجة عام ٥٤٢ هـ/ شهر أذار عام ١١٤٨ م)[٥].

استقبل ريموند بواتييه، صاحب أنطاكية، الملك لويس السابع بالحفاوة والترحاب، آملاً في تسخير الحملة لصالحه بحكم روابط الصلة العائلية مع الملك الفرنسي[٦]. إذ كان مركزه في أنطاكية، بالغ الخطورة، بعد أن وطَّد نور الدين محمود آنذاك ملكه على امتداد الطرف النصراني الممتد من الرها إلى حماة، ورأى أن تقوم

---

(١) وليم الصوري: جـ٢ ص٧٥٨ ـ ٧٥٩. Camb. Med. Hist. vol V pp.307, 353.

(٢) المصدر نفسه: ص٧٥٨ ـ ٧٦٦.

(٣) أفسوس: بلد بثغور طرسوس: الحموي: جـ١ ص٢٣١.

(٤) أنطاليا: بلد كبير من مشاهير بلاد الروم. المصدر نفسه: ص٢٧٠.

(٥) وليم الصوري: جـ٢ ص٧٧٠ ـ ٧٧٢.

(٦) كان ريموند بواتييه خال الملكة الفرنسية اليانور زوجة لويس السابع.

الحملة بمهاجمة حلب والقضاء عليه بوصفه خليفة القوة التي فتحت الرها، والمهدِّدة لأوضاع الصليبيين في أنطاكية[١].

ومن جهته، حاول جوسلين الثاني، صاحب الرها، استغلال الحملة لصالحه أيضاً، وكان يعتقد أن سقوط الرها هو الدافع الأول لقيامها، وعلى ذلك فإن مهمتها الرئيسية هي استرداد الرها[٢].

أما ريموند الثاني كونت تولوز أمير طرابلس، فقد أراد أن يستغل الرابطة التي تربطه بالملك الفرنسي عن طريق والدته الفرنسية، لتسخير الحملة في استرداد البلاد التي فتحها المسلمون في عام (٥٣٤ هـ/ ١١٤٠ م)[٣].

وهكذا وجد لويس السابع نفسه وسط مجموعة من الأمراء المنشقين على أنفسهم، في الوقت الذي استقبل فيه فولشر أسقف بيت المقدس، مبعوثاً من قِبَل النبلاء لدعوته إلى المدينة المقدسة، وأخبره بأن كونراد الثالث سبقه في الوصول إليها[٤].

والواقع أن الأمبراطور الألماني غادر القسطنطينية بعد شفائه إلى عكا عن طريق البحر فوصل إليها في (النصف الثاني من شهر ذي القعدة عام ٥٤٢ هـ/ الأسبوع الثاني من شهر نيسان عام ١١٤٨ م). ولما كان لويس السابع قد كره الإقامة في أنطاكية لأسباب عائلية[٥] أعلن أنه لا يمكنه القيام بأي عمل قبل التوجه إلى بيت المقدس، وتحقيق أمنيته بالحج. فغادر أنطاكية متوجهاً إليها، ولما وصل عُقد اجتماع، بناءً على دعوة الملكة ميليسند وبلدوين الثالث في عكا، ضمَّه وكونراد الثالث وبلدوين الثالث وكبار الشخصيات الدينية والعلمانية، وغاب عنه كل من ريموند بواتييه، الذي غضب لرحيل لويس السابع، وريموند الثاني كونت طرابلس، وجوسلين الثاني صاحب الرها، الذي ظل قابعاً في تل باشر ربما بسبب غضبه أيضاً من تصرفات الملك الفرنسي[٦].

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨ . Grousset: II, P. 245.

(٢) المرجع نفسه: ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٧٢ ـ ٧٧٦.

(٥) راجع فيما يتعلق بهذه الأسباب العائلية: رنسيمان: جـ ٢ ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٦) يذكر وليم الصوري أسماء من حضر الاجتماع: جـ ٢ ص ٧٧٧ ـ ٧٧٩.

الصليبيون يقررون مهاجمة دمشق

كان على الصليبيين الغربيين أن يختاروا بين اتجاهين سياسيين يمثلان وجهتي نظر متناقضتين. مثَّل وجهة النظر الأولى حكام الإمارات الصليبية الشمالية أنطاكية والرها وطرابلس، وقد ذكرنا وجهة نظرهم، في حين مثَّل وجهة النظر الثانية حكام بيت المقدس، وتقضي بمهاجمة دمشق. وبعد كثير من المداولات تقرَّر اعتماد وجهة النظر هذه[١].

والواقع أن هذا القرار اتسم بالحماقة إلى حد بعيد بل هو خطأ شنيع، فعلى الرغم من أن دمشق تعدُّ جائزة سياسية قيِّمة، ويؤدي تملُّك الصليبيين لها إلى قطع الصلة نهائياً بين المسلمين في بلاد الشام والجزيرة، والمسلمين في مصر، غير أن مهاجمتها تعني فقدان الأتابكية الوحيدة التي انفردت عن سائر الممالك الإسلامية بالحرص على استمرار الصداقة مع الصليبيين حيث كانت الدولتان في دمشق وبيت المقدس تنعمان بالهدوء بفضل ما ساد بينهما من تفاهم، كما قامت بينهما علاقات تجارية جيدة، إذ أن كثيراً من الصليبيين كانوا يقصدون دمشق لشراء الحلي والأواني الزجاجية والمنسوجات المطرزة والحريرية، بالإضافة إلى ذلك، فإن أتابكية دمشق كانت تضارع أكثر الصليبيين تطرفاً في عداوة نور الدين محمود، لذلك كانت مصالحهم تقضي بالمحافظة على الصداقة مع دمشق حتى يتم القضاء عليه. ولم يدرك الصليبيون أن مهاجمتها سوف تدفع سكانها إلى الارتماء في أحضانه[٢].

ويبدو أنه كان لبارونات بيت المقدس التأثير القوي على المجتمعين، ذلك أن فكرة غزو دمشق نبعت من بلاط بيت المقدس، حيث طمع هؤلاء في الحصول على الأراضي الخصبة التي تدين بالولاء والتبعية لدمشق بينما لم تكن لحلب أهمية تُذكر[٣].

التصدي للصليبيين أمام دمشق

لعل أول ثمار التعاون بين الأخوين سيف الدين غازي الأول ونور الدين محمود، هو اشتراكهما في التصدي للصليبيين ضد الحصار الذي فرضه هؤلاء على دمشق في (شهر ربيع الأول عام ٥٤٣ هـ/ شهر تموز عام ١١٤٨ م).

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٧٩. Stevenson: P. 159.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣.

(٣) المرجع نفسه.

وكانت الجيوش الصليبية الضخمة قد زحفت إلى بانياس ومنها إلى دمشق، وهاجم أفرادها الغوطة، وعسكروا في المكان المعروف بمنازل العساكر على بعد أربعة فراسخ إلى الجنوب من دمشق، وانتشروا في البساتين والحدائق الواقعة إلى الجهة الجنوبية من المدينة المعروف باسم الميدان الأخضر، ويبدو أنهم افتقدوا إلى الماء، فعجَّلوا بالسير نحو قرية المزة لتوافر الماء فيها واحتلوها[١].

وكان يتولى حكم دمشق آنذاك مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين، وعُرف بضعفه وعجزه في تدبير الأمور، فسيطر أحد مماليك جدِّه طغتكين، ويدعى معين الدين أنر، على زمام الأمور[٢]. وحاول جيش دمشق بقيادة أنر، وقف زحفهم غير أنه اضطر إلى الارتداد إلى ما وراء الأسوار، وتلى ذلك ما قاموا به من شق طريق لهم إلى الربوة الواقعة على نهر بردى تحت أسوار المدينة مباشرة، وظنَّ أهل دمشق أنهم خسروا كل شيء، فشرعوا في إقامة المتاريس في الشوارع استعداداً للقتال، وناوشوا الصليبيين المحتمين بالأشجار حتى اضطروهم إلى تغيير مواقعهم إلى الجبهة الشرقية من المدينة حيث لا يتوافر مثل هذا الغطاء. وأرسل أنر، في الوقت نفسه، يستنجد بأمير الموصل سيف الدين غازي الأول وهو أقوى الأمراء المسلمين آنذاك «ويستصرخه ويخبره بشدة بأس الفرنج»[٣].

لبّى سيف الدين غازي الأول نداء الاستغاثة، فخرج من الموصل على وجه السرعة، وعبر الفرات على رأس جيش كبير، مصطحباً معه أخاه نور الدين محمود، ونزل الأخوان في مدينة حمص، واجتمع لديهما سبعون ألف مقاتل[٤].

اشتهر أنر بتقلباته السياسية وبتحالفه مع مملكة بيت المقدس ضد الأمراء المسلمين المجاورين، حفاظاً على نفوذه في دمشق، وقد وقف سيف الدين غازي الأول على هذا المزاج السياسي لحاكم دمشق، لذلك لم يشأ أن يتحرك من حمص قبل أن يحصل على ضمانات كافية تمنعه من أن يغدر به أو يعقد صلحاً منفرداً مع الصليبيين، فيعرِّض قواته للخطر، وطلب منه تسليم دمشق إلى أحد نوابه حتى ينتهي القتال

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٧٩ ـ ٧٨٣. يذكر هذا المؤرخ أن الصليبيين عسكروا أولاً قرب داريا. ابن القلانسي: ص ٤٦٣. ابن الأثير: الباهر ص ٨٩.

(٢) ابن القلانسي: المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤. ابن الأثير: الباهر ص ٨٩. سبط ابن الجوزي: جـ٨ ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ٢٠. سبط ابن الجوزي: المصدر نفسه. Setton: Op. Cit, I, P. 509.

ويرحل الصليبيون عن المدينة ثم يعيدها إليه، وأرسل في الوقت نفسه ينذر الصليبيين بفك الحصار عن دمشق والرحيل عنها[1].

ويبدو أن هذا الشرط كان ثقيلاً على أنر، وهو يعلم جيداً نية الأخوين، ويدرك أنه إذا دخلت جنودهما قلعة دمشق مرة فلن يتركوها للأبد، فعمل على التخلص من هذا الموقف الحرج الذي فرضه عليه الصليبيون دون الاستعانة بقوات الموصل، وقبول شرط غازي الأول، فتجاهل، كسباً للوقت، الرد عليه و«ماطله لينظر ما يكون من الفرنج»[2]. واستغل، في الوقت نفسه، تهديد سيف الدين غازي الأول للصليبيين، فاستخدمه ورقة ضغط ليرغمهم على الرحيل عن دمشق، فأرسل يقول لهم: «إن ملك الشرق قد حضر، فإن رحلتم وإلاَّ سلَّمت البلد إليه، وحينئذ تندمون»[3].

واستغل كذلك، نشوب الخلافات داخل المعسكر الصليبي، بين أفراد الحملة الصليبية الثانية من جهة، والصليبيين القدماء في بلاد الشام من جهة أخرى، حول مستقبل دمشق، فعمل على تعميق الشقاق بينهم، ثم بذل الرشاوى للصليبيين المحليين ووعدهم بدفع الجزية، ولعله أخطرهم بأنهم متى تراجعوا، فسوف يتخلى عن التحالف مع الزنكيين[4].

وإذ كان الجيش الصليبي في وضع حرج أمام دمشق، ولم يتوقع قدوم إمدادات، على حين لن تمر أيام قليلة حتى يدخل الجيش الزنكي إلى ساحة المعركة، ويحل الدمار بكل الجيش الصليبي، وستنتقل دمشق إلى حوزة نور الدين محمود العدو الرئيسي؛ مما حملهم على فك الحصار والرحيل عن دمشق في (فجر يوم الأربعاء الثامن من شهر ربيع الأول عام ٥٤٣ هـ/ الثامن والعشرين من شهر تموز عام ١١٤٨ م) بعد حصار دام خمسة أيام[5]. وهكذا ساهمت القوات الزنكية من الموصل وحلب، بشكل غير مباشر، في إرغام الصليبيين على الرحيل عن دمشق.

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ٨٩.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٨٨. رنسيمان: جـ ٢ ص ٤٥٦.
(٥) المصدر نفسه.

تدمير حصن العريمة[1]

توجه أنر، بعد رحيل الصليبيين عن دمشق، إلى بعلبك، وأرسل إلى نور الدين محمود الذي كان مجتمعاً مع أخيه سيف الدين غازي الأول في حمص، يطلب منه أن يحضر إليه للتباحث بشأن مزيد من التعاون[2]. استجاب نور الدين محمود لهذا النداء، وتوجه إلى بعلبك واجتمع بأنر، ووصل إليهما في غضون ذلك كتاب من ريموند الثاني صاحب طرابلس يحثهما على مهاجمة حصن العريمة وانتزاعه من برتراند ابن ألفونسو، وهو أمير صليبي وحفيد ريموند كونت تولوز، وقد ادعى السيطرة على جميع إمارة طرابلس في أثناء الحرب الصليبية الثانية[3].

لم يتردد نور الدين محمود في اغتنام هذه الفرصة، فأسرع إلى الحصن المذكور، برفقة أنر، وأرسل إلى أخيه سيف الدين غازي الأول في حمص ليمده بالعساكر، فأرسل إليه قوة عسكرية بقيادة عز الدين أبي بكر الدبيسي. وتمكَّن المسلمون من فتح الحصن، فدمروه وأسروا من كان فيه، بمن فيهم برتراند نفسه. وعاد نور الدين إلى حلب، في حين عادت عساكر الموصل إلى حمص[4].

في عهد قطب الدين مودود: ٥٤٤ ـ ٥٦٥ هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٧٠

وفاة سيف الدين غازي الأول واعتلاء قطب الدين مودود سدة الحكم

كان حكم سيف الدين غازي الأول للموصل قصيراً، إذ لم يلبث أن توفي في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٤٤ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٤٩ م)، بعد أن حكم ثلاث سنوات وشهراً وعشرين يوماً[5]، وخلفه أخوه قطب الدين مودود فتسلم ما كان لأخيه من البلاد التابعة لدولة الموصل[6]، وسانده الأميران جمال الدين الأصفهاني وزين الدين علي كوجك.

---

(١) العريمة: إحدى قلاع الساحل الشامي، تربض فوق جرف يتاخم السهل العريض الذي يجتازه النهر الكبير وتتحكم بمدخل وادي الأبرش.

(٢) Stevenson: Op. Cit., P. 164.

(٣) ابن القلانسي: ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧. ابن الأثير: ص ٩٠. Ibid., PP. 164-165.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه: ص ٩٢.

(٦) البنداري: ص ٢٠٥.

توتر العلاقات بين الأخوين قطب الدين مودود ونور الدين محمود

تعرَّضت العلاقات بين الموصل وحلب في بداية حكم قطب الدين مودود لأزمة خطيرة، كادت أن تتسبَّب في اندلاع الحرب بين الأخوين، وسط تربص الصليبيين، وترقُّب الخلافة العباسية، والسلطنة السلجوقية؛ لولا أن تدارك أتابك الموصل الأمر، ووَضَع حداً للنزاع مع أخيه.

ويبدو أنه كان لأمراء الموصل نصيب في إذكاء روح التباغض بين الأخوين، بفعل تنافسهم على النفوذ. فقد رأى بعض هؤلاء، وفي طليعتهم المقدم عبد الملك، والد شمس الدين محمد، صاحب سنجار، أن نور الدين محمود أحق بولاية الموصل من أخيه قطب الدين مودود لأنه أكبر سناً منه[1]، ومن جهة أخرى كان هذا الأمير يخشى من تصاعد نفوذ كل من جمال الدين الأصفهاني وزين الدين علي كوجك[2].

ودعا عبد الملك، نور الدين محمود لتسلُّم الحكم في الموصل عقب وفاة سيف الدين غازي الأول. ويبدو أن صاحب حلب داخله الطموح، إذ كان يعدُّ نفسه صاحب الحق الشرعي في خلافة أخيه، وراودته فكرة ضمِّ إمارة الموصل إلى إمارة حلب لإتمام الجبهة الإسلامية المتحدة في مواجهة الصليبيين، لذلك أسرع إلى سنجار يصحبه سبعون فارساً من أكابر دولته وأمرائه وفيهم أسد الدين شيركوه ومجد الدين أبي بكر ابن الداية[3].

وما إن علم قطب الدين مودود بأمر استدعاء عبد الملك لنور الدين محمود حتى استدعاه للحضور إلى الموصل ليعاقبه، إلا أن عبد الملك أبطأ في مغادرة سنجار أملاً في وصول نور الدين محمود للاحتماء به، لكن هذا الأخير تأخر في الوصول، فاضطر عبد الملك إلى مغادرة سنجار متوجهاً إلى الموصل، وأوصى ابنه شمس الدين الذي تركه فيها أن يُعلمه فور وصول نور الدين محمود[4]. وما إن وصل صاحب حلب إلى سنجار حتى كان عبد الملك قد وصل إلى تل يعفر[5] في طريقه إلى الموصل،

---

(١) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ٢٤. الباهر: ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) الباهر، المصدر نفسه: ص ٩٦.

(٣) المصدر نفسه: ص ٩٥.

(٤) المصدر نفسه: ص ٩٦.

(٥) تل يعفر: قلعة وربض بين سنجار والموصل في وسط وادٍ فيه نهر جارٍ. الحموي: جـ ٢ ص ٣٩.

فأرسل إليه ابنه يخبره بذلك، فعاد أدراجه إلى سنجار وسلَّمها لنور الدين محمود[1].

استعدَّ نور الدين محمود، بعد أن استقر في سنجار، لمواجهة أخيه قطب الدين مودود، وحتى يدعم موقفه استقطب فخر الدين قرا أرسلان، صاحب حصن كيفا، بعد أن وعده بإعطائه قلعة الهيثم، فلم يتردد في الحضور مع عساكره[2].

والواقع أن دخول نور الدين محمود مدينة سنجار سبَّب ردة فعل عنيفة في الموصل، إذ عدَّ قطب الدين مودود هذا العمل بمثابة اعتداء مباشر على أملاكه، لذلك تجهَّز للخروج بعساكره نحو المدينة المذكورة لوضع حد لتحديات أخيه، واصطحب معه وزيره الأصفهاني وأمير جيشه كوجك، وعسكر في تل يعفر[3].

وأرسل الأميران الأصفهاني وكوجك كتاب احتجاج إلى نور الدين محمود ينكران عليه إقدامه على ضمِّ سنجار، وأنذراه بالحرب إن لم يرحل عن المدينة. والواقع أن صاحب حلب، الذي كان في موقف قوي، لم يعبأ بهذا الإنذار، ورفض التخلي عن سنجار مستنداً إلى مبررين:

الأول: أنه أكبر من أخيه قطب الدين مودود، ويحق له تدبير أموره.

الثاني: أنه لبَّى نداء أمراء الموصل الذين يكرهون استئثار الأميرين المذكورين بالنفوذ.

وأجابهما نور الدين محمود: «وأما تهديدكم إياي بالحرب والقتال فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم»[4]. وتتضمَّن هذه الإشارة حصول انقسام في جيش الموصل، وأن جماعة منه انفصلت عن جيش قطب الدين مودود وانضمت إلى جيش سنجار، مما أضعف موقف صاحب الموصل وأمرائه الموالين له.

تجاه هذا الوضع السياسي، اضطر قطب الدين مودود إلى قبول الصلح، وقد برَّر الأصفهاني هذا المنحى بالظروف الصعبة التي تحيط بالدولة الزنكية، إذ أن استمرار الخلاف بين الأخوين من شأنه إتاحة الفرصة للصليبيين بأن يتوسعوا على حسابهما، بالإضافة إلى أنه سوف يحرِّك أطماع الخلافة العباسية والسلطنة

---

(١) ابن الأثير: ص ٩٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.

السلجوقية، الأمر الذي يؤدي إلى اختلال موازين القوى في المنطقة لصالح هؤلاء[١]. وهذا تفكير مستنير يتضمن تحليلاً دقيقاً للموقفين السياسي والعسكري الذي كان يحيط بالدولة الأتابكية[٢].

ونتيجة للمفاوضات التي جرت بين الجانبين تقرَّر أن يتنازل قطب الدين مودود عن حمص والرحبة والرقة لنور الدين محمود مقابل أن يرحل عن سنجار، لأن هذه المدينة أقرب المواقع إلى الموصل، وأهم معاقل الجزيرة تأثيراً على أوضاعها. وفعلاً رحل نور الدين محمود عن سنجار بعد أن أخذ ما كان فيها من الأموال والذخائر[٣].

وفي قراءة متأنية، لهذه الأحداث نلاحظ أن السبب الحقيقي وراء اندفاع نور الدين محمود لتملك سنجار ليس طمعاً في ملك أخيه، وإنما كان هناك سبب آخر؛ ذلك أن سنجار كانت مستودعاً لذخائر وأموال عماد الدين زنكي، وقد أفضى المقدم عبد الملك لنور الدين محمود بهذا السر، فتطلع صاحب حلب إلى وضع يده عليها والاستفادة منها للإنفاق على عساكره الكثيرة التي تتحمل عبء مواجهة الصليبيين، وجاءته الفرصة عندما عرض عليه ابن المقدم صاحب سنجار الحضور ليتسلم البلد فلم يتردَّد في ذلك[٤]. وقد ذكر ابن الأثير مقدار ما حمله نور الدين من سنجار فقال: «وعاد إلى حلب ومعه خزائن سنجار على ستمائة جمل ما خلا البغال وما فرَّقه على أولاد الملوك والأمراء، وستة وتسعين بغلاً محملة ذهباً»[٥].

وانتهت بذلك الأزمة بين الأخوين وعاد الوفاق بينهما، واتحدا لمقاومة الصليبيين. ومن مظاهر تحسُّن العلاقات، أن نور الدين محمود أصابه المرض في أواخر عام (٥٥٣ هـ/ ١١٥٨ م)، واشتد عليه حتى أحسَّ بدنو أجله، فقرر تعيين أخيه قطب الدين مودود ولياً للعهد. فجمع أمراءه وأخبرهم بذلك وأوصاهم بالطاعة له[٦]، ثم أرسل وفداً إلى الموصل يخبر أخاه بما استقر عليه الأمر، وطلب منه الحضور بعساكره إلى الشام[٧]. فتجهز قطب الدين مودود وخرج على رأس جيشه من

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ٩٦.

(٢) الجميلي: ص ٨٤.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص ٩٧.

(٤) الجميلي: ص ٨٥.

(٥) ابن الأثير: الباهر ص ٩٨.

(٦) ابن القلانسي: ص ٥٤٢.

(٧) المصدر نفسه: ص ٥٤٣.

الموصل، لكنه علم، وهو في الطريق، بتحسن صحة أخيه، فتوقف حيث هو، وأرسل وزيره الأصفهاني إلى حلب للاجتماع بأخيه وإبلاغه عن استعداده لوضع إمكاناته تحت تصرفه. اطمأن نور الدين محمود لموقف أخيه ومشاعره الطيبة نحوه، وحمَّل وزيره الهدايا، وأنفذ معه الأمير أسد الدين شيركوه لتقديم الشكر له[1]. وتدليلاً على الروابط الوثيقة بين الموصل وحلب، أقطع نور الدين محمود حرّان لزين الدين علي كوجك نائب أخيه، بعد أن انتزعها من يد أخيه نصرة الدين أمير أميران بفعل محاولته مهاجمة حلب أثناء مرضه، وفوَّض إليه تدبير أمورها[2].

التعاون المشترك في فتح حارم

من مظاهر الوفاق بين الأخوين قطب الدين مودود ونور الدين محمود، ذلك التعاون الذي تجلَّ في التصدي للصليبيين وفتح مدنهم. ذلك أن نور الدين محمود قرَّر في عام (٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م) أن يحارب الصليبيين في بلاد الشام ليشغلهم عن مساعدة عموري الأول، ملك بيت المقدس، الذي كان يحارب أسد الدين شيركوه في مصر، فاستدعى الجيوش من الأطراف للمشاركة في الجهاد، فحضر قطب الدين مودود بعساكر الموصل[3].

وشكَّل الصليبيون حلفاً لمواجهته ضمَّ بوهيموند الثالث، أمير أنطاكية وريموند الثالث، أمير طرابلس، وقسطنطين كولومان، حاكم كيليكية البيزنطي، وثورس الثاني الأرميني، بالإضافة إلى جماعات من الأسبتارية[4] والداوية.

وقد أدَّى عسكر الموصل دوراً كبيراً في هذه الحملة وتحقيق النصر على القوات

---

(١) ابن القلانسي: ص ٥٤٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ٦٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٨٦.

(٤) الأسبتارية: تحريف للفظ الأجنبي Hospitalliers، وكان يُطلق في عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين الذين سكنوا ديراً في بيت المقدس بجوار دير سان ماري، وقد أقيم بجواره بيمارستان، (مستشفى)، في المدة قبل الحروب الصليبية، بهدف إيواء الحجاج النصارى ومعالجة المرضى منهم. ولما اندلعت الحروب الصليبية تطوع أفراد هذه الطائفة في المساهمة في الحرب ضد المسلمين مهما بلغت التضحيات. وكانوا موضع احترام جودفري، ملك بيت المقدس، فأقطعهم إحدى الضواحي، وأغدق عليهم الأموال، ثم أصبحوا يؤلفون قوة حربية كبرى، واشتهروا بالتعصب الشديد للنصرانية. انظر فيما يتعلق بتأسيس هذه الطائفة، وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٣٠ ـ ٨٣٤.

المتحالفة؛ إذ في خلال المعركة «عطف زين الدين علي كوجك في عساكر الموصل على راجلهم، فأفناهم قتلاً وأسراً»[1]، وسار نور الدين محمود عقب هذا الانتصار إلى حارم ففتحها في (شهر رمضان/ شهر آب) ثم أذن لعسكر الموصل بالعودة إلى بلادهم[2].

التعاون المشترك في مهاجمة طرابلس

وهذا مظهر آخر من مظاهر الوفاق بين الأخوين. ففي عام (٥٦٢ هـ/ ١١٦٧م)، اتفقا على الإغارة على كونتية طرابلس مستغلين تضعضع أوضاعها بعد وقوع أميرها ريموند الثالث في أسر نور الدين عقب فتح حارم[3]. فتجهَّز قطب الدين مودود، وسار مع زين الدين علي كوجك إلى حمص حيث اجتمع بأخيه ونسَّقا معاً خطة الهجوم، فأغارا على النواحي المحيطة بحصن الأكراد، ثم اتجها بقواتهما إلى الشمال الشرقي من طرابلس، ونزلا على عرقة، وحاصرا جبلة وخرَّباها، ثم فتحا العريمة وصافيتا، وعادا إلى حمص حيث قضيا شهر رمضان، ثم قصدا، بعد ذلك، بانياس، وخرَّبا سور قلعة هونين، واكتفيا بذلك. وعاد قطب الدين مودود بجيش الموصل، بعد انتهاء الأعمال العسكرية، بعد أن أقطعه نور الدين محمود مدينة الرقة على الفراتِ وكانت له، فأخذها في طريقه[4].

في عهد سيف الدين غازي الثاني: ٥٦٥ - ٥٧٦ هـ/ ١١٧٠ - ١١٨٠ م

وفاة قطب الدين مودود واعتلاء سيف الدين غازي الثاني سدة الحكم

انتهت بوفاة قطب الدين مودود في (شهر ذي الحجة عام ٥٦٥ هـ/ شهر آب عام ١١٧٠ م) مرحلة مهمة من مراحل التعاون بين إمارتي الموصل وحلب. فقد كان قطب الدين مودود حسن الاتفاق مع أخيه، وعلى تفاهم معه، كثير المساعدة له، والإنجاد بنفسه وعسكره وأمواله. حضر معه المصاف بحارم وفتحها، وفتح بانياس،

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١٢٤. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٩٤.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ١٢٤ - ١٢٥. الكامل: جـ ٩ ص ٨٦. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٨ - ٨٩٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ٨٦.

(٤) المصدر نفسه: ص ٩٩.

وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف[1].

وأوصى قطب الدين مودود بالملك من بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي، إلا أن نائبه فخر الدين عبد المسيح استطاع، بالاتفاق مع زوجته الخاتون أن يحول دون توليته، وأَخَذَ العهد لولدها سيف الدين غازي الثاني[2].

ويبدو أن النائب خشي من تأثير نور الدين محمود على ابن أخيه عماد الدين زنكي نظراً لطول إقامته عنده وزواجه من ابنته. وكان نور الدين محمود يكرهه «لظلم كان فيه ويلوم أخاه قطب الدين مودوداً على توليته الأمور»[3]. وفعلاً استقر الأمر لسيف الدين غازي الثاني، وأضحى فخر الدين عبد المسيح المتصرف في أمور البلاد، وليس للأتابك من الأمر إلا الاسم[4].

نور الدين محمود يبسط سيطرته على الموصل

أدَّت التغييرات التي شهدتها دولة الموصل، بعد وفاة قطب الدين مودود، وردة الفعل المناهضة لها من قبل نور الدين محمود إلى:

- خضوعها لنفوذ نور الدين محمود المباشر.
- تقلص رقعتها بسبب اقتطاع بعض أجزائها.

والواقع أن نور الدين محمود أَنِفَ من ازدياد نفوذ عبد المسيح وتحكُّمه بأمور الموصل على حساب ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني الذي نازع أخاه الأكبر على الحكم، وشقَّ عليه إبعاد عماد الدين زنكي عن خلافة والده وقال: «أنا أولى بتدبير بني أخي وملكهم»[5]، لذلك قرَّر التوجه إلى الموصل لتسوية المشكلة وفقاً لمصلحته. وأرسل إلى الخليفة العباسي الحسن أبي محمد المستضيء بأمر الله (٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ/ ١١٧٠ ـ ١١٨٠ م) يشرح له الهدف من هذا التوجه مؤكداً شرعيته وقال: «إني قصدت بيتي وبيت والدي، فأنا كبيره ووارثه»، وأوصى رسوله إليه بأن يأخذ له إذناً

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١٤٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٦.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه: ص ١٥٢.

في ذلك، وأنه ممتثل لما يرد عليه منه[1].

وعبر نور الدين محمود الفرات عند قلعة جَعْبَر في (شهر محرم عام ٥٦٦ هـ/ شهر أيلول عام ١١٧٠ م) قاصداً الرقة، وكانت من أملاك أخيه سيف الدين غازي الأول، فأذعن نائبها له، وسلمه إياها[2]. ثم تابع زحفه نحو الموصل، فانتزع الخابور كله، وأخذ نصيبين، فأقام بها يحشد العساكر من الأطراف، وانضمَّ إليه نور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا، ثم توجه إلى سنجار، وبها حامية من الموصل، فحاصرها، وأقام المجانيق عليها. ووفد عليه، أثناء الحصار، عدد من أمراء الموصل يستحثونه على القدوم إليهم، وهذا دليل على الانقسام الداخلي في الموصل حول سياسة عبد المسيح، وأشاروا عليه بترك سنجار، إلا أنه أصرَّ على أخذها، فشدَّد الحصار عليها حتى سقطت في يده. فأعطاها إلى ابن أخيه عماد الدين زنكي الذي كان يرافقه في هذه الحملة، ووصلت إليه أثناء الحصار خلعة الخليفة والإذن له بدخول الموصل والجزيرة[3].

وتابع نور الدين محمود زحفه باتجاه الموصل، فوصل إلى بَلَدْ، وعبر دجلة إلى الجانب الشرقي، فألفى نفسه عند حصن نينوى شرقي الموصل بحيث أضحى لا يفصله عنها سوى النهر. وحتى يبرِّر تقدمه، أرسل إلى ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني يوضِّح له أن الهدف من حملته، حفظ المدينة، وإبعاد فخر الدين عبد المسيح عن ولاية المسلمين بوصفه نصرانياً، بالإضافة إلى أن تصرفاته الخشنة، نفَّرت منه الأمراء[4].

والواقع أن عبد المسيح كان عاجزاً عن الوقوف في وجه نور الدين محمود، كما أنه وقف على مؤامرة دبَّرها أمراء الموصل ضده لإبعاده عن الحكم، وتسليمه الموصل، فأراد تقوية موقفه، فاستنجد بالأتابك شمس الدين إيلدكز، صاحب بلاد الجبل وأذربيجان، الذي أرسل بدوره رسولاً إلى نور الدين محمود، وكان حينئذ بسنجار، ينهاه عن التعرض للموصل، لكن نور الدين محمود أهمل الرسالة وقال للرسول: «قل لصاحبك أنا أرفق ببني أخي منك، فلم تُدخل نفسك بيننا؟»، ثم

---

(١) البنداري، الفتح بن علي: سنا البرق الشامي، وهو اختصار لكتاب العماد الأصفهاني، البرق الشامي ص ٩٤. كان العماد هو رسول نور الدين إلى بغداد.

(٢) ابن الأثير: ص ١٥٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٥٢ ـ ١٥٣. البنداري: ص ٩٦ .

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ١٥٣. البنداري: المصدر نفسه.

هدَّده بالزحف على بلاده وانتزاعها منه لأنه أهمل حفظ البلد من تعديات الكرج[1].

واضطر عبد المسيح أخيراً للجنوح إلى السلم واشترط على نور الدين محمود أن:

- تبقى الموصل بيد سيف الدين غازي الثاني.
- يعطيه الأمان لنفسه وأهله.
- يمنحه إقطاعاً.

استجاب نور الدين محمود لطلب الصلح، إلا أنه أصرَّ على خروج عبد المسيح من الموصل، ومرافقته إلى بلاد الشام[2].

ودخل صاحب حلب، الموصل في (شهر جمادى الأولى عام ٥٦٦ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٧١ م) من باب السر[3]، واتخذ عدة إجراءات تنفيذية لترتيب أوضاعها، منها:

- أقرَّ سيف الدين غازي الثاني على الموصل وجزيرة ابن عمر.
- ولَّى مملوكه سعد الدين كمشتكين نائباً عنه في القلعة.
- أمر سيف الدين غازي الثاني بالعودة إليه في تدبير الأمور.
- أهدى ابن أخيه خلعة الخليفة المستضيء، وألبسه إياها وزوَّجه ابنته.
- أبطل المكوس من البلاد.
- أمر ببناء الجامع النوري.
- انتزع حرّان ونصيبين والخابور والمجدل، من إمارة الموصل، وأقطعها لأمراء عسكره، ثم عاد إلى بلاد الشام مصطحباً معه فخر الدين عبد المسيح، وغيَّر له اسمه، وسمّاه عبد الله وأقطعه إقطاعاً كبيراً[4].

غيَّرت هذه الترتيبات الإدارية، التي نفّذها نور الدين محمود، في الوضع الجغرافي لدولة الموصل، كما تراجع نفوذها القيادي بعد أن خسرت سنجار لصالح

---

(١) ابن الأثير: ص ١٥٣. والكرج: أمة نصرانية تسكن جبال القوقاز المجاورة لمدينة تفليس.

(٢) المصدر نفسه. البنداري: ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٣) هو أحد أبواب قلعة الموصل الحصينة، ويؤدي إلى نهر دجلة.

(٤) البنداري: ص ٩٧، ٩٩ ـ ١٠٠. ابن الأثير: ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

عماد الدين زنكي، ونصيبين والخابور اللذين تولاهما نور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقي، فخضعت خضوعاً تاماً لنور الدين محمود، وأضحى سيف الدين غازي الثاني مجرد حاكم تابع له، يعمل تحت إشراف نائبه كمشتكين صاحب السلطة الفعلية. وتدليلاً على هيمنته على الإمارة فقد أُعْلِنت الخطبة في جميع مساجد الموصل وأعمالها لنور الدين محمود وضربت السكة باسمه[1].

ويبدو أن هذا التوسع والانتشار لنفوذ نور الدين محمود كان بحاجة إلى تغطية روحية متمِّمة للعمل السياسي الذي قام به، وهذا طبيعي لأن الأتابكة خاضعين من الناحية الدينية للخليفة العباسي، لذلك أرسل في عام (٥٦٨ هـ/ ١١٧٢ م) القاضي كمال الدين الشهرزوري إلى الخليفة المستضيء بأمر الله يطلب تقليده ما بيده من بلاد مصر والشام والجزيرة والموصل، والبلاد التي دخلت في طاعته في ديار بكر وخلاط وبلاد قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، فوافق الخليفة على ذلك وأرسل له التقليد بحكم هذه البلاد جميعها[2].

وحرص نور الدين محمود على أن تسود العلاقات الطيبة بينه وبين ابن أخيه في الموصل. ففي عام (٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ م)، أرسل إليه هدية نفيسة هي عبارة عن تمثال لفيل، عُدَّ في ذلك الوقت من التحف النادرة، كان صلاح الدين الأيوبي قد انتخبه من خزائن القصر الفاطمي، بالإضافة إلى هدايا أخرى تشتمل على منسوجات وعود وعنبر[3].

مساهمة الموصل في الجهاد

استولى الصليبيون في اللاذقية في عام (٥٦٧ هـ/ ١١٧٢ م) على مركبين إسلاميين محملين بالأمتعة والتجار كانا يبحران من مصر إلى بلاد الشام، منتهكين الهدنة التي كانت معقودة بينهم وبين نور الدين محمود، الذي احتجَّ على هذه العملية، وطالب بإعادة المركبين، وما استولوا عليه من أموال التجار، إلا أن الصليبيين رفضوا طلبه بحجة أن المركبين كانا قد انكسرا ودخلهما الماء، وأصبح من حقهم،

(١) الحسيني، باقر: مرجع سابق ص ٤٧.

(٢) البنداري: ص ١٠١ ـ ١٠٤. ابن خلدون: العبر... المعروف بتاريخ ابن خلدون: جـ ٥ ص ٥٦١ ـ ٥٦٢.

(٣) البنداري: المصدر نفسه ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

وفقاً لتقاليدهم، الاستيلاء عليهما[1].

نتيجة لهذا الرفض، لم يكن بوسع نور الدين محمود إلا الإغارة على أملاكهم في شمالي الشام، فاستدعى العساكر الإسلامية للجهاد. واحتشدت لديه الحشود من بلاد الشام والجزيرة والموصل، فسار على رأسهم إلى عرقة وحاصرها وخرَّب ربضها، وفتحت فرقة من جيشه صافيتا والعريمة، وتوغلت قواته في جوف كونتية طرابلس مدمرة ما كان يصادفها من مراكز للعدو. تجاه هذا الضغط العسكري اضطر الصليبيون إلى مراسلته، وأعادوا ما أخذوه من المركبين وجدَّدوا الهدنة[2].

الوضع السياسي في الموصل بعد وفاة نور الدين محمود

قرَّر نور الدين محمود في عام (٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م) الخروج إلى مصر لانتزاعها من يد صلاح الدين الأيوبي. فاستدعى العساكر من الموصل والجزيرة وديار بكر لتكون في مواجهة الصليبيين أثناء مدة غيابه، لكن القدر لم يمهله، إذ لم يلبث أن توفي في (شهر شوال/ شهر أيار) بدمشق[3]، التي كان قد ضمَّها إلى أملاكه في عام (٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م) كما سنرى.

وكان سيف الدين غازي الثاني قد خرج بعساكره من الموصل تلبية لنداء عمه، فجاءته الأخبار بوفاته وهو في الطريق، فآثر توطيد مكاسبه في الجزيرة، واستغلها فرصة لاستعادة ما اقتطعه عمه من أملاكه في عام (٥٦٦ هـ/ ١١٧٠م). أما كمشتكين الذي خرج مع العساكر فقد توجه إلى حلب هارباً خشية أن يبطش به صاحب الموصل[4]، والواقع أن غازي الثاني اتصف بقصر النظر السياسي مما تسبَّب في زوال الوحدة السياسية بين الموصل وحلب، وأتاح الفرصة للقوة الأيوبية النامية أن تسيطر على بلاد الشام، إذ كان عليه أن يتابع طريقه إلى حلب ويستولي عليها. وكانت الظروف مؤاتية ليعلن وصايته على الملك الصالح إسماعيل الذي ورث الحكم عن أبيه نور الدين محمود، ولم يكن له من العمر سوى إحدى عشرة سنة، وبخاصة أن ابن الداية الذي تسلم زمام الأمور في المدينة كان مريضاً، فلن يتمكن من

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١٥٤. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٣٨.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٥٤ ـ ١٥٥.
(٣) البنداري: ص ١٥٣. ابن العديم: جـ ٢ ص ٥٠٩.
(٤) ابن الأثير: ص ١٦١، ١٧٥ ـ ١٧٦.

التصدي له أو وقفه عند حده[١].

وعاد سيف الدين غازي الثاني إلى نصيبين واستعادها، وأرسل الولاة إلى الخابور فاستردوه ثم سار إلى حرَّان فحاصرها حتى سلَّمه إياها حاكمها قايماز الحراني، كما انتزع الرها والرقة وسروج، ولم يبقَ خارجاً عن طاعته في الجزيرة سوى قلعة جَعْبَر الحصينة، ورأس العين التي كانت بيد قطب الدين صاحب ماردين، وهو ابن خاله، فلم يتعرض له، وبذلك ملك أكثر ما كان لأبيه[٢].

ويبدو أنه طمع، بعد الانتصارات السهلة التي حقَّقها في الجزيرة، في العبور إلى بلاد الشام والاستيلاء على حلب، إلا أن أمراءه لم يوافقوه على ذلك، والراجح أنهم خشوا الاصطدام بالقوة الأيوبية التي بدأت بالظهور على المسرح السياسي[٣].

وبوفاة نور الدين محمود، تدخل العلاقات بين الموصل وبلاد الشام مرحلة جديدة مليئة بالأحداث السياسية الهامة نتيجة لظهور صلاح الدين الأيوبي وبدء نضاله في سبيل توحيد العالم الإسلامي استعداداً للتصدي للصليبيين في بلاد الشام[٤].

---

(١) ابن الأثير: ص ١٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٧٥.

(٣) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣٢٥.

(٤) الجميلي: ص ١٠٢.

الفصل الثامن

دولة الموصل بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية

في عهد سيف الدين غازي الأول: ٥٤١ ـ ٥٤٤ هـ/ ١١٤٦ ـ ١١٤٩ م

حركة ألب أرسلان

تراوحت العلاقات بين الدولة الزنكية في الموصل وكل من الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بين التعاون والعداء أحياناً، وذلك، بسبب استمرار محاولات الخلفاء العباسيين للانعتاق من الطوق السلجوقي، وبخاصة بعد وفاة السلطان مسعود في (شهر رجب عام ٥٤٧ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٥٢ م) وتأثير ذلك على العلاقات مع الدولة الزنكية بحكم ارتباطها وتبعيتها، من الناحية الاسمية على الأقل، لتلك السلطنة.

ومن جهتهم، فقد حرص السلاطين السلاجقة وأمراؤهم على استعادة حقهم في بسط سيطرتهم الفعلية على الأتابكة بفعل أن الأتابك تابع للسلطان يأتمر بأمره وينفذ تعليماته. أما الأتابكة خلفاء عماد الدين زنكي، فقد عملوا للحفاظ على استقلالهم تجاه أطماع هؤلاء.

كادت الدولة الزنكية أن تتعرض بعد وفاة عماد الدين زنكي مباشرة إلى خضَّة سياسية لولا أن تداركها كل من الأميرين جمال الدين الأصفهاني وصلاح الدين الياغسياني. ذلك أن الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود السلجوقي كان يرافق عماد الدين زنكي عند مصرعه أمام قلعة جَعْبَر بحكم أن زنكي أتابكاً له[1]، فاستغل

---

(١) البنداري: ص ١٨٣. ابن الأثير: الباهر ص ٨٤.

الفرصة ليستولي على أملاكه، فجمع أتباعه وتوجه نحو الموصل للسيطرة عليها. وما إن شعر الأصفهاني بهذه المحاولة حتى بادر بالاتصال بصلاح الدين الياغسياني، وكانت بينهما جفوة، يقول له: «إن المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا، ونسلك طريقاً يبقى به الملك في أولاد صاحبنا، ونعمر بيته جزاء لإحسانه إلينا، فإن الملك قد طمع في البلاد، واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم نتلافَ هذا الأمر في أوله، ونتداركه في بدايته، ليتَّسعنَّ الخرق، ولا يمكن رقعه. فأجابه صلاح الدين الياغسياني إلى ذلك، وحلف كل واحد منهما لصاحبه»[١].

وهكذا اتفق الرجلان على الوقوف في وجه ألب أرسلان السلجوقي لإحباط مشروعه. وقضت الخطة، التي اتفقا على تنفيذها، بأن يجتمعا به ويحثَّانه على الاستيلاء على أملاك عماد الدين زنكي حتى يكسبا ثقته. وقالا له: «إن أتابك كان نائباً عنك في البلاد، وباسمك كنا نطيعه. فقبل قولهما وظنَّه حقاً، وقرَّبهما طمعاً في أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه»[٢]. خُدِع ألب أرسلان بهذا القول، وعهد إليهما مهمة تنفيذ أهدافه نظراً للمكانة التي كانا يتمتعان بها في الدولة الزنكية.

والواقع أن حركة ألب أرسلان لم يكتب لها النجاح؛ إذ ما إن استقر سيف الدين غازي الأول في الموصل حتى أرسل قوة عسكرية ألقت القبض عليه، واقتادته إلى الموصل «فكان هذا آخر العهد به»[٣]، في حين يذكر العماد الأصفهاني أنه قتل[٤]. والجدير بالذكر أن التاريخ لم يتضمن أي نشاط سياسي له بعد ذلك، باستثناء ما وُجد مضروباً على الدينار الأتابكي في عام (٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م) من ذكر لاسمه[٥]، وهذا يجعلنا نميل إلى تبنِّي رواية ابن الأثير الذي لم يذكر خبر مقتله. فمن الجائز أن يكون قد أُطلق سراحه في عهد قطب الدين مودود الذي خلف أخاه سيف الدين غازي الأول في عام (٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م)، وظلَّ في الموصل مجرَّداً من كل نفوذ، دون أن يقوم بأي نشاط سياسي سوى ذكر اسمه على السكة إلى جانب السلطان سنجر[٦].

---

(١) ابن الأثير: ص ٨٤ ـ ٨٥.
(٢) المصدر نفسه: ص ٨٥.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق: ص ١٩١.
(٥) الحسيني، محمد باقر: العملة الإسلامية في العهد الأتابكي ص ٤٢. ٤٣.
(٦) الجميلي: ص ٢١٦.

في عهد قطب الدين مودود: ٥٤٤ ـ ٥٦٥ هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٧٠م

الصراع السلجوقي الداخلي وتأثيره على أوضاع الدولة الزنكية

أصاب السلطنة السلجوقية في العراق الوهن بعد وفاة السلطان مسعود، وعادت من جديد ميداناً للفتن والحروب الداخلية، وضعف السلاطين حتى أضحوا ألعوبة في أيدي قادة الجيش وحكام الأقاليم، ينفِّذون رغباتهم، ويأتمرون بأمرهم، دون أن يكون لهؤلاء السلاطين نفوذ ملحوظ.

وكان السلطان مسعود قد عهد إلى ابن أخيه ملكشاه بن محمود، فلما توفي آلت السلطنة إليه، وسانده الأمير خاص بك بن بلنكري الذي استبدَّ بتسيير أموره[١]. ويبدو أن ملكشاه لم يكن مؤهلاً لتولي الحكم، فقد انصرف إلى اللهو والشراب، مما دفع خاص بك إلى القبض عليه، وسجنه في عام (٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م)، واستدعى أخاه محمد من خوزستان ليوليه عرش سلاجقة العراق[٢].

والواقع أن خاص بك كان ذا نزعات استقلالية، وهو ينوي التخلص من السلطان محمد ليعتلي عرش السلطنة السلجوقية. ومن جهته، فقد خشي السلطان محمد أن يصيبه ما أصاب أخاه من قبل، فدبر مؤامرة لقتل خاص بك، وتمكَّن من التخلص منه، واستولى على أمواله[٣].

استغل الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله فرصة وفاة السلطان مسعود، وتضعضع أوضاع السلطنة السلجوقية، لاستعادة استقلاله المفقود وحريته المسلوبة، والانتقام من السلاجقة. فأمر بحذف اسم سلاطينهم من الخطبة في بغداد، مما كان سبباً في قيام نزاع بين الطرفين، لم تلبث نيرانه أن اشتعلت في عام (٥٥١ هـ/ ١١٥٦م)، حين طلب سليمان شاه، عم السلطان محمد، الإذن من الخليفة لدخول بغداد، والحصول على مساعدته لمحاربة ابن أخيه، وتعهَّد له بالمقابل أن يلزم طاعته، وأن لا يتدخل في أمور العراق[٤].

لم يتردد الخليفة في اغتنام هذه الفرصة، التي من شأنها زيادة حدة الانقسام بين

---

(١) الحسيني: ص ١٢٦ ـ ١٢٧. ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ٣١ ـ ٣٢.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣٢.
(٣) الحسيني: ص ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٨.

السلاجقة، فرحَّب بسليمان بشاه، وأذن له بدخول بغداد، فوصل إليها في (شهر محرم عام ٥٥١ هـ/ شهر شباط عام ١١٥٦ م)، واجتمع بالخليفة، وأعلن طاعته له، فخلع عليه المقتفي لأمر الله وخطب له ببغداد، وتقرَّر أن يكون العراق للخليفة، ولسليمان شاه ما يفتحه من بلاد خراسان، ثمَّ أرسله إلى همذان لقتال ابن أخيه السلطان محمد، وأمدَّه بثلاثة آلاف فارس[١].

وحتى يدعم موقفه استقطب سليمان شاه، ابن أخيه ملكشاه الذي كان يسيطر على خوزستان[٢]، وعيَّنه ولياً لعهده، فقدم إليه مع ألفي فارس، كما انضم إليه إيلدكز، أتابك أذربيجان[٣].

بلغت أخبار هذا التحالف مسامع السلطان محمد، فأرسل إلى قطب الدين مودود، أتابك الموصل، الذي خلف أخاه سيف الدين غازي الأول، يطلب منه العون ضد سليمان شاه، وبذل له الوعود الكثيرة إذا انتصر على خصمه، فأجابه إلى ذلك، وجهَّز فرقة عسكرية عهد بقيادتها إلى نائبه علي كوجك، وأرسلها لمساعدته[٤]. وانتهت المعركة التي جرت بين قوى التحالف وبين السلطان محمد بانتصار الأخير. وحاول سليمان شاه أن يلجأ، بعد هزيمته، إلى بغداد عن طريق شهرزور، وكانت هذه المدينة من إقطاع علي كوجك ويحكمها الأمير بُزان، فقُبض عليه وأُخِذَ أسيراً إلى الموصل حيث سُجن في قلعتها[٥].

أثبتت هذه الأحداث المدى الذي وصلت إليه قوة الدولة الزنكية في الموصل مقابل تراجع نفوذ الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة. إذ أن تصرف قطب الدين مودود،

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) خوزستان، ويقال لها الخوز، وأهل تلك البلاد يقال لهم الخوز، ويُنسب إليه، وأستان كالنسبة في كلام الفرس، فيصبح معنى الكلمة بلاد الخوز.

ليس بخوزستان جبال ولا رمال إلا شيء يسير يتاخم نواحي تُستَر وجُنديسابور، وناحية إيذج وأصبهان، وأما أرض خوزستان فاشبه شيء بأرض العراق، وهوائها وصحّتها، فإن مياهها طيبة جارية، وأما تربتها فإن ما بَعُد عن دجلة، إلى ناحية الشمال أيبس وأصح، وما كان قريباً من دجلة، فهو من جنس أرض البصرة في السَّبَخ، وكذلك في الصحة. الحموي: جـ ٢ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٩.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه. البنداري: ص ٢٢٣.

يُعدُّ خروجاً على أوامر السلطان السلجوقي وعلى طاعة الخلافة العباسية.

ونتيجة لتدهور العلاقات بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية، هاجم الخليفة دقوقا في عام (٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م) وحاصرها، إلا أنه اضطر إلى رفع الحصار عنها عندما بلغه مسير عسكر الموصل نحوه لقتاله.

حصار بغداد

كان انتصار السلطان محمد على قوى التحالف حافزاً له على الزحف إلى بغداد لإرغام الخليفة، على الاعتراف بسلطته، وكتب إلى حليفه قطب الدين مودود لإمداده بعساكر من الموصل، فلم يتردد هذا الأخير في الاستجابة، وأنفذ إليه عسكراً كثيفاً بقيادة علي كوجك[١].

ولما اقترب السلطان من بغداد، أرسل إلى الخليفة يطلب منه الاعتراف بحكمه، وأن يُخطب له في عاصمة الخلافة وسائر العراق، فرفض الخليفة هذا الطلب، عندئذ تابع زحفه باتجاه المدينة، ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها في (شهر ذي الحجة عام ٥٥١ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٥٧ م)[٢]، وكان الخليفة قد بالغ في تحصين عاصمته، فنصب المجانيق وأمر ببناء المراكب المقاتلة[٣]، وفرَّق السلاح على الجند والعامة[٤]. وعلى الرغم من طول أمد الحصار، إلا أن السلطان محمد لم ينلْ مأرباً، واضطر إلى فك الحصار والعودة إلى عاصمته همذان في (شهر ربيع الأول عام ٥٥٢ هـ/ شهر أيام عام ١١٥٧ م)[٥].

ويبدو أن لفشل الحصار علاقة بالمدى الذي ساهمت فيه قوات الموصل من جهة، والهجوم الذي تعرضت له همذان من جهة أخرى. ففيما يتعلق بدور قوات الموصل، فقد تراخت هذه القوات في القتال بسبب تدخل نور الدين محمود، الذي أرسل إلى علي كوجك يلومه على الاشتراك في قتال الخليفة، مما أحدث توتراً في

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٥١. البنداري: ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه.
(٣) البنداري: ص ٢٢٨.
(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٥١.
(٥) راجع تفاصيل عملية الحصار عند البنداري: ص ٢٢٨ ـ ٢٣٥. الحسيني: ص ١٣٤ ـ ١٤١.

العلاقات بينه وبين السلطان، وزادت الفجوة بينهما، وخشي كل منهما الآخر، وفتَّ في عضد هذه القوات، انقطاع إمدادات التموين عنها بسبب استيلاء البغداديين على ما كان يرسله قطب الدين مودود[1].

ومن جهة أخرى، تعرضت همذان عاصمة السلطان، لهجوم قام به ملكشاه وحليفه إيلدكز، وسقطت في أيديهما، فاضطر السلطان إلى فك الحصار وعاد مسرعاً لإنقاذ عاصمته، وعاد علي كوجك إلى الموصل[2]. ومع هذا التدهور في العلاقات بين بغداد والموصل، فقد ظل اسم الخليفة المقتفي لأمر الله يُضرب على السكة في بلاد قطب الدين مودود[3].

في عهد سيف الدين غازي الثاني: ٥٦٥ ـ ٥٧٦ هـ/ ١١٧٠ ـ ١١٨٠م

استمرار الخلافات مع الخلافة العباسية

توفي السلطان محمد في (شهر ذي الحجة عام ٥٥٤ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٥٩ م) في همذان، فاختلف الأمراء حول الشخص الذي سيخلفه، وانقسموا إلى ثلاث فئات. مالت الأولى إلى تولية أخيه ملكشاه، وساندت الفئة الثانية أرسلان شاه ابن طغرل، في حين رشحت الفئة الثالثة تولية سليمان شاه. ولما كانت هذه الأخيرة هي الأكثر عدداً، والأقوى على الساحة السياسية، فإن حظ سليمان شاه في تولي عرش السلطنة السلجوقية كان الأوفر[4].

كان سليمان شاه مسجوناً في قلعة الموصل فاتفق أمراؤه على التفاوض مع قطب الدين مودود لإطلاق سراحه. ونتيجة للمباحثات التي جرت بين الطرفين تقرر:

- إطلاق سراح سليمان شاه.
- تعيين قطب الدين مودود أتابكاً له.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٥١ ـ ٥٢.

(٢) البنداري: ص ٢٣٣. ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٥٢.

(٣) الحسيني، باقر: مرجع سابق ص ٤٢.

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٦٦ ـ ٦٧. البنداري: ص ٢٦٢.

- إسناد الوزارة إلى جمال الدين الأصفهاني.
- تعيين علي كوجك مقدماً للعساكر[1].

ويبدو أن سليمان شاه لم يكن على مستوى الأحداث، فقد انصرف إلى اللهو والمجون مما نفَّر الأمراء منه، واتفقوا على عزله، وانتهى الأمر بالقبض عليه في همذان في (شهر شوال عام ٥٥٥ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٦٠ م)، وألقي في السجن[2].

وتوفي قطب الدين مودود في (شهر ذي الحجة عام ٥٦٥ هـ/ شهر آب عام ١١٧٠ م) وخلفه ابنه سيف الدين غازي الثاني الذي لم يكن له من الحكم سوى الاسم، واستبد نائبه فخر الدين عبد المسيح بالأمر[3]. كما توفي الخليفة العباسي يوسف أبو المظفر الملقب بالمستنجد بالله في (شهر ربيع الآخر عام ٥٦٦ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٧٠ م) وخلفه ابنه المستضيء بأمر الله. وقد ورث الخليفة الجديد المشاكل التي كانت قائمة مع دولة الموصل، لذلك استهل عهده بموقف عدائي منها عندما سمح لنور الدين محمود في الاستيلاء على الموصل، وأرسل إليه الخُلع[4].

ويبدو أن فخر الدين عبد المسيح شعر بحرج موقفه، فعرض على نور الدين محمود الصلح شرط إبقاء حاكمية الموصل في يد سيف الدين غازي الثاني. ولما كان نور الدين محمود منهمكاً في التصدي للصليبيين، ولم يكن بوسعه فتح جبهة جانبية؛ فقد قَبِل العرض[5].

في عهد عز الدين مسعود الأول: ٥٧٦ - ٥٨٩ هـ/ ١١٨٠ - ١١٩٣م

على أثر قيام الدولة الأيوبية في مصر بعد وفاة نور الدين محمود في عام (٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م)، وتوسعها في بلاد الشام، وبعض أنحاء الجزيرة وأرمينية، وظهور صلاح الدين الأيوبي، كأحد أبرز القادة المسلمين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تشكيل جبهة إسلامية متحدة لمواجهة الصليبيين؛ كانت الموصل إحدى أبرز اهتمامات

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٦٨.
(٢) المصدر نفسه: ص ٧٢.
(٣) المصدر نفسه ص ١٠٦ - ١٠٧، ١٠٩.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٠٨ - ١٠٩.
(٥) المصدر نفسه: ص ١١٠.

القائد الأيوبي. فبدأ الصراع مع أمرائها. وأرسل عز الدين مسعود الأول في عام (٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م) القاضي بهاء الدين بن شداد إلى الخليفة العباسي أحمد أبو العباس، الملقب بالناصر لدين الله، (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م) يطلب منه منع صلاح الدين الأيوبي من التدخل في شؤونه، فأوعز الخليفة إلى صدر الدين شيخ الشيوخ، وكان آنذاك بصحبة صلاح الدين، بالتوسط بين الطرفين[(١)].

لكن حدث، في العام التالي، أن استغل الخليفة الناصر لدين الله انهماك الدولة الزنكية بالتصدي لتدخل صلاح الدين في شؤونها، فهاجم دقوقا واستولى عليها[(٢)]. وعلى الرغم من العلاقات العدائية التي كانت سائدة بين الموصل وبغداد فقد ظل اسم الخليفة الناصر منقوشاً على السكة في عهد عز الدين مسعود الأول[(٣)].

في عهد نور الدين أرسلان شاه الأول: ٥٨٩ ـ ٦٠٧ هـ/ ١١٩٣ ـ ١٢١١ م

لم يسجل المؤرخون أحداثاً ذات أهمية في العلاقات بين دولة الموصل والخلافة العباسية في عهد نور الدين أرسلان شاه الأول الذي خلف أباه عز الدين مسعود الأول، باستثناء ما حصل في عام (٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م) حين تعرضت سنجار، التابعة لقطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي، ابن عم نور الدين أرسلان شاه الأول، لهجمات العادل الأيوبي، أخي صلاح الدين، فأرسل كل منهما إلى الخليفة الناصر لدين الله يلتمس منه التدخل في الصلح وإبقاء سنجار على وضعها السياسي. فأرسل الخليفة وفداً إلى العادل الأيوبي ضمَّ الأستادار[(٤)] هبة الله بن المبارك، والأمير آق باش، أبلغاه رغبته في إقرار الصلح مع آل زنكي، وحقن دماء المسلمين. فاستجاب العادل لطلب الخليفة ورحل عن سنجار[(٥)].

---

(١) ابن شداد، بهاء الدين: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين ص ١٠٢.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص ١٨٤.

(٣) الحسيني، باقر: ص ٤٩.

(٤) الأستادار: لقب على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير، وصرفه، وتُمتثل أوامره فيه. والأستادار مركبة من كلمتين فارسيتين: إحداهما استذ ومعناها الأخذ، والثانية دار ومعناها المسك، فأدغمت الذال الأولى وهي المعجمة في الثانية وهي المهملة، فصار استدار أو استادار. انظر: القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: جـ ٥ ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

(٥) ابن الأثير: ص ١٩٦ ـ ١٩٧. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٥٤١.

أواخر أيام دولة الموصل

اقتصرت العلاقات بين دولة الموصل في أواخر أيامها وبين الخلافة العباسية، على منح الخليفة العباسي اعترافه بحكام الموصل، وإرسال الخلع إليهم. ذلك أن هؤلاء كانوا لا يفقهون شيئاً من مستلزمات الحكم بسبب صغر سنهم حيث استبد الأمير بدر الدين لؤلؤ بإدارة شؤون الدولة.

فقد توفي نور الدين أرسلان شاه الأول في (شهر رجب عام ٦٠٧ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٢١١ م)، وكان قد عهد إلى ابنه القاهر عز الدين مسعود الثاني (٦٠٧ ـ ٦١٥ هـ/ ١٢١١ ـ ١٢١٨ م) البالغ من العمر عشر سنوات، بالحكم من بعده، وخصَّ ابنه الأصغر عماد الدين زنكي بقلعتي عقر الحميدية وشوش، وتقعان بالقرب من الموصل، وعيَّن بدر الدين لؤلؤ مدبراً لشؤون الدولة بفعل صغر سن عز الدين مسعود الثاني[١]. وأرسل بدر الدين لؤلؤ إلى بغداد يطلب من الخليفة الناصر لدين الله، الاعتراف بالوضع الجديد في الموصل، وإرسال الخلع والتقليد لمولاه. فاستجاب لهذا الطلب[٢].

وبعد وفاة عز الدين مسعود الثاني، كرَّر بدر الدين لؤلؤ الطلب من الخليفة بمنح التقليد لمولاه نور الدين أرسلان شاه الثاني (٦١٥ ـ ٦١٦ هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢١٩م) الذي خلف والده في حكم الموصل على أن يقوم هو بالوصاية عليه نظراً لصغر سنه استجاب الخليفة لهذا الطلب أيضاً، وأرسل تقليداً بولاية نور الدين أرسلان شاه الثاني، ولبدر الدين لؤلؤ النظر في أمور دولته[٣].

ويبدو أن عماد الدين زنكي الثالث، صاحب العمادية وشوش، كان كثير التقلب مما أدخله في نزاع مع بدر الدين لؤلؤ الذي حاول عزله وضم إقطاعه إلى إمارة الموصل، فهاجم العمادية وحاصرها. استنجد عماد الدين زنكي الثالث بمظفر الدين كوكبوري صاحب إربل. ونجح الحليفان في إجبار جيش الموصل على فك الحصار عن العمادية، ثم دخلا في صراع مع الخليفة العباسي، وكان بدر الدين لؤلؤ يحيط الخلافة بتحركاتهما.

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.
(٢) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٥٤٦.
(٣) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ٣٢٠.

وفي عام (٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م) هاجم بدر الدين لؤلؤ تل يعفر، وضربها بالمنجنيق، واستولى عليها، وأسر ابن المشطوب الذي كان يتخذها مركزاً لشن الغارات على أطراف الموصل، وأرسل كتاباً إلى دار الخلافة يشرح فيه ملابسات ما حصل[١].

وفي عام (٦٣١ هـ/ ١٢٣٣ م)، وضع بدر الدين لؤلؤ حداً لحكم آخر حكام الأسرة الزنكية في الموصل. فأعلن عن وفاة ناصر الدين محمود بن عز الدين مسعود الثاني (٦١٦ ـ ٦٣١ هـ/ ١٢١٩ ـ ١٢٣٣ م) وتسلم الحكم، وذكر بعض المؤرخين أنه أمر بقتله بعد أن خلا له الجو بوفاة حليف الأسرة مظفر الدين كوكبوري، صاحب إربل في عام (٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م)، وهو جد ناصر الدين محمود لأمه، فلم يبق من يخشى بدر الدين لؤلؤ منه. وأرسل إلى الخليفة العباسي أبو جعفر منصور الملقب بالمستنصر بأمر الله (٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ/ ١٢٢٦ ـ ١٢٤٢ م) في العام التالي يطلب منه تقليده حكم الموصل. استجاب الخليفة لطلبه، وأرسل إليه خلعة السلطنة ولقَّبه «الملك المسعود»، وأذن له بذكر اسمه على المنابر ونقشه على السكة[٢].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٤٥.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٥٢. ابن كثير: البداية والنهاية: جـ ١٣ ص ١٣٦. ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٢٥٧. ابن العبري: تاريخ الزمان ص ٢٨٠.

الفصل التاسع

علاقات الزنكيين مع الأيوبيين والأراتقة

العلاقات الزنكية ــ الأيوبية

في عهد سيف الدين غازي الثاني: ٥٦٥ ـ ٥٧٦ هـ/ ١١٧٠ ـ ١١٨٠ م

الأيوبيون: أصلهم ونشأتهم

لا بدَّ لنا، في هذا المقام، من أن نتناول، بشيء من الإيجاز، أصل الأيوبيين وظهورهم على المسرح السياسي، وذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الزنكيين، وهو ما سنتعرض له خلال هذه الدراسة. ويُعدُّ تاريخ الدولة الأيوبية، الذي امتد حوالي ثلاثة أرباع القرن (٥٦٩ ـ ٦٤٨ هـ/ ١١٧٤ ـ ١٢٥٠ م)، من أهم المراحل التاريخية التي عرفها الشرق الأدنى الإسلامي، الذي واجه حملات صليبية متتابعة على أيدي أقوى ملوك أوروبا.

إن أصل الأسرة الأيوبية من الأكراد الأحرار[١]. فنجم الدين أيوب، الذي انتسبت الأسرة إليه وأخوه أسد الدين شيركوه، ابنا شادي، من بلدة دوين، وهي آخر حدود أذربيجان، بالقرب من تفليس، وجميع سكان هذه البلدة من الأكراد الروادية، أحد بطون الطائفة الهذبانية[٢].

انتقلت الأسرة من دوين في بداية القرن السادس الهجري/ بداية القرن الثاني عشر الميلادي، حيث غادر شادي مع ابنيه المنطقة، إلى قلعة تكريت الواقعة على نهر

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٣ ـ ٤.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص ١١٩. ابن خلكان: مصدر سابق: جـ ٧ ص ١٤٠.

دجلة. ويبدو أنه أقام علاقات جيدة مع شحنتها مجاهد الدين بهروز الذي عيَّنه حاكماً عليها[1]، ولما توفي خلفه ابنه نجم الدين أيوب[2].

تبتدىء علاقة الأيوبيين بالزنكيين في عهد عماد الدين زنكي مؤسس هذا البيت، إذ حدث أن عماد الدين زنكي تحالف مع السلطان السلجوقي مسعود، وهاجم بغداد في عام (٥٢٦ هـ/ ١١٣٢ م)، غير أنه انهزم أمام قوات الخليفة المسترشد بالله، وتقهقر إلى تكريت، فاستقبله حاكمها نجم الدين أيوب بترحاب، وساعده في عبور نهر دجلة إلى الضفة الغربية، بأن قدَّم له السفن[3].

كان هذا اللقاء بداية لمرحلة جديدة في حياة الأسرة، نشأت بعدها في كنف الزنكيين وورثتهم بعد وفاة نور الدين محمود. ولما طُرِدَ الأخوان من تكريت، لأسباب تأديبية[4]، توجها إلى بلاط عماد الدين زنكي في الموصل، وذلك في عام (٥٣٢ هـ/ ١١٣٨ م)، فرحَّب بهما، وأحسن إليهما رداً على جميلهما القديم، وأقطعهما إقطاعات وافرة، وانخرطا في سلك جنده، فاستخدمهما في حروبه وفي شؤون دولته[5]، وبذلا جهوداً طيبة في الحروب التي خاضها عماد الدين زنكي، بدليل أنه أسند حكم بعلبك إلى نجم الدين أيوب بعد أن انتزعها من أيدي الصليبيين في عام (٥٣٣ هـ/ ١١٣٩ م)، فلم يزل متولياً عليها حتى قتل عماد الدين زنكي أمام قلعة جَعْبَر في عام (٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م)[6].

وانتقل نجم الدين أيوب إلى خدمة معين الدين أنر في دمشق بعد أن استرد بعلبك إثر مصرع عماد الدين زنكي. ذلك أنه شعر بحرج موقفه كحاكم بعلبك بعد أن طمع فيها معين الدين أنر وطالبه بتسليمها له. وحتى يبرر موقفه أمام الزنكيين طلب نجم الدين أيوب من سيف الدين غازي الأول الذي خلف أباه عماد الدين زنكي في الموصل، أن يتسلم بعلبك، لكن حاكم الموصل كان منهمكاً آنذاك في ترتيب

---

(١) ابن الأثير: ص ١١٩. ابن واصل: جـ ١ ص ٧ ـ ٨.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) تذكر الرواية التاريخية أن أسد الدين شيركوه قتل رجلاً من العامة دون مبرر مقنع، فأخرج بهروز الأسرة من تكريت. المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه: ص ١٢٠. ابن خلكان: جـ ٧ ص ١٤٣.

أوضاع دولته، فخشي نجم الدين أيوب أن تؤخذ منه بعلبك عنوة، وينالـه أذى، فاضطر إلى تسليمها لأنر الذي عوَّضه عنها بإقطاع جليل، فضلاً عن مبلغ كبير من المال، وداراً يقيم بها في دمشق، وأضحى من أصحاب الحظوة عنده، ولم يلبث أن أضحى قائداً لقواته، واستمر يشغل هذه الوظيفة حتى ضمَّ نور الدين محمود دمشق في عام (٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م) فعيَّنه والياً عليها[١].

أما الأخ الثاني أسد الدين شيركوه، فإنه اتصل بخدمة نور الدين محمود في حلب الذي قرَّبه ومنحه إقطاعاً، وجعله مقدم عسكره، نظراً لشجاعته وجرأته في الحروب ثم أقطعه حمص والرحبة[٢].

وأسهم أسد الدين شيركوه في جميع ما قام به نور الدين محمود من حملات حربية، وهو صاحب الفضل في إنقاذ دولته من الأخطار التي تعرضت لها من قبل الصليبيين، وبفضله ضمَّ دمشق، وعندما ألمَّ بنور الدين محمود مرض حاد في عام (٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م)، وخشي على نفسه، أوصى بأن يخلفه أخاه نصرة الدين، وأن تسند ولاية دمشق إلى أسد الدين شيركوه[٣].

ولما وردت الأخبار بشفاء نور الدين محمود، «سارع أسد الدين شيركوه بالنهوض من دمشق إلى ناحية حلب، ووصل إليها في خيله، واجتمع بالملك العادل نور الدين فأكرم لقياه وشكر مسعاه»[٤]. ثم حدث أن ارتفع شأن الأخوين عند نور الدين محمود فبلغ نجم الدين أيوب من المكانة ما لم يبلغها أحد[٥].

موقف سيف الدين غازي الثاني من توسعات صلاح الدين الأيوبي

معركة قرون حماة

يبدو أن صلاح الدين الذي ملك مصر وضمَّ دمشق، أدرك، بعد اصطدامه بالصليبيين، أن الزنكيين في الموصل وحلب، لم يُظهِروا من الاستعداد ما يدل على

---

(١) ابن الأثير: ص ١٢٠، ابن واصل: جـ ١ ص ٩ ـ ١٠.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه.
(٣) ابن القلانسي: ص ٥٣٣. تبين لنور الدين بعد قليل من الوقت أن أخاه نصرة الدين غير مؤهل لتولي شؤون الحكم، فعين أخاه مودوداً مكانه. ص ٥٤٢.
(٤) المصدر نفسه: ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤.
(٥) ابن الأثير: ص ١٢١.

أنهم سوف يساعدونه في طرد هؤلاء من فلسطين، وأنه لن يصل إلى هدفه بقوات دمشق وبعض القوات المصرية التي يمكن الاستغناء عنها. فالقوة التي حشدها ومقدارها ستة آلاف جندي ليست كافية في حرب حاسمة. وما دامت الموصل وحلب تخضعان لزعيم آخر، فسوف تشكِّلان خطراً شديداً عليه، وإذا تمكَّن من فصل الزنكيين في الموصل عن الزنكيين في حلب واستقطبهم فسيؤدي ذلك إلى ازدياد عداوة الزنكيين في الموصل له، بعد أن ظلوا ملتزمين جانب الحياد، على الرغم مما توافرت لهم من قوات بلغت ستة آلاف جندي، وسيتعرضون لمؤخرة جيشه.

والنتيجة التي توصل إليها، أنه لا بد من أن يسيطر على قوات الموصل ويدمجها في قواته. ومن الواضح أنه لا يمكن تحقيق هذا الهدف إلا بالقوة المسلحة، غير أنه أبى أن يرفع السلاح في وجه أمراء سوف يتخذ منهم حلفاء؛ لذلك مال إلى السياسة لإقناعهم، إذ أن دعوته بأنه الوارث الروحي لنور الدين استقرت، وأضحت راسخة عند المسلمين. كما أن القوى الأدبية التي كانت إلى جانب الزعيم الزنكي، انحازت إلى جانبه. وعلى الرغم من أن مصالح الزنكيين تجد لها تأثيراً وتشجيعاً بدافع الحماس العسكري المحلي، فإنه اكتسب تأييد الأمراء الأقوياء في كل من الموصل وحلب[1]، غير أن سياسة الزنكيين المعادية له أجبرته على استعمال القوة أحياناً لتحقيق أهدافه.

وقضت سياسته أن ينتزع أولاً من سيادة حكام الموصل ما كان تابعاً لهم في الجزيرة وديار بكر، قبل أن يبسط سلطانه على الموصل نفسها، بفعل أن هذه المناطق تزوِّد جيش الموصل بأكثر من نصف رجاله.

وكان سيف الدين غازي الثاني يراقب تطورات الموقف السياسي وتوسُّع صلاح الدين في بلاد الشام. وضايقه انتزاعه دمشق وحمص وحماة وبعلبك، وأثار غضبه حين حاصر حلب لضمِّها إلى أملاكه. ثم بدت له الصورة واضحة، فيما إذا استمر على هذا النمط من التقدم، ونجح في ضمِّ حلب، فإن ذلك يشكل تهديداً خطيراً للموصل التي تصبح هدفاً سهلاً له، لذلك رأى ضرورة الارتباط مع حلب في حلف دفاعي ضده[2].

وحدث آنذاك أن تعرَّض الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود وخليفته في

---

(١) العريني، السيد الباز: الشرق الأوسط في العصور الوسطى. الأيوبيون ص ٥٩ ـ ٦٠.
(٢) الجميلي: ص ١١٧.

حلب لضغط من قبل صلاح الدين، فاستنجد بابن عمه صاحب الموصل وطلب منه إمداده بالجند. وتمكَّن الوفد الذي أرسله إلى الموصل من إقناع سيف الدين غازي الثاني بضرورة تقديم المساعدة للوقوف في وجه أطماع صلاح الدين لأنه «متى ملك حلب لم يكن له قصد إلا الموصل»[1].

لم يكن سيف الدين غازي الثاني بحاجة إلى من يستحثُّه لمواجهة صلاح الدين فقد أدرك أنه متى غفل عنه «استملك البلاد، واستقر قدمه في الملك، وتعدَّى الأمر إليه»[2]. فبادر إلى جمع العساكر من الموصل والجزيرة، وأعدَّ العدَّة لعبور نهر الفرات في طريقه إلى حلب، وأرسل إلى أخيه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار يطلب منه موافاته بعساكره، لكن هذا الأخير امتنع عن إجابة الطلب بعد أن استقطبه صلاح الدين ونفخ في روعه أنه أحق من أخيه بالملك لأنه كبير البيت الزنكي[3].

واضطر صاحب الموصل أن يُخضع أخاه قبل مواجهة صلاح الدين. فزحف نحو سنجار في (شهر رمضان عام ٥٧٠ هـ/ شهر نيسان عام ١١٧٥ م)، وحاصرها، ووجَّه في الوقت نفسه قوة عسكرية إلى حلب لمساندتها عهد بقيادتها إلى أخيه عز الدين مسعود، ولما وصل إليها انضم إليه من كان بها من الجند، ثم زحف إلى حماة وحاصرها[4].

نتيجة لهذا الانفلاش في الوضع العسكري، رأى الجانبان، الزنكي والأيوبي، أن المصلحة العامة تقضي بضرورة التفاهم وحقن دماء المسلمين، فتفاهما على الأسس التالية:

- الإغضاء عن حركة الموصل المعادية لصلاح الدين.

- يسلم صلاح الدين حمص وحماة إلى غازي الثاني.

- يتنازل صلاح الدين عن المدن والقلاع التي حازها في بلاد الشام، إلى الملك الصالح إسماعيل، على أن يكتفي بدمشق، ويكون فيها نائباً عنه، منتمياً إليه، والخطبة والسكة له، ويعيد له كل ما أخذه من الخزانة[5].

---

(١) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ١٣٣. البنداري: سنا البرق الشامي: ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
(٢) ابن شداد: ص ٩٣.
(٣) المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٣٣.
(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه. البنداري: ص ١٨٧.
(٥) المصدران نفساهما. ابن كثير: جـ ١٢ ص ٢٩٠.

أتاحت هذه الشروط فرصة طيبة للزنكيين لاستعادة نفوذهم المفقود في بلاد الشام، وحِفْظ هيبة البيت الزنكي. ومن جهة أخرى، فإن ميل صلاح الدين إلى التفاهم يهدف إلى المحافظة على وحدة البلاد الإسلامية من التفكك والانقسام عقب وفاة نور الدين محمود، والدفاع عن بلاد الشام بتكوين جبهة إسلامية متماسكة ضد القوى الصليبية بعيداً عن المطامع الشخصية.

اغترَّ الزنكيون بقوتهم، ووجدوا في صلاح الدين ضعفاً لتنازله عن كل ما التُمس منه، فطمعوا في الحصول على المزيد من الامتيازات، وبخاصة أنهم علموا بقلَّة عدد أفراد جيشه، واشتطُّوا في الطلب حين طالبوه بالرحبة وأعمالها. فاعتذر عن إجابة طلبهم بحجة أنها في عهدة ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، ولا سبيل له إليها[١].

وبذلك لم يسمح صلاح الدين لأي انشقاق يحدث داخل صفوفه، وربما اكتشف بأن الزنكيين أرادوا ضرب قوته من الداخل بإثارة الانشقاق بينه وبين أقربائه الذين أوكل إليهم قيادة الفرق العسكرية، وإدارة بعض القلاع، ففضَّل الحفاظ على وحدة صفه على كسب أعدائه بمثل هذه الطريقة[٢].

نتيجة لهذا الرفض الأيوبي، قرر الزنكيون استئناف العمليات العسكرية، على أن صلاح الدين تغلَّب على الجيش الزنكي في مكان عند أخدود حماة في وادي نهر العاصي يُعرف بـ «قرون حماة» إلى الشمال من المدينة وذلك في (١٩ رمضان عام ٥٧٠ هـ/ ٢٣ نيسان عام ١١٧٥ م)، وأسر جماعة من أمرائه، ثم أطلقهم، وطارد خصومه حتى أبواب حلب، فحاصر المدينة، وأمر بقطع الخطبة للملك الصالح إسماعيل، وأزال اسمه من السكة في بلاده، ومع ذلك، لم يشعر أنه يمتلك من القوة ما يكفي لمواصلة القتال[٣].

ومن جهتهم فإن الزنكيين في حلب مالوا إلى الصلح بعدما أعياهم طول مدة الحصار. ونتيجة للمباحثات التي جرت بين الجانبين تقرَّرت الهدنة التي قضت بأن:

---

(١) البنداري: ص ١٨٧. أبو شامة: جـ ١ ص ٦٣٧ ـ ٦٣٨.

(٢) نوري: ص ١٦٨.

(٣) البنداري: ص ١٨٨. ابن شداد: ص ٩٤. ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٣٣. ابن خلكان: جـ ٢ ص ٩٤. Grousset: II, P. 626.

ـ يحتفظ صلاح الدين بما في يده من مدن بلاد الشام، وتضاف إليه بعض المدن في شمالي حماة مثل المعرة وكفرطاب.

ـ يحتفظ الزنكيون بما في أيديهم[١].

وبعد توقيع الاتفاق رحل صلاح الدين عن حلب في (شهر شوال عام ٥٧٠ هـ/ شهر أيار عام ١١٧٥ م).

ساعد الانتصار الذي حقَّقه صلاح الدين في قرون حماة، وتشدُّد الزنكيين في مواقفهم، إلى تبديل سياسته العامة تجاه هؤلاء، فتخلَّى عن تبعيته للصالح إسماعيل. فبالإضافة إلى أنه قطع الخطبة له، وأزال اسمه عن السكة في الأماكن الخاضعة لحكمه، فقد تلقَّب بلقب «ملك مصر والشام». وقد أقرَّ الخليفة العباسي في بغداد المستضيء بأمر الله هذا الوضع الجديد وأرسل إليه الخلع[٢].

والواقع أنه لم يكن أمام صلاح الدين، بعد رفض الزنكيين لكل محاولة للتفاهم، إلا أن يتحلَّل من هذا الولاء. وفي هذه الظروف، لم يجد مبرراً لعدم الإقدام على أن يتلقَّب بلقب ملك.

على أنه إذا كان الملك الصالح إسماعيل قد قَبِل، بحكم صغر سنه، سياسة الأمر الواقع، فإن سيف الدين غازي الثاني لم يستطع السكوت عما فعله صلاح الدين الأيوبي، وخشي أن يبلغ النبأ أخاه عماد الدين زنكي الثاني فيقوى ساعده. وحتى يتفرغ لهذه القضية صالح أخاه، ورفع الحصار عن سنجار[٣]، واستاء عندما علم بحصوله على تشريف من الخليفة بتقليده مصر وبلاد الشام، والسماح له بسك النقود باسمه، ودفعه استياؤه إلى التفكير بالانتقام.

معركة تل السلطان

وضع سيف الدين غازي الثاني خطة عسكرية تتيح له تطويق صلاح الدين، وتضمن له الفوز في المعركة التي قرَّر خوضها ضده، فتحرك على أربعة محاور:

---

(١) ابن شداد: ص ٩٤. ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ١٣٣. البنداري: ص ١٩١ ـ ١٩٢.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه.

الأول: عتب على أمراء حلب لتسرعهم في إبرام الصلح، وحرَّضهم على نقضه، ودعاهم إلى مشاركته في التصدي لصلاح الدين، وإرغامه على الخروج من بلاد الشام، فاستجابوا له(١).

الثاني: حاول الوقوف على نوايا صلاح الدين ليتخذ الموقف المناسب فأرسل رسولاً إلى دمشق للاجتماع به بحجة طلب الموادعة، وأخذ العهد له، أما المهمة الحقيقية فهي التضليل وكشف نوايا الزعيم الأيوبي(٢).

الثالث: حاول الاستعانة بالصليبيين. فأرسل سفارة إلى ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصي على عرش مملكة بيت المقدس يطلب محالفته ومساعدته ضد صلاح الدين(٣).

الرابع: استقطب كلاً من صاحب حصن كيفا وصاحب ماردين، وغيرهما من الأمراء التركمان، كما مال إليه أخوه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار(٤).

أما صلاح الدين، فقد وقف على نوايا سيف الدين غازي الثاني وأمراء حلب حين أخطأ رسوله إليه، فأخرج كتابه إلى هؤلاء الأمراء، فقرأه، واحتاط للأمر(٥)، وحتى يقطع الطريق على صاحب الموصل عقد هدنة مع مملكة بيت المقدس(٦).

وأعدَّ سيف الدين غازي الثاني حملة عسكرية تقدم بها إلى نصيبين في (شهر ربيع الأول عام ٥٧١ هـ/ شهر أيلول عام ١١٧٥ م) في طريقه إلى دمشق. وبعد أن أمضى فصل الشتاء فيها، وانضم إليه أمراء الجزيرة وديار بكر، عبر نهر الفرات عند البيرة، وأضحى في ظاهر حلب وخيَّم على الجانب الغربي منها، وراسل الحلبيين. واستقرت القاعدة بين الجانبين على قتال صلاح الدين الأيوبي.

وقرَّر كمشتكين التعاون مع الصليبيين لإجبار صلاح الدين على القتال على جبهتين حتى يضعف قوته. لذلك أطلق سراح الأسرى الصليبيين في حلب وبخاصة

---

(١) البنداري: ص ١٩٥. ابن واصل: جـ ٢ ص ٣٦.
(٢) البنداري: المصدر نفسه.
(٣) ابن واصل: جـ ٢ ص ٣٦. ابن كثير: جـ ١٢ ص ٢٩٢.
(٤) البنداري: ص ٢٠١. ابن واصل: المصدر نفسه ص ٣٨.
(٥) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣٣٢. ابن العديم: جـ ٢ ص ٥٢٣.
(٦) وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٥٨.

رينولد شاتيون صاحب الكرك، وجوسلين أمير الرها[1] كبادرة حسن نية.

زحفت القوات المتحالفة التي بلغ تعدادها نحو عشرين ألفاً في (شهر رمضان عام ٥٧١ هـ/ شهر آذار عام ١١٧٦ م) نحو دمشق[2]. أما صلاح الدين، فقد تحرَّك باتجاه هذه القوات بعد أن تلقَّى إمدادات من مصرو فعبر نهر العاصي عند شيزر في (شهر شوال/ شهر نيسان)، ومرَّ بقرون حماة حتى وصل إلى تل السلطان.

لم تمض عشرة أيام حتى فاجأه سيف الدين غازي الثاني بعساكره، وقد تفرَّق عسكره وهم يوردون أفراسهم الماء. وكانت فرصة مناسبة للزنكيين للانقضاض عليهم، إلا أنهم فوَّتوا هذه الفرصة حين تردَّد غازي الثاني في المبادرة إلى الهجوم، مؤجلاً اللقاء إلى اليوم التالي. ولما حشد عساكره في صبيحة اليوم التالي (١٠ شوال/ ١٥ نيسان) لشن هجوم على معسكر صلاح الدين، كان الوقت قد فات. واشتبك الطرفان في رحى معركة شديدة، وكاد أول هجوم لقوات غازي الثاني يتكلل بالنجاح، غير أن صلاح الدين قاد ما لديه من قوات احتياطية لرد الهجوم، فحطَّم خطوط خصومه، ولم يحل المساء حتى أضحى سيد الموقف.

ومُني الجيش الزنكي وحلفاؤه بخسارة فادحة، ووقع بعض الأمراء أسرى في يد صلاح الدين، أمثال: فخر الدين عبد المسيح، لكنه منَّ عليهم وأطلقهم[3]، مظهراً مرونة في التفكير السياسي. وقنع سيف الدين غازي الثاني بهذه الهزيمة، وعاد إلى بلاده، ولم يكسب سوى عداوة صلاح الدين، وما خلَّفه من أموال في معسكره عند انسحابه، بذلها صلاح الدين لرجاله على سبيل المكافأة[4]. وبهذا الانتصار الحاسم

---

(١) البنداري: ص ٢٠٢. ابن واصل: جـ ٢ ص ٣٨. ابن كثير: جـ ١٢ ص ٢٩٢. والجدير بالذكر أن ابن الأثير وابن شداد اللذين عاصرا هذه الأحداث لم يذكرا شيئاً عن هذا التعاون مع الصليبيين في هذه المرحلة.

(٢) يذكر ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٣٦. أن جيش الموصل بلغ تعداده ستة آلاف جندي. وقارن بالعماد الأصفهاني في تلخيص البنداري ص ٢٠٢، مع الإشارة إلى أن كلاً من المؤرخين العماد الأصفهاني وابن الأثير يمثلان وجهتي نظر متعارضتين لما كان يدور بين الزنكيين وصلاح الدين من صراع في المرحلة الأولى قبل الوصول إلى اتفاق.

(٣) انظر تفاصيل المعركة عند البنداري: ص ٢٠١ ـ ٢٠٥ حيث شروحات وافية من شاهد عيان (العماد الأصفهاني) حضر هذه المعركة.

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٣٦.

تمهَّد السبيل أمام صلاح الدين لضمِّ حلب ونواحيها، إلا أنه لم يشأ في هذه الآونة أن يلاحق فلول العساكر الزنكية المنهزمة أمامه، ويحاصر حلب، بل اكتفى بالقيام بشن الغارات على خصومه في المنطقة بعد أن سيطرت عساكره على الحصون المحيطة بحلب شمالاً وجنوباً.

نتيجة لهذا التشتُّت في الصف الإسلامي، رأى الطرفان ضرورة الدخول في مفاوضات من أجل قطع الطريق على الصليبيين من الاستفادة من هذا الوضع، وخدمة لمصلحة المسلمين العامة، لذلك قدَّم كل طرف بعض التنازلات للوصول إلى السلام واستقر الرأي على الصيغة التالية:

- أن يكون الجميع يداً واحدة ضد الصليبيين.

- لا يجوز لأحد الأطراف نقض العهد.

- إذا نقض أحد الأطراف العهد أو خالفه، فالباقون يداً واحدة عليه حتى يرجع إلى الوفاق.

- يتنازل صلاح الدين عن طيبة خاطر للملك الصالح إسماعيل عن قلعة عزاز.

وعُقدت الهدنة في (شهر محرم عام ٥٧٢ هـ/ شهر تموز عام ١١٧٦م)[1].

في عهد عز الدين مسعود الأول: ٥٧٦ ـ ٥٨٩ هـ/ ١١٨٠ ـ ١١٩٣ م

وفاة سيف الدين غازي الثاني وتولية عز الدين مسعود الأول حكم الموصل

أخذ تطور الأحداث في الموصل مساراً شدَّ مجدداً اهتمام صلاح الدين. ذلك أن سيف الدين غازي الثاني توفي في (الثالث من شهر صفر عام ٥٧٦ هـ/ أول شهر تموز عام ١١٨٠ م)، فدخلت الموصل في دوامة الصراع على البديل. فقد أراد سيف الدين غازي الثاني أن يعهد بالملك، من بعده إلى ابنه معز الدين سنجر شاه البالغ اثنتي عشرة سنة، إلا أنه خشي على الدولة من بعده من طموحات صلاح الدين بفعل صغر سن ولده، كما أن أخاه عز الدين مسعود عارض هذا التوجه، ورفض الإذعان

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٣٧. البنداري: ص ٢١٧ ـ ٢١٨. أبو شامة: جـ ١ ص ٢٦١. ابن واصل: جـ ٢ ص ٤٦.

لهذه الإرادة، بحجة أنه أحق بخلافة أخيه[1]، وأيّده أمراء الموصل، وبخاصة مجاهد الدين قايماز الذي أوضح لغازي الثاني المخاطر التي ستواجهها الإمارة الزنكية من جراء تولية صبي في الوقت الذي تزداد فيه قوة صلاح الدين في بلاد الشام. ولا شك بأن الخوف من تزايد نفوذ صلاح الدين كان العامل الأساسي الذي دفع هؤلاء الأمراء إلى اختيار عز الدين مسعود بدلاً من سنجر شاه الذي لم تتوفر فيه القدرة على الصمود أمام التيارات العنيفة[2].

اقتنع سيف الدين غازي الثاني بوجهة نظر أمرائه وأوصى لأخيه عز الدين مسعود الأول بالحكم من بعده، وأعطى ابنه سنجر شاه جزيرة ابن عمر وقلاعها ومنح ابنه الآخر ناصر الدين قلعة الحميدية، ونصَّب قايماز مدبراً للدولة[3].

حافظ عز الدين مسعود الثاني على عهد أخيه مع صلاح الدين، فأرسل إليه الشيخ الفقيه فخر الدين أبا شجاع بن الدهان البغدادي للتباحث معه حول:

- استمرار العلاقات الجيدة بينهما.

- إبقاء سيادة الموصل على مدن الجزيرة التي ضمَّها غازي الثاني عقب وفاة نور الدين محمود، وهي سروج والرها والرقة وحرَّان ونصيبين والخابور.

غير أن صلاح الدين رفض الموافقة على البند الثاني لأن هذه الأقاليم داخلة في حوزته بموجب التخويل العام الذي منحه إياه الخليفة ليتصرف فيها وفق ما يراه من مصلحة المسلمين، وأنه لم يتنازل عنها إلا مقابل إمداده بالعساكر، وأنه الآن بحاجة إلى قوات هذه الأقاليم في حملاته ضد الصليبيين[4]. وحتى يثبِّت حكمه فيها كتب إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يطلب منه أن يمنحه تفويضاً خاصاً بحكمها ليقوِّي بها ثغور المسلمين في بلاد الشام، فاستجاب الخليفة لطلبه وأرسل إليه التفويض والتقليد والتشريف في (شهر رجب عام ٥٧٦ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٨٠ م)[5].

---

(١) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ١٥٠. الباهر: ص ١٨٠ ـ ١٨١.
(٢) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣٦٤.
(٣) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ١٥٠.
(٤) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣٦٥.
(٥) البنداري: ص ٣٥٢ ـ ٣٥٤.

الوضع السياسي في حلب عقب وفاة الملك الصالح إسماعيل

اكتمل الانشقاق بين صاحب الموصل وصلاح الدين عقب وفاة الملك الصالح إسماعيل في (شهر رجب عام ٥٧٧ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٨١ م). وشدَّت التطورات السياسية التي حصلت في حلب اهتمام صلاح الدين؛ ذلك أن صاحب حلب أوصى قبل وفاته بأن يخلفه ابن عمه عز الدين مسعود الأول، صاحب الموصل، على أن يوحِّد الأسرة الزنكية لمناهضة صلاح الدين[1]. ويبدو أنه صادف معارضة من قبل بعض الأمراء الذين أشاروا عليه بأن يوصي لعماد الدين زنكي، صاحب سنجار، من بعده بحجة أنه أحق بالملك؛ فهو ابن عمه وصهره، زوج أخته، لكن الصالح إسماعيل كان له رأي آخر في عماد الدين زنكي، فهو لا يملك من الإمكانات العسكرية ما يكفل له المحافظة على التراث الزنكي من أطماع صلاح الدين، والوضع في نظره، يختلف بالنسبة لعز الدين مسعود الأول نظراً «لكثرة عساكره وبلاده وأمواله، فيستطيع أن يحفظها من صلاح الدين ويُبقي على البيت الزنكي»[2]. وبعبارة أخرى، فقد أراد الصالح إسماعيل أن يجعل من الموصل وحلب جبهة واحدة تقف في وجه صلاح الدين.

اقتنع الأمراء برأي الصالح إسماعيل، فاستدعوا، بعد وفاته، عز الدين مسعود الأول إلى حلب ليتسلم الحكم. والواقع أن صاحب الموصل لم يتردد في القبول، وحتى يفوِّت الفرصة على صلاح الدين من أن يضمَّ حلب إلى أملاكه أسرع إلى المدينة، فوصل إليها في (شهر شعبان عام ٥٧٧ هـ/ آخر شهر كانون الأول عام ١١٨١ م)، وتسلم الحكم. وشملت الجزيرة وشمالي بلاد الشام حتى دمشق موجة عارمة من الولاء للبيت الزنكي، بدليل أن تقي الدين عمر، ابن أخ صلاح الدين، وصاحب منبج، خشي على نفسه عندما علم بتوجه مسعود الأول إلى حلب، فغادر مقر إمارته إلى حماة، فثار أهلها في وجهه ونادوا بشعار عز الدين مسعود الأول[3].

وبعد استقراره في حلب، أشار عليه بعض الأمراء بمهاجمة دمشق، وأطمعوه في بلاد الشام بفعل ميل أهلها إلى بيت زنكي، إلا أن عز الدين مسعود الأول أبى أن يمضي في ذلك متمسكاً باليمين التي كانت بين الزنكيين وصلاح الدين في عام

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٥٣. ابن شداد: ص ٩٩. ابن العديم: جـ ٢ ص ٥٣٨.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه. ابن واصل: جـ ٢ ص ١٠٧ ـ ١٠٨.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ١٥٤. ابن العديم: جـ ٢ ص ٥٣٩.

(٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م)[١]، مفوِّتاً فرصة ذهبية لتحقيق وحدة الصف الإسلامي حيث كان شعور الولاء للزنكيين لا يزال واضحاً، وبخاصة أن صلاح الدين كان لا يزال آنذاك في مصر.

تسليم حلب إلى عماد الدين زنكي الثاني

توافر لعز الدين مسعود الأول، في هذا الوقت، من الدوافع ما يكفي لإزعاجه وتنازله عن حلب. ذلك أن البيت الزنكي تعرَّض للانقسام مرة أخرى. فقد طمع عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار في أن تؤول إليه حلب بعد وفاة الصالح إسماعيل، واستاء حين انضوت في ملك أخيه عز الدين مسعود الأول، فأرسل إليه يطالبه بنصيبه من الإرث وهو حكم حلب بدلاً من سنجار، لكن هذا الطلب قوبل بالرفض، فثار عندئذ عماد الدين زنكي الثاني على حكم أخيه، وسانده مظفر الدين كوكبوري، قائد جيش حلب، وهدَّد أخاه بتسليم سنجار إلى صلاح الدين إن أصرَّ على رفضه، وكان لهذا التهديد من الأثر ما دفع عز الدين مسعود الأول إلى أن يتراجع عن موقفه تجنباً للمخاطر التي قد تهدد الدولة الزنكية، إذا تدخل صلاح الدين في شؤونها، وامتلك سنجار، فتصبح عندئذ ديار الموصل والجزيرة تحت رحمته، بالإضافة إلى ذلك، فقد أشار عليه بعض أمرائه، وعلى رأسهم مجاهد الدين قايماز، بالموافقة على ذلك ـ وكان هذا الأمير يخشى من تصاعد نفوذ عز الدين مسعود الأول بعد أن ضمَّ حلب إلى أملاكه، وكان ذا نفوذ واسع في الموصل ـ فاضطر عز الدين مسعود الأول عندئذ للرضوخ، وتنازل في (شهر محرم عام ٥٧٨ هـ/ شهر أيار عام ١١٨٢ م) عن حلب لأخيه مقابل تنازل هذا الأخير له عن سنجار، وظفر كوكبوري بإمارة حرّان على سبيل المكافأة[٢].

هذ رواية ابن الأثير في قضية التنازل والتبادل التي تمَّت بين الأخوين عز الدين مسعود الأول وعماد الدين زنكي الثاني، غير أن للمؤرخين الآخرين رأي آخر، فذكروا أن التبادل تمَّ بين الأخوين عن رضا وبدون ضغط من أحد. وفي رواية لابن أبي طي، وهو مؤرخ معاصر أيضاً، أن كوكبوري أقدم على محاولة الاستيلاء على حلب بعد رحيل مسعود الأول عنها، فلما بلغه ذلك قرَّر أن يسلم المدينة إلى

---

(١) ابن العديم: جـ ٢ ص ٥٣٩. ابن كثير: جـ ١٢ ص ٣٠٩.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٥٤. ابن العديم: المصدر نفسه. ص ٥٣٩ ـ ٥٤٤.

أخيه عماد الدين زنكي الثاني لإدراكه بأنه لن يتمكن من الإشراف عليها لبعدها عن الموصل[1].

والراجح أن الأسباب التي دفعت عز الدين مسعود الأول إلى هذا التصرف هي:

- كانت الساحة السياسية الزنكية مشحونة بأجواء النزاعات الأُسرية، بالإضافة إلى صراع الأمراء على النفوذ، والنزاع مع صلاح الدين.
- أدرك عز الدين مسعود الأول مدى ما قد تتعرض له الدولة الزنكية في كل من الموصل وحلب من أخطار إذا جدَّد صلاح الدين تدخله في شؤونها الداخلية، وإذا امتلك سنجار، تصبح ديار بكر، والموصل والجزيرة تحت رحمته.
- وجد عز الدين مسعود الأول صعوبة في الجمع بين حكم الموصل وحلب والمحافظة عليهما تجاه توثب صلاح الدين الذي كان يسعى جاهداً لضمِّ حلب.
- ما زال أمراء حلب، الذين ساندوا مسعوداً الأول، يلحُّون عليه لزيادة إقطاعاتهم وأموالهم ثمناً لدعمهم له، حتى ضاق بهم.

ومهما يكن من أمر، فإن صاحب الموصل أبدى ارتياحاً لهذا الاتفاق الذي يحول بين صلاح الدين وبين تدخله في شؤون الزنكيين، ويضمن في الوقت نفسه انضواء أخيه إلى جانبه.

النزاع بين عز الدين مسعود الأول وصلاح الدين الأيوبي

تمهيد

دفعت التطورات السياسية التي شهدتها بلاد الشام والجزيرة والموصل، بعد وفاة الصالح إسماعيل، صلاح الدين إلى مغادرة مصر والتوجه إلى الشرق ليكون على مقربة من الأحداث الجارية والتدخل عندما تقضي الظروف ذلك. وعدَّ تصرف عز الدين مسعود الأول، فيما يتعلق بسياسته في حلب، نقضاً للمعاهدة المبرمة بين الطرفين، لأن هذه المدينة وما جاورها من قلاع هي تابعة له بحكم تفويض الخليفة، مما يؤدي إلى القضاء على مشروع الوحدة الإسلامية الذي يسعى لتحقيقه. لذلك

---

(1) ابن شداد: ص ١٠٠. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣٦٧. ابن واصل: جـ ٢ ص ١٠٩. أبو شامة: جـ ٢ ص ٣٠.

عمد إلى اتخاذ عدة إجراءات لفك ارتباط حلب بما حولها من القلاع والحصون القريبة، منها:

- طلب من ابن أخيه تقي الدين عمر، صاحب حماة، ومن نوابه في بلاد الشام، أمثال الأمير عبد الرحمن بن أنر صاحب الرواندان، يأمرهم بالاستعداد والتأهب للقتال لضمِّ مناطق غربي الجزيرة بهدف منع عبور جيش الموصل نهر الفرات.

- عمل على كسب تأييد الخلافة العباسية، والقيام بحملة إعلامية لتوضيح تواطؤ عز الدين مسعود الأول مع الصليبيين، فكتب رسالة إلى الخليفة الناصر لدين الله يشرح فيها بلاءه في الإسلام وجهاده، وما قدَّمه من أعمال جليلة للخلافة العباسية، وأوضح دوره في إسقاط الخلافة الفاطمية، وإعادة مصر إلى النفوذ العباسي، مبيناً سوء الأوضاع في بلاد الشام، وتعرُّض حارم لهجوم الصليبيين، وغدْر عز الدين مسعود الأول صاحب الموصل، واعتداء عسكر حلب على أملاكه، واستنجاد الحلبيين بالصليبيين، ومراسلتهم الحشيشية بهدف التعاون معهم ضد الوحدة الإسلامية التي يسعى جاهداً لتحقيقها، ولم ينسَ أن يذكر له بأن الخليفة العباسي قلَّده حلب وأعمالها، وأنه لم يتركها إلا من أجل نور الدين محمود، ولا يسعه الآن إلا أن يطالب بحقه، وقد عبَّر عن ذلك بقوله: «والآن فليرجع كل ذي حق إلى حقه ليقنع برزقه»[1].

ومهما يكن من أمر، فقد أدرك صلاح الدين أن الوقت قد حان للتوجه إلى بلاد الشام لحماية إنجازاته التي حقَّقها، فجمع الجيوش واستكثر من السلاح، ثم غادر القاهرة في (شهر محرم عام ٥٧٨ هـ/ شهر أيار عام ١١٨٢ م)[2].

ومن جهته، فقد تحرك عز الدين مسعود الأول عندما علم بخروج صلاح الدين، باتجاه الصليبيين لاستقطابهم، وحثَّهم على التصدي لصلاح الدين، وحرَّضهم على مهاجمة الثغور الإسلامية الخاضعة لحكمه، ليشغله عن قصد بلاده، فتحقَّق صلاح الدين عندئذ من غدر صاحب الموصل، وقرَّر أن يولي اهتمامه لأمور شمالي الشام وأعالي العراق، ويمَّم وجهه شطر حلب والموصل، وقبل أن يقترب من المدينة

---

(١) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣٦٧. ابن واصل: جـ ٢ ص ١١٠ ـ ١١٢.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٥٥. ابن شداد: ص ١٠١.

الأولى انضم إليه مظفر الدين كوكبوري صاحب حرّان، وأشار عليه بعبور الفرات لضمِّ البلاد الواقعة في شرقه قبل التوجه إلى حلب حتى لا تشغله عن غيرها، ووعده بالمساعدة. والجدير بالذكر أن كوكبوري كان على خلاف مع صاحب الموصل ونائبه قايماز الذي كان قد أقصاه عن ولاية إربل[١].

وكان أن اتجه صلاح الدين إلى حلب لضمِّها متحصناً ببراءة الخليفة وحاصرها مدة ثلاثة أيام في شهر (جمادى الأولى/ أيلول) رحل بعدها إلى الموصل لانتزاعها من آل زنكي. وقد فضَّل ضمَّ بلاد الجزيرة والحصون المجاورة لها تمهيداً لدخوله إلى حلب بسلام بعد أن يدفعها إلى الاستسلام.

ونظراً لرغبته في العمل على توحيد بلاد الشام والجزيرة من أجل مقاومة الصليبيين، وتجنباً لكل اصطدام مسلح مع المسلمين، الذي من شأنه أن يعيق تحقيق هذه الرغبة، فقد أصدر قراراً بالعفو العام عن جميع المسلمين الذين يرغبون العمل معه في محاربة الصليبيين شرط أن تكون القيادة له[٢]، فاستجاب له الأمير نور الدين بن قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق، صاحب حصن كيفا، في حين امتنع عليه الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني أمير الرها[٣]، فاضطر إلى استعمال القوة لضمِّ مدن الجزيرة التي هوت أمامه وهي: الرها وسروج ونصيبين والرقة والخابور وقرقيسياء[٤]، وماكسين[٥] وعَرَبان[٦]، وقلعة رأس العين والشمسانية[٧] وغيرها. وبعد أن تمَّ له أمر السيطرة عليها أجرى بعض الترتيبات الإدارية فيها، فأقطع الرها لكوكبوري، وولَّى حسام

---

(١) كانت حران تابعة أساساً لإمارة الموصل، أقطعها غازي الثاني إلى مظفر الدين كوكبوري تعويضاً له عن خسارته مدينة إربل التي كانت إقطاعاً لآبائه، وانتزعها منه مجاهد الدين قايماز. فانتقل كوكبوري إلى حران واستقر بها. ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٥٦.

(٢) ابن واصل: جـ ١ ص ١١٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٤) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ، وعندها مصب الخابور في الفرات. الحموي: جـ ٤ ص ٣٢٨.

(٥) ماكسين: بلد بالخابور قريب من رحبة مالك بن طوق من ديار ربيعة. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٤٣.

(٦) عَرَبان: بليدة بالخابور من أرض الجزيرة. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٩٦.

(٧) الشمسانية: بليدة بالخابور. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٣٦٢.

الدين أبا الهيجاء السمين مدينة نصيبين، ومنح الخابور جميعه لجمال الدين خوشترين[1].

الحصار الأول للموصل

نجح صلاح الدين في ضمِّ ديار مضر كلها، وتكوين حلف مناهض لإمارة الموصل، ولم يبقَ أمامه سوى التوجه إليها لإخضاعها. والواقع أن الموصل كانت آنذاك مركزاً معادياً له في المنطقة، وشكَّلتْ مصدر قلق، وحجر عثرة في سبيل تحقيق أهدافه ومشاريعه. فرأى أنه لا بد من إخضاعها أو على الأقل ضمان تأييدها له وتحالفها معه. وأدرك أنه لا يمكنه أن يباشر جهاده ضد الصليبيين إلا إذا أمَّن المركز الذي يحمي ظهره، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بضمِّ الموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر.

ونتيجة لنجاح صلاح الدين وانتصاراته السريعة، خشي عز الدين مسعود الأول على ممتلكاته، فجمع جيشاً وتقدم به إلى نصيبين للدفاع عن حلب في حال تعرضت لهجوم من صلاح الدين. غير أن عبور هذا الأخير نهر الفرات قطع عليه خطوط رجعته، فاضطر للعودة إلى الموصل.

وصل صلاح الدين في (شهر رجب عام ٥٧٨ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٨٢ م) إلى الموصل، وضرب عليها حصاراً مركزاً، ثم ما لبث أن هاجمها، لكنه لم ينلْ منها، واستعصت عليه بسبب مناعتها ومتانة أسوارها، وبفضل الاستعدادات الضخمة التي نفَّذها عز الدين مسعود الأول ونائبه قايماز[2]. وقام صلاح الدين، أثناء الحصار، بجولة استطلاعية حول المدينة، تأكد له استحالة اقتحامها.

وتحرك عز الدين مسعود الأول، في غضون ذلك، يلتمس الحلفاء لمقاومة الضغط الأيوبي. فأرسل القاضي بهاء الدين بن شداد إلى بغداد ليشرح للخليفة الناصر لدين الله ما آلت إليه الأوضاع في منطقة الجزيرة، ويطلب منه العمل على ردِّ صلاح الدين عن بلاده[3]. وفعلاً تحرك الخليفة العباسي، فأرسل إلى صدر الدين شيخ الشيوخ، الذي

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٥٧. ابن شداد: ص ١٠١ ـ ١٠٢.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه.
(٣) ابن شداد: ص ١٠٢. ابن واصل: جـ ٢ ص ١٢٢.

يرافق صلاح الدين يأمره بالتوسط في الصلح بين الطرفين[١].

والتمس عز الدين مسعود الأول مساعدة كل من بهلوان بن إيلدكز، أتابك همذان، وقزل أرسلان، صاحب أذربيجان، وشاه أرمن بكتمر بن سقمان، صاحب خلاط. أما بهلوان فقد عرض شروطاً قاسية على صاحب الموصل للتعاون معه، رفضها عز الدين مسعود الأول، وكذلك فعل قزل أرسلان، بينما أرسل صاحب خلاط رسلاً إلى صلاح الدين يطلب منه الكفَّ عن مهاجمة الموصل[٢].

وعلى الرغم من أن صلاح الدين ردَّ على رسل شاه أرمن، إلا أن كل هذه التطورات دفعته إلى إعادة النظر بخططه القاضية بضمِّ الموصل بالقوة المسلحة، ومال إلى استعمال الدهاء والحيلة. ويبدو أنه وجد نفسه في موقف حرج، وخشي أن يفقد مكانته كمجاهد في سبيل الإسلام بسبب ظهوره بمظهر الطامع في دولة الموصل.

والراجح أن جوهر الموضوع في المباحثات التي جرت بينه وبين صاحب الموصل، لم يكن بأي حال من الأحوال قائماً على دعواه في امتلاك الموصل، إنما تمحور حول الشروط التي بمقتضاها ينحاز أمير الموصل إليه، ويسانده بجيوشه في الجهاد ضد الصليبيين[٣]، لذلك، حاول أن يدعم موقفه بطلب التأييد من الخليفة، فأرسل إليه رسالة يتهم فيها عز الدين مسعود الأول بأنه عقد صلحاً مع الصليبيين[٤]، وربما أراد أن يحصل منه على تفويض بتخويله سلطة عليا على بقية الأمراء المسلمين في منطقة الجزيرة.

ومن جهته، طلب عز الدين مسعود الأول إعادة البلاد التي كانت تابعة لحكمه، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك إنما اشترط عليه تسليمه مدينة حلب، فرفض عز الدين مسعود الأول هذا الشرط. عند ذلك طلب صلاح الدين منه الامتناع عن مساعدة أخيه عماد الدين زنكي صاحب حلب، فرفض عز الدين مسعود الأول خيانة أخيه، وحرص على التمسك بسيادته على حلب، وأعلن عن استعداده لمساعدته حين يتعرض لخطر من الأخطار، وقال: «هو أخي وله العهود والمواثيق ولا يسعني

---

(١) ابن شداد: ص ١٠٢.

(٢) ابن شداد المصدر نفسه: ص ١٠٣.

(٣) جب: صلاح الدين الأيوبي: ص ١٣٦. العريني: ص ٦٥.

(٤) أبو شامة: جـ ٢ ص ٣١.

نكثها»[1]، لذلك، لم يتوصل الجانبان إلى حلول إيجابية، وظلَّت الرسل تتردد بينهما دون نتيجة[2].

استكمال ضمِّ إقليم الجزيرة

ضمُّ سنجار

لم يكن أمام صلاح الدين إلا أن يمضي قدماً في تحقيق أهدافه، فرأى أن يستكمل ضمَّ إقليم الجزيرة، وأخطر الخليفة العباسي بذلك، مدركاً أن استسلام الموصل لا يتحقق إلا عن طريق حصارها الشديد والسيطرة على القلاع المجاورة لها التي تمونها بما تحتاج إليه، بالإضافة إلى فصلها عن حلب. وكانت سنجار هي المدينة التي توفر له هذه السياسة، لذلك فكَّ الحصار عن الموصل وتوجه إلى سنجار في (١٦ شعبان ٥٧٨ هـ/ ١٥ كانون الأول ١١٨٢ م). لكن حاكمها شرف الدين أمير أميران، أخا عز الدين مسعود الأول، امتنع عن تسليمها له، فاضطر إلى حصارها والتضييق عليها، وتمكَّن من دخولها عنوة بعد خمسة عشر يوماً[3].

أثارت هذه القضية حفيظة أمراء الجزيرة، فتنادوا إلى عقد حلف موجه ضد سياسة صلاح الدين التي تهدِّد أمن الإقليم، وقد ضمَّ الحلف، بالإضافة إلى عز الدين مسعود الأول، ظهير الدين، أتابك خلاط، وقطب الدين بن نجم الدين ألبي، صاحب ماردين، ودولة شاه، صاحب بدليس[4] وأرزن[5].

خرج الحلفاء ليوقفوا صلاح الدين عند حده، وعسكروا في حرزم[6] من أعمال ماردين. ومن جهته، توجه صلاح الدين إلى رأس العين لملاقاتهم. ويبدو أن الحلفاء خشوا الدخول في معركة معه فتفرقوا عائدين إلى بلادهم[7].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٥٨.

(٢) ابن واصل: جـ ٢ ص ١٢٢.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٥٨ ـ ١٥٩. ابن واصل: المصدر نفسه. ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٤) بدليس: بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط. الحموي: جـ ١ ص ٣٥٨.

(٥) ابن الاثير: جـ ٩ ص ١٥٩. ابن العبري: تاريخ الزمان ص ١٩٩. وأرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط الحموي. المصدر نفسه جـ ١ ص ١٥٠.

(٦) حرزم: بلدة صغيرة في واد ذات نهر وبساتين بين ماردين ودنيسر من أعمال الجزيرة. الحموي: جـ ٢ ص ٢٤٠.

(٧) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٥٩. وقارن بابن العبري: ص.١٩٩.

وبذلك أخفق عز الدين مسعود الأول في مسعاه بإخراج صلاح الدين من منطقة الجزيرة على الرغم من تأييد بعض أمرائها له، وشعر بضعف نفوذه فيها، ولم يعد له من القوة ما يكفي لعرقلة مشاريعه وبخاصة فيما يتعلق بالموصل.

ضمُّ آمد

استغل صلاح الدين تفرق خصومه، وضعفهم، فتقدَّم إلى آمد، بعد أن استأذن الخليفة الناصر لدين الله، لمهاجمتها، فأذن له. وكان نور الدين محمد، صاحب حصن كيفا، يلحُّ عليه بمهاجمتها، والاستيلاء عليها، وتسليمها إليه وفقاً للاتفاق الذي تمَّ بينهما.

وصل صلاح الدين إلى آمد في (١٧ ذي الحجة عام ٥٧٨ هـ/ ١٥ نيسان ١١٨٣ م) وضرب الحصار عليها. وكان حاكمها محمد بن إيلدكز ضعيفاً لا يملك من السلطة إلا اسمها. أما حاكمها الفعلي فكان بهاء الدين بن نيسان الذي اتصف بالشحِّ، وسوء السيرة. فمنع الذخائر والأموال عن أهل البلد، وأرسل صلاح الدين في غضون ذلك الرسائل إلى كبار أمراء آمد يعدهم ويمنِّيهم، ويتهددهم إن هم أصرُّوا على القتال.

أدَّت هذه الظروف التي أحاطت بالسكان إلى التخاذل، والتهاون في الدفاع، فاضطر ابن نيسان إلى طلب الأمان له ولأهله، وأن يمنحه صلاح الدين ثلاثة أيام لنقل أمواله وذخائره. وبعد انقضاء هذه المدة تسلمها صلاح الدين في (١٠ محرم عام ٥٧٩ هـ/ ٦ أيار عام ١١٨٣ م)، ومنحها وأعمالها إلى نور الدين محمد، وأمره «بإقامة العدل، وقمع الجور، وأن يكون سامعاً مطيعاً للسلطان من معاداة الأعداء، ومصافاة الخلاّن في كل وقت، وأنه متى استمد آمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان»[١].

ضمُّ حلب

أضحى صلاح الدين بعد تمكُّنه من مناطق الجزيرة مجاوراً لإمارة حلب فقرَّر أن

---

(١) الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه صاحب حماة: مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص ١٣٦ ـ ١٣٩.

يضمَّها إلى أملاكه قبل إخضاع الموصل. وكان أمراء الأطراف قد طلبوا الأمان منه كان من بينهم صاحب ماردين. فأجابهم إلى طلبهم، ثم عبر الفرات قاصداً مدينة حلب، فضمَّ في طريقه تل خالد وعينتاب، وهما من أعمال حلب. وبذلك ضيَّق الخناق على المدينة، وأضحى الطريق مفتوحاً أمامه لدخولها.

ولما طال الحصار الذي بدأ في (٢٦ محرم/ ٢٣ أيار)، وكثرت النفقات اليومية على الجند، أدرك عماد الدين زنكي الثاني أن أمواله لا بد نافذة، وهو الذي اشتهر بالشحِّ، مما دفعه إلى التهاون في الدفاع عن حلب، وإلى الاقتصاد في النفقات، وعندما طالبه الجند بالمزيد من الأموال لسد نفقات الدفاع، اعتذر بقلَّة المال عنده، فانصرفوا عنه.

عندئذ اضطر إلى فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين لتسليمه المدينة، وتولى الأمير حسام الدين طومان الوساطة بينهما، وانتهت هذه المفاوضات على الأسس التالية:

- يتنازل عماد الدين زنكي الثاني عن حلب لصلاح الدين.
- يمنح صلاح الدين، عماد الدين زنكي الثاني، سنجار، والخابور، ونصيبين وسروج.
- يُمنح حسام الدين طومان الرقة.
- يضع عماد الدين زنكي الثاني، قواته العسكرية بتصرف صلاح الدين متى طلب منه ذلك.

ودخل صلاح الدين مدينة حلب بعد إبرام الصلح في (١٧ صفر/ ١٨ حزيران) وسط ترحيب السكان[1].

الحصار الثاني للموصل

ترتب على ضمِّ حلب إلى ممتلكات صلاح الدين، أن قوي مركزه، وازدادت الجبهة الإسلامية تماسكاً، واشتدت مخاوف الصليبيين الذين عدُّوا هذا الحدث من بين أعظم النكبات التي حلَّت بهم، وذلك لقرب حلب من ممتلكاتهم، وبخاصة إمارة

---

(١) الأيوبي: ص ١٤١ ـ ١٤٢. ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٦١ ـ ١٦٣. ابن واصل: جـ ٢ ص ١٤٢. ابن العديم: جـ ٢ ص ٥٥١ ـ ٥٥٧.

أنطاكية، بالإضافة إلى أنها أكَّدت الروابط السياسية والعسكرية بين محور مصر ـ بلاد الشام، وغدت ممتلكاتهم في بلاد الشام محصورة داخل هذا المحور[1]، فالتمس بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية الأمان، فمنحه إياه صلاح الدين ريثما يفرغ من استكمال خططه بتوحيد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى[2].

التفت صلاح الدين بعد ذلك إلى الموصل في محاولة أخرى لضمِّها. وعلى الرغم من أنه وجَّه عدة رسائل إلى بغداد يوضِّح حاجته بالحصول على تقليد بإمارة الموصل، إلا أن غايته لم تتحقق، وكل ما استطاع الحصول عليه هو تقليد بإمارة آمد في ديار بكر[3].

والسؤال الذي يمكن أن يُطرح في شأن توحيد القوى الإسلامية، هو: لماذا لم يمنح الخليفة صلاح الدين تقليداً بالموصل؟.

الواقع أن هذه القضية وحدها تُعدُّ العقبة الأساسية في سبيل توحيد كلمة المسلمين في الشرق الأدنى، واستعادة بيت المقدس، من وجهة نظر صلاح الدين، بل من وجهة النظر الإسلامية العامة، وأن إصراره على ضمِّ إقليم الجزيرة والموصل إلى ممتلكاته ليس له من سبب سوى أنه رأى أن سيطرته على هذه المناطق ذات القدرات الطبيعية والبشرية الهائلة ليست إلا خطوة تمهيدية ينفذ من خلالها إلى الشرق الإسلامي «فهي حد التقسيم، ومركز المقاومة. فإذا اتخذت موقعها السليم في سلسلة المحالفات التي جرت، ازدادت قوة المسلمين، واجتمعت للاشتباك مع العدو»[4].

ساد بين الزنكيين في الموصل وصلاح الدين شيء من التباعد بعد ضمِّ حلب نظراً لانهماك كل جانب ببعض المشاكل الداخلية. فقد أقدم عز الدين مسعود الأول على تغيير وزيره قايماز متأثراً بوشاية بعض أمرائه، وعلى رأسهم عز الدين محمود زلفندار، الذي تولى منصب الأتابكية بدلاً منه، وقبض عز الدين مسعود الأول على وزيره وسجنه وصادر أمواله.

أثار هذا التبديل غضب حكام إربل وجزيرة ابن عمر وشهرزور ودقوقا وقلعة

---

(١) Grousset: II, P. 729. Stevenson: P. 230.

(٢) ابن واصل: جـ ٢ ص ١٤٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٤) العريني: ص ٦٦ ـ ٦٧.

عقر الحميدية الذين تربطهم بقايماز علاقة حسنة بفعل أن هذه المناطق داخلة في إقطاعه، لذلك رفضوا التعاون مع عز الدين مسعود الأول، وخرجوا على طاعته. واستنجد كل من صاحب إربل وصاحب جزيرة ابن عمر بصلاح الدين الذي لم يتردَّد في الاستجابة، وضمَّ هاتين المدينتين، كما ضمَّ الخليفة الناصر لدين الله دقوقا بالقوة. وبذلك لم يبقَ بيد عز الدين مسعود الأول من أملاك قايماز سوى شهرزور وقلعة عقر الحميدية[1].

وبهذا التصرف اللامسؤول ساهم صاحب الموصل في التعجيل بتدمير دولته. إذ فقدت الدولة الزنكية بضياع تلك الأماكن الثلاثة نفوذها في الوقت الذي كانت فيه بأمس الحاجة إلى تدعيم هذا النفوذ وتقوية مركزها في الجزيرة والموصل[2].

ورأى عز الدين مسعود الأول نفسه عاجزاً عن مجاراة تطور الأحداث فمال إلى السياسة، وأرسل القاضي بهاء الدين بن شداد إلى الخليفة العباسي يطلب منه التوسط من جديد في الصلح بينه وبين صلاح الدين[3]. مال الخليفة إلى تلبية طلبه، فأرسل شيخ الشيوخ وبشير الخادم، ومحي الدين الشهرزوري الذي مثَّل صاحب الموصل، والقاضي ابن شداد، إلى دمشق للتفاوض مع صلاح الدين لحلِّ المشاكل القائمة بينه وبين عز الدين مسعود الأول[4].

وقد تعثَّرت المفاوضات، ثم توقفت لأن صلاح الدين اشترط أن يكون لأميري إربل وجزيرة ابن عمر حرية الاختيار في الانضمام إليه أو إلى صاحب الموصل، وهذا ما رفضه ممثل مسعود الأول الذي تمسَّك بتبعيتهما لصاحب الموصل، وأصرَّ على ذكر اسميهما في نسخة الصلح، «ورجعت الرسل بغير ظفر بطائل»[5].

أدرك عز الدين مسعود الأول الذي أوقع نفسه في هذا المأزق، بحرج موقفه، بفعل الظروف الصعبة التي تمر بها دولته، وندم على ما بدر منه من القبض على قايماز، فقرَّر تدارك الأمر، وأمر بإخراج نائبه من السجن، وأعاده إلى وظيفته،

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٢) الجميلي: ص ١٥٠.
(٣) ابن شداد: ص ١١١ ـ ١١٢.
(٤) المصدر نفسه: ص ١١٢ ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٦٣ ـ ١٦٤، ١٦٧.
(٥) المصدران نفساهما: ابن واصل: جـ ٢ ص ١٥٣ ـ ١٥٦.

وذلك في (شهر محرم عام ٥٨٠ هـ/ شهر نيسان ١١٨٤ م)[١].

خرج قايماز من السجن في الوقت الذي شهدت فيه الموصل تراجعاً في قوتها، وانهياراً في معنويات حكامها، فعمل على إعادة القوة إلى أجهزة الدولة بما فيها الجيش، واتفق مع عز الدين مسعود الأول على طلب المساعدة من القوى المجاورة، ونجحت مساعيه في استقطاب قزل صاحب أذربيجان الذي أمدَّه بثلاثة آلاف جندي[٢].

وبعد أن وثق من قدرته على التحرك، قرَّر إعادة المدن التي خسرتها الدولة، وبدأ بإربل، فهاجمها ونهبها وأحرقها. وأثناء انهماك عساكره بعملية النهب انقضَّت عليهم عساكر إربل وهزمتهم، واستولت على متاعهم، وعاد من سلم من العجم إلى بلادهم منهزمين[٣].

لم يكن صلاح الدين بغافل عما يجري من أحداث. فاستغل تضعضع أوضاع الموصل للتدخل في شؤونها وتجديد محاولة ضمِّها إلى أملاكه. وكان قد عقد هدنة مع ريموند صاحب أنطاكية لمدة أربع سنوات، فكفل بذلك تأمين مؤخرة جيشه[٤]. ولم يلبث أن حشد قواته في حلب وخرج على رأسها إلى حرّان في (شهر صفر عام ٥٨١ هـ/ شهر أيار عام ١١٨٥ م). ووصل في الشهر التالي إلى رأس العين، فقدم إليه رسول من قبل عز الدين قلج أرسلان الثاني سلطان سلاجقة الروم، يحمل إليه رسالة تتضمن تهديداً إذا هاجم الموصل وماردين، وتحذيراً بأن ملوك الشرق قد أجمعوا على قتاله إذا لم يكفَّ عن ذلك[٥].

وكان السلطان السلجوقي ينوي التدخل في أمور بلاد الشام، ليؤمِّن له طريقاً نحو الفرات وهو عازم على ضم رعبان[٦] وكيسوم[٧] إلى أملاكه. غير أن صلاح

---

(١) ابن الأثير: ج ٩ ص ١٦٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) العريني: ص ٦٩. جب: صلاح الدين الأيوبي ص ١٤٠.
(٥) ابن شداد: ص ١١٦ ـ ١١٧.
(٦) رعبان: مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة في العواصم، وهي قلعة تحت جبل. الحموي: جـ ٣ ص ٥١.
(٧) كيسوم: قرية مستطيلة من أعمال سميساط ولها عرض صالح. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٤٩٧.

الدين لم يأبه لهذا التهديد، ورحل إلى دُنَيْسر[1]، وهناك انضم إليه عماد الدين بن قرا أرسلان الأرتقي ومعه عساكر أخيه نور الدين محمد صاحب حصن كيفا، ثم سار الجميع إلى نصيبين، ووافاهم فيها سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر[2].

وبعد أن عبَّأ قواته، توجه صلاح الدين إلى الموصل في (شهر ربيع الأول/ شهر حزيران) ونزل بالإسماعيليات الواقعة بالقرب منها[3]. وتدعيماً لموقفه أرسل إلى الخليفة العباسي يخبره بعزمه على تصفية أُموره في الموصل، وأشار إلى أن أهلها يخطبون باسم طغرل سلطان العجم السلجوقي، ويضربون السكة باسمه، كما أنهم يراسلون الصليبيين ويحرِّضونهم على مهاجمة بلاد المسلمين، وأنه لم يأتِ رغبة في توسيع ملكه أو التخلص من البيت الزنكي، وإنما هدف أن يردهم إلى طاعة الخليفة، ونصرة الإسلام، ومَنْعهم من ارتكاب الظلم، وانتهاك الحرمات، وإجبارهم على قطع الصلات مع سلاجقة العجم، وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم[4].

كان الضغط شديداً على عز الدين مسعود الأول الذي أسقط في يده فمال إلى المهادنة، وأرسل وفداً إلى صلاح الدين ضمَّ والدته وابنة عمه نور الدين محمود وغيرهما من النساء، وجماعة من أعيان الموصل، لطلب الصلح، والكفِّ عن محاصرة الموصل.

مال صلاح الدين إلى قبول الصلح، غير أن القضية، موضوع المجازفة، كانت شديدة الخطورة، ولم يستطع أن يَعِدَ بأكثر من القبول بوساطة عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار، لكنه جوبه بمعارضة بعض أمرائه، وبخاصة الفقيه عيسى الهكاري، وعلي بن أحمد المشطوب اللذين حذَّراه من الدخول في الصلح، وقالا له: «مثل الموصل لا يُترك لامرأة، فإن عز الدين ما أرسلهن وقد عجز عن حفظ البلد»[5]. فاقتنع برأيهما، واعتذر لوفد الموصل ومضى يحاصر المدينة. لكن اعترضته عدة صعوبات جعلته يخفّف الضغط عنها لعل أهمها:

---

(١) دُنيسر: بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين. الحموي: جـ ٢ ص ٤٧٨.

(٢) ابن شداد: ص ١١٧. ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٦٨.

(٣) ابن شداد: المصدر نفسه.

(٤) ابن واصل: جـ ٢ ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٥) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٦٨.

- كان أهل الموصل يخرجون من مدينتهم خلسة ويهاجمون قواته في غارات خاطفة، دون أن يتمكن من التصدي لهم، مما ضايقه فعلاً.

- لقد حصَّن قايماز البلد بالاستحكامات، وأصلح أحوال الجيش، ليتمكَّن من مجابهة الحصار، فاستبسل أفراده في الدفاع عن مدينتهم.

- حالت الحرارة المرتفعة دون الاستمرار في القتال. ذلك أن حصار الموصل حدث في فصل الصيف، فأمر صلاح الدين بوقف المناوشات العسكرية إلى أن يزول الحر.

- صادف آنذاك أن قلَّت مياه نهر دجلة، فأشار المهندسون عليه بتحويل مجرى النهر عن الموصل، ليقطع الماء عن أهلها، فيصيبهم العطش، ويضطرون إلى الاستسلام، إلا أنه رفض هذا المشروع بحجة أنه يستغرق وقتاً طويلاً قد لا يتوفر، ويأخذ مجهوداً شاقاً قد ينهك الجيش[١].

- حدث أثناء الحصار أن توفي كل من الأميرين شاه أرمن صاحب خلاط دون أن يترك ولداً يخلفه، ونور الدين الأرتقي صاحب حصن كيفا وآمد، فاندلعت الفوضى في هذه المناطق الشمالية، فاضطر صلاح الدين أن يفصل قسماً من جيشه، ويرسله إلى هناك لوضع حد للفوضى، فسلَّمه أهل خلاط بلدهم، وخضع له قطب الدين سقمان الذي خلف أباه في حكم حصن كيفا وآمد، وانتزع ميافارقين. وبعد أن رتَّب شؤون المنطقة عاد الجيش الأيوبي إلى الموصل ليستكمل حصارها[٢].

نهاية الصراع بين عز الدين مسعود الأول وصلاح الدين الأيوبي

وصادف في ذلك الوقت أن داهم صلاح الدين مرض شديد، فرحل إلى حرّان في (أوائل شوال عام ٥٨١ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٨٥ م). اغتنم عز الدين مسعود الأول هذه الفرصة، وجدَّد محاولاته لتحقيق التفاهم معه، بعد أن خاب أمله بمساندة الخليفة له، وخذله سلطان سلاجقة فارس. وكان القاضي بهاء الدين بن شداد هو السفير والمفوض بالتوقيع على الصلح، وقد أجرى مباحثات شاقة مع صلاح الدين في (شهر ذي الحجة عام ٥٨١ هـ/ شهر آذار عام ١١٨٦ م) انتهت إلى التفاهم على الأمور التالية:

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٦٨. ابن واصل: جـ ٢ ص ١٦٧.

(٢) ابن شداد: ص ١١٧ ـ ١١٨.

- يتسلم صلاح الدين شهرزور وقلاعها والبوازيج والرستاق وجميع ما وراء نهر الزاب من الأعمال.

- يبقى عز الدين مسعود الأول أتابكاً على الموصل وتوابعها.

- يخطب لصلاح الدين على منابر الموصل، بعد وقف الخطبة للسلاطين السلاجقة وتضرب السكة باسمه.

- يتعهد عز الدين مسعود الأول بإمداد صلاح الدين بالجيوش والعتاد في حربه ضد الصليبيين[١].

ترتب على عقد الصلح هذا نتائج سياسية هامة أثَّرت سلباً على دولة الموصل التي خسرت كيانها كدولة مستقلة، وأضحى أتابك الموصل أحد نواب صلاح الدين، وتابعاً من أتباعه، ليس له من الحكم سوى الاسم واللقب. وضعفت منذ ذلك الحين دولة الزنكيين في الموصل وتراجعت قوتها، وتقلَّص نفوذها، وانحصرت في رقعة صغيرة من أرض الموصل، وأوشكت على الزوال[٢].

التعاون الزنكي - الأيوبي في الجهاد ضد الصليبيين

تنفيذاً لأحد بنود الصلح الذي تمَّ بين عز الدين مسعود الأول وصلاح الدين الأيوبي، والمتعلق بتقديم الموصل الرجال والعتاد للاشتراك مع الجيش الأيوبي في قتال الصليبيين، ساهم زعماء الموصل بنصيبهم في الجهاد بين أعوام (٥٨٣ - ٥٨٨ هـ/ ١١٨٧ - ١١٩٢ م).

كان أول حضور لعساكر الموصل هو اشتراكها في القتال الذي جرى عند طبرية في (شهر ربيع الآخر عام ٥٨٣ هـ/ شهر حزيران عام ١١٨٧ م)، كما ساهمت، بقيادة الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني في معركة حطين في (الشهر الهجري المذكور/ شهر تموز)، واشتركت أيضاً في معظم المعارك التي تلتها مثل فتح بيت المقدس، وحصار عكا حيث أرسل عز الدين مسعود الأول النفط الأبيض ومجموعة كبيرة من الرماح والتروس[٣].

---

(١) ابن شداد: ص ١١٩ - ١٢٠. ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٧٠.

(٢) الجميلي: ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٣) ابن شداد: ص ١٢٦. العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٢٣١ - ٢٣٢.

ويبدو أن مسعوداً قرَّر التوجه بنفسه على رأس جيشه لمساندة الجيش الأيوبي عند أسوار عكا، إلا أن بعض الأمور الداخلية اضطرته إلى البقاء في الموصل، فعهد إلى ولده علاء الدين خرَّم شاه بقيادة الجيش. وقد رحَّب به صلاح الدين وأكرمه، وأجلسه بين ولديه الأفضل والظاهر، ولقّبه بـ «الملك السعيد»[1].

وظل خرَّم شاه حول أسوار عكا حتى (شهر ذي القعدة عام ٥٨٣ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٨٨ م) حين أذن له صلاح الدين بالعودة إلى الموصل، على أمل الاشتراك بالقتال في المستقبل. وفعلاً عادت قوات الموصل للجهاد في بلاد الشام في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٨٧ هـ/ شهر تموز عام ١١٩١ م)، وظلت حتى (شهر رمضان من العام التالي/ شهر أيلول عام ١١٩٢ م)[2].

ومن بين العمليات العسكرية التي نفَّذتها هذه القوات هي قطع الطريق على الصليبيين حين حاولوا الخروج من عكا لمهاجمة بيروت.

حصار عز الدين مسعود الأول جزيرة ابن عمر

إنها إحدى الدلائل على تبعية حكام الموصل للدولة الأيوبية. كانت جزيرة ابن عمر تحت حكم سنجر شاه ابن أخ عز الدين مسعود الأول، وهو موالٍ لصلاح الدين، وكان معسكراً معه في بلاد الشام في مواجهة الصليبيين[3].

وحدث أن ضجر سنجر شاه من الإقامة في مواقع العدو المتقدمة، فقرَّر العودة إلى بلاده، فلم يسمح له صلاح الدين خشية من أن يقتدي به بقية الأمراء، وهو بحاجة إلى جهود كل أمير وجندي. غير أن سنجر شاه غادر المعسكر الإسلامي على الرغم من معارضة القائد الأيوبي، فأوعز هذا الأخير إلى ابن أخيه تقي الدين عمر، وكان مقبلاً من حماة، بإعادته طوعاً أو كرهاً، وكتب في الوقت نفسه إلى عز الدين مسعود الأول يأمره بمهاجمة جزيرة ابن عمر ووضع يده عليها، وأعطاه من الضمانات ما اطمأن إليها[4].

---

(١) ابن شداد: ص ١٨٨. الأصفهاني: ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٨٧، ٢٠٦.
(٣) ابن شداد: ص ١٨٧.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢١١ ـ ٢١٢.

والواقع أن مسعوداً كان على علاقة فاترة مع ابن أخيه بسبب سوء سلوكه تجاهه ومحاباة الأعداء ضده، فأتاحت له دعوة صلاح الدين فرصة طيبة استغلها للتخلص منه. فخرج من الموصل باتجاه جزيرة ابن عمر، وحاصرها مدة أربعة أشهر وأياماً كان آخرها شهر شعبان دون أن ينال منها. وأخيراً اتفق مع سنجر شاه على اقتسام أعمالها مناصفة على أن تكون المدينة من نصيب هذا الأخير من جملة النصف[1].

محاولات عز الدين مسعود الأول استعادة نفوذه المسلوب بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي

توفي صلاح الدين الأيوبي في (شهر صفر عام ٥٨٩ هـ/ شهر آذار عام ١١٩٣م) بدمشق[2]، فدخلت العلاقات الزنكية ـ الأيوبية، مرحلة جديدة استغل فيها حكام الموصل الصراع الداخلي بين ورثته لاستعادة نفوذهم المسلوب، وقضت مصلحتهم التحالف مع طرف ضد الطرف الآخر.

كان صلاح الدين، خلال حياته، قد وزَّع البلاد الواقعة تحت نفوذه على أفراد عائلته، مانحاً إياهم سلطات فعلية لممارسة السيادة. فخصَّ ابنه الأكبر الأفضل علي بدمشق، وجنوبي بلاد الشام وفلسطين، وعهد إلى ابنه الثاني العزيز عثمان بحكم مصر، في حين منح ابنه الثالث الظاهر غازي حلب وأعمالها، وخصَّ الظافر خضر ببصرى وحوران، وأعطى أخاه العادل الكرك والأردن والجزيرة وديار بكر، وكلها إقطاعات ثانوية لا تتناسب مع أهمية العادل التي ستزداد وضوحاً مع مضي الوقت. وكان نصيب الأمجد بهرام شاه، ابن أخي صلاح الدين، بعلبك، والمجاهد أسد الدين شيركوه الثاني حماة، أما اليمن فقد أعطاها لسيف الإسلام طغتكين رابع إخوته[3].

والواقع أن وفاة صلاح الدين وتقسيم مملكته أثارت مطامع عز الدين مسعود الأول، فاستغل تلك الفرصة، وراسل أمراء الأطراف، وحكام المدن، للتنسيق

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢١٢.

(٢) ابن شداد: ص ٣٦٤.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧. ابن واصل: جـ ٢ ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩. عاشور: جـ ١ ص ٩١٢ ـ ٩١٣. العريني: ص ١١٤ ـ ١١٥. Grousset: Op. Cit. III, P. 141.

معهم، فلم يستجب له منهم سوى أخيه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار[١].

ويبدو أن هؤلاء لا سيما مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، وسنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر، خشوا من طموحاته، ووجدوا أنه ليس من مصلحتهم أن يستعيد نفوذه وقوته، والأفضل أن يظل ضعيفاً حتى يبقى الوضع كما هو، فلا يطمع بما في أيديهم من البلاد التي كانت تابعة للنفوذ الأتابكي من قبل[٢].

ورأى عز الدين مسعود الأول أن يجتمع مع أخيه لوضع خطة مشتركة تهدف إلى استعادة ما كان صلاح الدين قد اقتطعه من دولة الموصل، فخرج إلى نصيبين واجتمع بأخيه فيها[٣]. وحدث في هذه الأثناء أن أصيب صاحب الموصل بمرض الإسهال، مما أعاق تحركه على الرغم من أنه سار إلى تل مَوَزن[٤] في طريقه إلى الرها للاصطدام بالعادل الأيوبي[٥].

ويبدو أن العادل لم يكن على استعداد لخوض نزاع مسلح مع دولة الموصل، بفعل أنه كان منهمكاً في النزاعات الأسرية مع أولاد أخيه صلاح الدين. فعرض التفاهم على عز الدين مسعود الأول على أن تكون الرها وحرّان والرقة له على سبيل الإقطاع، إلا أن صاحب الموصل رفض هذا العرض[٦]. واشتدت، في هذه الأثناء، أعراض المرض على عز الدين مسعود الأول، فاضطر إلى مغادرة المنطقة عائداً إلى الموصل، بعد أن عهد لأخيه عماد الدين زنكي الثاني، باستكمال المفاوضات مع العادل لتقرير قواعد الصلح[٧]. وتوفي في (آخر شهر شعبان عام ٥٨٩ هـ/ شهر آب عام ١١٩٣ م)، وخلفه ابنه نور الدين أرسلان شاه الأول[٨].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩: ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.
(٢) الجميلي: ص ١٧٠ ـ ١٧١.
(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٢٨.
(٤) تل مَوزَن: بلد قديم بين رأس العين وسروج، وبينه وبين رأس العين نحو عشرة أميال. الحموي: جـ ٢ ص ٤٥.
(٥) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٢٨.
(٦) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٩.
(٧) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٢٢٨. الباهر: ص ١٨٦.
(٨) الكامل: المصدر نفسه. الباهر المصدر نفسه: ص ١٨٩.

في عهد نور الدين أرسلان شاه الأول: ٥٨٩ ـ ٦٠٧ هـ/ ١١٩٣ ـ ١٢١١م

مهاجمة نصيبين

انهمك نور الدين أرسلان شاه الأول، في بداية حياته السياسية، بمشكلة داخلية صرفته مؤقتاً عن استكمال سياسة والده تجاه الأيوبيين. ذلك أن عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار توفي في (شهر محرم عام ٥٩٤ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٩٧ م) وخلفه ابنه قطب الدين محمد، وقام بتدبير أموره مملوك أبيه مجاهد الدين يرنقش[١].

وكان قطب الدين محمد استولى عل بعض القرى التابعة للموصل ورفض إعادتها إلى ابن عمه، مما دفع هذا الأخير إلى تجهيز حملة عسكرية هاجمت نصيبين بهدف الضغط عليه، غير أن قطب الدين محمد أسرع بالخروج من سنجار ليمنع ابن عمه. واشتبك الجانبان في قتال عنيف أنتهى بهزيمة صاحب سنجار واستيلاء صاحب الموصل على المدينة، غير أنه اضطر إلى مغادرتها عندما استنجد قطب الدين محمد بالعادل الأيوبي، بالإضافة إلى انتشار المرض في صفوف جنده، واستعاد صاحب سنجار المدينة[٢].

الاصطدام بالعادل الأيوبي في ماردين

تراوحت العلاقات بين نور الدين أرسلان شاه الأول والملك العادل الأيوبي بين التعاون والعداء الشديد. وسنرصد، في الصفحات التالية، مجالات هذا التعاون وذاك العداء.

تابع العادل زحفه باتجاه الجزيرة، بعد أن استدعاه صاحب سنجار لمساعدته، وفي نيته إخضاع المنطقة وتأديب بلك أرسلان صاحب ماردين الذي أوشك أن يحطِّم ما للأيوبيين من سلطان عليه. فحاصر المدينة واستولى على ربضها، وكادت تسقط في يده لولا أن تغيرت الظروف السياسية فجأة لغير صالحه. ذلك أنه حدث أن توفي العزيز عثمان صاحب مصر في (شهر محرم عام ٥٩٥ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٩٨ م)، فسارع أخوه الأفضل علي إلى مصر وضمَّها إلى ملكه. وكان بين الأفضل

---

(١) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ٢٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤٠.

والعادل وحشة، فعمل الأول على عرقلة مشاريع الثاني في الجزيرة وتصرف على محورين:

الأول: استدعى العسكر المصري الذي كان يرافق العادل في مهمته في الجزيرة.

الثاني: كتب إلى صاحب الموصل، وصاحبَي سنجار وجزيرة ابن عمر عارضاً عليهما التحالف معه لطرد العادل من الجزيرة(١).

والواقع أن هؤلاء الأمراء كانوا يخشون من أن يغلبهم العادل على أمرهم، ويتمكّن من بلادهم بعدما رأوا قواته تجوب المنطقة، فأجابوه إلى طلبه، وتحرك الأفضل باتجاه دمشق، بينما تأهب آل زنكي في الجزيرة لمساعدته(٢). ونتيجة لهذه التطورات، غادر العادل ماردين باتجاه دمشق مع بعض قواته لقطع الطريق على الأفضل، تاركاً ابنه الكامل محمد على حصارها(٣).

وتوالت الأحداث سريعة بعد ذلك، فقد انتهز نور الدين أرسلان شاه الأول انهماك العادل بمشكلة دمشق، فخرج بعساكره في (شهر شعبان عام ٥٩٥ هـ/ شهر حزيران عام ١١٩٩ م)، قاصداً ماردين. فنزل على دُنَيسر، حيث وافته قوات صاحبي سنجار وجزيرة ابن عمر. وبعد أن نسَّقوا فيما بينهم ساروا إلى بلدة حرزم وعسكروا فيها استعداداً لبدء القتال مع جيش الكامل وفك الحصار عن ماردين(٤).

كان أهل ماردين قد أجهدهم الحصار حتى أوشكوا على التسليم، لولا وصول القوات الزنكية، فقويت نفوسهم، وامتنعوا عن الدخول في الصلح. واشتبك الجانبان في رحى معركة قاسية انتهت بهزيمة الكامل، وأسر عدد كبير من عسكره، وانسحب بمن معه إلى ميافارقين، ومنها إلى حرَّان حيث استدعاه أبوه إلى دمشق(٥).

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤، ٢٤٦. ابن العبري: ص ٢٣١.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٢٤٤.

(٣) ابن العبري: ص ٢٣١.

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٤٦. ابن واصل: جـ ٣ ص ١٠٢. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ ٥ ص ١٢٥.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه. ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧. ابن واصل: المصدر نفسه. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٤٦٩.

وأشار بعض الأمراء على نور الدين أرسلان شاه الأول أن يدخل ماردين ويضع يده عليها، إلا أنه رفض ذلك وقال: «حاشا لله أن يتحدث الناس عني أن أناساً اعتضدوا بي، واستنصروني فأغدر بهم»[1].

وعاد صاحب الموصل إلى دُنَيْسر ثم رحل عنها إلى رأس العين وفي نيته مهاجمة حرّان لانتزاعها من يد الفائز إبراهيم بن العادل، لكنه فوجىء برسل الملك الظاهر غازي صاحب حلب يطلب منه أن يخطب باسمه في الموصل وأعمالها، وأن يضرب السكة باسمه فيها. ونفر نور الدين أرسلان شاه الأول من طلب صاحب حلب وتوقف عن مواصلة الزحف، وكان قد أصيب بمرض، فقرَّر العودة إلى الموصل في (شهر ذي الحجة عام ٥٩٦ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١٢٠٠ م)، وأرسل إلى كل من الظاهر والأفضل يعتذر لهما عن عودته[2].

التكتل الرباعي ضد العادل

شجَّع اشتداد حدة النزاعات داخل البيت الأيوبي، أمراء الجزيرة على خلع طاعة العادل، وإخراج نوابه من ديارهم. وقد أثارت سيطرة هذا الأخير على مصر خوف الظاهر صاحب حلب، فأراد أن يدعم موقفه بتكتل ثلاثي يضمه مع كل من صاحبي الموصل وماردين على أن يكونوا جميعاً يداً واحدة لمواجهة مطامع العادل، وما لبث أن انضم الأفضل إلى هذا التحالف بعد أن أزاحه العادل عن الحكم في دمشق. ولما توجه الأخوان لحصار دمشق لانتزاعها من يد العادل، أرسلا إلى نور الدين أرسلان شاه الأول يحثّانه على مهاجمة البلاد الجزرية التابعة للعادل وهي الرها وحران حتى يخفِّفا الضغط عنهما أثناء مدة الحصار[3]. وفعلاً سار صاحب الموصل في (شهر شعبان عام ٥٩٧ هـ/ شهر أيار عام ١٢٠١ م) إلى مدينة حرّان، وكان يحكمها الفائز إبراهيم بن العادل، وسانده ابن عمه صاحب سنجار ونصيبين، وصاحب ماردين، ونزل في رأس العين[4].

وكان الفائز عاجزاً عن الوقوف في وجه الحشود الضخمة التي حشدها

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١٩٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ٢٤٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٥٤.

(٤) المصدر نفسه.

الحلفاء، فمال إلى الصلح. وكان المتحالفون قد تلقوا أنباءً عن قرب عقد صلح بين الأمراء الأيوبيين المتنازعين، كما تفشَّت الأمراض في صفوفهم، فحصدت كثيراً من عساكرهم، وكان الوقت صيفاً، فأصابهم الإرهاق، فاضطروا إلى الموافقة على الصلح[1].

وكانت هذه الاستجابة نابعة من قناعتهم في إبقاء العلاقات الطيبة مع أولاد صلاح الدين لمناوأة مطامع العادل من جهة، والتخلُّص من المعاناة التي أُصيبوا بها نتيجة تفشي الأمراض والإرهاق من جهة أخرى[2]. وتقرَّر الصلح على أساس احتفاظ الفائز بما في يده من البلاد الجزرية. وافق العادل على هذا المبدأ، وعاد نور الدين أرسلان شاه الأول إلى الموصل في (شهر ذي القعدة/ شهر آب)[3].

التعاون مع العادل في حصار ماردين

اتسمت سياسة نور الدين أرسلان شاه الأول تجاه الأيوبيين بالتقلبات السريعة وفقاً للمصالح المتبادلة بين الجانبين. وتطبقاً للمبدأ السياسي القائل بأنه لا توجد سياسات دائمة بل مصالح دائمة، تعاون صاحب الموصل مع العادل في مهاجمة ماردين في (شهر محرم عام ٥٩٩ هـ/ شهر أيلول عام ١٢٠٢ م)، ذلك أن العادل لم ينسَ الهزيمة التي مُنيت بها قواته في ماردين في عام (٥٩٥ هـ/ ١١٩٩ م)، ولم يغفر للماردينيين جرائمهم بحق جنده، لذا قرَّر الانتقام.

وكان قد حصَّن موقفه نتيجة اتفاق الصلح الذي عقده مع ابني أخيه الأفضل والظاهر من جهة، واستقطاب صاحبي الموصل وسنجار من جهة ثانية. والراجح أن انضمام نور الدين أرسلان شاه الأول إلى جانب العادل من شأنه أن يكسبه بعض المغانم، وقد يؤدي إلى التوسع على الأرض على حساب الأراتقة. وأرسل العادل عساكره إلى ماردين بقيادة ابنه الأشرف موسى، فحاصرت المدينة، وانضمت إليها عساكر من الموصل وسنجار. ويبدو أن الحصار استغرق وقتاً طويلاً دون أن يحصل المتحالفون على مكاسب، فتدخل الظاهر في الصلح الذي تمَّ على الأسس التالية:

---

(١) ابن الأثير: ج ٩ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥. ابن العبري: ص ٢٣٣.

(٢) شميساني، حسن: مدينة ماردين من الفتح العربي إلى سنة ١٥١٥ م. ص ١٩٥.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص ١٩٦. ابن واصل: جـ ٣ ص ١٢٧. ابن خلدون: جـ ٥ ص ٥٩٠.

- يدفع صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار إلى العادل.

- يضرب السكة باسم العادل ويخطب له في بلاده.

- يتعهد بإرسال العساكر إلى العادل متى طلب منه ذلك[١].

تجدُّد الصراع مع العادل

لم يكفَّ العادل الأيوبي عن محاولاته لعزل الموصل عن بقية الإمارات الجزرية، ومنع أي تحالف ينشأ بينها؛ بهدف السيطرة عليها. وقد أثار استياءه ذلك الاتفاق الذي تَمَّ بين نور الدين أرسلان شاه الأول وبين ابن عمه قطب الدين محمد صاحب سنجار فسعى إلى فصمه، وتمكّن من استقطاب قطب الدين محمد واتفق معه بأن تكون الخطبة له في بلاده[٢]، مما أدَّى إلى تدهور العلاقات مع الموصل.

بدأ نور الدين أرسلان شاه الأول أعماله العسكرية ضد ابن عمه بمهاجمة نصيبين. وما كاد يستولي عليها، ويتأهب لدخولها، حتى جاءته الأنباء بقيام مظفر الدين كوكبوري، صاحب إربل، بمهاجمة بلاده مستغلاً فرصة غيابه عنها، فاضطر إلى رفع الحصار عن نصيبين وعاد إلى بلاده للدفاع عنها، فلما وصل إلى مدينة بَلَدْ علم أن كوكبوري عاد إلى إربل، وأن ما بلغه من أخبار مبالغ فيها[٣].

وواجه نور الدين أرسلان شاه الأول، في هذه الأثناء، تكتلاً عسكرياً ضَمَّ الأشرف موسى بن العادل، الذي أقامه والده على شمالي الجزيرة، وأخاه الأوحد صاحب ميافارقين، وقطب الدين محمد صاحب سنجار، ومظفر الدين كوكبوري، وصاحب جزيرة ابن عمر، وصاحب كيفا وآمد، وصاحب دارا، وكان هدف هذا التكتل مساعدة صاحب سنجار[٤].

تقدمت قوات التكتل من حرَّان إلى رأس العين تمهيداً لمهاجمة نور الدين أرسلان شاه الأول أثناء حصاره لنصيبين، إلا أن تخوُّفهم من شدة قوته منعهم من مجابهته.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٥٩. ابن العبري: ص ٢٣٤. ابن كثير: جـ ١٣ ص ٣٤.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه. ص ٢٦٤. ابن واصل: جـ ٣ ص ١٥٦. أبو الفدا: جـ ٥ ص ١٣٦.

(٣) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٥٣. ابن خلدون: جـ ٥ ص ٥٩٠.

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٦٤.

لكن ما إن انسحب، إثر هجوم صاحب إربل على بلاده، حتى تقدم الحلفاء إلى نصيبين. ويبدو أن صاحب الموصل لم يعبأ بقوات التكتل، فكرَّ عائداً بعد زوال خطر كوكبوري، وهاجم تل يعفر واستولى عليها، ثم تقدم إلى منطقة كفر زمار[١] للتصدي للحلفاء، وأرسل مملوكه جورديك إلى معسكرهم ليستطلع له أخبارهم ويقف على عدد عساكرهم. وبدلاً من أن يطلعه جورديك على حقيقة الوضع العسكري للحلفاء، فقد ضلَّله، حين قلَّل من شأنهم، وأطمعه فيهم، وشجعه على المسير نحوهم[٢].

والواقع أن نور الدين أرسلان شاه الأول، تشجَّع بهذه المعلومات، فسار نحو معسكر الحلفاء في بوشري، واشتبك معهم، لكن القتال لم يستمر طويلاً بسبب عدم توازن القوى، إذ سرعان ما انهزمت قوات الموصل بسبب التفوق العددي لقوات الحلفاء من جهة، والإرهاق الذي أصابها نتيجة تحركاتها السريعة من جهة أخرى. عند ذلك، تقدم الحلفاء إلى كفر زمار، ونهبوا الجهات المحيطة بها، ودمَّروا مزارعها، وانتقلوا بعد ذلك إلى بَلَدْ القريبة من الموصل لنهبها، فاضطر نور الدين أرسلان شاه الأول أن يدخل في مفاوضات مع الأشرف التي انتهت بعقد الصلح، على أن يعيد تل يعفر إلى ابن عمه قطب الدين محمد[٣]. وقد حصلت هذه الأحداث في (أواخر عام ٦٠٠ وأوائل عام ٦٠١ هـ/ ١٢٠٤ م).

كان للهزيمة القاسية التي مُني بها نور الدين أرسلان شاه الأول أمام الحلفاء أثر كبير في إضعاف قوته. فلم يَسْعَ من جديد إلى استئناف القتال، وجنح إلى السلم وتقرَّب من العادل، ومن مظاهر هذه السياسة اشتراكه مع قوات العادل في عام (٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م) في قتال الصليبيين في إمارة طرابلس[٤].

وحدث في العام التالي أن توثقت العلاقات بين الطرفين بالتقارب الأسري. فقد زوَّج العادل أحد أبنائه من ابنة صاحب الموصل[٥]. وظن نور الدين أرسلان

---

(١) كفرزمار: قرية من قرى الموصل. الحموي: جـ ٤ ص ٤٦٩.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٦٤. ابن واصل: جـ ٣ ص ١٥٧.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.
(٤) المصدر نفسه. ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧. ابن واصل: جـ ٣ ص ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣٠١. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٥١٨.

شاه الأول أنه في ظل هذا التقارب يمكنه أن يستعيد قوته ونفوذه على حساب قطب الدين محمد صاحب سنجار، ومحمود سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر اللذين تربطه بهما علاقات عدائية. وتأثَّر بآراء بعض مستشاريه، فاستعان بالعادل وعرض عليه اقتسام بلديهما على أن يأخذ هو جزيرة ابن عمر، ويأخذ العادل سنجار[1].

والواقع أن العادل رحَّب بهذه القسمة التي تقرِّبه خطوة أخرى نحو الموصل، وتمهد له الطريق للسيطرة عليها، فأسرع بالتوجه نحو الجزيرة، وهاجم بلاد قطب الدين محمد، فاستولى على الخابور ونصيبين، ثم اتجه إلى سنجار وحاصرها في عام (٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م)[2].

وأدرك نور الدين أرسلان شاه الأول فداحة الخطأ الذي وقع فيه، عندما رأى قوات العادل تجوب أنحاء الجزيرة وتصل إلى سنجار، وخشي من تنامي قوته بما سينتزعه من بلاد مما يهدِّد أمن الموصل تهديداً مباشراً، فنشط لإحباط مسعاه وإنقاذ سنجار من الوقوع في يده. ومما شجعه على نقض اتفاقه معه أن مظفر الدين كوكبوري أرسل يعرض عليه التحالف معه ضد العادل، ومساعدة قطب الدين محمد.

والراجح أن هذا التحول لصاحب إربل مرده إلى أن العادل رفض شفاعته في صاحب سنجار، ومن جهته فإن الملك الأيوبي لم يعد يثق به بعد تحالفه مع نور الدين أرسلان شاه الأول[3]. وخشي مظفر الدين كوكبوري أن يكون العادل قد طمع في بلاده بعد ازدياد قوته في منطقة الجزيرة، فاتصل بصاحب الموصل واتفق معه على التصدي لأطماعه ورده عن سنجار، من خلال انتهاج خطين سياسيين:

الأول: يعتمد على التهديد، واستقطاب الحلفاء. فأجريا من أجل ذلك، مباحثات مع ملوك وحكام المدن المجاورة في محاولة لكسب تأييدهم. فأجابهما الظاهر غازي صاحب حلب، لما كان بينه وبين عمه العادل من نفور، وانضم إليهم غياث

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٠١. ابن واصل: جـ ٣ ص ١٩١. ابن خلدون: جـ ٥ ص ٥٩٣.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

(٣) المصدر نفسه: ابن واصل: جـ ٣ ص ١٩٤. الجميلي: ص ١٨٦ ـ ١٨٧. طليمات، عبد القادر أحمد: مظفر الدين كوكبوري: ص ١٠٣.

الدين كيخسرو بن قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم وصاحب قونية[١] وأعمالها، وأخوه مغيث الدين طغرل شاه صاحب البستان[٢]، واتفق الجميع على محاربة العادل إذا امتنع عن مغادرة سنجار[٣].

الثاني: يعتمد على المعالجة السلمية. فأرسلا رسولاً إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله في بغداد يلتمسان تدخله في الصلح حقناً لدماء المسلمين. وافق الخليفة على التدخل، فأرسل أستاداره هبة الله بن المبارك بن الضحَّاك والأمير آق باش إلى معسكر العادل، وأبلغاه رغبة الخليفة، في عقد الصلح[٤].

كان العادل قد أدرك صعوبة الوضع العسكري الذي بات فيه وبخاصة بعد ظهور بوادر إحجام عن القتال من قِبَل أصحابه، وتواطؤ أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص والرحبة، مع صاحب سنجار، وسماحه بدخول الأقوات إلى البلد؛ لذلك مال إلى الصلح. وتقرر أن يحتفظ العادل بالبلاد التي انتزعها مؤخراً وهي الخابور ونصيبين، ويترك سنجار لصاحبها قطب الدين محمد[٥].

العلاقات الزنكية ـ الأيوبية حتى آخر عهد الدولة

لم تطل أيام نور الدين أرسلان شاه الأول بعد صلح عام (٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩م)، إذ لم يلبث أن توفي في (شهر رجب عام ٦٠٧ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٢١١ م) بعد أن حكم الموصل مدة ثمانية عشر عاماً[٦]، وتراجعت بوفاته قوة الزنكيين في الموصل، وتأثيرهم الفعّال في العلاقات السياسية، وذلك بفعل عاملين:

الأول: صغر سن الأمراء الذين اعتلوا سدة الحكم، وهيمنة بدر الدين لؤلؤ على أوضاع الإمارة.

الثاني: الصراع الداخلي بين أفراد الأسرة الزنكية.

---

(١) قونية: من أعظم مدن الإسلام بالروم، وبها وبآقسرا سكنى ملوكها. الحموي: جـ ٤ ص ٤١٥.

(٢) البستان أو أبلستين: بلدة في بلاد الروم.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٠٢.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٥٤١.

(٦) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

كان نور الدين أرسلان شاه الأول قد عهد بالحكم من بعده إلى ابنه القاهر عز الدين مسعود الثاني (٦٠٧ ـ ٦١٥ هـ/ ١٢١١ ـ ١٢١٨ م)، ولم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره، فتولى بدر الدين لؤلؤ تدبير شؤونه. أما ابنه الأصغر عماد الدين زنكي الثالث فقد خصَّه بقلعتي عقر الحميدية وشوش[١]. وأرسل بدر الدين لؤلؤ إلى الخليفة العباسي في بغداد يطلب الخلع والتقليد للأتابك الجديد[٢].

دام حكم عز الدين مسعود الثاني ثماني سنوات لم تقع خلالها أحداث تستحق الذكر وتوفي في (أواخر شهر ربيع الأول عام ٦١٥ هـ/ شهر حزيران عام ١٢١٨ م)، وأوصى بالحكم من بعده إلى ابنه نور الدين أرسلان شاه الثاني (٦١٥ ـ ٦١٦ هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢١٩ م)، وكان صغيراً، فعهد إلى بدر الدين لؤلؤ بالوصاية عليه، والقيام بأمور دولته، فأرسل هذا الأخير إلى الخليفة طالباً الخلع والتقليد على ما جرت عليه العادة، كما طلب من أمراء المدن المجاورة الاعتراف بالنظام الجديد، وتجديد العهد لنور الدين أرسلان شاه الثاني[٣]. في هذه الأثناء، طمع عماد الدين زنكي الثالث بن نور الدين أرسلان شاه الأول بالحكم في الموصل، بوصفه كبير البيت الزنكي، إلا أنه لقي معارضة من جانب بدر الدين لؤلؤ الذي هدف إلى إبعاد كل شخص قوي عن حكم الموصل ليستمر في إدارة شؤون الدولة[٤].

والواقع أنه لم يعد هناك أي سلطة فعلية للبيت الزنكي في الموصل بعد وفاة نور الدين أرسلان شاه الأول، إذ لم يعد لخلفائه سوى الاسم، واستأثر بدر الدين لؤلؤ بإدارة الشؤون العامة يتصرف وفق مصلحته. ولم تعد الأحداث تأريخاً للدولة الزنكية بقدر ما هي تأريخ لحكم بدر الدين لؤلؤ.

وتحالف عماد الدين زنكي الثالث مع مظفر الدين كوكبوري وقاما بمحاولة سلمية ناجحة للاستيلاء على قلعة العمادية في (شهر رمضان عام ٦١٥ هـ/ شهر تشرين الثاني ١٢١٨ م)، فأشاعا بين سكانها عن وفاة نور الدين أرسلان شاه

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٠٤.

(٢) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٥٤٦.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٤) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٦١٠. ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٢٢٥.

الثاني، الذي كان يعاني آنذاك من المرض، فصدَّقت حامية القلعة هذه المعلومة وسلمتهما إياها[١].

لم يركن بدر الدين لؤلؤ إلى الهدوء عندما علم بسقوط العمادية وصمَّم على استعادتها، إلا أنه فشل في اقتحامها عندما هاجمها، وارتد عنها عائداً إلى الموصل. تشجع عماد الدين زنكي الثالث بتراجع بدر الدين لؤلؤ، فاستولى على باقي قلاع الهكارية والزوزان التي كانت تابعة للموصل[٢]. وشعر هذا الأخير بعجزه عن الوقوف في وجه تحالف عماد الدين زنكي الثالث ومظفر الدين كوكبوري، فراح يبحث عن حليف يدعم به موقفه. وكان الأشرف موسى الأيوبي صاحب البلاد الجزرية وخلاط التابعة للأيوبيين، يخشى من اتفاق أمراء الأطراف مع صاحب الموصل، مما يؤدي إلى ظهور قوة كبيرة تهدد أملاكه، فلما عرض عليه بدر الدين لؤلؤ التحالف معه والدخول في طاعته لم يتردد في الاستجابة. وأنذر مظفر الدين كوكبوري بفك تحالفه مع عماد الدين زنكي الثالث والالتزام بالصلح الذي تمَّ بين جميع الأمراء في عام (٦٠٧ هـ/ ١٢١٠ م). ويبدو أن مظفر الدين كوكبوري لم يعبأ بهذا التهديد، وواصل مساعدته لصاحب سنجار[٣].

وحدث آنذاك أن دخل أمير كيفا وآمد وأمير ماردين في التحالف الموجه ضد الأشرف ولؤلؤ، مما أدَّى إلى إضعاف موقف صاحب الموصل، ودفع الأشرف إلى إمداده بالمساعدات العسكرية. ورابطت القوة الأيوبية التي أرسلها في نصيبين حتى تكون على مقربة من الموصل والتدخل لصالح بدر الدين لؤلؤ عند الضرورة[٤]. لكن هذه المساعدة العسكرية لم تحقق غرضاً يُذكر، واستمرت الحرب بين بدر الدين لؤلؤ وخصومه.

وكان بدر الدين لؤلؤ قد أرسل فرقة عسكرية، عندما هاجم عماد الدين زنكي الثالث بلاده، رابطت على أطراف الموصل بهدف منعه من التوغل داخل أراضيه. واتفق قادتها على مهاجمة عماد الدين زنكي الثالث دون العودة إلى القيادة المركزية،

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٢) المصدر نفسه. أبو الفدا: جـ ٦ ص ١٦.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٢١.

(٤) المصدر نفسه: ابن خلدون: جـ ٥ ص ٥٩٨.

فهاجموا قلعة العقر الحميدية في (شهر محرم عام ٦١٦ هـ/ شهر آذار عام ١٢١٩ م)، وأنزلوا الهزيمة بجيشه، فتراجع عماد الدين زنكي الثالث إلى إربل محتمياً بوالد زوجته مظفر الدين كوكبوري[١].

دفعت هذه الأحداث كلاً من الخليفة العباسي والأشرف موسى إلى التدخل وفرض الصلح على الطرفين المتخاصمين من آل زنكي. وفعلاً أدَّت المفاوضات التي أُجريت بين كافة الأطراف في المنطقة إلى تحقيق الصلح[٢].

وتوفي نور الدين أرسلان شاه الثاني بعد إقرار الصلح بوقت قصير، فنصَّب بدر الدين لؤلؤ أخاه ناصر الدين محمود (٦١٦ ـ ٦٣٠ هـ/ ١٢١٩ ـ ١٢٣٣ م)، وكان في الثالثة من عمره، وتولى بدر الدين لؤلؤ الوصاية عليه، فأرسل إلى الخليفة يطلب له الخلع والتقليد، كما طلب من أمراء الأطراف الاعتراف بحكمه، وطاف به في الموصل لكسب تأييد السكان وتهدئة نفوسهم[٣].

ويبدو أن بدر الدين لؤلؤ بدأ يشعر بأن أهل الموصل يشكُّون في نواياه تجاه البيت الزنكي، وأنهم غير مطمئنين إلى سياسته تجاه أولاد عز الدين مسعود الثاني، فأراد أن يخفِّف من نقمتهم، فأخرج ناصر الدين محمود في موكب حافل، وسار في ركابه، مظهراً للناس إخلاصه في إبقاء الملك بيد آل زنكي، فطابت نفوسهم، وسكنت ثائرتهم[٤]. وبعد أن هدأت الأوضاع الداخلية، التفت بدر الدين لؤلؤ إلى الشؤون الخارجية، وسط تجدُّد أطماع عماد الدين زنكي الثالث في حاكمية الموصل، مستغلاً صغر سن ناصر الدين محمود.

كانت ظروف بدر الدين لؤلؤ العسكرية والسياسية لا تسمح بالتصدي له بفعل أنه كان قد أرسل معظم جيشه إلى حلب تلبية لطلب الأشرف موسى، فاضطر إلى الاستعانة بالقوة التي كان الأشرف قد تركها في نصيبين لنجدته بقيادة أيبك. لكن هذه القوة كانت قليلة العدد مما لا يسمح له في خوض معركة وكسبها، وعلى الرغم من ذلك فقد عبر نهر دجلة، بعد إلحاح أيبك،

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٢١. ابن خلدون: جـ ٥ ص ٥٩٨. طليمات: ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٢١ ـ ٣٢٢. ابن العبري: ص ٢٥٦.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣٢١. الجميلي: ص ١٩٦.

لمواجهة خصومه، ونزل على بُعد فرسخ من الموصل[1].

ولما علم مظفر الدين كوكبوري بعبوره، عبر هو الآخر نهر الزاب بصحبة عماد الدين زنكي الثالث لملاقاته. وجرت بين الجانبين في (شهر رجب عام ٦١٦ هـ/ شهر أيلول عام ١٢١٩ م) معركة غير متكافئة. وتسبَّب سوء تصرف أيبك، وجهله بطبيعة المنطقة الجغرافية الوعرة، إلى انهزام جيش الموصل[2].

انسحب بدر الدين لؤلؤ من ساحة المعركة عائداً إلى الموصل، واحتمى بقلعتها، وتبعه مظفر الدين كوكبوري وعماد الدين زنكي الثالث، فأقاما وراء تل حصن نينوى القريب من المدينة مدة ثلاثة أيام، رحلا بعدها عندما علما بعزم بدر الدين لؤلؤ على الخروج للتصدي لهما، ثم دخل الجانبان في مفاوضات للصلح، وتقرَّر أن يحتفظ كل طرف بما في حوزته من البلاد[3].

لم يستمر الصلح طويلاً بفعل أطماع عماد الدين زنكي الثالث المتجدِّدة في حكم الموصل. وكان الذي فجَّر الأوضاع هذه المرة خروج سكان قلعة كواشي على حكم بدر الدين لؤلؤ، وتسليمها إلى عماد الدين زنكي الثالث، الذي رفض دعوة حاكم الموصل للجلاء عنها[4]. عندئذ، طلب بدر الدين لؤلؤ مساعدة حليفه الأشرف موسى في حلب. فعبر هذا الفرات إلى حرَّان تلبية لنداء الاستغاثة، وحتى يعرقل زحفه تحرك مظفر الدين كوكبوري في اتجاهين:

الأول: أثار أمراء الأطراف والمدن، وخوَّفهم من أطماع الأشرف، وذلك في خطوة لاستقطابهم. فاستجاب له عز الدين كيكاوس بن كيخسرو صاحب سلاجقة الروم، وكان يخطط للاستيلاء على حلب، وصاحبا ماردين، وحصن كيفا، واتفق الجميع على طاعة كيكاوس، والخطبة له في بلادهم[5].

الثاني: حاول استقطاب أمراء الأشرف لإضعاف قوته، فاستجاب له أحمد ابن علي المشطوب وعز الدين بن بدر الحميدي وغيرهما، فتخلَّوا عن الأشرف، وانضموا

---

(١) ابن الأثير جـ ٩: ص ٣٢٢. ابن العبري: ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) ابن العبري: المصدر نفسه.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٢٢.

(٤) المصدر نفسه: جـ ٩ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٥) المصدر نفسه: ابن العبري: ص ٢٥٧.

إلى القوات الأرتقية في دُنَيْسر، لمنعه من التقدم إلى الموصل[1].

وهكذا واجه الأشرف موسى صعوبات منعته من الإسراع بالزحف، لكن وفاة كيكاوس في عام (٦١٦ هـ/ ١٢١٩ م) أنقذته من خطر محقَّق. إذ سرعان ما انهار الحلف، فخرج صاحب آمد منه، وانضم إلى بدر الدين لؤلؤ، وحذا حذوه بقية الأمراء باستثناء ابن المشطوب الذي ظل محافظاً على ولائه لكوكبوري، فترك دُنَيْسَر وسار إلى نصيبين في طريقه إلى إربل، إلا أنه أضاع نفسه بما قام به من أعمال عدائية فيها، كما طالت تعدياته قرية البقعاء من أعمال الموصل بالإضافة إلى تل يعفر، وانتهى أمره بين يدي بدر الدين لؤلؤ الذي أسره في المدينة الأخيرة في (شهر ربيع الآخر عام ٦١٧ هـ/ شهر حزيران عام ١٢٢٠ م)، وأرسله إلى الأشرف موسى الذي سجنه في حرَّان[2].

وغادر الأشرف موسى نصيبين في طريقه إلى الموصل لنجدة بدر الدين لؤلؤ بعد أن عقد الصلح مع صاحب ماردين، فخشيه عمر بن محمد بن عماد الدين زنكي الثالث، صاحب سنجار[3] الذي أوقع نفسه في مأزق بسبب تواطئه مع ابن المشطوب ومساعدته في الإغارة على الموصل، هذا بالإضافة إلى سقوط تل يعفر في يد بدر الدين لؤلؤ؛ فتنازل له عن سنجار، وعوَّضه الأشرف موسى بالرقة، فخرج بأهله وأمواله إليها، وانتهى حكم آخر الأمراء الأتابكة في سنجار[4].

ترتب على زوال الخطر الصليبي عن مصر في عام (٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م) وتراجعه في بلاد الشام، أن عاد الأمراء الأيوبيون إلى ما درجوا عليه من صرف أيامهم في المنازعات الداخلية لتحقيق مكاسب إقليمية. وأدَّت هذه النزاعات إلى قيام الصليبيين والخوارزميين بتخريب بلاد الشام ونهبها، كما كان لها تأثير على أوضاع دولة الموصل.

كان الأشرف موسى قد أقطع أخاه الظاهر غازي مدينتي خلاط وميافارقين وولاية أرمينية، وجعله ولياً لعهده. فلما استقر هذا الأخير في إقطاعه سوَّلت له

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٢٣. ابن العبري: ص ٢٥٩.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣٢٤.

(٤) المصدر نفسه.

نفسه الخروج على طاعة أخيه. وحتى يُدعم موقفه استقطب كلاً من أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق الذي كان على فتور مع الأشرف موسى، ومظفر الدين كوكبوري الذي كان يرحِّب بكل تحالف من شأنه مناواة الأشرف موسى[١].

ومن جهته، استنجد الأشرف موسى بأخيه الكامل في مصر الذي حذَّر المعظم عيسى من التعدِّي على أملاك أخيه في الجزيرة وخلاط، وكان هذا قد خرج من دمشق ووصل إلى داريا، إحدى قرى الغوطة، فكان هذا التحذير كاف لعودته، ثم نجح الأشرف موسى باسترداد خلاط بمساعدة جيش الموصل[٢].

استغل مظفر الدين كوكبوري هذه النزاعات، وتشجَّع بوجود معظم جيش الموصل في خلاط مع الأشرف موسى؛ فهاجم الموصل وحاصرها في (شهر جمادى الآخرة عام ٦٢١ هـ/ شهر تموز عام ١٢٢٤ م). استمر الحصار مدة عشرة أيام، اضطر مظفر الدين كوكبوري بعدها إلى فك الحصار والرحيل عنها، عندما وصلت إليه أنباء تفيد باستعادة الأشرف موسى لمدينة خلاط، وعودة المعظم عيسى إلى دمشق[٣].

في تلك الأثناء، دخل السلطان جلال الدين منكبرتي الخوارزمي[٤] في غمرة الصراع الأيوبي على منطقة الجزيرة وخلاط، بناءً على دعوة الظاهر غازي، فانتقل النشاط السياسي والعسكري في عام (٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م) إلى هذه المنطقة. وظهر تحالف ضمَّ مظفر الدين كوكبوري، وجلال الدين منكبرتي، والمعظم عيسى، وصاحب ماردين، هدفه مناوأة الأشرف موسى وحلفائه الموصليين، واقتسام أملاكهم. وتحرك مظفر الدين كوكبوري نحو الموصل وفقاً للخطة المرسومة، في الوقت الذي تقدَّم فيه جلال الدين منكبرتي من تفليس في أرمينية يريد خلاط، إلا أن عصيان نائبه في كرمان، اضطره للعودة إلى هناك بعد أن نهب مناطق خلاط وخرَّب كثيراً

---

(١) ابن الأثير جـ ٩: ص ٣٥٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٥٤. ابن خلدون: جـ ٥ ص ٦٠٥.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه.

(٤) الدولة الخوارزمية هي إحدى الدول التركية التي قامت في بلاد ما وراء النهر. ظهرت في عام (٥٢٢ هـ/ ١١٢٨ م) في خوارزم، وتوسعت على حساب السلاجقة العظام في خراسان ثم قضت على دولتهم بعد وفاة السلطان سنجر في عام (٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م).

منها، وقد أثّرت عودته في معنويات حلفائه «فانفسخ جميع ما كانوا عزموا عليه»[1].

أما مظفر الدين كوكبوري، فقد واصل زحفه الذي بدأه باتجاه الموصل، ونزل على جانب الزاب، ولم يتمكّن من العبور إلى المدينة، فاستنجد بدر الدين لؤلؤ بالأشرف موسى وكان آنذاك بالرقة، فلم يتردد في تلبية النداء، وجدّ بالسير إلى حرّان ثم إلى دُنَيْسَر، وخرّب ماردين، وأرسل إلى علاء الدين كيقباد، سلطان سلاجقة الروم (٦١٦ ـ ٦٣٤ هـ/ ١٢١٩ ـ ١٢٣٧ م) أن يتقدم بقواته إلى آمد ويشنَّ هجوماً عليها لتخفيف الضغط عن الموصل[2].

وخشي المعظم عيسى أن يستولي الأشرف موسى على ماردين، فاقترح عليه أن يتركها مقابل أن يتوقف عن مهاجمة حمص وحماة، ويأمر مظفر الدين كوكبوري بالرحيل عن الموصل. فوافق الأشرف على ذلك، وعاد كوكبوري إلى إربل بعد أن خرَّب أعمال الموصل بهذه الغزوة[3].

بعد القضاء على التمرد الذي قام ضد حكمه في كرمان، التفت جلال الدين منكبرتي مجدداً إلى الغرب، واستغل النزاع بين الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام والجزيرة ومصر للاستيلاء على مدينة خلاط، فهاجمها في عام (٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م) واستولى عليها[4].

والواقع أن السلطان الخوارزمي، رغم افتقاره للدبلوماسية المرنة، أراد أن يحول دون عقد تحالف جديد ضده من قِبَل الأمراء المسلمين في المنطقة. فقد أثار استيلاؤه على خلاط حفيظة السلطان علاء الدين كيقباد، صاحب بلاد الروم، وحتى يمتص معارضته حاول استقطابه، وتبادل الرسائل معه، لكن أفكار جلال الدين التوسعية كانت تتعارض مع أفكار كيقباد، إذ لكل منهما نظرته المستقلة إلى الوضع الإسلامي وبخاصة بعد دخول المغول على الخط السياسي وبداية توسعهم باتجاه الشرق الأدنى الإسلامي.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٦٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٢٩٩، ٣٢٠ ـ ٣٢٤. الجويني: تاريخ قاهر العالم: جـ ٢ ص ٧٧ ـ ٨٢. حيث تفاصيل وافية حول كيفية استيلاء جلال الدين على خلاط.

ولما طلب منه كيقباد فك الحصار عن خلاط، أرسل إليه أجوبة مموهة. ويذكر ابن العبري بأن جلال الدين أجاب كيقباد بأنه يتعذر عليه ترك خلاط[1]. عند ذلك، التفت سلطان سلاجقة الروم إلى الأيوبيين وعقد حلفاً مع الكامل وأخيه الأشرف وصاحب الموصل وبلاد ما بين النهرين، بهدف مناهضة سياسة جلال الدين التوسعية[2]. وجرى اللقاء بين الجانبين عند جبل ياسي حمار من أعمال أرزنجان القريبة من خلاط في (شهر رمضان عام ٦٢٧ هـ/ شهر تموز عام ١٢٣٠م)، وانتهى بانتصار الحلفاء. والجدير بالذكر أن الكامل اضطر إلى الانسحاب من المنطقة قبل حدوث اللقاء وعاد إلى مصر بعد أن وصلت إليه الأخبار بمهاجمتها من قبل الصليبيين[3].

وبهذه الحادثة تنتهي العلاقات السياسية التي قامت بين أمراء الموصل من آل زنكي والأيوبيين في بلاد الشام، حيث انتقل الحكم إلى بدر الدين لؤلؤ عقب وفاة ناصر الدين محمود في عام (٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م)، وانتهى حكم خلفاء عماد الدين زنكي فيها.

العلاقات الزنكية ـ الأرتقية

استمرت العلاقات المتقلبة بين حكام الموصل بعد عماد الدين زنكي وبين الأراتقة. فما أن علم هؤلاء بمقتله، في عام (٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م)، حتى هاجموا المواقع التي كان قد ضمّها في ديار بكر، وتمكّنوا من استعادة معظمها.

فقد استردَّ حسام الدين تمرتاش، صاحب ميافارقين وماردين، حاني[4] يوم الأربعاء في (١٣ ربيع الآخر ٥٤١ هـ/ ٢٣ أيلول ١١٤٦ م)، وجبل جور، والسيوان، ثم زحف جنوباً فاستولى على إقليم شبختان في ديار بكر، والمُؤَزَّر[5]، وتل موزن، ورأس العين وغيرها[6].

---

(١) تاريخ الزمان: ص ٢٧٦.

(٢) الجويني: جـ ٢ ص ٨٤. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٦٦٠.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٨١. سبط ابن الجوزي: المصدر نفسه ص ٦٦١. النسوي: ص ٣٣٠. المقريزي: السلوك: جـ ١ ص ٢٣٨، ٢٤٠.

(٤) حاني: اسم مدينة معروفة بديار بكر، فيها معدن الحديد. الحموي: جـ ٢ ص ٢٠٨.

(٥) المُؤَزَّر: كورة بالجزيرة، منها نصيبين الروم. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٢٢١.

(٦) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٨.

واستردَّ فخر الدين قرا أرسلان، صاحب حصن كيفا، أرْقَنين، وحيرموك، وجميع ما كان عماد الدين زنكي قد ضمَّه إلى أملاكه عقب وفاة داوود أمير الحصن، كما استولى على حصن الدوق، وبلد صاف، وقلعة الهيثم، وغيرها[1].

أثارت هذه الأعمال العسكرية حفيظة سيف الدين غازي الأول أمير الموصل الذي ورث هذه المناطق عن والده عماد الدين زنكي، كما أضفت البهجة على قلب حسام الدين تمرتاش الذي سُرَّ من إزاحة عدو شديد المراس مثل عماد الدين زنكي[2].

وإذ فرغ أمير الموصل من تجهيز والده إلى مثواه الأخير، ورتَّب أوضاع الموصل، تقدم على رأس قواته لاستعادة ما أخذه الأراتقة، والانتقام منهم، وتمكَّن من استعادة دارا وعدد من المواقع القريبة من ماردين، ونهب إقليم شبختان، وحاصر ماردين في (أوائل عام ٥٤٢ هـ/ منتصف عام ١١٤٧ م)، وخرَّب بلدها ونهبه، ثم دخل المدينة، ودمَّر الجزء الأكبر منها[3].

ويبدو أن حسام الدين تمرتاش هاله ما حلَّ ببلاده من خراب ودمار على يد سيف الدين غازي الأول، وعلَّق على هذه الأحداث بهذه العبارة المريرة: «كنا نشكو من أتابك الشهيد، وأين أيامه! لقد كانت أعياداً... وقد قصدها غير مرة، فلم يأخذ هو ولا أحد من عسكره مخلاة تبن بغير ثمن، ولا تعدَّى هو وعسكره حاصل السلطان، وأرى هذا ـ إشارة إلى غازي الأول ـ ينهب البلاد ويخرِّبها»[4].

نتيجة لهذا التطور في الوضع العسكري، الذي مال لغير صالح الأراتقة، أدرك تمرتاش أنه عاجز عن التصدي لسيف الدين غازي الأول، فاضطر إلى طلب الصلح. وقَبِل الأخير عرض الصلح، فترك المنطقة وعاد إلى الموصل. وأدَّت عودة العلاقات الحسنة بينهما إلى قيام مصاهرة بين البيتين الزنكي والأرتقي في ميافارقين. فقد تزوج أمير الموصل صفية خاتون ابنة تمرتاش[5]. وجرت مراسم تجهيزها، ولما وصلت إلى الموصل كان سيف الدين غازي الأول قد أصابه المرض، فلم يدخل بها، وبقيت

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ٨٦.
(٢) خليل، عماد الدين: الإمارات الأرتقية، ص ١٣٠.
(٣) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ١٨.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤. ابن كثير: جـ ١٢، ص ٢٢٢.

عنده إلى أن توفي، وملك أخوه قطب الدين مودود، فتزوجها، وكانت مدينة دارا التابعة للموصل مهراً لها[1]. وتوثقت العلاقات بين البيتين الزنكي والأرتقي في ميافارقين وماردين، وكانت لها نتائج بالغة الأهمية على مجرى الأحداث في الجزيرة الفراتية.

أما الأراتقة في حصن كيفا فقد ظلوا على عداء مع أمراء الموصل بفعل تحالفهم مع أتابكية حلب، فقد ساند قرا أرسلان حاكم الحصن، نور الدين محمود في عام (٥٤٤ هـ/ ١١٥٠ م) عندما هاجم سنجار التابعة للموصل. وفي عام (٥٦٢ هـ/ ١١٦٦ م) توفي قرا أرسلان، وخلفه ابنه محمد، فاستغل قطب الدين مودود أمير الموصل، هذه الفرصة، وهاجم إمارته، ليثأر من موقفه المعادي للموصل، فتدخل نور الدين محمود في الأمر، وهدَّد أمير الموصل بمهاجمة إمارته إن قصد الحصن، فاضطر قطب الدين مودود إلى التوقف عن محاولته[2]. وساند أراتقة الحصن نور الدين محمود في عام (٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م) عندما هاجم الموصل لإخضاعها.

وقف حسام الدين تمرتاش أمير ماردين، موقفاً محايداً من هذه الأحداث، ملتزماً بالصلح الذي عقده مع حاكم الموصل في عام (٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م). وفي عام (٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م) توفي حسام الدين تمرتاش بماردين، وتولى الإمارة بعده ابنه نجم الدين ألبي، وقد سلك نهج والده فيما يتعلق بالعلاقة مع الزنكيين، وبخاصة تجاه الصراع بين نور الدين محمود والإمارات المحلية المجاورة، في الوقت الذي استمر فيه حكام حصن كيفا على مساندتهم لنور الدين محمود[3].

تراجعت العلاقات الزنكية ـ الأرتقية بعد وفاة نور الدين محمود في عام (٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م)، إلى حد كبير، فقد حلَّت الدولة الأيوبية، محل الدولة الزنكية في حلب وبعض أنحاء الجزيرة وأرمينية. وانهمك الزنكيون في الموصل في صراع دام مع الأيوبيين، فكان على الأراتقة بفرعيهم في ماردين وحصن كيفا، أن يتخذوا أحد موقفين من هذا الصراع:

أولهما: مساندة الأيوبيين ضد الإمارات المحلية ومن بينها الموصل.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٩٧.

(٣) خليل: ص ١٣٤.

ثانيهما: التحالف مع الإمارات المحلية للتخلص من النفوذ الأيوبي.

والواقع أن سياستهم اتصفت بالتقلبات السريعة وفقاً لتطور الأحداث، فقد وقفوا، في بادىء الأمر، إلى جانب الأمراء المحليين في المنطقة لإيقاف نشاط صلاح الدين، وتقدمه هناك، إلا أن ما أحرزه من انتصارات مبدئية على أمراء المنطقة، دفع معظم الأراتقة إلى التخلِّي عن موقفهم العدائي منه، ولجأوا إلى مداراته، والدخول في طاعته، وذلك لينقذوا إماراتهم من هجماته من جهة، ويحصلوا على مكاسب لقاء مساعدتهم له من جهة أخرى[١]. وعندما حاول صلاح الدين ضمَّ حلب في عام (٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م) بدَّل الأراتقة، موقفهم منه. إذ سرعان ما أعلنوا تأييدهم لأمراء الموصل والجزيرة وشمالي الشام، وشكَّلوا حلفاً عسكرياً للدفاع عن ممتلكاتهم ضد أطماعه، وانضوى أميرا حصن كيفا وماردين تحت قيادة سيف الدين غازي الثاني صاحب الموصل[٢].

وفي عام (٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م) توجه صلاح الدين إلى الموصل بهدف ضمِّها، فتحالفت القوى المحلية ضده. وضمَّ الحلف أمراء الموصل وخلاط وبدليس وحلب وماردين، واتفق الجميع على إقناعه بالكف عن ذلك، بالطرق السلمية أولاً. فأرسلوا إليه، وهو يحاصر سنجار، يطلبون منه الانسحاب وإلا أعلنوا الحرب عليه. ويبدو أنه كان واثقاً من نفسه وقدرته على التصدي، فلم يجبهم إلى ذلك. عندئذ اجتمع الحلفاء، ونسَّقوا فيما بينهم في الوسيلة التي يمكن أن يوقفوه بواسطتها. وقد تحدثنا في الفصل الخاص بالعلاقات الزنكية ـ الأيوبية عن النتائج التي ترتبت عن هذا النزاع.

هذه كانت أهم الأحداث التي ميَّزت العلاقات الزنكية ـ الأرتقية.

---

(١) خليل: ص ١٣٨.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٣٧.



القسم الثاني

الدولة الزنكية في بلاد الشام

حلب - دمشق

٥٤١ ـ ٥٧٧هـ/١١٤٦ ـ ١١٨١ م

الباب الرابع

الدولة الزنكية في عهد نور الدين محمود وابنه الملك الصالح إسماعيل



الفَصْل العَاشِر

ظهور نور الدين محمود

النتائج الآنية لوفاة عماد الدين زنكي

انقسام الدولة الزنكية

خُتمت بوفاة عماد الدين زنكي الحلقة الأولى من سلسلة المحاولات الهادفة إلى تكوين جبهة إسلامية قوية لمقاومة الصليبيين وطردهم من الشرق الأدنى الإسلامي. وعلى الرغم من فشل جميع المحاولات التي قام بها الأمراء المسلمون في شمالي العراق من أجل هذا الغرض، فإنها اختمرت في النفوس، وبدا ضعف الصليبيين واضحاً، ولكنها كانت تصطدم في ذلك كله بمؤامرات الحشيشية وبعض الأمراء المسلمين، الذين تطلعوا إلى المكاسب الفردية، مما أخَّر تكوين هذه الجبهة الإسلامية حتى منتصف القرن الثاني عشر الميلادي ليتم تأليفها على يد نور الدين محمود.

ومجمل القول إن محاولات الأمراء المسلمين في شمالي العراق وبلاد الشام، كانت البذرة الجنينية في التربة الجيدة بفضل التكتُّل الشرقي، واستعداد البلاد الإسلامية، وصحوتها، من الضربات التي أنزلتها بها الحملة الصليبية الأولى[1].

سبق أن ذكرنا أن دولة عماد الدين زنكي انقسمت، بعد وفاته في عام (٥٤١ هـ/ ١١٤٦م) إلى قسمين الشرقي تحت حكم ابنه الأكبر سيف الدين غازي الأول، ومقره الموصل، والقسم الغربي تحت سيادة ابنه الثاني نور الدين محمود ومقره مدينة حلب. وقد ورث هذا الأخير المشكلتين الكبيرتين اللتين صرف عماد الدين زنكي

(١) حبشي: ص ٤٠

معظم أيامه في معالجتهما، وهما تكوين جبهة إسلامية متماسكة، وتصفية الإمارات الصليبية المختلفة.

سياسة نور الدين محمود العامة

كان نور الدين محمود وهو في الثلاثين من عمره، واضح الرؤية والهدف منذ أن تسلّم الحكم حتى يوم وفاته. إذ كان عليه واجب الجهاد لتحرير الأرض من الصليبيين المعتدين وعلى رأسها بيت المقدس، وتوفير الأمان للناس، وأدرك أن الإنتصار على الصليبيين لا يتحقق إلا بعد جهاد طويل ومرير، حافل بالتضحيات، في خطوات متتابعة تقرِّب كل منها يوم الحسم. فالخطوة الأولى كان قد بدأها والده عماد الدين زنكي حين حرَّر إمارة الرها التي تشكل تداخلاً مع الأراضي الإسلامية، فتمكَّن بذلك من تطهير الأراضي الداخلية، وحصر الوجود الصليبي في الشريط الساحلي، وعليه أن يخطو الخطوة الثانية، لذلك وضع أسس سياسة متكاملة تتضمَّن توحيد بلاد الشام أولاً، ثم توحيد بلاد الشام ومصر التي كانت تعاني من الاضطرابات وفوضى الحكم ثانياً، وطرد الصليبيين من المنطقة ثالثاً. وكان التوحيد في نظره يتضمن توحيد الصف والهدف في آن واحد. فأما توحيد الصف فهو جمع بلاد الشام ومصر في إطار سلطة سياسية واحدة، وأما توحيد الهدف فهو جمع المسلمين تحت راية مذهب واحد، هو مذهب أهل السنة. وكان كلما توغل في خضم الجهاد، وتقدم به الزمان يزداد اقتناعاً بصوابية هذه السياسة. وكان سبيله إلى ذلك مزيجاً من العمل السياسي والمعارك العسكرية التي تخدم توحيد الصف والهدف[(1)].

ثورة الرهاويين

أتاحت وفاة عماد الدين زنكي وتقسيم مملكته بين ولديه فرصة طيبة لأعدائها للإقدام على غزوها. ففي الجنوب تطلع معين الدين أنر، صاحب السلطة الفعلية في دمشق إلى السيطرة على بعلبك وحمص وحماة، وفي الشرق، حاول الملك ألب أرسلان السلجوقي فرض سيطرته على الأملاك الزنكية، غير أنه باء بالفشل، واستردَّ الأراتقة المدن التي سبق أن ضمَّها عماد الدين زنكي في ديار بكر.

---

(١) دجاني، هادية وشكيل برهان: صلاح الدين بين التاريخ والملحمة والأسطورة، الفصل الثامن ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦، وهو أحد فصول كتاب: الصراع الإسلامي ـ الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى.

وفي شمالي الشام، مضى ريموند بواتييه، أمير أنطاكية، في غاراته حتى بلغ أسوار حلب، وكان الناس آمنين، فقتل وسبى عدداً كثيراً من المسلمين، وتمادى في غاراته حتى بلغ صلدى ونهبها. ولما وصل الخبر إلى حلب خرج أسد الدين شيركوه على رأس قوة عسكرية للتصدي له، فأدرك فرقة صليبية استاقت بعض الأسرى، فاصطدم بها وحرَّر الأسرى، ثم شنَّ الغارة على أرتاح[١] قبل أن يعود إلى حلب[٢].

وظل جوسلين الثاني أمير الرها قابعاً في تل باشر إلا أنه أعدَّ خطة لإعادة احتلال الرها[٣]. ولعل جوسلين الثاني هذا، كان أشد أعداء الدولة الزنكية خطراً عند وفاة عماد الدين زنكي، لأن استرداد الرها من الصليبيين كان أهم ما قام به عماد الدين زنكي في حياته، وهو العمل الرئيسي الذي أضفى عليه وعلى دولته أهمية خاصة في التاريخ فكان نجاح الصليبيين في استرداد الرها، إذا ما حصل يُعد ضربة قاسية لأبنائه الذين سيفقدون المجد الذي حقَّقه والدهم[٤].

لم يكن بقلعة الرها سوى حامية قليلة العدد، فاستغل الأرمن هذه الفرصة وكانوا شديدي الميل للصليبيين، ودبَّروا مؤامرة للتخلص من الحكم الإسلامي وطرد المسلمين من المدينة. ووقف جوسلين الثاني على تلك النزعة فيهم فشجَّعهم على المضي في تآمرهم، ولم يلبث أن تمَّ الاتصال بين الجانبين فكتب إليهم يستحثهم على التمرّد وتسليم البلد إليه، ووعدهم بتقديم المساعدة[٥].

خرج جوسلين الثاني على رأس قوة عسكرية ميمِّماً وجهه شطر الرها وهو عازم على استعادتها وسانده بلدوين، حاكم مرعش[٦] وكيسوم، في حين رفض ريموند بواتييه، حاكم أنطاكية، تقديم المساعدة[٧]. ويبدو أن رفضه ناتج عن التخطيط غير السليم للحملة.

كان جوسلين الثاني يأمل في مباغتة الحامية الإسلامية ويهاجمها على حين غفلة

---

(١) ارتاح: اسم حصن منيع، كان من العواصم من أعمال حلب. الحموي جـ ١ ص ١٤٠.
(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص١٧. ابن العبري: تاريخ الزمان ص ١٦١.
(٣) Grousset: II p 198.
(٤) عاشور: جـ ٢ ص ٦١١ ـ ٦١٢.
(٥) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٧٣. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٥٢، ٧٥٣. Grousset: II p 198.
(٦) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، الحموي: جـ ٥ ص ١٠٧
(٧) وليم الصوري: جـ ٢، ص ٧٥٢ ـ ٧٥٣.

من أمرها، إلا أنها تلقَّت إنذاراً مبكراً بهذا الهجوم، فاستعدَّت لصدِّه[1]. وصل جوسلين الثاني إلى أسوار المدينة في (شهر ربيع الآخر عام ٥٤١ هـ/ شهر أيلول عام ١١٤٦ م). ونجح في دخول البلدة، لكن امتنعت عليه القلعة، وقد احتمت بها الحامية الإسلامية[2].

وجد جوسلين الثاني نفسه أسيراً، هو ورجاله، داخل المدينة. ولما كانت قواته قليلة العدد ولا يمكنها اقتحام القلعة؛ استنجد بأميري أنطاكية وطرابلس والوصية على عرش مملكة بيت المقدس[3] وأرسلت الحامية، من جهتها، تطلب مساعدة نور الدين محمود في حلب، وكان جيشه آنذاك في مهمة جهادية في أنطاكية. عدَّ صاحب حلب محاولة جوسلين الثاني هذه تحدياً له، ورأى ضرورة القضاء عليه قبل وصول النجدات الصليبية. فخرج من حلب في (شهر جمادى الآخرة / شهر تشرين الثاني) على رأس جيش كثيف بلغ تعداده عشرة آلاف فارس غير المشاة والطلائع، وظهر أمام أسوار المدينة[4].

وقع جوسلين الثاني بين شقي الرحى، الحامية من الداخل وجيش نور الدين محمود من الخارج، فلم يقو على ملاقاة هذه الجموع داخل الرها وخارجها، فأسقط في يده، وأدرك أن لا سبيل إلى النجاة إلا بالهرب، فتسلَّل أثناء الليل إلى خارج المدينة، وأتخذ طريقه صوب الفرات[5]. لكن هذه العملية لم تتم بسهولة. فقد طارده نور الدين محمود واقتفى أثره، واشتبك معه في اليوم التالي وتغلَّب عليه، إلا أنه استطاع الفرار إلى سميساط بصعوبة بالغة بعدما أصيب في رقبته. وكان بلدوين حاكم مرعش من بين القتلى، كما قتل باسيل أسقف اليعاقبة، ووقع يوحنا أسقف الأرمن في الأسر[6].

خرج الأرمن من الرها بعد أن أدركوا ما ينتظرهم إذا ظلوا فيها، وقد أضرموا النيران في كثير من البيوت، لكن أكثرهم لم يتمكّن من النجاة، ووقعوا تحت ضربات

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٨٧.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٤، ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٧٣، وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٥٣.
(٣) عاشور: جـ ٢ ص ٦١٣.
(٤) ابن القلانسي: ص ٤٥٠.
(٥) ابن الأثير جـ ٩، ص ١٤، ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٧٣.
(٦) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٥٤ ـ ٧٥٦. ابن العبري: ص ١٦٢.

المسلمين[1]. وكان من الطبيعي أن يحل العقاب بمن بقي من أهل الرها النصارى الذين غدروا بالمسلمين بعدما تخلَّى جوسلين الثاني عنهم، ولم يفرِّق نور الدين محمود هذه المرة بين الصليبيين الغربيين والنصارى الوطنيين، ولا بين السريان والأرمن، فقتل الرجال وساق النساء والأطفال أسرى، وتراجعت مكانة الرها بعدما خلت من سكانها[2].

التعاون بين نور الدين محمود وحكام دمشق

تمهيد

دلَّت الأحداث التي أعقبت وفاة عماد الدين زنكي مباشرة أن سياسة ابنه نور الدين محمود استهدفت محاربة الصليبيين في أنطاكية بشكل خاص، واستمالة القوى الإسلامية المتعددة في شمالي العراق وبلاد الشام ودمجها في الكيان الشامي، لتكوين جبهة إسلامية متماسكة متبعاً في ذلك خطى والده[3]، بالإضافة إلى أن قطْع الشام عن الجزيرة كان يجعله محتاجاً إلى البقاع وحوران لتموينه بالحبوب.

وتُعدُّ دمشق من بين الإمارات الإسلامية التي شغلت حيزاً متقدماً في مجال العلاقات الطيبة مع الصليبيين. وقد وقفت في الماضي حجر عثرة أمام محاولات عماد الدين زنكي لتوحيد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى مما أثَّر بشكل إيجابي فاعل، على استمرار بقاء مملكة بيت المقدس على الرغم من تراجع إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية.

كان معين الدين أنر شيخ دمشق وصاحب السلطة الفعلية فيها في ظل حكم أميرها الصغير مجير الدين أبق وقد اتصف بالحنكة السياسية فرأى من المبررات ما حمله على التماس المساعدة من الصليبيين لدفع الزنكيين عن دمشق.

ولم يكد نور الدين محمود يستقر في حلب حتى بدت أطماع أنر الذي تطلع لاسترداد بعلبك قبل أن يفيق الزنكيون من أثر الصدمة بمقتل عماد الدين زنكي وذلك ليمسك منها بمفتاح طريق الشمال. ولم يجد أدنى صعوبة في تحقيق ذلك، إذ

---

(١) ابن القلانسي: ص ٤٥٠. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٥٣ ـ ٧٥٤

(٢) Michel le Syrien: III pp 270 - 772.

(٣) Setton: I pp 513 - 514.

سلَّمها إليه واليها نجم الدين أيوب في (شهر جمادى الأولى عام ٥٤١ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٤٦ م) كما ذكرنا.

تغاضى نور الدين محمود عن تصرف أنر لأنه لم يشأ فتح جبهات جانبية مع الأمراء المسلمين في بداية حياته السياسية، وهو بأمسِّ الحاجة إلى لمِّ شعث المسلمين، ورأى استمالته وكسب ودِّه. وتبادل الجانبان السفارات بهدف تهدئة النفوس حتى انتهى الأمر باتفاقية صلح عُقدت في دمشق في (شهر شوال عام ٥٤١ هـ/ شهر آذار عام ١١٤٧ م). وثبَّت هذا التقارب زواج نور الدين محمود من ابنة أنر[١].

وعلى الرغم من هذا الصلح وتلك الزيجة، فقد ظل أنر محافظاً على حُسن علاقته بالصليبيين بعامة، كما أبقى على التحالف بين دمشق وبين مملكة بيت المقدس، وقد هدف إلى المحافظة على توازن القوى في بلاد الشام آملاً بأن يفلح في انتهاج سياسة الحياد، فيهدد كلاً من الطرفين بتدخل الآخر إذا نُقضت الاتفاقيات فيحفظ بذلك دمشق من الضياع، ولم ينس أن المدينة كانت دائماً محط أنظار الزنكيين، لذلك تمسك بصداقته لبلدوين الثالث الصغير ملك بيت المقدس وأمه ميليسند الوصية عليه، وحرص على أن يستمر معهما بالروح نفسها التي بدأ بها تحالفه مع الملك فولك من قبل[٢].

وتطلع أنر إلى ضمِّ حمص وحماة التابعتين للحكم الزنكي، واللتين تشكلان مجالاً حيوياً لدمشق ولم يشأ إثارة نور الدين محمود بإرسال حملة إليهما، فاتصل سراً بحكامهما وعقد معهما اتفاقيات اعترفا بموجبها بالسيادة لدمشق. أما نور الدين محمود فإنه وجد نفسه عاجزاً عن التمدُّد ناحية الجنوب[٣].

وعلى الرغم من هذا التقارب فقد استمرت سياسة أنر الحذرة تشكل عقبة في طريق الزنكيين بعد عماد الدين زنكي لتحقيق مشروعهم بتوحيد العالم الإسلامي.

الحملة على حوران[٤]

من مظاهر التقارب بين حلب ودمشق تعاونهما في التصدي للصليبيين في

---

(١) ابن القلانسي ص ٤٥٠. Stevenson: p 157.

(٢) عاشور: جـ ٢، ص ٦١٦.

(٣) القلانسي: ص ٤٤٩.

(٤) يسهب المؤرخ وليم الصوري في تدوين أحداث الحملة، ويكاد يكون المصدر الوحيد في ذلك. انظر جـ ٢ ص ٧٤٢ ـ ٧٥٠.

حوران، ذلك أن أنر تجاهل أن موقعه الطبيعي يكمن في تحالفه مع المسلمين، ولم تلبث الظروف أن زعزعت تحالفه مع مملكة بيت المقدس بسرعة لم يكن يتوقعها.

فقد حدث في (أواخر عام ٥٤١ هـ/ ربيع عام ١١٤٧ م) أن خرج التونتاش أمير بصرى[١] وصرخد[٢] في إقليم حوران، على حكمه، وأعلن استقلاله عن دمشق، وحتى يدعم موقفعه التفت إلى مملكة بيت المقدس في محاولة لاستقطاب حكامها. وكان الذي شجعه على ذلك، اعتقاده بأن سياسة المسالمة التي اتبعها الملك فولك نحو دمشق قد انتهت بوفاته في (شهر تشرين الثاني عام ١١٤٢ م)، وأن الحكام الجدد سوف يلتزمون سياسة مغايرة وبخاصة أنه قدَّم إليهم في (شهر ذي الحجة عام ٥٤١ هـ/ شهر أيار عام ١١٤٧ م) عرضاً سخياً يتضمَّن التنازل لهم عن بصرى وصرخد مقابل مساعدتهم له في الاستقلال بحوران[٣].

تردَّد بارونات بيت المقدس وحكامها في قبول هذا العرض المغري الذي سيتيح لهم استغلال إقليم حوران، كما أن السيطرة على هذا الإقليم تجعل دمشق تحت رحمتهم. ويبدو أنهم أدركوا المخاطر الناتجة عن تفكيك عرى التحالف مع دمشق في ظل تربص نور الدين محمود[٤] وللخروج من هذا المأزق تصرفوا على محورين:

الأول: أنهم أمروا بحشد الجيش في طبرية استعداداً لمساعدة التونتاش عند الضرورة[٥].

الثاني: أنهم أرسلوا إلى أنر يطلبون منه إعادة التونتاس إلى حاكمية حوران.

استشاط أنر غضباً من هذا التدخل السافر في شؤونه الداخلية، غير أنه أراد أن يتجنَّب نقض التحالف مع الصليبيين خشية من قوة نور الدين محمود[٦] فأرسل يذكِّر حكام بيت المقدس بالحلف المعقود بينهما والذي يعود على الجانبين بالفائدة،

---

(١) بصرى: مدينة بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران. الحموي: جـ ١ ص ٤٤١.
(٢) صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق. المصدر نفسه، جـ ٣ ص ٤٠١.
(٣) ابن القلانسي: ص ٤٥١ وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٤٢ ـ ٧٤٣.
(٤) وليم الصوري: المصدر نفسه، ص ٧٤٣.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه: ص ٧٤٤ ـ ٧٤٥.

ويحذِّرهم أن سياستهم هذه ستؤدي به إلى محالفة نور الدين محمود مما يعرِّضهم لخطر جسيم، وعرض أن يؤدي نفقات الحملة التي جُهِّزت لمساندة التونتاش[١].

والواقع أن أنر أدرك أن تحالفه مع الصليبيين، رغم ما فيه من المهانة لكرامته في أعين المسلمين، أسلم عاقبة من بقائه وحيداً أمام نور الدين محمود الذي ما فتىء يتطلع إلى استعادة بعلبك، والعودة إلى مشروع ضمِّ دمشق، لذلك رأى أنه لا بد من الإبقاء على ذلك الحلف[٢]. ويبدو أن جانباً من مجلس المملكة كان يؤثر أيضاً المحافظة على الحلف المعقود مع دمشق، فاقتنع الملك ووالدته بوجهة النظر هذه وتقرَّر التخلِّي عن الحملة.

غير أن ضغط الجند الذين طمعوا في التمتع بخيرات إقليم حوران والتوسع على حساب المسلمين، حملهم على قبول عرض التونتاش إلا أنهم أخبروا أنر بأن دمشق لن تُمَسَّ بأي حال من الأحوال[٣]. تقدم الصليبيون بقيادة الملك بلدوين الثالث من طبرية باتجاه حوران، فعبروا نهر الأردن، وزحفوا على إقليم الجولان على شاطىء اليرموك، وواصلوا الزحف حتى بلغوا وادي الزيدي على الطريق إلى صرخد حيث انضمت إليهم فرقة عسكرية من قوات التونتاش[٤].

تلقَّى أنر تحذيراً بهذا الزحف، فخرج على رأس قوة عسكرية لقطع طريق بصرى ـ صرخد، وأرسل في الوقت نفسه سفارة إلى حلب يلتمس العون والمساعدة من نور الدين محمود، فأسرع هذا لنجدته، وتقرَّر أن تعود حماة إليه ثمناً للمساعدة على أن يحترم استقلال دمشق[٥].

وصل الصليبيون في غضون ذلك إلى درعا، التي تقع في منتصف الطريق بين الحدود وبصرى، في حين سار الحليفان إلى صرخد وفاجآها بغياب التونتاش. وقد خشي سكانها من ضخامة الجيش الإسلامي، كما بلغهم ما عاناه الجيش الصليبي من التعب والإرهاق والظمأ أثناء الزحف مما سيؤدي إلى تأخير وصوله، فاستسلمت

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٤٤ ـ ٧٤٥.
(٢) حبشي: ص ٤٤.
(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٤٥ ـ ٧٤٦.
(٤) رنسيمان: جـ ٢ ص ٣٩٠.
(٥) ابن القلانسي: ص ٤٥١. المرجع نفسه.

حامية المدينة، ثم تابعا زحفهما باتجاه بصرى، فبادرت زوجة التونتاش بتسليمها لهما[1].

تجاه هذا التطور العسكري، اضطر الصليبيون إلى التراجع خشية أن يتقدم الجيش الإسلامي فيغير على بلادهم بعد دخوله بصرى لقربها من الحدود، دون أن يحقِّقوا أي هدف من أهداف حملتهم التي عُدَّت فاشلة. وإذ أدركوا مخاطر هذا الانسحاب وسط تهديد المسلمين لمؤخرتهم، أرسلوا سفاره إلى أنر يطلبون منه السماح لهم بالعودة سالمين. وعلى الرغم من ذلك، فإن الجيش الصليبي لم يتمكن من العودة إلا بعد كثير من المتاعب[2].

وإذ أدرك أنر أن نور الدين محمود بات قريباً منه، لم يرغب في توسيع الفجوة بينه وبين الصليبيين، ولم يشأ أن يتعرض جيشهم للتدمير الشامل، فعرض عليهم تزويدهم بالمؤن[3].

ويبدو أنه أراد توجيه رسالة خفيه، إلى نور الدين محمود من أن الصليبيين لا يزالون على جانب من القوة لا يستهان بها، وأن هذه النكبة التي حلَّت بهم إن هي إلا نكبة عابرة لا تلبث أن تزول، وقد أراد تحقيق هدفين:

الأول: تهديد نور الدين محمود بتحالفه معهم إن عاد إلى التفكير في ضمِّ دمشق.

الثاني: المحافظة على توازن القوى ليتسنى تأمين استمرار حكمه، لأنه كان يخشى أن تنجو دمشق من الخطر الصليبي لتقع فريسة للخطر النوري[4].

والواقع أن التحالف الصليبي ـ الدمشقي كان في صالح الصليبيين أكثر منه في صالح الدمشقيين، وإنما استفادت منه دمشق مؤقتاً في إنقاذها من ضمِّ نور الدين محمود لها[5]. أما الصليبيون في بيت المقدس، فقد افتقروا إلى السياسة السليمة لأن تصرفهم الأحمق كاد يعرِّضهم للزوال نتيجة تحالف نور الدين محمود وأنر، وقد بدا الأول كأنه منقذ دمشق.

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٤٧ ـ ٧٤٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٧٤٨ ـ ٧٥٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ٧٥٠ ـ ٧٥١.

(٤) حبشي: ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٥) المرجع نفسه: ص ٤٨ ـ ٤٩.

نور الدين محمود والحملة الصليبية الثانية

في الوقت الذي كادت العلاقات تعود إلى صفائها بين دمشق وبيت المقدس بعد حركة التونتاش، إذ بالحملة الصليبية الثانية تصل إلى الشرق لتنفخ في روع الصليبيين روحاً جديدة من التعسف والاعتداد بالنفس، وتدفع أنر إلى توثيق تحالفه مع نور الدين محمود، وقد وقع قادتها تحت تأثير الخطر الذي شعرت به مملكة بيت المقدس نتيجة تحالف الزعيمين المسلمين، فوجهت قواتها ضد دمشق بهدف الاستيلاء عليها. وقد تحدثنا عن التطورات السياسية والعسكرية الخاصة بذلك، والتي رافقت الحملة، وما أدَّت إليه من نتائج على الصعيدين الإسلامي والصليبي مما يغنينا عن إعادة تكرار ما حدث[1]. وإنما كل ما يمكن أن يقال في هذا المقام أن أنر عمد إلى سياسته الحذرة فتلاعب بالجانبين النوري والصليبي ليحافظ على نفوذه في دمشق.

حملة نور الدين محمود ضد إمارة أنطاكية

معركة يغرى

اتجه نور الدين محمود عقب فشل الحملة الصليبية الثانية، وانسحاب الجيوش الصليبية من أمام دمشق إلى إمارة أنطاكية، بهدف فتح معاقلها، وكان صاحبها ريموند بواتييه قد أشار بأن تتجه الحملة الصليبية الثانية ضد حلب. والمعروف أن كلاً من ريموند وجوسلين الثاني لم يساندا الصليبيين أثناء حصارهم لدمشق، ويبدو أنهما تذرَّعاً بأن ليس بوسعهما ترك بلادهما مكشوفة لهجمات نور الدين محمود.

وقد حدث أثناء حصار دمشق أن خرجت قوة عسكرية إسلامية من حلب، وأغارت على إمارة أنطاكية، فاستغل ريموند غياب نور الدين محمود عن حلب وقرَّر الانقضاض على المدينة، فجمع عساكره عند بحيرة العمق، قرب حلب، واستعان بالحشيشية الذين يكنُّون الكراهية لنور الدين محمود.

كان نور الدين محمود آنذاك يهاجم حصن العُريمة، فتوجه بعد فراغه من منازلة الحصن لملاقاة ريموند وذلك في (شهر جمادى الأولى عام ٥٤٣ هـ/ شهر أيلول عام ١١٤٨ م). ودارت بين الطرفين رحى معركة قاسية عند مكان يُعرف بـ «يغرى» إلى الشمال الشرقي من بحيرة العمق، انتهت بانتصار نور الدين محمود، وقتل المسلمون

(١) انظر: الفصل السابع.

عدداً كبيراً من رجال ريموند، ووقع آخرون في الأسر، وأرسل نور الدين محمود بعض الغنائم والأسرى إلى أخيه سيف الدين غازي الأول وإلى الخليفة العباسي في بغداد، وإلى السلطان مسعود السلجوقي[1].

معركة إنِّب[2]

ودخل، في هذه الأثناء، السلطان مسعود صاحب قونية السلجوقي على الخط السياسي، وهو عازم على توسيع سلطنته باتجاه كيليكية ووادي الفرات حتى يتسنى له الانفتاح على بلاد الشام، وتأمين حصته من جراء تقطيع أوصال الأراضي الصليبية في إمارة الرها وغربي الفرات، وكان ابنه قلج أرسلان قد استغل الكارثة التي حلَّت بالصليبيين في الرها فهاجم الأراضي التي ما زالت تحت سيطرتهم[3].

وقرَّر السلطان السلجوقي القيام بهجوم على مرعش[4]، فتجهَّز ريموند بواتييه للقائه، فما كان منه إلا أن طلب من نور الدين محمود مهاجمة ممتلكاته حتى يخفِّف الضغط عن قواته، فاستجاب نور الدين محمود لطلبه.

وأثناء اجتياحه القرى التابعة لأنطاكية، قام علي بن وفا الكردي زعيم الحشيشية، حليف ريموند وعدو نور الدين محمود، بمهاجمة أفامية الواقعة على الطريق من أنطاكية إلى مرعش، فاضطر نور الدين محمود إلى الانسحاب[5]، وبخاصة أنه قد دبَّ النزاع بين اثنين من كبار قادته هما شيركوه الكردي وابن الداية أحد أعيان حلب، وقد رفض الأول أن يشترك في القتال، على أن نور الدين محمود أغار في (أواخر عام ٥٤٣ هـ/ ربيع عام ١١٤٩ م) على الإقليم المحيط بحارم[6] على الضفة الشرقية لنهر العاصي، وطلب المساعدة من معين الدين أنر، فأمدَّه بقوة من فرسانه بقيادة مجاهد الدين بزان بن مامين[7].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٢.
(٢) إنِّب: حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب. الحموي جـ ١ ص ٢٥٨.
(٣) ابن العبري: ص ١٦٤.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) ابن القلانسي: ص ٤٧٠.
(٦) حارم: حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية. الحموي جـ ٢ ص ٢٠٥.
(٧) ابن القلانسي: ص ٤٧٢.

ورأى نور الدين محمود أن يترك حارم مكتفياً بتدمير ما حولها من قرى، واتجه جنوباً ليحاصر قلعة إنِّب على الضفة الشرقية لنهر العاصي قرب معرة النعمان، فخرج ريموند بواتييه وحلفاؤه الحشيشية بزعامة علي بن وفا للتصدي له. ووردت في هذه الأثناء إشارة خاطئة إلى نور الدين محمود عن قوة ريموند بواتييه، فأحجم عن الزحف، والواقع أن الجيش الإسلامي المؤلف من ستة آلاف فارس كان يفوق في العدد جيش ريموند البالغ أربعة آلاف فارس وألف راجل[1].

قرَّر ريموند أن يرسل مدداً لحامية إنِّب فتناقص عدد أفراد جيشه، عندئذٍ أدرك نور الدين محمود ما أضحى عليه الجيش الصليبي من ضعف، فزحف باتجاهه. وفي المنخفض قرب عين مراد، في السهل الواقع بين إنِّب ومستنقع الغاب، جرى اللقاء في (شهر صفر عام ٥٤٤ هـ/آخر شهر حزيران عام ١١٤٩ م)، ودارت بين الجانبين رحى معركة شديدة انتصر فيها المسلمون وتعرَّض الجيش الصليبي للدمار، ولقي كل من حاكم مرعش وعلي بن وفا الكردي مصرعه. أما ريموند فلقي مصرعه بعد ذلك على يد شيركوه، وأرسل نور الدين محمود رأس ريموند وذراعه اليمنى في صندوق من الفضة هدية إلى الخليفة العباسي في بغداد[2].

ويصور لنا المؤرخون مدى فرح المسلمين بمقتل ريموند حيث ذكر ابن القلانسي أنه «. . . وجد اللعين البلنس مقدمهم صريعاً بين حماته وأبطاله فعرف وقطع رأسه، وحمل إلى نور الدين، فوصل حامله بأحسن صلة. وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس وقوة الحيل وعظم الخلقة مع اشتهار الهيبة وكبر السطوة والتناهي في الشر. . .»[3] ويضيف وليم الصوري أن الحزن عمَّ الناس في كل مكان على مقتل ريموند ورينولد[4].

ذيول معركة إنِّب

تُعد معركة إنِّب وما أدَّت إليه من نتائج من مقتل ريموند، ثاني نكبة تحل

---

(١) ابن القلانسي: ص ٤٧٣، رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٢٥.
(٢) المصدر نفسه: ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤ ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٥٧ . وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٨٩ ـ ٧٩١.
(٣) ذيل تاريخ دمشق: المصدر نفسه ص ٤٧٤.
(٤) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ٢ ص ٧٩١،

بالإمارات الصليبية، في بلاد الشام في مدى أعوام قلائل، ولم يعدل ألم الصليبيين بها سوى فرحة المسلمين، وزال عن مسرح الأحداث، رجل من أشد خصوم المسلمين قوة وأكثرهم كراهية لهم.

خلَّف ريموند وراءه أرملة هي الأميرة كونستانس وأربعة أطفال، وغدت أنطاكية تحت حكمها بفعل حقها الشرعي، وقد حكمت باسم ولدها الصغير بوهيموند الثالث البالغ خمسة أعوام. غير أنه ساد الشعور داخل المدينة بأنه لا بد لأنطاكية في هذه الظروف الحرجة، أن يحكمها رجل، إذ لم يكن باستطاعة الأميرة، وهي امرأة صغيرة في الثانية والعشرين من عمرها، أن تنهض بجميع شؤون الحكم والدفاع عن الإمارة أمام هجمات نور الدين محمود، فقام إيمري بطريرك أنطاكية بتولي إدارة الحكومة في ذلك الدور(١).

استغل نور الدين محمود هذه الأوضاع القلقة، فأغار على أراضي الإمارة لتتم له السيطرة على الوادي الأوسط لنهر العاصي بفتح أرزجان وتل كشفان، ثم تغلَّب على حامية أرتاح وحارم في أقصى الشمال وفتحهما وشحن هذه الأخيرة بالسلاح والميرة والعساكر لتكون قادرة على الصمود، ثم توجه نحو الغرب حيث ظهر أمام أسوار أنطاكية، وامتدت غاراته حتى بلغت السويدية، ميناء أنطاكية الرئيسي، فعرض عليه أهلها كل ما يمتلكون من أموال ومتاع مقابل ترك مدينتهم، ولكنه رفض ذلك، فترك فرقة من جيشه أمام المدينة لتبقي على حصارها، والإقامة عليها والمنع لمن يصل إليها وانصرف إلى حصن أفامية(٢).

وحيث أدرك صعوبة فتح مدينة حصينة كأنطاكية دون استعداد كافٍ، وبخاصة أن المدينة ستتلقّى نجدات سريعة من مملكة بيت المقدس وإمارة طرابلس، لذلك فضَّل الانسحاب والإغارة على ما تبقّى من معاقل تلك الإمارة في شرقي نهر العاصي، مستغلاً فرصة الاضطراب الذي ساد أنطاكية عقب مقتل أميرها ريموند بواتييه(٣).

قبل انسحابه عمد إلى عقد هدنة مع إيمري، متولي الدفاع عن أنطاكية، بعد أن

---

(١) وليم الصوري جـ ٢ ص ٧٩٢.

(٢) ابن القلانسي: ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥، وليم الصوري: المصدر نفسه.

(٣) وليم الصوري: المصدر نفسه.

وعده هذا الأخير بتسليمه المدينة إذا لم يصل الملك بلدوين الثالث ليتسلمها[1]، وقد هدف من وراء خطوته هذه ثلاثة أمور:

الأول: إنه نفر من محاولة حصار أنطاكية بينما كان بوسعه، في تلك الأثناء، فتح أفامية آخر معقل لأنطاكية في وادي نهر العاصي.

الثاني: أراد أن يعرقل محاولة مسعود، سلطان سلاجقة الروم، الاستيلاء على تل باشر لأنه لم يُرد أن يرى معاقل جوسلين الثاني تنتقل إلى أيدي سلاجقة الروم الأقوياء، ويبدو أنه أراد ترتيب أوضاع البيت الإسلامي وفق خططه التي وضعها وراح ينفِّذها، بالإضافة إلى ذلك، فإنه كان قد عقد هدنة قصيرة الأجل مع جوسلين الثاني بناء على طلبه.

الثالث: إن تهديده لأنطاكية من شأنه أن يهيء للدولة البيزنطية ذريعة للتدخل في شؤون الإمارة، وهو ما لا يحبه مطلقاً؛ فجوار الصليبيين أحب إليه من مجاورة ملك القسطنطينية[2].

أسرع بلدوين الثالث، ملك بيت المقدس وابن خالة الأميرة كونستانس، في التوجه إلى أنطاكية لدى سماعه بنبأ الكارثة التي حلَّت بها، والتزم بمعالجة الموقف بوصفه أدنى الأقرباء الذكور للأميرة الحاكمة، وهو أحق بالوصاية على العرش، فلقي تدخله قبولاً حسناً من جميع الناس، غير أن المتاعب في الجنوب حالت دون تحقيق رغبته في المضي في تحمل مسؤولية حكم أنطاكية.

وهاجم نور الدين محمود أفامية في (شهر ربيع الأول عام ٥٤٤ هـ/ شهر تموز عام ١١٤٩ م)، وهي من أمنع المعاقل الصليبية على نهر العاصي، كما كانت مصدر خطر على الإمارات الإسلامية المجاورة لا سيما شيزر وحماة، وعُهِدَ إلى الأمير صلاح الدين الأيوبي بمواصلة الحصار والتصدي لأية قوة صليبية خارجية تتدخل لفك الحصار عن الحصن.

وفقد سكان أفامية، الأمل في الانتصار، أو في وصول نجدة لمساعدتهم، وبخاصة حين تنامى إلى سمعهم ما حاق بأنطاكية، فلم يلبثوا أن طلبوا الأمان فمُنِحوا إياه وسلموا البلد، فعين عليها نور الدين محمود حاكماً من قِبله وترك فيها حامية

(١) ابن القلانسي ص ٤٧٤.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨٧.

عسكرية[1] وحاول بلدوين الثالث إنقاذ الحصن من السقوط في أيدي المسلمين، ولكنه وصل في جيش قليل العدد بعد أن تمكَّن نور الدين محمود منه وملأه ذخائر[2].

وبذلك يكون نور الدين محمود قد نجح في فتح جميع ممتلكات إمارة أنطاكية شرقي نهر العاصي، واكتفى بما حقَّقه من مكاسب في تلك المرحلة حيث استدعى قواته التي تركها أمام أنطاكية، ولا شك بأن تلك الانتصارات التي أحرزها في هذه المرحلة المبكرة من حياته السياسية، تُعدُّ نقطة تحول هامة في إدراكه لرسالته، وفي تاريخ المسلمين في بلاد الشام. فقد أضحى في نظر المسلمين بطل الإسلام، والمدافع عن حوزته.

ثم حدث أن توفي كل من معين الدين أنر المهيمن على أمور دمشق في (شهر ربيع الآخر عام ٥٤٤ هـ/ شهر آب عام ١١٤٩ م)، وسيف الدين غازي الأول صاحب الموصل في (شهر جمادى الأُولى/ شهر أيلول)، فاضطر نور الدين محمود إلى مغادرة منطقة شمالي الشام لينصرف إلى الأوضاع التي استجدت على أثر وفاة هذين الحاكمين، وحتى لا يُطعن من الخلف، عقد هدنة مع إيمري، تقرر بموجبها أن يحتفظ بالبلاد المجاورة لإمارة حلب، ويحتفظ إيمري بالبلاد المجاورة لإمارة أنطاكية[3].

(١) ابن القلانسي: ص ٤٧٤.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٣ ـ ٢٤. ابن القلانسي ص ٤٧٤ ـ ٤٧٦.



الفَصْل الحادي عَشَر

تحقيق وحدة بلاد الشام الإسلامية

التدخل الأول لنور الدين محمود في شؤون دمشق

أوضاع دمشق بعد وفاة أنر

اجتمع أعوان أنر بعد وفاته وهم حسام الدين بلاق، ومؤيد الدولة المسيب ابن علي الصوفي الرئيس، ومجاهد الدين بوزان، وأعيان الأجناد، في مجلس مجير الدين أبق حاكم دمشق، وتقرَّر أن يتولى هذا الأخير الحكم، وهو الذي كان أنر يحكم باسمه، غير أنَّ ما اتصف به مجير الدين أبق من القسوة والعنف والميل إلى المباذل، فضلاً عن قصر النظر السياسي؛ دفع مؤيد الدولة إلى التطلع للاستئثار بالنفوذ.

عارض حاكم دمشق هذا التوجه، مما دفع مؤيد الدولة إلى جمع السفهاء، والأحداث والغوغاء، وحملة السلاح من الرعية، ونشرهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدرة، بهدف الاحتماء بهم، وشهدت دمشق في (شهر رجب عام ٥٤٤ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٤٩ م) بعض أعمال العنف، فاضطر صاحب دمشق إلى الاستجابة لبعض مطالب مؤيد الدولة ومنها أن:

- يكون مؤيد الدولة ملازماً لداره.
- يكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الميدان.
- لا يركب إلى القلعة إلا مستدعياً إليها[1].

رفض مؤيد الدولة ما منحه إياه مجير الدين أبق، وعارض السلار زين الدين

(١) ابن القلانسي: ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧.

إسماعيل، شحنة دمشق، تنامي نفوذ مؤيد الدولة، مما قسَّم الدمشقيين إلى قسمين، فعادت الغوغاء إلى شوارع دمشق التي شهدت بعض المناوشات كانت لصالح هذا الأخير. واضطر السلار إلى الهرب مع أخيه إلى ناحية بعلبك كما أُبْعِدَ بعض المقربين من مجير الدين أبق[1].

والواقع أن دمشق كانت بحاجة إلى شخصية قوية تحميها من توثب نور الدين محمود في الشمال، وطموحات الصليبيين في الجنوب، لكن أزدياد حكم مجير الدين أبق ضعفاً جعله يتغاضى عن الأخطار التي هدَّدته من جانب الصليبيين، ولم يعد يبالي إلا بحماية نفسه من نور الدين محمود[2]. فأسهم تصرفه هذا في انهيار البيت البوري الذي حكم دمشق منذ عام (٤٩٧ هـ/١١٠٣ م). خشي نور الدين محمود من استمرار هذا الوضع المتدهور الذي يُفضي إلى وقوع دمشق في أيدي الصليبيين، لذلك قرر التدخل. ويشير ابن الأثير إلى الأوضاع السيئة التي باتت عليها دمشق في ظل حكم مجير الدين أبق وهيَّأت الفرصة لنور الدين محمود للتدخل فقال: «فلما ملك الفرنج عسقلان... طمعوا في دمشق، واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارة على أعماله، وأكثروا القتل بها والنهب والسبي، وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة (جزية) كل سنة، فكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد، ثم اشتد البلاء على أهلها، حتى أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم ممن أُخذ من سائر بلاد النصرانية، وخيَّروهم بين المقام عند مواليهم إو العودة إلى أوطانهم، فمن أحبَّ المقام تركوه، ومن أحبَّ وطنه سار إليه، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة... فلما كانت الأمور بها هكذا، خاف أهلها، واشفقوا من العدو، فجأروا إلى الله تعالى ودعوه في أن يكشف ما بهم من الخوف، فاستجاب لهم، وأذن في خلاصهم مما هم فيه...»[3].

توثيق عرى التحالف بين دمشق وبيت المقدس

انتهت المدة التي قامت خلالها الملكة ميليسند بالوصاية على عرش مملكة بيت

(١) ابن القلانسي: ص ٤٧٦.

(٢) عاشور: جـ ٢ ص ٦٥٧.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

المقدس، وقد بلغ ابنها بلدوين الثالث الثانية والعشرين من عمره، ومع ذلك لم توافق على التنازل عن الحكم على الرغم من مطالبة الرأي العام بتتويج ابنها ملكاً رشيداً، وعزَّ عليها أن تتخلَّى عن السلطة التي مارستها طيلة السنوات الماضية. فاتفقت مع فولشر، بطريرك بيت المقدس، على أن يتوِّجها من جديد إلى جانب ابنها بلدوين الثالث حتى يتجلَّى الاعتراف باشتراكها في الحكم، إشارة إلى مقاسمتها له النفوذ والسلطان. وبفضل نفوذ رجال الدين، كان على الملك أن يقبل مشروعاً بتقسيم المملكة بينه وبين أمه، فتأخذ هي بيت المقدس نفسها، وإقليمي يهوذا والسامرة ومنطقة الساحل، ويحكم بلدوين الثالث الجليل والشطر الشمالي من المملكة[1]. والواقع أن ذلك لم يكن حلاً مقبولاً من جانب بلدوين الثالث الذي أصرَّ على أن تكون مملكة بيت المقدس دولة واحدة لا يحكمها غيره، لذلك أجَّل موعد تتويجه.

وكان أنر قد تغافل قبل وفاته بعدة أشهر عما حدث له على أيدي حلفائه في مملكة بيت المقدس، ودفعته خشيته من نور الدين محمود إلى إجراء مفاوضات صلح مع هذه المملكة في (شهر محرم عام ٥٤٤ هـ/ شهر أيار عام ١١٤٩ م) لمدة سنتين[2]. ووثَّق خلفاؤه عرى هذا التحالف، لأنهم وجدوا في الصليبيين سنداً لهم.

أدرك بلدوين الثالث من جهته، أنَّ وقوع دمشق في يد نور الدين محمود سوف يقضي على مملكة بيت المقدس، فجدَّد التحالف مع حاكمها في ظل توافق مصلحة الطرفين في مناهضته.

محاولة نور الدين محمود الأولى ضمِّ دمشق

سُرَّ نور الدين محمود بما وقع من خلافات أسرية في مملكة بيت المقدس، والتي رافقها اضطرابات داخلية، وإذ علم بأمر ذلك الاتفاق بين دمشق وبيت المقدس، بعد عقده بقليل؛ أدرك مدى الخطر الذي تواجهه تطلعاته نتيجة ذلك، فعزم على التدخل لضمِّ دمشق وقطع الطريق على الصليبيين.

وفي الوقت الذي كان يستعد فيه بلغه موت أخيه سيف الدين غازي الأول صاحب الموصل، وما تبع ذلك من قيام أخيه قطب الدين مودود بأمر الحكم،

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٩٦ ـ ٧٩٩، رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩.

(٢) ابن القلانسي: ص ٤٧٨.

فاضطر إلى تأجيل مشروعه الخاص بضمِّ دمشق، وتوجه صوب الموصل لترتيب أوضاع البيت الزنكي، ولما استقرت الأمور في الموصل عاد إلى الشام، واتجه بكل قواه ليفرغ من قضية دمشق.

والواقع أن هدفه الأول، تمثَّل في كسب الرأي العام إلى جانبه، كما أمل في دق إسفين بين الدمشقيين وقادتهم السياسيين وبخاصة أن التحالف بين القوتين الدمشقية والصليبية لم يلاقِ كثيراً من التشجيع من كبار رجال المملكة الصليبية، فاستغل فرصة توغل قوة صليبية من بيت المقدس في أراضي حوران في (عام ٥٤٤ هـ/عام ١١٤٩ م)، وقرَّر التصدي لها، فكتب إلى زعماء دمشق يطلب منهم إمداده بألف فارس[١].

أراد نور الدين محمود الوقوف على نوايا ولاة الأمور في دمشق ونزاهة أهلها من جهة، وإثبات أنه الشخصية الوحيدة التي تهتم بمصالح المسلمين، والمسؤول عن دمشق وغيرها من البلاد الإسلامية، من جهة أخرى، بدليل أن القوة الصليبية التي هاجمت حوران لم تكن من المقدرة بحيث تستطيع الصمود أمامه، كما أنَّ إقليم حوران لم يكن من الأهمية، في هذه المرحلة، بالنسبة لمشاريعه التوحيدية[٢]. إلا أن ساسة دمشق وقفوا على نواياه الحقيقية، فردَّ عليه مجير الدين أبق ورجاله رداً جافياً.

نتيجة لذلك توجه إلى دمشق عن طريق بعلبك، وكأنما عَدَّ حكامها من زمرة الصليبيين حين قال: «لا أنحرف عن جهادهم»، وأمر جنده بأن يحسنوا التصرف في الأعمال الدمشقية أثناء زحفهم. ونزل على النهر الأعوج في المكان المعروف بـ«مرج يبوس»، وأنزل بعض عساكره في يعفور إلى الجنوب الشرقي من دمشق[٣].

في هذه الأثناء، أرسل مجير الدين أبق، رسالة عاجلة إلى بلدوين الثالث يطلب مساعدته لإنقاذ دمشق من الخطر الذي يحيق بها. ولما علم نور الدين محمود بذلك، انتقل بقواته، في (السادس والعشرين من شهر ذي الحجة عام ٥٤٤ هـ/شهر نيسان عام ١١٥٠ م)، إلى جسر الخشب المعروف بمنازل العساكر، والواقع على بُعد أربعة

---

(١) ابن القلانسي: ص ٤٧٨.

(٢) حبشي: ص ٦٣.

(٣) ابن القلانسي: ص ٤٧٨.

أميال جنوبي دمشق، وكتب إلى مجير الدين أبق وأعوانه يوبخهم على تقاعسهم في نصرة المسلمين، وارتمائهم في أحضان الصليبيين، وأوضح لهم أنَّ قوته كبيرة بفضل ما عنده من المال والرجال والعدة، وطلب منهم إمداده بألف فارس لإنقاذ عسقلان، التي كانت آنذاك تتعرَّض لهجمات الصليبيين[1].

وجاء رد القيِّمين على الحكم في دمشق قاسياً، إذ قال مجير الدين أبق يخاطب نور الدين محمود «ليس بيننا وبينك إلا السيف، وسيوافينا من الإفرنج ما يعيننا على دفعك أن قصدتنا، ونزلت علينا»[2]. لكن المساعدة الصليبية لم تأتِ، ورأى مجير الدين أبق نفسه عاجزاً عن التصدي بمفرده لقوة نور الدين محمود، لذلك عرض عليه في (شهر محرم عام ٥٤٥ هـ/شهر أيار عام ١١٥٠ م) أن يدخل في طاعته ويقيم له الخطبة على منابر دمشق بعد الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، ويضرب السكة باسمه، شرط أن يظل في حكم دمشق[3]. على أن نور الدين محمود لم يلبث أن انصرف عن قتال دمشق، وانسحب بقواته من أمام أسوارها عائداً إلى حلب، حيث توافرت له من الدوافع ما صرفه عنها لعل أهمها:

- أنه اكتفى بما عرضه عليه مجير الدين أبق.

- أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها[4].

- هطول الأمطار الغزيرة في ذلك الوقت، مما أعاق تقدمه، وأتاح لمجير الدين أبق أن يطلب المساعدة من بيت المقدس.

- لقد سعى نور الدين محمود من وراء موادعته حكام دمشق، إلى إظهار عطفه على الدمشقيين، اكتساباً لمحبتهم وتأييدهم له ضد حكامهم المتحالفين مع الصليبيين تمهيداً للتفرقة بينهما ويبدو أن الدعاية النورية كانت قوية فعلاً، حتى لقد نسب بعض الناس، إلى بركته وعدله وحسن سيرته، توالي الغيث بعد انقطاعه، في حوران والغوطة والمرج[5].

---

(١) ابن القلانسي: ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٨٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) حبشي: ص ٦٤.

- كان هدف نور الدين محمود الرئيسي، في هذه المرحلة، تحطيم جوسلين الثاني أمير الرها، وتصفية ما تبقّى من إمارته.

سفارة فاطمية عند نور الدين محمود

كان الاتجاه الطبيعي لتوسع الصليبيين في الربع الأول من القرن الثاني عشر الميلادي هو الشمال الشرقي، حيث لا توجد قوة إسلامية كبيرة عند أطراف الفرات تحول دون ذلك التوسع، ولكن مع ظهور قوة الزنكيين في شمالي العراق وبلاد الشام، حوَّلت مسار حركة التوسع الصليبي منذ منتصف القرن المذكور إلى الاتجاه الجنوبي الغربي، أي على حساب مصر والفاطميين، فتحوَّل اهتمام الصليبيين والمسلمين على السواء إلى هذا البلد[١].

وكانت الدولة الفاطمية تمر آنذاك في مراحل شيخوختها بعد أن استأثر الوزراء باختصاصات الخلفاء الفاطميين. وساد في الأوساط الفاطمية جو مشبع بالمؤامرات، في الوقت الذي كان فيه الصليبيون في مملكة بيت المقدس يتأهبون لغزو عسقلان، التي تُعدُّ خط الدفاع الأول عن مصر، والحصن الذي يحقق الأمان للمصريين من ناحية فلسطين.

ففي عام (٥٤٥ هـ/ ١١٥٠ م) شرع الملك بلدوين الثالث في عمارة استحكامات غزَّة في خطوة تمهيدية للانقضاض على عسقلان. ويبدو أن الفاطميين شعروا بتلك الاستعدادات، فاشتدَّ حذر الوزير الفاطمي ابن السَّلار، وكانت قوة نور الدين محمود متنامية في الشرق الإسلامي، مما دفعه إلى محاولة الاستعانة به لدفع الصليبيين[٢]، فأرسل إليه سفارة برئاسة أسامة بن منقذ، الذي كان آنذاك في مصر. اجتمع أسامة بنور الدين محمود أثناء حصار دمشق، وطلب منه أن يهاجم الجليل حتى يخفِّف الضغط عن عسقلان ويصرف الصليبيين عنها، على أن يقوم الأسطول الفاطمي، في تلك الأثناء، بمهاجمة موانىء الصليبيين في بلاد الشام.

كان نور الدين محمود آنذاك، في موقف حرج بين الصليبيين وحكام دمشق، لا يسمح له بأن يقدم المساعدة المطلوبة، فاعتذر لأسامة قائلاً: «أهل دمشق أعداء

---

(١) عاشور: جـ ٢ ص ٦٥١ ـ ٦٥٢.

(٢) Elisséeff: II p; 446.

والإفرنج أعداء، ما آمن أي منهما إذا دخلت بينهما»[1] ومع ذلك استطاع أسامة ابن منقذ أن يقنعه بتقديم ثلاثين فارساً بقيادة الأمير عين الدولة الياروقي، انضموا إلى القوة التي جنَّدها أسامة والبالغة ثمانمائة وستين فارساً[2]، إلا أن نور الدين محمود بدَّل رأيه بعد ذلك، ورأى أنه من الضروري مساندة المسلمين مهما كانت الظروف السياسية والعسكرية التي يمر بها، فهاجم بانياس لتخفيف الضغط عن عسقلان، كما سنرى.

نور الدين محمود وتصفية إمارة الرها الصليبية

التدخل الأرتقي

في الوقت الذي فشلت فيه الحملة الصليبية الثانية في تحقيق أهداف الصليبيين في بلاد الشام، كان جوسلين الثاني أمير الرها لا يزال قابعاً في قاعدته تل باشر، يشرف على بقية المعاقل التابعة لإمارته وهي سميساط وقلعة الروم[3] ودُلوك[4] والراوندان وقورس[5]، ثم مرعش وعزاز من ناحية الشمال على حدود إمارة أنطاكية[6].

ومن الواضح أن الصليبيين على الرغم من وجود جوسلين الثاني، افتقروا، بعد مقتل ريموند بواتييه أمير أنطاكية، إلى رجل قوي يقودهم ويتولى الدفاع عن مصالحهم في الأطراف الشمالية من العراق وبلاد الشام، لأن حاكم الرها لم يكن على مستوى الأحداث، فلم يستطع النهوض بذلك العبء، لما عُرف عنه من حب الترف والدعة. وبدلاً من أن يقوم هذا الرجل باسترداد ممتلكاته التي خسرها مؤخراً، أخذ يغير على أحد الأديرة الواقعة عند أطراف نهر الفرات[7].

---

(١) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار ص ١٢ ـ ١٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) قلعة الروم: قلعة حصينة في غربي الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط. الحموي: جـ ٤ ص ٣٩٠.

(٤) دُلوك: بليدة من نواحي حلب بالعواصم. المصدر نفسه جـ ٢ ص ٤٦١.

(٥) قورس: كورة من نواحي حلب. المصدر نفسه ص ٤١٢.

(٦) Grousset: Op. Cit II p 284.

(٧) Michel Le Syrien: Op. Cit III pp 283 - 284.

أتاح هذا الفراغ القيادي في الجبهة الصليبية، للأطراف الإسلامية، الأراتقة وسلاجقة الروم والزنكيين؛ تصفية بقايا إمارة الرها. وقد تمكَّن الأراتقة خلال هذه المرحلة، من استعادة بعض المواقع الصليبية القريبة من إماراتهم مستغلين ضعف المعاقل الباقية من إمارة الرها نتيجة الضربات التي تلقَّتها من نور الدين محمود، ومن مسعود سلطان سلاجقة الروم.

ولم يلبث قرأ أرسلان الأرتقي، صاحب حصن كيفا وخرتبرت[1]، أن تقدَّم للحصول على نصيبه من الغنيمة، فهاجم الأجزاء الشمالية من إمارة الرها، ونجح في استعادة بابولا وكركر الواقعة شمالي سميساط، وقد انتزعها من الأرمن أتباع رينولد أمير مرعش، كما فتح حصن منصور[2]، على الرغم من المساعدة التي قدَّمها جوسلين الثاني لهذه الأماكن، وبذلك امتدت سيطرة قرأ أرسلان فشملت الجهات الأرمينية في هذه المنطقة والتي كان يحكمها رينولد من قبل.

أما حسام الدين تمرتاش أمير ماردين، فقد استعاد سميساط، والبيرة، وقورس، وكفرسوت[3].

تدخل سلاجقة الروم

استغل جوسلين الثاني، في هذه الأثناء، مصرع صهره رينولد حاكم مرعش ليستولي على المدينة عازماً على أن يظفر بشيء من حطامها ويرث أميرها المقتول في بعض ممتلكاته، فزحف على مرعش ودخلها، غير أنه لم يلبث أن انسحب منها حينما اقترب مسعود سلطان سلاجقة الروم الذي لم يجد صعوبة في فتحها. وأعلنت الحامية التي خلَّفها جوسلين الثاني، ولاءها للسلاجقة بعد أن حصلت على وعد من السلطان بالإبقاء على حياة أفرادها، بالإضافة إلى حياة النصارى داخل المدينة[4].

---

(١) خرتبرت: هو الحصن المعروف بحصن زياد في أقصى ديار بكر من بلاد الروم، بينه وبين ملطية مسيرة يومين، الحموي: جـ ٢ ص ٣٥٥ .

(٢) ابن العبري: ص ١٦٤ ـ ١٦٥. Michel Le Syrien: Op. Cit III pp 294 - 295.
وحصن منصور من أعمال ديار مضر لكنه غربي الفرات قرب سميساط. المصدر نفسه: ص ٢٦٥ .

(٣) ابن العبري: ص ١٦٥. Michel Le Syrien: III pp 294 - 297. وكفرسوت: من أعمال حلب قرب بهسنا الحموي: جـ ٤ ص ٤٦٩.

(٤) Grégoire Le Prêtre: Chronique p 162.

ثم طارد مسعود جوسلين الثاني حتى أطراف تل باشر، وهزم القوات الصليبية التي اعترضت طريقه، وفتح عدة قلاع تقع على الطريق نفسه مثل عينتاب ودلوك، وضرب الحصار على تل باشر[١].

ويبدو أنه تعرَّض لضغط إسلامي، فرأى من حسن السياسة أن يتوقف عن المطاردة وينسحب من المنطقة بعدما تبين له أن إمدادات نصرانية أخذت تقترب، وأن نور الدين محمود توقف عن مواصلة تقدمه، لأنه لم يشأ أن يرى بلاد جوسلين الثاني تنتقل إلى أيدي السلاجقة فتزداد قوتهم، وهو حريص على الاستحواذ على كامل إمارة الرها، بالإضافة إلى ذلك، إنه خشي من استمرار التوسع الأرتقي على امتداد نهر الفرات، حيث قام قرا أرسلان بمهاجمة الأجزاء الشمالية من إمارة الرها.

نتيجة هذا التطور السياسي والعسكري، تدخَّل نور الدين محمود بين السلطان مسعود وجوسلين الثاني لعقد صلح بينهما، وأطلق الثاني بموجبه كل ما لديه من أسرى المسلمين كما قدَّم له اثنتي عشرة حلَّة حربية[٢].

وفي عام (٥٤٥ هـ/ ١١٥٠ م) دبَّ النزاع بين نور الدين محمود وجوسلين الثاني، وتمكَّن الأول من إلقاء القبض على الثاني، وأسره كما سنرى، فاستغل السلطان مسعود اختفاءه عن المسرح السياسي تاركاً ما تبقَّى من إمارة الرها دون مدافع، فقام باجتياح أراضي كيسوم وبهسنا[٣] ورعبان[٤] الواقعة شمالي إمارة الرها في (شهر صفر/ شهر حزيران) وأقطعها لابنه قلج أرسلان، ولم يبدِ سكان هذه البقاع أية مقاومة، وخرج من رغب منهم لاجئاً إلى عينتاب وتل باشر، وكانت هذه الأخيرة بإمرة جوسلين الثالث ابن أمير الرها[٥]، عندئذٍ أسرع بلدوين الثالث، ملك بيت القدس، إلى الشمال لتدارك الموقف، فوصل إلى أنطاكية. وبعد تقييمه للوضعين السياسي والعسكري، أدرك أن قوة الصليبيين في بلاد الشام لاتكفي لمواجهة الأخطار المحدقة بهم من قِبل المسلمين، فقرَّر الاستعانة بالأمبراطور البيزنطي مانويل كومنين.

---

(١) Grégoire Le Prêtre: P 162.

(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٩٣.

(٣) بهسنا: قلعة حصينة قرب مرعش وسميساط. الحموي ج١ ص ٥١٦.

(٤) رعبان: مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة في العواصم. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٥١.

(٥) Michel Le Syrien: III p. 296.

وقوع جوسلين الثاني في أسر المسلمين

وقع الشقاق بين نور الدين محمود وجوسلين الثاني في شتاء عام (٥٤٤ هـ/ ١١٥٠ م)، فجمع نور الدين محمود عساكره، وتوجه إلى شمالي حلب لقتاله وانتزاع بعض القلاع منه، وبخاصة تل باشر وعينتاب وعزاز، فلما علم جوسلين الثاني بذلك خرج على رأس قوة عسكرية، فاصطدم به وانتصر عليه[(١)].

على أنه حدث في (شهر ذي الحجة عام ٥٤٤ هـ/ شهر نيسان عام ١١٥٠ م)، بينما كان جوسلين الثاني متوجهاً إلى أنطاكية للتشاور مع حكومتها، أن ابتعد عن حرسه، فوقع في أيدي بعض التركمان نتيجة كمين نصبوه له، وأخذوه أسيراً. وأعرب هؤلاء عن استعدادهم لإطلاق سراحة مقابل دفع جزية ثقيلة. ولما بلغ نور الدين محمود هذا الخبر، أرسل قوة عسكرية من الفرسان انتزعته من أيديهم في (شهر محرم عام ٥٤٥ هـ/ شهر أيار عام ١١٥٠ م) وأمر بسجنه في حلب بعد أن سمل عينيه، حيث مات في سجنه بعد تسع سنوات، في عام (٥٥٤ هـ/ ١١٥٩ م)[(٢)].

وقد أبدى المؤرخون المسلمون فرحهم بأسره لأنه كان «أشد الفرنج شجاعة، وأقواهم بأساً، وأصحَّهم رأياً، وأعظمهم مكيدة»[(٣)]، وإن كان إلى جانب ذلك فاسداً منحلَّ الخلق، ميَّالاً إلى الترف والدعة، وعدُّوا وقوعه في الأسر من أعظم الفتوح، لأنه كان شيطاناً عاتياً، شديداً على المسلمين، قاسي القلب، وأُصيبت النصرانية كافة بأسره[(٤)].

انعكاس أسر جوسلين الثاني على أوضاع إمارة الرها

ترك وقوع جوسلين الثاني في الأسر ما تبقَّى من حطام إمارة الرها دون مدافع، وبدا واضحاً أن زوجته بياتريس لم يكن بوسعها أن تستمر في الصمود، كما أنه لم يكن بوسع الصليبيين، بعامة، القيام بأي عمل جدِّي لمساعدتها بعد أن عزلت فتوحات نور الدين محمود والأمراء المسلمين من الأراتقة والسلاجقة المنطقة عن أنطاكية.

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ٩ ص ٢٩.

(٢) ابن القلانسي: ص ٤٨١، وليم الصوري: جـ ٢ ص ٧٩٣ ـ ٧٩٤. رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨.
Elisséeff: II pp 453 - 454.

(٣) ابن واصل، جـ ١ ص ١٢٣.

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٩.

لم يكن الأمبراطور البيزنطي مانويل بعيداً عن تتبُّع سير الأحداث المتعلقة بشمالي بلاد الشام. وإذ تهيأت الفرصة للكونتيسة للتخلّي عن ممتلكاتها، جاءتها رسالة من الأمبراطور تتضمن عرضاً بيزنطياً بشراء ما تبقّى من بلاد إمارة الرها، وهي تل باشر، وسميساط وقلعة الروم والبيرة ودلوك وعينتاب والراوندان، فضلاً عن حقوقها في الأماكن الأخرى التي كانت تابعة، لإمارة الرها والتي فتحها المسلمون مؤخراً، ظناً منه أن هذه الأماكن ستمكّنه من استرداد النفوذ البيزنطي القديم في تلك المناطق الشرقية. والواقع أنه أضاع معظم هذه الحصون في أقل من سنة بعد أن انعقد التحالف بين نور الدين محمود والسلطان مسعود كما سنرى.

ورأت الكونتيسة بياتريس أنه لا بد أن ترفع طلب الأمبراطور إلى الملك بلدوين الثالث، الذي كان آنذاك في أنطاكية، وقد حضر المؤرخ وليم الصوري جلسة المناقشات، وترك لنا صورة حيَّة عنها، ونصه كافٍ لإيضاح الاختلاف في وجهات النظر حيث انقسم المجتمعون إلى فريقين:

رفض الفريق الأول قبول تنفيذ الصفقة، وكان مدفوعاً بالعاطفة الدينية، وحجته في ذلك أنَّ اتحاد الأمراء الصليبيين في بلاد الشام كافٍ لإجلاء المسلمين عن الأماكن التي استعادوها.

أما الفريق الثاني، الذي وافق على قبول تنفيذ الصفقة، فاعتقد بأن امتلاك البيزنطيين لهذه الأراضي أفضل من وقوعها في أيدي المسلمين، بعدما أدركوا هدف كل من نور الدين محمود ومسعود سلطان سلاجقة الروم من كثرة فتوحاتهما، كما أملوا بوقوع احتكاك بين القوى الإسلامية والأمبراطورية البيزنطية مما يؤدي إلى إضعاف قوتيهما وإنقاذ الإمارات الصليبية على حسابهما، أما إذا ضاعت هذه الأراضي فسيكون الأمبراطور مسؤولاً تجاه الرأي العام النصراني.

وانتصر أخيراً الفريق الثاني، وهكذا تسلم مانويل تل باشر والراوندان وسميساط وعينتاب ودلوك والبيرة بينما احتفظت الكونتيسة بياتريس بقلعة الروم على نهر الفرات، قرب سميساط، ومنحتها للجاثليق الأرميني ليتخذها مقراً له، وبقيت هذه القلعة مقراً له نحو نصف قرن في ظل الحكم الإسلامي[1].

أدرك مانويل، بعد قليل من الوقت، أن هذه الحصون ثقيلة العبء وتحتاج إلى

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٠٠ ـ ٨٠١. Michel Le Syrien: III pp 296 - 297.

جهد كبير للمحافظة عليها، والاحتفاظ بها، نظراً لبعدها عن مركز الأمبراطورية من جهة، ولوقوعها وسط أراضٍ يسيطر عليها المسلمون من جهة أخرى، هذا في الوقت الذي كانت فيه الأمبراطورية تعاني تهديداً مستمراً من جانب النورمان في صقلية، مما جعلها عاجزة عن الإهتمام بهذه الأطراف الشرقية.

استغل المسلمون تدهور الأوضاع السياسية في تلك المنطقة، وراحوا يهاجمون الحصون المذكورة. فهاجم مسعود تل باشر وحاصرها، واتصل أثناء ذلك بنور الدين محمود وعرض عليه التحالف بينهما، وثبَّت هذا التحالف زواج نور الدين محمود من ابنة مسعود، ولم يكن المهر سوى تل باشر[1]، ودخل تمرتاش الأرتقي في هذا التحالف.

وأخذت الجيوش الإسلامية تزيد من ضغطها على المدينة، غير أن ما أعدَّته الكونتيسة بياتريس، زوجة جوسلين الثاني والوصية على جوسلين الثالث، من الدفاع عن المدينة بلغ من القوة ما دعا المسلمين إلى الانسحاب. غير أن نور الدين محمود نجح في فتح عزاز التابعة لإمارة أنطاكية وذلك في (شهر ربيع الأول/ شهر تموز)، كما نجح مسعود في فتح مرعش، ثم اشترك نور الدين محمود ومسعود في عام (٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م) في مهاجمة الحاميات البيزنطية في الحصون المتبقية، وهرع الأراتقة لينالوا نصيبهم منها، فسقطت كلها في أيدي المسلمين في عمليات متتالية. وهكذا تمَّ تقسيم الغنيمة على الشكل التالي:

أخذ نور الدين محمود عزاز وراوندان وتل باشر وكان من نصيب مسعود مرعش ورعبان وكيسوم ودلوك وبيت الحصن وعينتاب، في حين أخذ تمرتاش سميساط والبيرة وكفرسوت، وغنم قرا أرسلان بابولا وكركر وكاختي وحصن منصور كما ذكرنا[2]. وبذلك زالت إمارة الرها الصليبية من الوجود، وعادت أراضيها إلى السيادة الإسلامية، الأمر الذي هيأ لنور الدين محمود فرصة التدخل في أمور دمشق، والعمل على ضمِّها إلى الجبهة الإسلامية في بلاد الشام[3].

---

(١) أبو شامة: جـ ٢ ص ١٨٤.

(٢) ابن القلانسي: ص ٤٨١. وليم الصوري: جـ ٣ ص ٣٢٦، ٣٣٦ ـ ٣٣٩، ابن العبري ص ١٦٤ ـ ١٦.
Michel Le Syrien: III pp 294 - 295.

(٣) الحويري: ص ١٠٨.

التدخل الثاني لنور الدين محمود في شؤون دمشق

محاولة نور الدين محمود الثانية ضمِّ دمشق

لم يكد نور الدين محمود ينتهي من تصفية إمارة الرها، حتى التفت مجدَّداً إلى دمشق، للقضاء على البيت البوري المتحالف مع الصليبيين. فزحف مرة أخرى باتجاه المدينة في (شهر محرم عام ٥٤٦ هـ/ شهر نيسان عام ١١٥١ م) ونزلت طليعة عسكره على أرض عذراء من عمل دمشق وما والاها، ثم قصدت قوة منهم ناحية السهم والنيرب[١] وكمنت لعسكر دمشق عند الجبل، ثم وصل نور الدين محمود بالجيش الرئيس، بعد أسبوع، ونزل على عيون فاسريا[٢] ما بين عذراء ودومة، ثم رحل من هذا المكان ونزل في أراضي حجيرا وراوية[٣].

نتيجة لهذا الحصار دبَّت الفوضى في أرجاء المدينة، وعمد حكام دمشق إلى إرسال جماعات من جندهم لتفسد الزرع المحيط ببلدهم حتى لا يستفيد نور الدين محمود منها، مما أحدث تذمراً بين السكان، فارتفعت الأسعار، وانقطع الطريق من المارّة، واضطربت الأمور[٤]. وأرسل نور الدين محمود رسالة إلى مجير الدين أبق يخبره بأن غايته إصلاح المسلمين وجهاد المشركين، وتحرير أسرى المسلمين منهم، وطلب منه تقديم المساعدة، والمعاضدة، لكنه أصمَّ أذنيه عن هذا النداء وردَّ عليه رداً جافاً[٥]. عندئذٍ تقدَّم إلى أسوار دمشق، ولكنه لم يشنّ هجوماً عليها حقناً لدماء المسلمين، وظلَّ يأمل في دخول المدينة دون قتال. وبعد أن أمضى قرابة شهر انسحب إلى داريا بفعل ما تناهى إلى أسماعه عن قرب وصول بلدوين الثالث ليقطع عليه طريق دمشق، وأقام معسكره في ضواحي بلدة الزبداني بعدما سيطر عليها[٦].

وكان ملك بيت المقدس قد خرج من بلاده قاصداً دمشق لمساندة حلفائه واستطاع الوصول إليها في (الثالث من شهر ربيع الأول/ العشرين من شهر

---

(١) السهم والنيرب من منتزهات دمشق في أرض الصالحية.

(٢) تقع في سفح جبل قاسيون.

(٣) راوية هي بلدة الست زينب الحالية وحجيرا على مقربة منها.

(٤) ابن القلانسي: ص ٤٨٥.

(٥) المصدر نفسه: ص ٤٨٥.

(٦) المصدر نفسه: ص ٤٨٦.

حزيران)[١] وسمح مجير الدين أبق له ولجنوده بدخول البلد لزيارة الأسواق، كما قام هو بزيارة ودية للمعسكر الصليبي، غير أن الحليفين لم يكونا من القوة بحيث تكفي لمطاردة نور الدين محمود فاستقرَّ رأيهما على النزول بقواتهما على حصن بصرى والاستيلاء عليه، لعلهما يصرفانه عن دمشق. على أن الصليبيين وحدهم زحفوا نحو بصرى بعد أن نكص أبق عن مشاركتهم.

وكان حاكم بصرى، سرخاك، قد أعلن الثورة على الحكم في دمشق واستجار بنور الدين محمود الذي أسرع على رأس قواته لنجدته مما حال دون استيلاء الصليبيين عليها[٢]. ولم تظفر الحملة بشيء من النجاح، غير أن سرخاك الذي لم يختلف عن سائر صغار الأمراء المسلمين فيما اتصفوا به عادة من الخفَّة، وسرعة التقلب، لم يلبث أن مال إلى الصليبيين واتخذهم أصدقاء[٣]، وكان لزاماً على مجير الدين أبق أن يلتمس المساعدة من نور الدين محمود لإرغامه على الخضوع.

ولم يكد الصليبيون يعودون إلى بيت المقدس حتى قرَّر نور الدين محمود الزحف مجدَّداً على دمشق لمهاجمتها، ولكنه لم يلبث أن أوقف الزحف بعد أن اقترب منها تحرُّجاً من قتل المسلمين، وأشار إلى أنه «لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً، وأنا أدخرهم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين»[٤] كما أن الجنود الدمشقيين لم يحاولوا مقاومته، ووقف أبق على هذه الظاهرة.

ومن هذا الواقع جرت مفاوضات بين الطرفين في (شهر ربيع الآخر/ شهر تموز) لإحلال السلام، اشترك فيها أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب نيابة عن نور الدين محمود، بينما مثَّل برهان الدين علي البلخي الفقيه الدمشقي، مجير الدين أبق[٥]، وتمخَّض عن المفاوضات عقد اتفاقية بين الطرفين ارتحل نور الدين محمود بعدها إلى بصرى في محاولة لإخضاع سرخاك، ثم عاد إلى حلب[٦]، والواقع أن المؤرخين المعاصرين، وبخاصة ابن القلانسي، لم يدوِّنوا شروط الصلح، ومن ثمَّ خلت المصادر اللاحقة، التي أخذت عنهم، من هذه الشروط.

وتأكيداً لهذه الاتفاقية، قام مجير الدين أبق بزيارة ودية إلى حلب في (الثاني

---

(١) ابن القلانسي: ص ٤٨٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ٤٨٨.
(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٤٢.
(٤) ابن القلانسي: ص ٤٨٩.
(٥) المصدر نفسه: ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠.
(٦) المصدر نفسه: ص ٤٩٠.

عشر من شهر رجب/ أواخر شهر تشرين الأول)، فرحَّب به نور الدين محمود وأكرمه «وبالغ في الفعل الجميل في حقه، وقرَّر معه تقريرات اقترحها عليه، بعد أن بذل له الطاعة، وحُسن النيابة عنه في دمشق...»[1].

دفع هذا الموقف الجديد للمسلمين في بلاد الشام بلدوين الثالث للاستيلاء على عسقلان، وقد أدَّى هذا الحدث بدوره إلى قيام نور الدين محمود بإنهاء مسألة دمشق بعد ذلك[2].

عمليات نور الدين محمود العسكرية في الشمال ضد الصليبيين

كان نور الدين محمود في جهاد دائم ضد الصليبيين بهدف استدراجهم وإنزالهم من معاقلهم أو إضعاف قوتهم تمهيداً للقضاء عليهم، بالإضافة إلى دفع خطرهم عن المناطق الإسلامية، ذلك أنَّ أمن البلاد يبقى معقوداً بنشاط الحاكم، فإذا توقف عن التجوال في نواحي بلاده، وتفقُّد المعاقل، لم يأمن خروج بعض ولاته عليه، كما أن سلامة الحدود مرهونة باستمرار الرابطة فيها والقيام بالغزوات داخل أراضي العدو، ثم إن عدد أفراد جيشه كان في تزايد مستمر مما تطلب إشغالهم بالحرب مع ما ينتج عنها من ثواب ومغانم.

أمضى نور الدين محمود عام (٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م) في الشمال في محاولة لمهاجمة إمارة طرابلس بعد مصرع أميرها ريموند الثاني على يد الحشيشية، واعتلاء ابنه ريموند الثالث، الذي ناهز الثانية عشرة من عمره، تحت وصاية والدته هوديرنا[3]. غير أنه حدث في هذه الإمارة مثلما حدث في أنطاكية، أن الحاجة كانت ماسَّة إلى رجل يتولى الإشراف على حكومتها.

استغل نور الدين محمود هذه الأوضاع القلقة، فهاجم أراضي الإمارة وتوغل داخلها حتى بلغ أنطرطوس، وفتحها في (شهر محرم عام ٥٤٧ هـ/ شهر نيسان عام ١١٥٢ م)، وأقام فيها حامية عسكرية[4]، قبل أن يغادرها إلى تل باشر، فاصطدم

---

(١) ابن القلانسي: ص ٤٩١.

(٢) حبشي: ص ٦٩.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٠٥.

(٤) يذكر في هذا الصدد أن الصليبيين ما لبثوا أن استعادوا انطرطوس، وقام بلدوين الثالث بتسليمها إلى فرسان الداوية في عام (٥٧٩ هـ/ ١١٨٣م) بعد موافقة هوديرنا.

بالصليبيين عند دلوك. وجرت بينهما رحى معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين، وقُتل من الصليبيين وأُسر الكثير[1].

سقوط عسقلان في أيدي الصليبيين

شهدت الدوائر الفاطمية منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي سلسلة من المؤامرات من أجل الاستئثار بالنفوذ، ودارت الصراعات، مرة أخرى، بين طوائف الجند، وتطلّع ولاة الأقاليم إلى منصب الوزارة وتنافسوا عليه. وانتزع الوزراء كل ما للخلفاء من سلطان لكن لم يلِ الوزارة رجل قدير منذ مصرع الوزير الأفضل بن بدر الجمالي في (الأول من شهر شوال عام ٥١٥ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٢١ م)، وظل الخليفة الآمر يحكم حتى لقي مصرعه في (الثاني من شهر ذي القعدة عام ٥٢٤ هـ/ السابع من شهر تشرين الأول عام ١١٣٠ م)[2].

وحاول الخليفة الحافظ (٥٢٥ ـ ٥٤٤ هـ/ ١١٣١ ـ ١١٤٩ م)، أن يتخلّص من نفوذ الوزراء فعيَّن ابنه الحسن وزيراً، وإذ لم يكن الحسن مخلصاً، مما دفع والده إلى التخلص منه بالسم في عام (٥٢٩ هـ/ ١١٣٥ م) تحت ضغط الأمراء. فتلاه في منصب الوزارة بهرام الأرمني الذي ملأ مناصب الدولة بأهل وطنه، فأثار بذلك ردة فعل في عام (٥٣١ هـ/ ١١٣٧ م)[3].

ولما توفي الحافظ خلفه ابنه الظافر (٥٤٤ ـ ٥٤٩ هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٥٤ م). واستبدَّ بالأمر في عهده الوزير العادل ابن السَّلار الذي لقي مصرعه بعد ثلاث سنوات (محرم عام ٥٤٨ هـ/ نيسان عام ١١٥٣)[4].

وهكذا انغمست الدوائر الفاطمية في سلسلة لا تنقطع من المؤامرات والاغتيالات في ظل الأيام الأخيرة للدولة الفاطمية، وقد أتاحت هذه الفوضى السياسية الفرصة للملك بلدوين الثالث بتوجيه نشاطه الحربي إلى مصر. على أن غزو مصر، وهي السياسة التي اتخذت طابعاً عملياً واسع النطاق على يد الملك عموري الأول فيما بعد، كان لا بد لها من التمهيد بالاستيلاء على عسقلان، وهي القاعدة

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جـ ٥ ص ١٨٥.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤١ ـ ٢٤٣.
(٣) سيد، أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر ص ١٩٢ ـ ١٩٧.
(٤) المرجع نفسه: ص ٢٠٨ ـ ٢١٢.

الوحيدة التي بقيت للفاطميين في فلسطين[1]، وتُعدُّ عسقلان من أمنع الحصون بامتدادها من البحر على هيئة نصف دائرة كبيرة، وباستحكاماتها القوية فضلاً عن حرص الحكومة الفاطمية بشحنها بالذخائر والمؤن[2].

وقد مهَّد بلدوين الثالث لغزوته بتدابير سياسية وعسكرية. فمن حيث التدابير السياسية، كان لا بد له من حماية ظهره من جانب دمشق قبل أن يشرع في مهاجمتها، فحرص على مساندة مجير الدين أبق أثناء حصار نور الدين محمود لدمشق، واشترك مع الدمشقيين في الحدِّ من نفوذه في إقليم حوران، فقويت الصِلات بين الجانبين، وتمكَّن من حصر جهوده في غزو عسقلان.

ومن حيث التدابير العسكرية، فقد جدَّد أسوار غزة، فهدم القديمة منها وبنى لها سوراً جديداً، كما شيَّد بها قلعة قوية عهد بحراستها إلى الداوية[3]. وقد شعر الفاطميون بهذه الاستعدادات، التي قام بها بلدوين الثالث، بدليل ما لجأ إليه الوزير الفاطمي ابن السَّلار من إرسال أسامة بن منقذ في سفارة إلى نور الدين محمود للحصول على مساعدته، كما ذكرنا.

وهكذا تهيأت الظروف لبلدوين الثالث، فظهر أمام أسوار عسقلان في (شهر ذي الحجة عام ٥٤٧ هـ/ شهر آذار عام ١١٥٣ م). استمر الحصار بضعة أشهر كانت الحكومة في القاهرة تمدُّ أهل عسقلان بالمعونة عن طريق البحر، إلا أن الفاطميين لم يغامروا بمساعدة المدينة من البر. وتجاه طول مدة الحصار، ونتيجة للقذف شبه المتواصل بدأت الأبراج بالتداعي. وفي (شهر جمادى الأولى عام ٥٤٨ هـ/ شهر آب عام ١١٥٣ م) اضطرت الحامية إلى التسليم بشرط أن يبذل الصليبيون الأمان للسكان أثناء خروجهم من المدينة، فقبل بلدوين الثالث هذا الشرط والتزم بتنفيذه. ودخل الصليبيون المدينة في موكب النصر وتسلموا القلعة بما حوته من المال والسلاح، وتقرَّر جعل عسقلان إقطاعاً لكونت يافا عموري، شقيق الملك بلدوين[4].

كان الاستيلاء على عسقلان، على الرغم من أهميته في نظر ملك بيت المقدس،

(١) عاشور: جـ ٢ ص ٦٥٢.
(٢) راجع فيما يتعلق بوصف عسقلان، وموقعها، وأهميتها: وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٠٩ ـ ٨١٠.
(٣) عاشور: جـ ٢ ص ٦٥٢.
(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨١١ ـ ٨١٤، ٨١٦ ـ ٨٢١.

كسباً قليل الأهمية سياسياً ومادياً. فمع أن الحصن كان قاعدة فاطمية، إلا أنَّ الحملات التي كانت تنطلق منها على أراضي الصليبيين المجاورة، لم تعد تشكل أي مصدر خطر، كبيراً كان أو صغيراً، بفعل حالة الضعف التي أمست عليها الخلافة الفاطمية.

غير أن الصليبيين، بعد استيلائهم على عسقلان، أضحوا هدفاً للمغامرين الخطرين المنطلقين من مصر، ولعل ذلك هو السبب في أنَّ نور الدين محمود، بما اشتهر به من سياسة بعيدة النظر، لم يحاول التدخل في الحملة إلا بما أزمع القيام به من حملة على بانياس بالاشتراك مع مجير الدين أبق، لتخفيف الضغط عن عسقلان[١].

ويؤكد ابن الأثير أن الصليبيين أصبحوا، بعد الاستيلاء على عسقلان، على جانب كبير من البأس، «فقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق، واستضعفوا مجير الدين أبق وتابعوا الغارات على أعماله»[٢].

وهكذا تراجع مركز دمشق حتى دخلت تحت حماية الصليبيين، ودفع الدمشقيون ضريبة سنوية لهم، فكانت رسلهم تدخل المدينة لجباية الأموال المفروضة على أهلها لملك بيت المقدس[٣].

أحدث سقوط عسقلان بأيدي الصليبيين هزَّة عنيفة حرَّكت العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، ولم تكن خطورة هذا الحدث في أنَّ المدينة كانت آخر معقل للمسلمين في جنوبي بلاد الشام بقدر ما كانت خطوة إلى الأمام أوصلت الصليبيين إلى أبواب مصر التي لم تكن موصدة بإحكام.

الحملة على بانياس

إن هجوم الصليبيين على عسقلان لم يتمَّ دون أية محاولة إيجابية لإنقاذ المدينة من جانب القوى الإسلامية في بلاد الشام، فوسط الاستغاثات المتواصلة للعسقلانيين، قرَّر نور الدين محمود القيام بحملة على بانياس لتخفيف الضغط عن عسقلان، وقد

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٤٨.

(٢) التاريخ الباهر: ص ١٠٦.

(٣) المصدر نفسه.

شاركه مجير الدين أبق حاكم دمشق متناسياً ما بينهما من خلافات.

زحفت الجيوش الإسلامية باتجاه بانياس في (شهر محرم عام ٥٤٧ هـ/ شهر نيسان عام ١١٥٢ م)، وفتح نور الدين محمود أثناء زحفه حصن أفلس، ووصلت إليها في (آخر شهر صفر/ شهر حزيران)، وقد خلت من المدافعين عنها، فضربت عليها حصاراً مركَّزاً.

وفي الوقت الذي كادت فيه المدينة أن تسقط في أيديهم، دبَّت الخلافات بين المسلمين، من غير سبب موجب، نتج عنها اصطدامات بين أتباع الزعيمين المسلمين، الأمر الذي أدَّى إلى افتراقهما، فاتجه نور الدين محمود إلى حمص وعاد مجير الدين إلى دمشق[1].

التدخل الثالث لنور الدين محمود في شؤون دمشق

ضمُّ دمشق

كانت ردة الفعل قوية عند نور الدين محمود لسقوط عسقلان، إذ فتحت باباً جديداً للصراع بينه وبين مملكة بيت المقدس، كما أثارت هذه الكارثة طموحه لتوحيد بلاد الشام عبر القضاء على البيت البوري في دمشق، في ظل تطلع مجير الدين أبق ومستشاروه إلى الارتماء في أحضان الصليبيين حرصاً على سلامتهم، على ما يمكن أن يتعرضوا له من مصير إذا نجح نور الدين محمود في ضمِّ دمشق.

أما أهل دمشق فقد ضاقوا ذرعاً بالصليبيين الذين ازدادوا غطرسة، وإذ برهنت الأسرة البورية على خيانتها للمسلمين «قلَّت حرمة مجير الدين عند أهل دمشق». وأدرك نور الدين محمود، من خلال تجاربه السابقة، أن دمشق لن تؤخذ بالقوة، بفعل مساعدة الصليبيين للعائلة المالكة في كل مرة يهاجمها، فعدل إلى استخدام الأساليب السياسية[2]، وهيَّأ الظروف التي تمكِّنه من دخول المدينة دون معارضة، فتصرف على محورين:

الأول: أراد استغلال الفجوة بين الحكام والشعب، لدفع الدمشقيين على الثورة ضد البيت البوري.

---

(١) ابن القلانسي: ص ٤٩٦.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٥.

الثاني: تقرَّب من مجير الدين أبق وأوهمه برغبته في تناسي الماضي، وأظهر له المودة، ووصله بالهدايا حتى وثق به[1]. وحرص في الوقت نفسه على الإيقاع بينه وبين كبار رجال دولته المعارضين لمشروعه بضمِّ دمشق إلى الجبهة الإسلامية الموحدة، فكان يبعث إليه برسائل بين الحين والآخر، يخبره بأنه تلقَّى عروضاً من بعض أمراء دمشق للتدخل ضده، ولكنه رفض ذلك حرصاً منه على المودة التي يكنُّها له.

نجحت خطة نور الدين محمود في تحقيق الأهداف التي أُعدَّت من أجلها، فقد وقع الخلاف بين مجير الدين أبق وأعوانه، بدليل أن حاكم دمشق قبض على كثير من رجال دولته، فقتل بعضهم وسجن بعضاً، وأبعد البعض الآخر عن مناصب الإدارة. ومن جهتهم وثق أهل دمشق بالرئيس مؤيد الدين الصوفي والتفّوا من حوله، وكان هذا الرجل على جفاء آنذاك مع مجير الدين أبق، فقبض عليه هذا الأخير وسجنه في قلعة دمشق، مما أثار حالة من الغليان في المدينة، كما قتل أخاه حيدرة[2].

وفقد مجير الدين أبق ثقته بأعوانه، كما ازدادت الفجوة بينه وبين الشعب، اتساعاً، ولم يبق مخلصاً له سوى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم وهو رجل اشتهر بالدهاء والجرأة وكان من أشدِّ الناس حرصاً على استقلال دمشق. ففوَّض إليه مجير الدين أبق أمر دولته، وجعله في مقام معين الدين أنر المتوفى. وقد وقف هذا الرجل على أهداف نور الدين محمود ومراميه، فقرّر التصدّي له.

وشعر نور الدين محمود من جهته بأساليبه الاعتراضية، وأدرك أنه يتعذر عليه تنفيذ سياسته مع وجود ذلك الرجل، لأنه «لا يتمكّن معه مما يريد»[3] لذلك سعى للإيقاع به عند مجير الدين أبق الذي لم يحجم عن قتله، وبذلك خسر أخلص أعوانه. وكان آخر ما نطق به قبل مقتله «إن الحيلة قد تمّت عليك فلا تقتلني، واستبقني فإنه سيظهر لك ما أقول»[4] وكان نور الدين محمود قد فرض حصاراً اقتصادياً على دمشق حتى يضيّق على أهلها ويدفعهم للثورة. فمنع قوافل التموين القادمة من الشمال من التوقف في المدينة، مما أحدث حالة خطيرة من الجوع، والفوضى، والشعور

(١) ابن الاثير: جـ ٩ ص ٤٥.

(٢) ابن القلانسي: ص ٥٠٠ ـ ٥٠١.

(٣) ابن واصل: جـ ١ ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٤) ابن الأثير: الباهر ص ١٠٧.

بالاستياء. وهجر كثير من الدمشقيين مدينتهم، كما توفي جماعة وافرة في الطرقات، وانقطعت الميرة من كل الجهات[1].

وبثَّ نور الدين محمود رجالاً من عنده داخل دمشق يردِّدون الشائعة بأن ما حدث نجم عن خطأ مجير الدين أبق لأنه رفض التعاون مع المسلمين، كما أقنعه بأن جماعة من أهل دمشق يتآمرون عليه. فاستبدَّ به الذعر، وأنزل العقاب بهم، وأضحى وحيداً لا يعاضده أحد. ففقد عطف الخاصة والعامة من أهل دمشق.

ولما أيقن نور الدين محمود من تأزم الوضع الداخلي، وأن الظروف باتت مهيئة لتدخله، وأنه لن يواجه مقاومة داخلية، راسل الأحداث في دمشق، ووعدهم بالإحسان إليهم، واستقطبهم إلى جانبه، ثم أرسل أسد الدين شيركوه في سفارة إلى دمشق على رأس قوة عسكرية تعدادها ألف فارس للتفاوض مع مجير الدين أبق[2]. لم يكن ذلك مألوفاً لسفارة صداقة، لكن مجير الدين أبق رفض السماح لشيركوه بدخول المدينة، كما أنه لم يخرج لاستقباله[3].

رأى نور الدين محمود في هذا التصرف إهانة لشخصه ولرسوله فزحف بجيش كثيف على دمشق وحاصرها في (شهر صفر عام ٥٤٩ هـ/ شهر نيسان عام ١١٥٤ م)، إلا أنه لم يشنّ هجوماً عليها حقناً لدماء المسلمين، آملاً أن يدخلها بغير قتال، على الرغم من حصول بعض المناوشات خارج أسوار دمشق[4].

وإذ استبدَّ اليأس بمجير الدين أبق، وأدرك حقيقة الموقف، أُسقط في يده، وأرسل بعد فوات الأوان، يستنجد بحكام مملكة بيت المقدس، متعهداً بمنح بلدوين الثالث الأموال، وقلعة بعلبك، وبعض مناطق البقاع الوفيرة الإنتاج[5]، إن هو صدَّ نور الدين محمود عن دمشق.

والواقع أن بلدوين الثالث لم يكن بحاجة إلى من يدفعه لمحاربة نور الدين محمود وهو الذي يشكِّل خطراً جدياً على مملكة بيت المقدس إن تمكَّن من ضمِّ دمشق وقد يؤدي به التفكير إلى إرسال حملة إلى مصر لضمِّها هي أيضاً.

وفي الوقت الذي أبطأ فيه بلدوين الثالث لنجدة دمشق، كان نور الدين محمود

---

(١) ابن القلانسي: ص ٥٠٢، ٥٠٤.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥٠٣.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ص ٥٠٤.
(٥) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٤٦.

قد دخل المدينة عن طريق أعوانه من حرسها وأهلها بعد مناوشات مع جيش مجير الدين أبق الذي عجز عن دفع الهجوم، واحتمى بالقلعة، غير أنه لم تمض بضع ساعات حتى استسلم، فأبقى نور الدين محمود على حياته وأقطعه حمص وأعمالها، غير أنه تقرَّر طرده بعد بضعة أسابيع للارتياب في تآمره حيث راسل أصدقاءه القدامى من أهل دمشق ليسلموا إليه البلد. وعُرض عليه حكم بالس على الفرات، إلا أنه رفض وآثر الالتجاء إلى بغداد حيث قضى بقية حياته فيها[1].

وفي تلك الأثناء، استقبل أهل دمشق، نور الدين محمود بكل مظاهر الفرح، فمنع جنده من القيام بأعمال النهب، وبادر إلى إغراق المدينة بالمؤن، وألغى المكوس المفروضة على الخضار والغلال، مما جعل الدماشقة، يركنون إليه ويطمئنون إلى حكمه[2]. وبعد أن رتَّب أوضاع المدينة، وعيَّن نجم الدين أيوب نائباً عنه في حكمها، غادرها عائداً إلى حلب.

نتائج ضمِّ دمشق

ترتَّب على ضمَّ دمشق عدة نتائج كانت لصالح المسلمين لعل أهمها:

ـ قضى نور الدين محمود على الأسرة البورية التي حكمت دمشق منذ عام (٤٩٧ هـ/ ١١٠٣ م) وآلت هذه الاتابكية بجندها وإقطاعاتها إليه، فكان ذلك «فتح الفتوح». وأضحت الدولة النورية قطعة متصلة من الشمال إلى الجنوب[3].

ـ صفت الممالك بالشام لنور الدين محمود وألقى الإسلام بدمشق جرانه، وثبَّت أوتاده[4]، وذلك إشارة إلى أن دمشق كانت في ظل حكم الأسرة البورية تحت حماية الصليبيين.

ـ قامت لأول مرة في بلاد الشام منذ أن وطئها الصليبيون دولة إسلامية متحدة مركزها دمشق. وقد أفزع هذا الصليبيين فعلَّق المؤرخ وليم الصوري قائلاً: «كان هذا التغير مشؤوماً بالنسبة لمصالح مملكة بيت المقدس لأنه وضع الصليبيين في مواجهة خصم عنيد في شدته محل رجل مسلوب الإرادة، إشارة إلى مجير الدين أبق، قد جرَّده

---

(١) ابن القلانسي: ص ٥٠٥، ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٤٦.
(٢) ابن القلانسي: المصدر نفسه.
(٣) حبشي: ص ٧١،
(٤) ابن الأثير: الباهر ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

ضعفه من أن يكون مصدر أذى عليهم، كما أنه ظلَّ حتى ذلك الوقت يدفع لهم الجزية سنوياً شأنه في ذلك شأن التابع لهم...»[١].

ـ شكَّل ضمُّ دمشق إلى حلب نقطة تحول هامة في تاريخ الحروب الصليبية بفعل أنه ترتب على هذا التحول وحدة بلاد الشام الإسلامية تحت زعامة نور الدين محمود. فمن الرها شمالاً حتى حوران جنوباً امتدت دولة إسلامية واحدة مركزها دمشق، فقبل ذلك الوقت كان المسلمون في الشرق الأدنى الإسلامي منقسمين إلى قسمين منفصلين، قسم في الجنوب أي مصر، وقسم في الشمال أي شمالي الشام والعراق. وقد استطاع الصليبيون بفضل موقف حكام دمشق توجيه الضربات لكل قسم من هذين القسمين على انفراد دون أن يتمكَّن القسم الآخر من دفع خطرهم[٢].

ـ حقَّق ضمُّ دمشق نوعاً من التوازن بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، بل فاق في كفة المسلمين رجحانه. فاذا كان الصليبيون قد حقَّقوا السيطرة على جميع ساحل بلاد الشام من الإسكندرونة إلى غزة، فإن ضمَّ نور الدين محمود لدمشق جعل بلاد الشام الداخلية من الفرات حتى نهر بردى في قبضة إسلامية واحدة، وإذا كان الصليبيون في الشمال قد نجحوا في الاستيلاء على حارم، على الضفة الشرقية لنهر العاصي، فإن ضياع هذه القلعة من المسلمين لا يعادل بأي حال الأهمية العسكرية والمعنوية لدخول نورالدين محمود دمشق[٣].

ـ تحقَّق بضمِّ دمشق جانب كبير من أهداف نور الدين محمود الرامية إلى توحيد الجبهة الإسلامية، وكان قد أمَّن المركز المسيطر على طريق وادي العاصي المؤدي إلى أنطاكية، فأضحى بإمكانه عند نشوب الحرب بينه وبين الصليبيين أن يسدِّد ضرباته وفق رغبته إلى الشمال والجنوب بعد أن انهار الحاجز المنيع الذي كان يفصل حلب عن بيت المقدس، وبعبارة أخرى، أضحت بيت المقدس في متناول يده[٤].

ـ على الرغم من أن ممتلكات الصليبيين تفوق في المساحة وفي الثروة ممتلكات

---

(١) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ ٢ ص ٨١٥.

(٢) عاشور: جـ ٢ ص ٦٦٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٤٩. عاشور: جـ ٢ ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦. Grousset. II p. 365..

(٤) Stevenson: pp 173 - 174. Elisséeff: II pp 489, 492.

نور الدين محمود فقد كان له ميزة توحيد الممتلكات تحت زعامة حاكم واحد يقلُّ عن سائر أمراء الصليبيين، المتشرذمين، فيما يتعرض له من مناوأة من قِبل أتباعه الطموحين[1].

ـ أخذ نجم نور الدين محمود في الصعود، غير أنه كان شديد الحذر مما منعه في المضي في استكمال انتصاراته لذلك أكَّد من جديد ما كان قائماً من تحالف بين دمشق وبيت المقدس، فقد جدَّد في عام (٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م) الهدنة لمدة سنتين[2]. على أن شدة تحمُّله ترجع أساساً إلى تنافسه مع سلاجقة الروم، إذ أراد أن ينتزع منهم نصيبهم في إمارة الرها السابقة[3].

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٥١.
(٢) عُقدت الهدنة لمدة سنة في عام ٥٥٠ هـ جدَّدت في العام التالي. راجع ابن القلانسي: ص ٥٠٩، ٥١٦.
(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٥١. Elisséeff: II p 492.

الفَصْلُ الثَّاني عَشَر

سنوات القلق: ٥٥٠ ــ ٥٥٧ هـ/١١٥٥ ــ ١١٦٢ م

تجديد الهدنة مع مملكة بيت المقدس

خلا الجو السياسي لنور الدين محمود بعد ضمِّ دمشق لينصرف إلى تحقيق الشطر الثاني من الإرث الزنكي وهو جهاد الصليبيين. وتوضَّحت له خطة هذا الجهاد بعد أن شكَّلت مملكة بيت المقدس حجر عثرة في طريق إتمام الوحدة الإسلامية، لذلك اتجه تفكيره الجديد نحو هذه المملكة للقضاء عليها أو إضعافها تحسباً لما قد تقوم به من دور لحماية نفسها وحماية الإمارات الصليبية الأخرى منه[(١)].

لكن كان هناك من الدوافع ما منعه من الاسترسال في مهاجمتها؛ ذلك أنه انصرف إلى ترتيب أوضاع دولته بالإضافة إلى بروز مشاكل مع سلاجقة الروم، مما يضعضع وحدة المسلمين، لذلك رأى نفسه أنه بحاجة إلى هدنة تسمح له بتوطيد نفوذه في البلاد التي ضمَّها، في الوقت الذي كان فيه بلدوين الثالث لا يرغب هو الآخر، في القيام بأعمال عدائية ضده، إلى أن يتمكّن من إيقاف الموجات العدائية الآتية من مصر، وبخاصة الغارات التي كان يشنها الأسطول الفاطمي على سواحل بلاد الشام الخاضعة لمملكة بيت المقدس.

وقد أبدى نور الدين محمود رغبة في مساندة الفاطميين والمسير إلى «ناحية الأسطول لإعانته على قتال الفرنجة»[(٢)]، إلا أنه جنح إلى المسالمة فجدَّد الهدنة لمدة سنتين كما ذكرنا، والتزم بدفع مبلغ ثمانية آلاف دينار، استمراراً لما كان يؤديه مجير الدين أبق[(٣)].

---

(١) حبشي: ص ٧٣.

(٢) أبو شامة: جـ ١ ص ٢٠٢.

(٣) ابن القلانسي: ص ٥٠٩، ٥١٦.
Elisséeff: II p 496.

الوضع الداخلي في مصر

كانت الدولة الفاطمية تمر آنذاك في مرحلة التفكُّك والانحلال. ففي (شهر محرم عام ٥٤٩ هـ/ شهر نيسان عام ١١٥٤ م) قامت فتنة في القاهرة بين طوائف العسكر قُتل خلالها الخليفة الظافر[١]، وعُيِّن مكانه ابنه الطفل الفائز الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره، وذلك بتأثر الوزير عباس الصنهاجي[٢]، وبذلك أضحت مصر وكأنها بلا خليفة يحكمها، لأن عهد الفائز كان محكوماً عليه بتصاعد نفوذ الوزراء. وأدَّت هذه الأحداث إلى قلق واضطراب القصر والمجتمع المصري مما دفع أميرات القصر الفاطمي إلى استدعاء طلائع بن رُزَّيك والي الأشمونين[٣] والبهسنا، الأرمني الأصل، لإنقاذ الوضع، وأرسلن خصلة من شعورهن في طي الكتب، وهو أقصى ما يمكن التوصل إليه عند المرأة المسلمة.

قدم طلائع بن رزَّيك بقواته إلى القاهرة في (شهر ربيع الأول عام ٥٤٩ هـ/ شهر حزيران عام ١١٥٤ م)، ودخلها وسط تأييد كافة فئات المجتمع، فعزل الوزير عباساً الذي هرب مع ابنه نصر وأسامة بن منقذ بعد أن تحقَّق من معاداة الناس لهم، قاصدين بلاد الشام، ونهب العامة ما بقي من دورهم[٤]. وتلقَّب طلائع بلقب «الملك الصالح»[٥]. وما كادوا يخرجون من صحراء سيناء حتى انقضت عليهم قوات صليبية من حصن الشوبك[٦]، فاستطاع أسامة أن يفلت منهم بينما لقي عباس مصرعه ووقع ابنه نصر في الأسر، فتسلمه الداوية غير أن الفاطميين عرضوا مبلغ ثلاثين ألف دينار مقابل إعادته إلى مصر. قبل الداوية هذا العرض، وسيق نصر مكبَّلاً إلى القاهرة حيث شُنق على باب زويلة[٧].

---

(١) أثار عباس ابنه نصر، فقتل الخليفة الظافر وقد اشترك أسامة بن منقذ في هذه المؤامرة، إلا أنه برّأ نفسه من هذه التهمة. راجع أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٦.

(٣) الأشمونين: بلدة بصعيد مصر.

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٤.

(٥) أسامة بن منقذ: المصدر نفسه: ص ٢٩.

(٦) الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عَمَّان وأيلة والقلزم قرب الكرك. الحموي: جـ ٣ ص ٣٧٠.

(٧) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣١٠.

استغل الملك بلدوين الثالث هذه الفوضى السياسية، وهدَّد بغزو مصر، ولم يمنعه من ذلك سوى وعد الوزير الصالح بأن يؤدي إليه جزية سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار، على أن هذه الفدية لم يجرِ دفعها مطلقاً بسبب معارضة قادة الجند الذين فضَّلوا المقاومة، واختاروا أحد قادتهم، ربما كان الأمير الأوحد ابن تميم[1] ليترأسهم، فاختار عدداً من البحرية ممن يتكلمون اللغة اللاتينية، وألبسهم لباس الصليبيين، ثم قادهم في حملة بحرية هاجم خلالها بعض الموانىء الصليبية، منها ميناء صور، بالإضافة إلى بعض المراكب، قبل أن يعود إلى مصر محملاً بالغنائم والأسرى[2].

ضمُّ بعلبك

أثناء الحصار الثالث لمدينة دمشق، راسل نجم الدين أيوب حاكم بعلبك، نور الدين محمود وعرض عليه تسليمه المدينة، وافق نور الدين محمود على هذا العرض فتسلَّمها منه، وألحقه بأصحابه، وولّى على القلعة رجلاً يقال له ضحاك البقاعي لينوب عنه في حكمها[3]. ويبدو أن البقاعي كان ذا نزعات استقلالية فطمع في الانفصال عن الحكم النوري، ولم يتمكّن نور الدين محمود آنذاك من التصدي له نظراً لمجاورته أملاك الصليبيين، إذ خشي إن حاصره فيها أن يسلمها إليهم. لكنه تفرَّغ، بعد ضمِّ دمشق، لقضية بعلبك، وتمكَّن من انتزاعها من يد ضحّاك البقاعي في (شهر ربيع الأول عام ٥٥٠ هـ/ شهر أيار عام ١١٥٥ م)[4].

نور الدين محمود يتدخل في أوضاع سلطنة سلاجقة الروم

توفي السلطان مسعود السلجوقي صاحب قونية في عام (٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م) وخلفه ابنه قلج أرسلان الثاني (٥٥٠ ـ ٥٨٨ هـ/ ١١٥٥ ـ ١١٩٢ م)[5]، وقد واجه في مستهل حياته السياسية مشاكل كثيرة لعل أهمها ثورة أخيه شاهنشاه ضد حكمه،

---

(١) ابن القلانسي: ص ٥١٠ هامش رقم ١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص ٥٠٩، وقارن بابن الأثير الذي يجعل تاريخ هذه الحادثة في عام ٥٥٢ هـ: جـ ٩ ص ٥٧.
(٤) ابن القلانسي: ص ٥٠٩ ـ ٥١٠.
(٥) المصدر نفسه: ص ٥١٠. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٥٠.

بعد أن استقر في أنقرة، كما طمع الدانشمنديون[1] والزنكيون في أراضيه. أما الأمبراطور البيزنطي مانويل، فقد عقد العزم على استعادة أملاك الأمبراطورية في آسيا الصغرى، في حين قرَّر الأرمن الإنتقام من السلاجقة بسبب ماقاموا به من غارات على كيليكية في عهد السلطان مسعود.

حظي قلج أرسلان الثاني أثناء صراعه مع أخيه بتأييد الأميرين الدانشمنديين، ذي النون صاحب قيصرية[2] وذي القرنين صاحب ملطية، في حين نال شاهنشاه تأييد ومساعدة ياغي أرسلان صاحب سيواس[3].

انتهز ياغي أرسلان فرصة قيام قلج أرسلان الثاني بطرد بعض أمرائه المعارضين، وحشد قوات كثيفة زحف بها على الأراضي السلجوقية التابعة له. فهاجم قونية واحتلَّ لاريسا، كما استولى على بعض ممتلكات حليفه شاهنشاه، لكن الأمراء، من كلا الدولتين، تدخلوا بين الزعيمين لوقف القتال، ونجحوا في التوفيق بينهما[4]. كما كان لنور الدين محمود دور في هذا الصلح، فقد كان يرى أن من شأن هذا الخلاف أن يقوِّي الصليبيين والبيزنطيين على حساب المسلمين ويدفعهم إلى مهاجمة المعاقل الإسلامية[5].

غير أن هذا الصلح كان شكلياً، إذ مالبث ياغي أرسلان أن هاجم الممتلكات السلجوقية التابعة لقلج أرسلان الثاني، مرة أخرى، وعاد محملاً بالغنائم، ولم يتمكَّن قلج أرسلان من التصدي له، لأن قواته وصلت متأخرة لتسد عليه الطريق، بالإضافة إلى أن ياغي أرسلان سلك طريقاً آخر أثناء عودته[6]. وحتى يخفِّف الضغط عن قواته، طلب ياغي أرسلان مساعدة نور الدين محمود، وكان هذا الأخير حريصاً هذه المرة، على انتزاع نصيب سلاجقة الروم في إمارة الرها السابقة. والراجح أنهما

---

(١) الدانشمند: إحدى الإمارات التركية التي قامت في الأناضول إلى جانب سلطنة سلاجقة الروم.

(٢) قيصرية: أو قيسارية، مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم، وهي كرسي ملك بني سلجوق ملوك الروم. الحموي ج ٤ ص ٤٢١.

(٣) ابن القلانسي: ص ٥١٠، Gregoire le Prètre: p 176. وسيواس: مدينة في بلاد الروم، وهي ثانية مدنهم، وفيها مسجد أبي محمد البطال، الذي استشهد هناك في العهد الأموي.

(٤) Gregoire le Prètre: p 177.

(٥) ابن القلانسي: ص ٥١٠.

(٦) Gregoire le Prètre: p 177.

كانا متفقين على محاربة الزعيم السلجوقي واقتسام أملاكه[١].

وفعلاً هاجم نور الدين محمود ما كان بأيدي السلاجقة، من إمارة الرها أمثال عينتاب ورعبان ودلوك، مستغلاً تضعضع أحوال السلطنة بفعل المنازعات الأسرية. ولما عاد قلج أرسلان الثاني إلى عاصمته، وعلم ما حصل من تصرف نور الدين محمود هاله الأمر، مع ما كان بينهما من الصهر والمهادنة، وكتب إليه يعاتبه، وينكر تآمره عليه، ويتهدَّده ويتوعَّده. وتدخَّل بينهما الوزير الفاطمي طلائع بن رُزَّيك، فكتب إلى السلطان السلجوقي ينهاه عن اتخاذ أي تدبير للقتال، واستجاب نور الدين محمود لنداء الصلح، وردَّ على كتاب قلج أرسلان الثاني بالاعتذار عما بدر منه[٢].

وفي عام (٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م) بينما كان نور الدين محمود يركِّز اهتمامه على دمشق، وكان الملك بلدوين الثالث يرابط بجيشه أمام عسقلان؛ اتخذت أميرة أنطاكية كونستانس قرارها بالزواج، فاختارت فارساً فرنسياً قدم مع الملك لويس السابع في الحملة الصليبية الثانية هو رينولد دي شاتيون الذي عُرِف عند المسلمين باسم أرناط. وافق بلدوين الثالث، بعد إلحاح شديد من الخطيبين، على مشروع الزواج الذي تمَّ فعلاً في أوائل عام ١١٥٣ م[٣]، وبذلك حصلت إمارة أنطاكية على محارب قدير.

كان على كونستانس أن تلتمس الإذن أيضاً من الأمبراطور مانويل، ذلك أن نبأ زواجها لم يلق قبولاً حسناً في القسطنطينية، غير أن مانويل كان منهمكاً آنذاك بقتال السلاجقة، وإذ أدرك أهمية حقوقه، أرسل إلى أنطاكية يعرض اعترافه بالأمير الجديد إذا اشترك معه في قتال الأمير الأرميني ثوروس في كيليكية.

قَبِل رينولد عرض الأمبراطور، لأن اعترافه بحكمه سوف يزيد من قوته بالإضافة إلى ذلك، فقد توغل الأرمن، آنذاك، في إقليم إسكندرونة الذي عدَّه الصليبيون جزءاً من إمارة أنطاكية. وهكذا زجَّ رينولد نفسه في النزاع القائم في كيليكية بين الأرمن والبيزنطيين بدلاً من أن يوجِّه نشاطه نحو استرداد الأملاك التابعة لإمارة أنطاكية والتي فتحها نور الدين محمود في شرقي العاصي.

---

(١) ابن القلانسي: ص ٥١١. Camb Hist of Islam: vol I p 243.

(٢) المصدر نفسه. ابن خلدون: جـ ٥ ص ١٦٦.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨١٤ ـ ٨١٥.

حصار حارم

حدث في أوائل عام (٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م) أن أرسل رينولد دي شاتيون، حاكم إمارة أنطاكية، قوة عسكرية هاجمت إمارة حلب، وعاثت فساداً في بعض أعمالها. وكان نور الدين محمود آنذاك يقضي فصل الشتاء في دمشق، وعندما تناهى إليه أعمال هذه الغارات نهض إلى حلب في (شهر صفر/ شهر نيسان)، وتقدم منها إلى حارم التابعة لإمارة أنطاكية، وحاصرها، وضيَّق على أهلها.

حاول رينولد التصدي له، وإجباره على فك الحصار والانسحاب، إلا أنه لم يتمكَّن من ذلك لسببين:

الأول: ضعف قواته بالمقارنة مع قوات المسلمين.

الثاني: انتابه القلق من مهاجمة قلج أرسلان الثاني، آنذاك، أملاك الإمارة.

اضطر رينولد إلى المهادنة، وعرض على نور الدين محمود أن يعطيه حصة من واردات حارم، فأبى الزعيم المسلم إلا المناصفة، فأجابه إلى ذلك، فصالحه وعاد إلى حلب. وقبضت فرقة من عسكره في هذه الغزوة، بقيادة مجد الدين، ممثله في شمالي بلاد الشام، على الأفراد الصليبيين الذين عاثوا فساداً في نواحي حلب[١].

التنازع مع مملكة بيت المقدس ٥٥٢ هـ/ ١١٥٧م

نور الدين محمود يتدخل في بانياس

تداخل النزاع الذي نشب بين نور الدين محمود ومملكة بيت المقدس، في نزاعه مع بقية الإمارات الصليبية الأخرى، بفعل تقدم هذه المملكة على بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام، ولم يشأ نور الدين محمود في هذه المرحلة من النضال، أن يجابه هذه المملكة حتى لا يثير أوروبا الغربية والدولة البيزنطية.

ولعل أهم ضروب الصراع بين الطرفين، وهو ما يكشف عن تعادل قوتهما، ذلك الصراع الذي طال أمده حول حصن بانياس الذي يحكمه همفري الثاني. ويُذكر

---

(١) ابن القلانسي: ص ٥١١ ـ ٥١٢. ابن الأثير جـ ٩ ص ٤٩. ابن العديم جـ ٢ ص ٤٨٣.
Elisséeff, II pp 502 - 503.

أن نور الدين محمود كان قد عقد هدنة مع مملكة بيت المقدس مدتها سنة ابتداء من (شهر شعبان عام ٥٥١ هـ/ شهر أيلول عام ١١٥٦ م)، غير أن الصليبيين لم يلتزموا بها، فقد حدث أن جماعات من الرعاة التركمان والفلاحين العرب استغلّت الأمان الذي وفَّرته الهدنة، وحصلت على إذن من الملك بلدوين الثالث برعي ماشيتهم وخيولهم وجمالهم في منطقة الشعراء المجاورة لبانياس. وإذ وقع الملك في ديون ثقيلة، نظراً لميله إلى الترف والبذخ، لم يستطع مقاومة ما تثيره القطعان من إغراء[1]، فنسي الأمان الذي أعطاه لأصحابها، وخرج ليسلبهم إياها متجرداً من أبسط مبادىء الأخلاق التي حرص عليها المسلمون دائماً في تعاملهم مع الصليبيين وناقضاً الهدنة بعد مرور ثلاثة أشهر على توقيعها؛ وعسكر في الملاَّحة، ثم هاجم أفراد جيشه أولئك الرعاة في (شهر ذي الحجة عام ٥٥١ هـ/ شهر شباط عام ١١٥٧م)، وأمعنوا فيهم القتل والأسر، واستاقوا ما وجدوه، وعادوا محملين بالغنائم[2]. وما أقدم عليه من نقض مشين لعهده، هيَّأ له أن يحصل على أثمن غنيمة شهدتها المملكة منذ عشرات السنين، غير أنها أثارت نور الدين محمود.

كان نور الدين محمود آنذاك، منهمكاً بإصلاح المدن والقلاع التي دمرتها الزلازل، وتوقف في حمص للقضاء على ثورة أميرها. ولم يكد يسمع بما حدث للرعاة حتى قرَّر الخروج للتصدي للصليبيين والانتقام منهم على ما ارتكبوه، فوصل إلى بعلبك وأقام معسكره على مقربة منها. ومن هناك أرسل قوة من جنده بقيادة أسد الدين شيركوه إلى حصن بانياس لاستطلاع الوضع من جهة، وليوهم الصليبيين بأن الجيش المهاجم محدود الإمكانات لا يتعدى هذه القوة الصغيرة من جهة أخرى، وأرسل في الوقت نفسه مبعوثاً إلى مصر لتنسيق التعاون مع القوات الفاطمية ضد الصليبيين[3].

استعان همفري الثاني بالأسبتارية لدفع المسلمين عن الحصن الذين قاسموه نصف دخل البلد لقاء مساعدتهم له، وذلك بإشارة من الملك بلدوين الثالث. وإذ حرصت هذه الطائفة على إرسال المؤن بشكل دوري، فقد وقعت إحدى فرقها في

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٥٢.

(٢) ابن القلانسي: ص ٥١٧، وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٤٢ ـ ٨٤٣. Grousset: II p 368.

(٣) ابن القلانسي المصدر نفسه ص ٥١٩. Elisséeff: II p 506. Stevenson: p 177.

كمين أعدَّه نصرة الدين، أخو نور الدين محمود، فأدركهم قبل بلوغهم الحصن وهزمهم[1]. كما هزم شيركوه قوة صليبية بالقرب من البقيعة، قبل أن يعود إلى بعلبك ليقدم تقريراً إلى نور الدين محمود، وإطلاعه على حقيقة الوضع على الأرض.

وإذ أدرك نور الدين محمود أنه لم يبق للدفاع عن بانياس سوى أميرها همفري الثاني، قرَّر مهاجمتها. فخرج من دمشق في (شهر ربيع الأول/شهر نيسان) يتبعه الأحداث والمتطوعة والصوفية والمتدينون، وأرسل سرية متقدمة بقيادة أسد الدين شيركوه ألحقت الهزيمة بقوة صليبية بالقرب من هونين كانت في طريقها لنجدة المدينة[2]. ووصل نور الدين محمود بالجيش الرئيس إلى بانياس في الشهر التالي وضرب عليها حصاراً مركَّزاً، ولم تلبث المدينة السفلى أن سقطت نتيجة الضرب المتواصل. أما القلعة التي تقع على بُعد ميلين، فوق قمة جبل شديد الانحدار، فقد صمدت أمام الهجمات الإسلامية، وقد احتمى بها من سَلِمَ من الصليبيين وعلى رأسهم همفري الثاني[3].

شدَّد نور الدين محمود حصاره عليها حتى كادت أن تسقط، وتستسلم حاميتها لولا أن تغير وجه المعركة فجأة باقتراب الملك بلدوين الثالث، فاضطر نور الدين محمود إلى فك الحصار عنها، وانسحب من أمام بانياس بعد أن دمَّرها وأحرقها بينما دخلها بلدوين الثالث، وقام بإصلاح أسوارها قبل أن يعود إلى بيت المقدس، وانفصل عنه في الطريق كثير من الأمراء مع فرسانهم الذين رأوا أن مهمتهم قد انتهت.

ولما علم نور الدين محمود بذلك رأى أنَّ الفرصة سانحة لمباغتة ملك بيت المقدس، فقام بهجوم مضاد على جيشه عند الملاَّحة بين طبرية وبانياس، وفاجأ أفراده، وهم عائدون إلى الجنوب، وانقضَّ عليهم وهم يعبرون المخاضة عند الجسر اليعقوبي على نهر الأردن، وانتصر عليهم. ولقي الكثير منهم مصرعه، ولم ينجُ الملك الذي هرب إلى صفد، إلا بأعجوبة[4].

---

(١) ابن القلانسي: ص ٥١٩ ـ ٥٢٠. Stevenson: p 177. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٤٤.

(٢) ابن القلانسي: المصدر نفسه ص ٥٢١ ـ ٥٢٢ وليم الصوري: المصدر نفسه: ص ٨٤٤، وهونين بلدة في جبال عاملة مطلة على نواحي مصر، الحموي جـ ٥ ص ٤٢٠.

(٣) ابن القلانسي: المصدر نفسه ص ٥٢٣، وليم الصوري: المصدر نفسه ص ٨٤٥.

(٤) المصدران نفساهما: ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣. ص ٨٤٦ ـ ٨٤٩. وصفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان. الحموي: جـ ٣ ص ٤١٢.

مكث بلدوين الثالث في صفد مدة ثلاثة أيام لا يعلم أحد خبره، وذكر ابن القلانسي، الذي عاصر هذا الحدث «إن ملكهم، لعنه الله، قيل في الهاربين، وقيل إنه في جملة القتلى، ولم يُعرف له خبر»[1] وهذه العبارة هامة من ناحيتين:

الأولى: أنها تبين جهل المسلمين بمصير بلدوين الثالث.

الثانية: أن ابن القلانسي كتبها في يوم مباشرة القتال.

ويشير المؤرخ الصليبي وليم الصوري إلى ما ترامى من الإرجاف في بلاد الصليبيين كعكا وبيت المقدس، من الأخبار الباعثة على الخوف من مصير الملك[2]. والظاهر أن إقامته في صفد مدة ثلاثة أيام، وانقطاع أخباره كان من أكبر الدواعي إلى ذلك الإرجاف، وإلى ماراه ابن القلانسي من أنه عدَّ الملك الصليبي بين القتلى[3].

ثم تلى ذلك قيام نور الدين محمود بمهاجمة بانياس، غير أنه ما لبث أن اضطر للانسحاب من أمام أسوارها مرة أخرى، وعجَّل بالعودة إلى حلب بسبب ظهور بوادر غير مشجعة منها:

- اجتماع الجيوش الصليبية من أنطاكية، وطرابلس وبيت المقدس وعزمها على إنقاذ المدينة، ومهاجمة أملاكه.

- وصلت إلى مسامعه أنباء عن استعدادات قلج أرسلان الثاني صاحب قونية لمهاجمة أملاكه في الشمال.

- تجدُّد وقوع الزلازل في بلاد الشام، التي ألحقت أضراراً بالغة بالمدن الإسلامية.

استطاع بلدوين الثالث، حين عجز المسلمون عن تتبع أثره، الذهاب إلى عكا، ولم يُخْفِ الصليبيون فرحهم، مما يدل على أن الحملة النورية على بانياس قد شكَّلت خطراً كبيراً عليهم، ثم استعاد بانياس بعد ذلك[4].

---

(١) ذيل تاريخ دمشق: ص ٥٢٣.

(٢) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ ٢ ص ٨٤٩.

(٣) حبشي: ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٤٩ ـ ٨٥٠.

وهكذا ظلَّت هذه المدينة كالكرة تتقاذفها أيدي الصليبيين حيناً والمسلمين أحياناً طوال سنوات عدة[١].

وقوع الزلازل في بلاد الشام

كانت سنة (٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م) والسنة التي تلتها عصيبة على بلاد الشام. فقد ضربت هذه البلاد سلسلة من الهزات الأرضية توالت في تلاحق وقوة كأنما مادت الأرض بمن عليها. فابتداء من شهر شعبان، وقعت سلسلة من الهزات الأرضية شعر بها الناس في سائر أنحاء بلاد الشام، استمرت حتى شهر شوال، بلغت نحو الأربعين هزة، فانهدمت مواضع كثيرة في حلب وحماة كما انهدم أحد أبراج قلعة أفامية، وانهارت منازل كثيرة[٢].

تجدَّد وقوع الهزات الأرضية ابتداءً من (شهر صفر عام ٥٥٢ هـ/ شهر نيسان عام ١١٥٧ م)، واستمرت بشكل متقطع حتى (شهر ذي القعدة / شهر كانون الأول)، وتعرَّض وادي نهر العاصي لهزة بالغة العنف حيث بلغ الضرر في حماة من الشدة ما حمل المؤرخين على أن يطلقوا عليها اسم «زلزال حماة»؛ فقد انهدمت حماة وقلعتها وسائر دورها ومنازلها، على أهلها وهم العدد الغفير بحيث لم يسلم منهم إلا القليل اليسير، وانهارت المنازل في حلب وكفرطاب وحمص وأفامية، أما في شيزر فقد سلم ربضها إلا ما كان خُرِّب أولاً، وانهار حصنها على واليها تاج الدولة ابن أبي العساكر بن منقذ ومن تبعه إلا اليسير ممن كان خارجاً.

أما دمشق، فلم تتعرَّض لأضرار جسيمة، إنما خرج الناس من دورهم، وتصدَّعت جدران الجامع الأموي وتناثرت الفسيفساء[٣].

وتوالى وقوع الهزات الأرضية في عام (٥٥٣ هـ/ ١١٥٨ م) إنما لم تكن بالشدة نفسها، وإن أزعجت الناس وأرعبتهم[٤] وقد شُغل المسلمون والصليبيون جميعاً بهذه الهزات الأرضية وانصرفوا إلى عمارة ما تخرَّب أو تهدَّم من المدن والقلاع، فتوقفت بذلك العمليات العسكرية لمدة من الزمن، إلا أنَّ نور الدين محمود أبقى على تعبئة

---

(١) عاشور: جـ ٢ ص ٦٦٨.

(٢) ابن القلانسي: ص ٥١٤ ـ ٥١٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٥٢٦ ـ ٥٣٠.

(٤) ابن القلانسي: ص ٥٣٧.

جيشه حتى يمنع الصليبيين من مهاجمة حصونه الضعيفة الاستحكامات.

مرض نور الدين محمود وانعكاسه على الوضع السياسي

في تلك الظروف القاسية التي كانت تمر بها بلاد الشام، قرَّر الصليبيون توحيد صفوفهم، وقام كل من بلدوين الثالث، ملك بيت المقدس، ورينولد، أمير أنطاكية، وريموند الثالث، أمير طرابلس، بحشد جيوشهم وهاجموا حصن الروج[1]، فأسرع نور الدين محمود بقواته إلى إنِّب لمواجهة الهجوم. وفي سرمين[2] داهمه مرض خطير أشرف بسببه على الموت، وذلك في (شهر رمضان عام ٥٥٢ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٥٧ م)، وقد بلغ به اليأس من الشفاء أن أصرَّ على أن يُحمل في محفَّة إلى حلب، وهو أقرب إلى الموت، وهناك وضع وصيته التي تقضي بأن يخلفه أخوه نصرة الدين، على أن يتولى أسد الدين شيركوه حكومة دمشق تحت سيادته[3].

لم تكد أنباء مرض نور الدين محمود تنتشر حتى هلَّل الصليبيون فرحاً لاعتقادهم بأن خصمهم القوي قد مات فعلاً، وأن الوحدة الإسلامية لن تلبث أن تنفصم عراها. وحرص بلدوين الثالث على جمع كافة القوى الصليبية والنصرانية المجاورة، للانتقام والقضاء على إنجازات نور الدين محمود. فاستدعى ثوروس الثاني أمير كيليكية الذي حضر على رأس جيش كبير إلى أنطاكية للمشاركة في عملية تقطيع أوصال الدولة النورية[4].

واتجهت الجيوش الصليبية لشن هجوم على شيزر[5] بهدف قطع الاتصالات بين حلب ودمشق من ناحية، وبين أفامية وحماة من ناحية أخرى، نظراً لوقوعها بين المدينتين الأخيرتين، كما طمع بلدوين الثالث في استقطاب الحشيشية الذين كانوا متمكنين من بعض نواحيها، إذ استولت جماعة منهم على القلعة بعد وقوع الزلزال الفاجع الذي حصل في (شهر رجب عام ٥٥٢ هـ/ شهر آب ١١٥٧ م).

---

(١) الروج: كورة من كور حلب المشهورة في غربيها، بينها وبين المعرَّة. الحموي: جـ ٣ ص ٧٦.

(٢) سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب. المصدر نفسه: ص ٢١٥.

(٣) ابن القلانسي: ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٥٢ ـ ٨٥٣.

(٥) المصدر نفسه: .

لم تصل الجيوش المتحالفة إلى شيزر إلا في (شهر رمضان عام ٥٥٢ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٥٧ م) وقد سقطت المدينة في أيديهم، وقاومتهم الحشيشية في القلعة، التي كادت هي الأخرى أن تسقط لولا أن نشب النزاع بين المتحالفين. إذ وعد بلدوين الثالث بأن يمنح المدينة وما يحيط بها من أراضٍ إلى زوج أخته ثييري كونت فلاندر الذي وصل حديثاً من الغرب الأوروبي، حتى تكون نواة لإمارة يتولاَّها باسم ملك بيت المقدس، في حين ادَّعى رينولد أن بني منقذ كانوا يؤدون الجزية إلى إمارة أنطاكية، وعليه يكون ثييري تابعاً له[1].

رفض الكونت أن يكون تابعاً لبارون فرنسي أقلَّ شأناً منه. ولم تجلْ في خاطره فكرة بذل الولاء لرجل ليس عريق النسب. ولم يَسَعْ بلدوين الثالث أن يحلَّ المشكلة إلا بالتخلي عن الأراضي المتنازع عليها. واتجه رينولد نحو الشمال ليحتلَّ خرائب أفامية، ثم يلقي الحصار على حارم التي كانت سابقاً من أملاك أنطاكية. وقد أعلن كل من بلدوين الثالث وثييري عن استعداده لبذل المساعدة في استعادتها، بفعل أهميتها العسكرية على الرغم من الخلافات الناشبة بينهم[2].

وأذعنت حارم في (شهر محرم عام ٥٥٣ هـ/ شهر شباط عام ١١٥٨ م) بعد أن تعرَّضت للضرب الشديد من قذائف المنجنيق، وتقرَّر منحها إلى رينولد سانت فاليري، أحد فرسان ثييري، فتولاها باسم أمير أنطاكية[3].

ومما لا شكَّ فيه أن استيلاء الصليبيين على حارم ثبَّت أقدامهم من جديد في شرقي نهر العاصي، وكان دافعاً لهم للقيام بشن غارات على القرى والضياع المجاورة، مستغلين فرصة تفرق العساكر الإسلامية ووقوع الخلاف بين المسلمين أثناء مرض نور الدين محمود.

فقد حدث أن ذهب نصرة الدين إلى حلب ليقوم مقام أخيه في الحكم أثناء مرضه، فمنعه نائبها مجد الدين بن الداية من دخول القلعة خشية من استبداده بالحكم، ووقع القتال بين الرجلين، ونور الدين محمود في فراشه. دامت الفتنة بضعة أيام، ثم انفضَّ الناس عن نصرة الدين بعد أن تيقَّنوا من عدم وفاة نور الدين محمود، واضطر نصرة الدين إلى الفرار إلى حرّان وملكها، ولما تعافى نور الدين محمود توجَّه

---

(١) راجع حول ظروف وطبيعة هذا النزاع: وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٥٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٨٥٥ ـ ٨٥٧. ابن القلانسي: ص ٥٣٦.

إلى حرّان وانتزعها من يد أخيه الذي هرب منها[1].

أما بلدوين الثالث، فقد اضطر إلى مغادرة المنطقة والعودة بسرعة إلى بيت المقدس بسبب وفاة البطريرك فولشر، إذ خشي من تدخل والدته الملكة في انتخاب بطريرك جديد، وما كاد يفرغ من اختيار البطريرك الجديد حتى عاد إلى الشمال يرافقه ثييري كونت فلاندر، لمضايقة نور الدين محمود، فأغار على إقليم دمشق في منطقة حوران في (شهر صفر عام ٥٥٣ هـ/شهر آذار ١١٥٨ م) ثم زحف على دمشق نفسها[2].

في هذه الأثناء شُفي نور الدين محمود من مرضه، فاتخذ طريقه صوب الجنوب للقضاء على المؤامرات التي ترعرعت أثناء مرضه، ولما وصل إلى دمشق ابتهج الناس بشفائه. ورأى بلدوين الثالث أن من الحكمة أن ينسحب، على أن نور الدين محمود لم يلبث أن هاجم ممتلكات الصليبيين، فأمر قائده أسد الدين شيركوه بالإغارة على منطقة صيدا في (شهر ربيع الآخر/شهر أيار) في حين هاجم، هو، قلعة «الحبيس جَلْدك» التي شيَّدها الصليبيون معقلاً لهم على ضفاف نهر اليرموك إلى الجنوب الشرقي من بحيرة الجليل[3]، وإذ تعرَّضت الحامية لضغط شديد مالت إلى الاستسلام، في غضون عشرة أيام إذا لم تصلها نجدة من ملك بيت المقدس[4].

والواقع أن بلدوين الثالث نهض فور تبلغه طلب المساعدة لنجدة القلعة، يرافقه ثييري، واتخذ الطريق الذي يقع شمالي البحيرة، ويؤدي إلى دمشق، بدلاً من التوجه إليها مباشرة[5]، وذلك في محاولة للضغط على نور الدين محمود لرفع الحصار عن القلعة، نجحت الخطة، وخشي نور الدين محمود أن يقطع الصليبيون عليه طريق مواصلاته مع دمشق، فرفع الحصار عن القلعة، والتقى مع الجيش الصليبي عند قرية البطيحة الواقعة إلى الشرق من الوادي الأعلى لنهر الأردن في (شهر رجب عام ٥٥٣ هـ/شهر آب عام ١١٥٨ م)، دارت الدائرة فيها على الجيش الإسلامي[6].

---

(١) ابن القلانسي: ص ٥٣٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٥٣٦، وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٥٧ ـ ٨٥٩.

(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٦٦.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٥٨ ـ ٨٥٩.

(٥) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٦٦.

(٦) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٥٩.

وإذ لا زالت صحة نور الدين محمود ضعيفة، قنع بالانسحاب من المنطقة، وحمله ذلك على أن يطلب عقد هدنة[١]. ولم يقع في السنوات القليلة التالية على الحدود بين إمارة دمشق ومملكة بيت المقدس شيء من الحروب الخطيرة. وأضحى بوسع كل من نور الدين محمود وبلدوين الثالث أن يوجه اهتمامه صوب الشمال[٢].

الصراع الفاطمي مع مملكة بيت المقدس

يُعدُّ الصالح طلائع بن رزَّيك خاتم الوزراء الفاطميين الأقوياء، وآخر دعامة في الدولة المتداعية إلا أنه كان إمامي المذهب، شديد التعصب له مبغضاً للنصارى[٣]، كما كان آخر الوزراء الفاطميين الذين حاولوا التصدي للصليبيين. فابتداء من عام (٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م) أخذ يرسل الأسطول والجيش إلى صور لمحاربتهم[٤].

وفي عام (٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م) فسخت الهدنة التي عقدها مع الصليبيين في بيت المقدس في العام السابق، مما سمح له بإرسال الحملات العسكرية البرية والبحرية لمهاجمة الأملاك الصليبية، حيث تمكَّنت جيوشه من مهاجمة غزة وعسقلان وبيروت والشوبك وعكا، وكرَّر المحاولة في (نهاية شهر محرم عام ٥٥٣ هـ/ شهر شباط عام ١١٥٨ م) فأرسل جيشاً إلى غزة بقيادة الأمير ضرغام، اصطدم بقوة صليبية عند تل العجول وتغلَّب عليها ثم تابع تقدمه في الأراضي الصليبية حتى وصل إلى بيت المقدس، وأرسل في الوقت نفسه أسطولاً بحرياً هاجم بيروت واستاق عدداً من الأسرى[٥]. وتكمن أهمية هذه الحملة في أنها:

- ساعدت على تخفيف الضغط عن المناطق الإسلامية الشمالية في ظل تعرضها لهجمات بلدوين الثالث.

---

(١) ابن القلانسي ص ٥٣٨.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٦٧. Elisséeff: II pp 527 - 528.

(٣) سيد: ص ٢١٦.

(٤) ابن القلانسي: ص ٥١٠.

(٥) المصدر نفسه: ص ٥٣١.

ـ أتاحت للجيش الفاطمي التوغل بعيداً في أراضي مملكة بيت المقدس، في غارات متلاحقة[١].

والواقع أن العمليات العسكرية التي قام بها الفاطميون اتسمت بالكرِّ والفرِّ دون التمكُّن من طرد الصليبيين من المناطق التي احتلوها. ونتيجة لذلك أدرك طلائع أن مصر لا تستطيع بمفردها مواجهة مملكة بيت المقدس، فاستعاد التقليد الذي بدأه من قبله ابن السَّلار فأرسل أسامة بن منقذ إلى نور الدين محمود يطلب منه توحيد جهودهما[٢].

وتأكيداً لحسن نيته، أرسل طلائع في (شهر رمضان/ شهر تشرين الأول) هدية إلى نور الدين محمود حملها محمود المسترشدي تتضمَّن أنواعاً من الأسلحة وغيرها بقيمة ثلاثين ألف دينار، وسبعين ألفاً عيناً، عوناً له على قتال الصليبيين، وسُرَّ نور الدين محمود بهذا التقارب مع الفاطميين[٣].

وقد تنبَّه بلدوين الثالث إلى خطورة هذا التحالف على أوضاع مملكته فحاول عرقلته. فأرسل في عام (٥٥٤ هـ/ ١١٥٩ م) رسولاً إلى القاهرة، ومعه هدية لطلب الهدنة. ولكن طلائع رفض طلب الملك الصليبي وآثر الاستمرار في مساندة نور الدين محمود[٤] وكان من الطبيعي أن تتعاون الدولتان الإسلاميتان في دمشق والقاهرة في مواجهة الصليبيين، ولكن اختلاف المذهب الديني وقف حجر عثرة في سبيل هذا الائتلاف[٥].

تجدُّد مرض نور الدين محمود

عاود المرض نور الدين محمود مرة أخرى في (شهر ذي الحجة عام ٥٥٣ هـ/

---

(١) راجع فيما يتعلق بالحملات البحرية: العبادي، أحمد مختار وسالم السيد عبد العزيز: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ص ١٢٤ ـ ١٢٦. أما فيما يتعلق بالمواجهات العسكرية البرية فيمكن الرجوع إلى ابن القلانسي: ص ٥٣٧، ٥٣٩ ـ ٥٤٠.

(٢) أبو شامة: جـ ١ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٣) ابن القلانسي: ص ٥٣٩، المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا: جـ ٣ ص ٢٣٤.

(٤) المقريزي: جـ ٣ ص ٢٣٦.

(٥) سيد: ص ٢١٨.

شهر كانون الأول عام ١١٥٨ م)، وهو في دمشق، لكنه شُفي منه بعد قليل، وقد وقف خلال ذلك على خيانة نفر من رجاله الذين اتصلوا بأخيه نصرة الدين، وأغروه بالإسراع إلى دمشق لاستلام الحكم، فأمر باعتقالهم، وصرف أخاه دون أن يمسَّه بأذى، واستقر رأيه على أن يخلفه أخوه قطب الدين مودود صاحب الموصل[١].

التدخل البيزنطي في شؤون بلاد الشام ٥٥٣ هـ/ ١١٥٨م

تجديد التحالف بين مملكة بيت المقدس والأمبراطورية البيزنطية

نتيجة لسلوك رينولد شاتيون، صاحب أنطاكية، الذي لم يكن مقبولاً، قرَّر بلدوين الثالث أن يعيد النظر في سياسته تجاه أنطاكية، وأدرك أن الصليبيين في الشرق الأدنى لم يستطيعوا الإفادة التامة التي أتاحها مرض نور الدين محمود وزلزال بلاد الشام الكبير الذي وقع في عام (٥٥٢ هـ/ ١١٥٧م)، وأيقن أنه لا بد من الاستعانة بقوة خارجية وبخاصة أن نور الدين محمود أخذ يستعد لاستئناف الجهاد[٢]، فيمَّم وجهه صوب القسطنطينية، ذلك أن الدولة البيزنطية لم تنسَ الغارة التي شنَّها رينولد شاتيون، بالاشتراك مع ثوروس الثاني حاكم كيليكية ضد جزيرة قبرص في عام (٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م)، حيث تغلَّبا على الجيوش الأمبراطورية فيها، ثم نهباها وأحرقا القرى والضياع، وقتلا الأطفال والشيوخ والنساء، وغادراها بعد ثلاثة أسابيع من الانتهاكات الدامية. ولم يسع الأمبراطور أن يغفر للزعيمين النصرانيين على ما قاما به، بالإضافة إلى ذلك، فقد اعتقد بلدوين الثالث أن الجيش البيزنطي ما زال يُعدُّ أقوى جيش في العالم النصراني في الشرق الأدنى[٣].

كانت الخطة التي وضعها بلدوين الثالث لاستقطاب مانويل هي المصاهرة، فأرسل لهذا الغرض سفارة إلى البلاط البيزنطي في (منتصف عام ٥٥٢ هـ/ صيف عام ١١٥٧ م) برئاسة أتارد رئيس أساقفة الناصرة، الذي توفي في الطريق، وعضوية كل من همفري الثاني سيد تبنين[٤] وجوسلين بسيليوس ووليم دي باري؛ لطلب يد

(١) ابن القلانسي: ص ٥٤٢.

(٢) Setton: I p 542.

(٣) Gregoire le Prêtre: p 186.

(٤) تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور. الحموي: جـ ٢ ص ١٤.

الأميرة تيودورة ابنة إسحاق أخي الأمبراطور[١].

أحسن مانويل استقبال السفارة وكان أن تمَّت الصفقة على أن تكون هدية الزواج التي يقدمها بلدوين الثالث لعروسه مدينة عكا وما يتبعها من أراضٍ[٢]. والراجح أن المفاوضات تطرقت إلى أوضاع الصليبيين المتردية مقابل تعاظم قوة نور الدين محمود، وما يمكن أن يقدمه الأمبراطور من مساعدة. ومن الواضح أن مانويل استغل من ناحيته هذه الزيجة التي تمت في (شهر رجب عام ٥٥٣ هـ/ شهر آب عام ١١٥٨ م) للقيام بمحاولة أخرى يسترد بها حقوق الأمبراطورية في كيليكية وأنطاكية، ويبدو أنه وعد الملك الصليبي بالاشتراك في حلف لمناهضة نور الدين محمود وتأديب رينولد شاتيون وكان هذا الأخير قد حالف ثوروس الثاني صاحب أرمينية الصغرى ضد سلاجقة الروم والدولة البيزنطية معاً، في الوقت الذي اتخذ فيه الأمبراطور البيزنطي من سلاجقة الروم حاجزاً يقي أملاكه في آسيا الصغرى من تضخُّم نفوذ الأمير الأرميني.

مانويل يغزو كيليكية

لم تكد الأميرة البيزنطية تيودورة تغادر القسطنطينية في صيف عام (٥٥٣ هـ/ ١١٥٨ م) متوجهة إلى بيت المقدس، حتى خرج مانويل على رأس جيش يُقدَّر بخمسين ألف جندي، متوجهاً إلى كيليكية ليسترد حقوق الأمبراطورية ومن ثَّم سيتوجه إلى أنطاكية لإخضاعها وتأديب حاكمها رينولد شاتيون[٣].

وكان أن عبر مانويل آسيا الصغرى من شمالها الغربي إلى جنوبها الشرقي متظاهراً بمحاربة السلاجقة حتى يُموِّه على أهداف حملته، واتسم خروجه بالسرية التامة.

كان الأمير الأرميني ثوروس الثاني آنذاك في طرسوس، ولم يساوره أي شك في إمكانية حصول غزو بيزنطي لأراضيه، حتى علم فجأة ذات يوم من (شهر رمضان/ شهر تشرين الأول) بأنَّ العساكر البيزنطية شوهدت على مسيرة يوم واحد من طرسوس، فهرب إلى الجبال. ثم دخل مانويل سهل كيليكية واحتلَّ بعض المدن والقلاع الكبرى مثل طرسوس وتل حمدون وعين زربة والمصيصة التي اتخذ مقامه

---

(١) ولين الصوري: جـ ٢ ص ٨٥٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ٨٦٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ٨٦١.

فيها، وأضحت كيليكية في قبضته، ولاذ ثوروس بالفرار من مكان إلى آخر[١].

وأرسل مانويل إلى رينولد شاتيون في أنطاكية يستدعيه لمحاسبته على ما فعل بجزيرة قبرص. ويبدو أن حاكم أنطاكية انزعج لقدوم الأمبراطور الذي رابط على حدود إمارته. إذ أدرك أنه ليس بوسعه أن يتصدَّى للجيش الأمبراطوري الكثيف، فطلب مساعدة بلدوين الثالث متجاهلاً أن ملك بيت المقدس لا يقلُّ استياء عن الأمبراطور، وأخَّر مثوله أمام الأمبراطور بانتظار وصوله إلى أنطاكية حيث كان في طريقه إليها، لكن بطانته نصحوه بالإذعان، وعرض على مانويل تسليمه قلعة أنطاكية، ورأى الأمبراطور أن ذلك ليس كافياً، وأصرَّ على أن يحضر رينولد شاتيون إلى مجلسه ليقدم خضوعه وولاءه، فاضطر إلى إجابة الطلب، فعجَّل بالمسير إلى معسكر الأمبراطور خارج أسوار مدينة المصيصة، وأعلن خضوعه له[٢].

مانويل في أنطاكية

ما إن علم بلدوين الثالث باقتراب مانويل من أنطاكية، حتى عجَّل بالمسير نحو الشمال يرافقه أخوه عموري والبطريرك إيمري، فبلغ المدينة عقب عودة رينولد شاتيون إليها. وإذ أظهر ملك بيت المقدس شيئاً من الامتعاض عندما سمع بنبأ العفو عن رينولد شاتيون، بادر فوراً إلى طلب الاجتماع بالأمبراطور ونتيجة للمباحثات التي جرت بينهما تمَّ الاتفاق على ما يلي:

- عقد تحالف بين الطرفين.
- تسوية علاقات بلدوين الثالث برينولد شاتيون. وحصل الأول بالمقابل على وعد من الأمبراطور بالعفو عن ثوروس الثاني.
- يقدم الأمبراطور مساعدة عسكرية للصليبيين.

دخل مانويل بعد ذلك مدينة أنطاكية في (شهر ربيع الآخر عام ٥٥٤ هـ/ شهر نيسان عام ١١٥٩ م)، وأجرى مفاوضات أخرى مع بلدوين الثالث ورينولد شاتيون اتسمت بالسرية التامة، اتفق فيها الأطراف الثلاثة على القيام بحملة كبرى ضد

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٦١ . Gregoire le Prêtre: p 187.

(٢) المصدر نفسه: ص ٨٦١ ـ ٨٦٢ . رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩.

المسلمين على أن تكون وجهتها مدينة حلب[١]. ولم تذكر المصادر المعاصرة أن بلدوين الثالث اعترف في تلك المباحثات بسيادة الأمبراطور البيزنطي على الصليبيين في بلاد الشام[٢].

والواضح أنَّ ما طرأ من أحداث ترجع على ما يبدو إلى إلحاح الصليبيين على مانويل بهدف القضاء على القوة الإسلامية المتعاظمة التي يقودها نور الدين محمود، الذي كان آنذاك يعمل على تقوية نفوذه في بلاد الشام، وأصبح يشكل خطراً على الإمارات الصليبية، وربما كان ما قام به وقتذاك من الموافقة على الدعوة لمهاجمة أملاك نور الدين محمود أنما قصد به صرف أنظار الصليبيين عن التفكير فيما حدث بأنطاكية.

مانويل في بلاد الشام

وبدأت الحشود الصليبية والبيزنطية تتحرك باتجاه الطرف الإسلامي، وقد أثارت مخاوف نور الدين محمود، فكتب إلى «ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم، ويبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم والاستعداد للنكاية بمن يظفر منهم»[٣]. ثم مضى إلى حلب والمناطق الشامية الأخرى يشحذ الهمم ويبعث الطمأنينة في نفوس السكان[٤].

غير أن هناك فجوة في كتابات المؤرخين المعاصرين لتلك الحقبة. فبدلاً من أخبار الاستعدادات التي انصرف إليها نور الدين محمود للتجهُّز للقتال، وبدلاً من أخبار تأهب مانويل بجنده وحلفائه، إذ بالصلح يتم بين المسلمين والبيزنطيين في (شهر جمادى الأولى عام ٥٥٤ هـ/ شهر أيار عام ١١٥٩ م)، كأن لم يحدث بين قيام نور الدين محمود وإتمام الصلح شيء.

ويشير الكاتب الأرمني جريجوار الكاهن، ويتفق معه ابن القلانسي إلى تردد رسل نور الدين محمود على معسكر الأمبراطور، ولا شك بأن الزعيم المسلم كان مستعداً للحرب. فقد تواصل قدوم الأمراء وولاة الأعمال بجنودهم[٥]، ومع هذه

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٦٥. ابن العبري: ص ١٧٣.

(٢) Grousset: II p 407.

(٣) ابن القلانسي: ص ٥٤٠ ـ ٥٤١.

(٤) المصدر نفسه: ص ٥٤٤.

(٥) المصدر نفسه:

الكثرة العددية إلا أنه آثر الصلح مع مانويل حتى لا يجعل مملكته بين عدوين: الصليبيين في الجنوب والبيزنطيين في الشمال.

أعلن الأمبراطور، عقب انتهاء المفاوضات مع رسل نور الدين محمود، عن تأجيل حملته بعد أن تمَّ الاتفاق بين الطرفين، وقد تضمن هذا الاتفاق شرطين:

الأول: إطلاق نور الدين محمود سراح ستة آلاف من الأسرى النصارى الذين كانوا معتقلين بسجونه منذ الحرب الصليبية الثانية.

الثاني: تعهده بمساندة مانويل في حروبه ضد سلاجقة الروم(١).

وقد اتفقت المصادر العربية والبيزنطية والصليبية على الشرط الأول، بينما انفرد كيناموس بذكر الشرط الثاني، وقد نجد له سنداً عندما قام نور الدين محمود بمهاجمة أملاك السلاجقة، في عام (٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م) في الوقت الذي كان فيه القتال دائراً بين السلاجقة والبيزنطيين كما سنرى.

ولعل الاتفاق قد تمَّ أيضاً على أن يقوم نور الدين محمود بمراقبة تحركات رينولد شاتيون نيابة عن الأمبراطور، بدليل أن شاتيون وقع في أسر المسلمين عام (٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م) أثناء قيامه بغارة بين مرعش ودلوك، وبقي في السجن إلى عام (٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م) أي إلى ما بعد وفاة نور الدين محمود، دون أن يتحرك الأمبراطور البيزنطي لإنقاذ تابعه(٢).

وكان نور الدين محمود من جهته، يرمي إلى عدم التدخل في شؤون أنطاكية لأن ذلك يعطي مانويل فرصة للتدخل في شؤون بلاد الشام، وهذا ما لا يريده، فجوار الصليبيين أحب إليه من جوار القسطنطينية(٣)، بالإضافة إلى أنه فضَّل ترتيب أوضاع البيت الإسلامي في الجزيرة وآسيا الصغرى وفقاً لمصلحته.

ويتجلَّى من عبارة لابن القلانسي فرح المسلمين برحيل الأمبراطور بعد الصلح إلى بلاده «مشكوراً محموداً لم يؤذ أحداً من المسلمين»(٤)، والواقع أن مانويل لم يرد أن

---

(١) ابن القلانسي: ص ٥٤٥ ـ ٥٤٦ . Kinnamos: Epitome Historarium. In C. S. H. B: P 188. Camb. Hist of Byzantine Empire: IV p 236. Grégoire le Prêtre: pp 189 - 190.

(٢) ابن العبري: ص ١٧٤ . Grégoire le Prêtre: p 208.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨٧.

(٤) ابن القلانسي: ص ٥٤٥.

يؤذي أحداً من المسلمين، بل كان غرضه، كما ألح جيرار أسقف اللاذقية آنئذ، الهيبة لا الفتح، بالإضافة إلى تسوية مشكلة أنطاكية، حتى إذا تمَّ له ذلك لم يبق عليه إلا أن يجري على السياسة البيزنطية التقليدية التي هدفت دائماً إلى تحقيق التوازن بين القوتين الإسلامية والصليبية في بلاد الشام بحيث لا تطغي إحداهما على الأخرى بشكل يهدد مصالح الأمبراطورية، ولم يكن من صالح الأمبراطور أن يقضي على نور الدين محمود. بالإضافة إلى سياسته الشرقية، فقد تلقَّى مانويل نبأ مقلقاً من القسطنطينية ربما كان دافعاً رئيسياً إلى عقد الصلح وهو محاولة انقلاب لخلعه عن العرش بتدبير اثنين من كبار رجال البلاط البيزنطي(١).

وعلى أي حال، يُعدُّ التقارب الذي تمَّ بين نور الدين محمود ومانويل ميزة بالغة القيمة فيما ينشب من حروب مع عدو شديد الخطورة على الأمبراطورية يتمثل في سلاجقة الروم. وبعد عقد الاتفاق، ارتدَّ مانويل مع جيشه باتجاه الغرب عائداً إلى بلاده(٢).

نشاط نور الدين محمود في شمالي بلاد الشام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م

حملة مانويل على أملاك السلاجقة

تعرضت مؤخرة الجيش البيزنطي، أثناء عودته إلى القسطنطينية، لهجمات السلاجقة غير أنه وصل متماسكاً إلى العاصمة. وقد رأى مانويل أن قلج أرسلان مسؤول عن هذه الانتهاكات، فأراد أن يثأر منه؛ لذلك عبر إلى آسيا الصغرى بعد مرور ثلاثة أشهر للانتقام من السلاجقة، فاتجه إلى إقليم بيثينية حيث تقيم القبائل التركمانية التي اعترضت طريقه أثناء عودته؛ فاجتاز بحر سيستوس واستولى على بعض المدن، فتصدَّت له هذه القبائل، وبفضل سرعة تحركهم كانوا يهاجمون الفرق البيزنطية قبل أن تتمكَّن الكشافة من رصد تحركاتهم، ثم هاجم الفرق المسلحة السلجوقية المتمركزة في وادي نهر تمبريس، التي كانت قد اشتركت في مهاجمة الجيش البيزنطي، لكن حملة الأمبراطور هذه كانت قصيرة؛

---

(١) Grégoire le Prêtre: p 190. Kinnamos: pp 189 - 190.

(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٦٥ . Kinnamos: Ibid p 190.

فحلول فصل الشتاء أجبره على العودة إلى العاصمة[1].

في هذه الأثناء بعث قلج أرسلان الثاني برسالة إلى الأمبراطور يعرض عليه عقد معاهدة سلام بينهما، لكن هذا الأخير رفض العرض[2] استناداً إلى نشاط نور الدين محمود المتجدِّد ضد الأملاك السلجوقية.

حملة نور الدين محمود على الأملاك السلجوقية

اجتاح ياغي أرسلان الدانشمندي صاحب سيواس، نواحي البستان التابعة للسلاجقة، في محاولة لإقصاء قلج أرسلان الثاني عن الحكم وتعيين أخيه بدلاً منه، والجدير بالذكر أن الدانشمنديين كانوا حريصين على قتال السلاجقة، وقد ساعدتهم الظروف المحيطة بهم على ذلك، وبخاصة بعد وفاة «ذي القرنين» صاحب ملطية وتولي ابنه ناصر الدين محمد الحكم من بعده[3]. ثم هاجم ياغي أرسلان ملطية واستولى عليها[4] بتحريض من مانويل. وفي الوقت نفسه، زحف نور الدين محمود من أواسط الفرات على أملاك السلاجقة، وقد تمَّ ذلك على ما يبدو طبقاً لاتفاقية الصلح التي عقدها مانويل معه في عام (٥٥٤ هـ/ ١١٥٩م)، وقد تمكَّن من وضع يده على بهسنا ورعبان وكيسوم ومرعش التابعة لهؤلاء، كما هاجم بعض المدن الأخرى[5].

وهكذا تعرَّض قلج أرسلان الثاني لضغط ثلاثي في الوقت نفسه، ولما لم يكن باستطاعته أن يحارب على جميع الجبهات، لذلك جنح إلى السلم، وبدأ بالجانب الإسلامي، وتمَّ الصلح أولاً بينه وبين نور الدين محمود ونتيجة لذلك استعاد السلاجقة المدن التي ضمَّها هذا الأخير[6].

بلدوين الثالث يهاجم الأملاك الإسلامية

باءت بالفشل فكرة التحالف بين الأمبراطورية البيزنطية والصليبيين في بلاد

---

(١) Michel le Syrien: III p 316. kinnamos: p 194.

(٢) Grégoire le prêtre: p 193. Camb Med. Hist: IV p 377.

(٣) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر: جـ ٣ ص ٤٤.

(٤) Michel le Syrien: III p 321.

(٥) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٦٧.

(٦) Grègoire le Prêtre: p 194.

الشام للقيام بعمل حاسم مشترك ضد نور الدين محمود، واضطر الصليبيون إلى الاعتماد على أنفسهم في صراعهم مع المسلمين.

وكان أن انتهز بلدوين الثالث فرصة انهماك نور الدين محمود في شؤون آسيا الصغرى لمحاربة السلاجقة، فقام بالإغارة على منطقتي دمشق وحوران. فأضرم النار في كل ما صادفه، وعاث فساداً في النواحي، واستباح لجنده الناحية كلها امتداداً من بصرى حتى دمشق.

كان حاكم دمشق آنذاك نجم الدين أيوب. وقد رأى نفسه عاجزاً عن التصدي للصليبيين في ظل غياب نور الدين محمود مع معظم الجيش، لذلك دخل في مفاوضات مع بلدوين الثالث وعرض عليه مبلغ أربعة آلاف دينار، وإطلاق سراح ستة من الفرسان الصليبيين، مقابل هدنة لمدة ثلاثة أشهر.

وافق ملك بيت المقدس على ذلك، وتقرَّرت الهدنة. ونجح نجم الدين أيوب بفضل فطنته أن ينقذ دمشق من الصليبيين[١].

مشكلة الوراثة الأنطاكية

جوسلين الثالث دي كورتناي يقع في الأسر

على أثر عودة نور الدين محمود من الشمال إلى دمشق، كلَّف مجد الدين ابن الداية بمراقبة الصليبيين في أنطاكية. وحدث في (شهر رجب عام ٥٥٥ هـ/ شهر تموز عام ١١٦٠ م) أن خرج جوسلين الثالث دي كورتناي صاحب الرها من حارم متوجهاً نحو حلب في محاولة لمهاجمتها، فتصدّى له مجد الدين بن الداية وتغلَّب عليه، وأخذه أسيراً ودخل به إلى قلعة حلب، وسجنه في الجب الذي سُجن فيه والده من قبل[٢].

رينولد شاتيون يقع في الأسر

أثناء عودة بلدوين الثالث من أنطاكية، وخلال قيامه بغارات على دمشق، ترامى إلى سمعه وقوع رينولد شاتيون صاحب انطاكية أسيراً في يد نور الدين محمود

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٦٧ ـ ٨٦٨.

(٢) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٨٨، ابن العبري: ص ١٧٤.

فقد حدث في (شهر ذي القعدة عام ٥٥٥ هـ/شهر تشرين الثاني عام ١١٦٠م)، أن الحركة الموسمية لقطعان الماشية من جبال اللكام إلى سهل نهر الفرات، أغرت أمير أنطاكية الذي اتصف بالحمق السياسي بعد أن أفادته كشافته أن في الناحية بين مرعش ودلوك قطعاناً كثيرة من البقر والأغنام، ولما كانت هذه المنطقة خالية ممن يحميها، إذ أن سكانها من النصارى كانوا يعيشون في دعة وأمان طمع رينولد شاتيون في الإغارة على وادي نهر الفرات للاستيلاء على هذه القطعان. وقد حقَّق غايته دون أن يصادف أدنى مقاومة.

وفي أثناء عودته، حمله على البطء في السير قطعان الماشية التي استولى عليها وساقها أمامه، فوقع في كمين نصبه له والي حلب مجد الدين بن الداية بين كيسوم ومرعش في مكان يُعرف باسم «كومى»، بعد ما علم بعودته من الغزاة متثاقلاً. وعلى الرغم من أنه استبسل في الدفاع عن نفسه، غير أن القوات الإسلامية تفوَّقت في العدد على رجاله، فأسقطوه عن جواده وأسروه، وأرسلوه مع بقية الأسرى مكبَّلين إلى حلب والتقى في السجن بجوسلين الثالث الذي أسر قبل ذلك ببضعة أشهر[١].

ذيول وقوع رينولد شاتيون في الأسر

أثار وقوع رينولد شاتيون في الأسر وغيابه عن المسرح السياسي مشكلة قانونية في أنطاكية، حيث كان يحكم بوصفه زوج الأميرة كونستانس. وغدت هذه الإمارة دون رجل قوي يحكمها ويدافع عنها وبخاصة أن الرأي العام لم يساند الأميرة التي ادَّعت أن السلطة عادت إليها، ورغبت في السيطرة على زمام الأمور بنفسها، بل عُدَّ ابنها بوهيموند الثالث من زوجها الأول، الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، هو الوريث الشرعي[٢].

في ظل هذا الفراغ السياسي لم يحاول نور الدين محمود مهاجمة أنطاكية خشية من أفساح المجال لتدخل بيزنطي. ولما كان الأمبراطور مانويل صاحب السيادة الاسمية على المدينة بات لزاماً عليه أن يسوِّي المشكلة. على أن القسطنطينية كانت بالغة البُعد عن أنطاكية، كما أن أهل المدينة وبخاصة النورمان، كرهوا كل ما هو بيزنطي، وعدُّوا أنفسهم مستقلين عن بيزنطية. ولما كان ملوك بيت المقدس لهم حق التقدم على

---

(١) ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٨٨. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٦٨ ـ ٨٦٩.

(٢) وليم الصوري: المصدر نفسه. Setton: I pp 546 - 547.

سائر الأمراء الصليبيين، والتدخل في ترتيب أوضاعهم مما دفع بلدوين الثالث إلى التدخل، كما تطلّع أهل أنطاكية إليه لحل المشكلة[1].

وبناء على دعوتهم، قدم ملك بيت المقدس إلى أنطاكية وأعلن بوهيموند الثالث أميراً شرعياً، محافظاً بذلك على حقوقه الشرعية في الحكم، وعهد بالحكومة إلى البطريرك إيمري حتى يبلغ الأمير سن الرشد. والواقع أن الأميرة كونستانس عارضت هذا القرار، واستنجدت بالأمبراطور البيزنطي مانويل الذي لم يرض هو الآخر عن الأسلوب الذي تمّ بموجبه حل المشكلة[2].

ولم يلبث مانويل الذي توفيت زوجته إيرين في (نهاية عام ٥٥٤ هـ/ عام ١١٥٩م) أن تزوّج من الأميرة ماري ابنة كونستانس في (شهر محرم عام ٥٥٦ هـ شهر كانون الثاني عام ١١٦١ م) التي فضّلها على ميليسند أخت ريموند الثاني كونت طرابلس. وبذلك انتصرت الأميرة الأنطاكية وتمكّنت من تثبيت أقدامها في حكم الإمارة[3].

نور الدين محمود يحاصر حارم

استغل نور الدين محمود تعقيدات القضية الأنطاكية وتضارب الآراء حول الحلول المقترحة لها، بالإضافة إلى نفور ريموند الثاني كونت طرابلس بسبب رفض الأمبراطور البيزنطي الزواج من شقيقته، فهاجم حارم وحاصرها في عام (٥٥٧ هـ/ ١١٦٢م) فامتنعت عليه بفعل حصانتها وضخامة حاميتها. وطلب سكانها النجدة من سائر القوى الصليبية المجاورة، فاحتشدت العساكر من كل حدب وصوب ملبية نداء الاستغاثة. وطلب نور الدين محمود القتال، لكن الصليبيين رفضوا خوض معركة مكشوفة معه على الرغم من كثافة أعدادهم فانسحب من أمام حارم عندما وجد نفسه عاجزاً عن اقتحام القلعة من جهة، وامتناع الصليبيين عن خوض المعركة من جهة ثانية حتى لايقع في الجمود العسكري، واشترك أسامة ابن منقذ معه في هذه الغزوة[4].

---

(١) وليم الصوري جـ ٢ ص ٨٧١.

(٢) المصدر نفسه. Michel le Syrien: III p 324.

(٣) المصدر نفسه: ص ٨٧١ - ٨٧٣.

(٤) ابن الأثير: الباهر ص ١١٦.

وفاة الملك بلدوين الثالث

خرَّ الملك بلدوين الثالث مريضاً أثناء اجتيازه طرابلس عائداً من أنطاكية في طريقه إلى بيت المقدس. ولما وصل إلى بيروت ازدادت حالته الصحية سوءاً، وتوفي فيها في (٢٠ صفر عام ٥٥٧ هـ/ ١٠ شباط عام ١١٦٢ م)[١]، ولم يترك الملك الصليبي وريثاً يرثه في مملكته سوى أخيه عموري حاكم يافا وعسقلان الذي لم يلبث ان تُوج ملكاً في كنيسة القيامة باسم عموري الأول[٢]. واقترح أعوان نور الدين محمود عليه، وكان قد عاد حديثاً من أداء فريضة الحج، أن الوقت قد حان للقيام بهجوم عام على الصليبيين في بيت القدس، غير أنه رفض أن يزعج قوماً يندبون فقدان ملكهم[٣].

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٧٦ ـ ٨٧٧.

(٢) المصدر نفسه: ٨٧٨ ـ ٨٧٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٨٧٧.

الفصل الثالث عشر

الصراع بين نور الدين محمود وعموري الأول حول مصر
٥٥٨ ــ ٥٦٥ هـ/١١٦٣ ــ ١١٦٩ م

تمهيد

مرَّ الصراع بين نور الدين محمود وعموري الأول حول مصر في ثلاث مراحل زمنية.

الأولى: مرحلة استطلاع الأوضاع السياسية والإقتصادية، وتشمل المدة بين ٥٥٨ ـ ٥٦١ هـ/١١٦٣ ـ ١١٦٦ م.

الثانية: مرحلة تأكيد الحماية الصليبية على مصر، وتشمل المدة، بين ٥٦٢ - ٥٦٣ هـ/١١٦٧ ـ ١١٦٨م.

الثالثة: مرحلة نجاح نور الدين محمود في ضمِّ مصر إلى بلاد الشام، وتشمل المدة بين ٥٦٤ ـ ٥٦٥ هـ/١١٦٨ ـ ١١٦٩ م.

المرحلة الأولى: ٥٥٨ ـ ٥٦١ هـ/١١٦٣ ـ ١١٦٦ م

الوضع الداخلي في مصر: ٥٥٥ ـ ٥٥٨ هـ/ ١١٦٠ ـ ١١٦٣ م

اغتيال الوزير طلائع بن رُزِّيك

طمع الوزير الملك الصالح طلائع بن رُزَّيك في جعل الخلافة الفاطمية في عقبه. فعندما توفي الفائز في (شهر رجب عام ٥٥٥ هـ/ شهر تموز عام ١١٦٠ م)، دون أن يترك وريثاً، أقام مكانه في الخلافة الأمير عبد الله حفيد الحافظ، وهو أصغر الأقارب، ولقَّبه بلقب «العاضد لدين الله»، وزوَّجه ابنته عسى أن ترزق منه ولداً فيجتمع لبني رُزَّيك الخلافة مع الملك[١].

واستبدَّ طلائع بإدارة شؤون الدولة، وفقد الخليفة في المقابل كافة اختصاصاته، فأضحى طلائع بذلك صاحب الأمر والنهي في الدولة الفاطمية، وهكذا استمر يلهو بالخلفاء الصغار الذين أضحوا أداة طيعة في يده، ويتضح ذلك من عبارته المشهورة التي قالها عندما هلَّل سكان القاهرة للخليفة الجديد: «كأني بهؤلاء الجهلة، وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف الثاني، وما علموا أنني كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم»[٢].

وثقلت وطأة طلائع على الخليفة العاضد، وضاق بتسلطه ذرعاً، كما أن نساء القصر لم يقبلن بسهولة زواج ابنته من الخليفة فحنقن عليه. ودبَّرت إحدى عمات الخليفة وتدعى ست القصور، أخت الظافر الصغرى، أمر مقتله. فكمن له بعض

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٦٨.
(٢) المصدر نفسه: ص ٧٦،

الخدم في دهليز القصر وقتلوه في (١٩ رمضان عام ٥٥٦ هـ/ ١١ أيلول عام ١١٦١م). وكانت آخر كلماته التي تفوَّه بها عند وفاته، أسفه لعدم غزو بيت المقدس، واستئصال شأفة الصليبيين، كما تأسف لبنائه مسجداً على باب زويلة لأنه مضرَّة على القاهرة، وحذَّر ابنه رُزَّيك من طموحات شاور بن مجير الدين السعدي حاكم الصعيد، ونصحه بألا يتعرض له بسوء، لأنه لن يأمن من عصيانه[١].

الوزير رُزَّيك

أدّى مقتل طلائع بن رُزَّيك إلى فتح باب النزاع بين القوى المتنافسة على السلطة في مصر، إلى أن نجح ابنه رُزَّيك في اعتلاء منصب الوزارة، وتلقَّب بلقب «الملك العادل مجد الإسلام».

اتبع العادل رزَّيك سياسة التسامح، فأسقط الظلم عن الناس، وأدّى عن الحجاج ما يلزمهم إلى أمير الحرمين[٢]. وحاول أعوانه إثارته ضد شاور وعزله عن ولاية قوص عاصمة الصعيد ليتمَّ له الأمر دون منافسة. وكان شاور هذا قد أظهر قدراً من الكفاءة في الحكم جعلت الناس يلتفون حوله، وبرهن العادل رُزَّيك عن قصر نظر في هذا الحقل السياسي، حين قبل نصيحة أعوانه، فأقصى شاور عن منصبه في عام (٥٥٧ هـ/ ١١٦٢ م) مخالفاً بذلك وصية والده وتحذيره من الإقدام على هذه الخطوة، وعيَّن مكانه الأمير نصير الدين شيخ الدولة ابن الرفعة[٣].

لم يركن شاور، الذي اتصف بالطموح السياسي، إلى الهدوء فجمع أعوانه وأعداداً وفيرة من العربان وأمراء الصعيد وسار بهم في طريق الواحات حتى وصل إلى تروجة بالقرب من الإسكندرية، وتوجه منها إلى أقاليم غربي الدلتا، ثم زحف إلى القاهرة، وتمكَّن من دخولها من جهة الشمال بعد أن تغلَّب على القوة التي جنَّدها رُزَّيك للتصدي له، ثم اعتقل هذا الأخير، حيث قُتل بعد ذلك على يد ابنه الأمير طي ابن شاور في (٢٠ رمضان عام ٥٥٨ هـ/ ٢٣ آب عام ١١٦٣م)، وحلَّ شاور محله في منصب الوزارة[٤].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨١ . المقريزي: اتعاظ الحنفا: جـ ٣ ص ٢٥٤ .

(٢) المقريزي: المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩. ابن تغري بُردي: جـ ٥ ص ٣٤٦.

وزارة شاور الأولى

تولى شاور الوزارة في (٢٢ محرم عام ٥٥٨ هـ/ كانون الثاني عام ١١٦٣ م)، ولم يلبث أن استبدَّ بالحكم وأساء السيرة مثلما فعل من سبقه، فصادر أموال بني رُزِّيك، وعامل الخليفة العاضد معاملة سيئة[١].

كان طلائع قد أنشأ فرقة من الجند يُقال لهم البرقية، نسبة إلى برقة الواقعة غربي مصر، وعيَّن ضرغاماً بن عامر قائداً عليها وهو صاحب الباب[٢]، ولم يكن هذا الرجل بأقل طمعاً في الوزارة من غيره. فقد خرج على حكم شاور بعد تسعة أشهر من توليه الوزارة. وجرى قتال بين الطرفين انتهى بانتصار ضرغام وفرار شاور، ومقتل ابنه الأمير طي. فخلع عليه الخليفة العاضد خلعة الوزارة ولقَّبه بـ«الملك المنصور»[٣].

أما شاور، فقد اتخذ طريقة إلى بلاد الشام في (شهر رمضان/ شهر آب) للاستنجاد بنور الدين محمود فوصل إلى دمشق في (شهر ربيع الأول/ شهر شباط ١١٦٤م) واجتمع به. فأحسن نور الدين محمود استقباله، وأكرم مثواه، وأنعم عليه[٤].

وزارة ضرغام

لم يلبث ضرغام أن استغلَّ منصبه لجمع الأموال، فبغى بدوره، وارتكب المظالم، وقتل كثيراً من أمراء مصر لتخلو له الساحة السياسية، وسرعان ماعمَّ الاستياء أوساط العامة والخاصة وانتابهم الخوف على مصيرهم[٥].

أما في حقل السياسة الخارجية، فقد أرسل رسالة إلى دمشق يطلب فيها دعم نور الدين محمود وتأييده، لكن هذا الأخير لم يُعر رسالته التفاتة جدِّية، ورفض مساعدته، عندئذٍ تطلع الى بيت المقدس في محاولة لكسب تأييد ملكها عموري الأول ليدافع عنه ضد أي هجوم قد يقوم به شاور، وعرض عليه دفع مبلغ كبير من المال. لكن عموري تباطأ في الرد عليه على الرغم من تأييده لكل خطوة من شأنها أن تسمح

---

(١) المقريزي: جـ ٣ ص ٢٦٠ ـ ٢٦٤ .

(٢) صاحب الباب هي رتبة تلي الوزارة مباشرة.

(٣) المقريزي: جـ ٣ ص ٢٦٠ ـ ٢٦٤.

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨٤.

(٥) المصدر نفسه: ص٨١.

له بالتدخل في شؤون هذا البلد[1].

وهكذا أخذت الصراعات الداخلية في مصر بُعداً إقليمياً خارجياً، وجاءت مؤشراً على نهاية الدولة الفاطمية. فقد كشفت لنور الدين محمود والصليبيين بعد ذلك عن مواطن ضعف الدولة، وأغرتهم بالطمع فيها والاستيلاء عليها[2].

مصر في سياسة الصليبيين

تطلع الصليبيون منذ عهد مبكر إلى غزو مصر؛ ففي عام (٤٩٢ هـ/١٠٩٩م) ناقش زعماء الحملة الصليبية الأولى اقتراحاً بمهاجمة الفاطميين في مصر، لأن هذا البلد يملك مفاتيح بيت المقدس، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة هادئة ومستقرة فعليهم أن يؤمِّنوا ظهرهم بالاستيلاء على الدلتا؛ إلا أنهم لم يتمكَّنوا من وضع خطتهم هذه موضع التنفيذ، لأنهم كانوا في وضع لا يسمح لهم بغزو مصر قبل وضع يدهم على بيت المقدس بالذات[3].

واتجهت حركة الوحدة الإسلامية منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي إلى الشمال وكانت مخاوف الصليبيين من ضمِّ دمشق على يد نور الدين محمود وتحقيق وحدة بلاد الشام الإسلامية في محلها، بعد احتكاكهم بالزنكيين في الجزيرة، واصطدامهم بالمشروع الذي تجلّى بعد سقوط الرها، متجاوزاً في أبعاده بلاد الشام إلى مصر، تنفيذاً للمرحلة التالية من خطة نور الدين محمود الهادفة إلى استعادة بيت المقدس، وإخراج الصليبيين من المنطقة[4].

لم يغفل الصليبيون خلال ذلك، أمر مصر بعد أن ظهر للعيان مدى ضعف الخلافة الفاطمية وعجزها عن الاحتفاظ بكيانها، وأجبرتهم حركة الوحدة الإسلامية إلى التوسع نحو الجنوب الغربي على حساب مصر والفاطميين.

على أن غزو مصر، وهي السياسة التي اتخذت طابعاً عملياً واسع النطاق على يد عموري الأول فيما بعد، كان لا بد من التمهيد لها بالاستيلاء على عسقلان، وهي القاعدة الوحيدة التي ظلَّت بيد الفاطميين في فلسطين. وهذا ما قام به الملك

---

(١) أبو شامة: جـ ١ ص ٤١٨.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨١. سيد: ص ٢٢٢.

(٣) عاشور: شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية: ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٤) عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٦٤. بيضون، إبراهيم: تاريخ بلاد الشام ص ٣٣٧.

بلدوين الثالث ملك بيت المقدس بعد تتويجه، وساعدته الأوضاع المفكّكة في العالم الإسلامي آنذاك من احتلالها.

وذكر بعض المؤرخين الصليبيين أن هذا الملك هدّد بغزو مصر في عام (٥٥٥هـ/ ١١٦١م) منتهزاً فرصة الفوضى التي عمّتها عقب مقتل الخليفة الفائز. لكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار[١].

لم تذكر المصادر الإسلامية شيئاً عن هذه الجزية، إلا أننا لا نستبعد صحتها، حيث أن أحوال الدولة الفاطمية في ذلك الدور خير شاهد على ضعفها[٢]. على أن هذه الجزية لم يجر دفعها مطلقاً، مما كان دافعاً لعموري الأول لاتخاذها ذريعة لغزو مصر[٣]. والواقع أن عدم دفع الجزية لم يكن إلا دافعاً ظاهرياً حمل عموري الأول على غزو مصر، أما الأسباب الحقيقية فتكمن في دافعين، سياسي واقتصادي.

فمن حيث الدافع السياسي، يُعدُّ عهده فاتحة مرحلة جديدة في الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين وذلك بما أحدثه من تغيير جذري في سياسة الصليبيين الخارجية تجاه مصر، وهي سياسة تختلف تماماً عن سياسة سلفه، وإن توافقت مع النهج الصليبي القديم. لقد واجه عموري الأول مشكلة كبرى تمثَّلت بالإنتصارات المتوالية لنور الدين محمود جعلت الكيان الصليبي في طريقه إلى الانهيار، لذلك رأى توسيع رقعة ممتلكاته في اتجاه آخر وهو مصر[٤]. وارتكزت سياسته الخارجية على القيام بسلسلة من المحاولات لغزو هذا البلد والسيطرة عليه للالتفاف على نور الدين محمود لأنه لو حدث أن وضع يده عليه فإن من شأن ذلك أن يعرِّض الإمارات الصليبية للحصار والزوال.

ومن حيث الدافع الاقتصادي، فإنه لم يغب عن تفكير عموري الأول تجارة مصر الضخمة، وميناء الإسكندرية الكبير الذي يعمل على رواج تلك التجارة بالإضافة إلى حركة التجارة العالمية التي تمر عبر هذا البلد الذي يتحكم في أقصر

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٤. رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٩٢ Michel le Syrien: III 317.
(٢) عاشور: شخصية الدولة الفاطمية... ص ٢٠٤.
(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٤. رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٩٢.
(٤) Stevenson: p 185.

وأفضل الطرق التجارية الشرقية[١].

مصر في سياسة نور الدين محمود

شكَّلت استغاثة شاور بنور الدين محمود نقطة تحول هامة في مستقبل مصر السياسي. فقد أثارت اهتمامه الجدِّي بعد أن وقف على ضعفها في ظل احتضار الدولة الفاطمية، ذلك أن تطلعات نور الدين محمود تكمن في استخدام هذا البلد لتحقيق ثلاثة أهداف دينية وسياسية واقتصادية.

فمن حيث الهدف الديني

ـ فقد أضعفت غزوات الصليبيين المتواصلة لمصر، بين أعوام (٥٥٠ ـ ٥٦٤ هـ/ ١١٥٥ ـ ١١٦٨ م)، الدولة الفاطمية سياسياً ومادياً، لأنها عجزت عن صدِّهم، كما أنها فتحت المجال للعناصر المعارضة لانتقادها والعمل على نشر المذهب السني كخطوة أولى في القضاء التدريجي عليها

ـ أدرك نور الدين محمود أن قيام الخلافة الفاطمية في مصر شكَّل مصدراً من مصادر الفرقة في العالم الإسلامي، لأنها جعلت ولاء المسلمين في الشرق الأدنى تتقاسمه خلافتان ومذهبان، إحداهما الخلافة العباسية السنية في بغداد، والأخرى الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر، لذلك كان من الطبيعي من أجل توحيد الهدف أن يتجه وهو الحاكم المسلم السني المذهب الحريص على تدعيم الوحدة الإسلامية وجعلها تمتد من النيل إلى الفرات إلى التفكير في القضاء على الخلافة الفاطمية في القاهرة[٢].

ـ يبدو أن حركة الإحياء السني نشطت في القاهرة بالإضافة إلى الإسكندرية، حيث استقر بعض الزهاد المتصوفة وعلماء السنة الذين دعوا إلى المذهب سراً وعلانية وساعد هؤلاء أحد رجال الشام وهو زين الدين علي بن نجا، الواعظ الذي قصد مصر بتشجيع من نور الدين محمود واستقر في القاهرة برعاية الوزير طلائع بن رزَّيك، الذي كان حريصاً على إقامة علاقات قوية مع نور الدين محمود وتنسيق الجهاد معه[٣].

---

(١) الحويري، محمود محمد: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدِّي للصليبيين ص ١٢٨ ـ ١٢٩. راجع بشأن أهمية العامل الاقتصادي Ehrenkreutz, A.S: Saladin pp 17 - 18.

(٢) عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٦.

(٣) المقريزي: جـ ٣ ص٢٧٢ ـ ٢٧٣.

ومن حيث الهدف السياسي

- إن وقوع مصر في يد عموري الأول، ملك بيت المقدس، من شأنه أن يحاصر بلاد الشام من قبل الصليبيين في الجنوب، مملكة بيت المقدس، والصليبيين في الشمال، إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس، مما يشكل تهديداً خطيراً لحركة الوحدة الإسلامية.

- أدرك نور الدين محمود أهمية وضع يده على مصر، والمزايا التي تعود عليه بامتلاكها وبخاصة فيما يتعلق بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين، على أساس أن توحيد القوى الحاكمة، في كل من البلدين الشام ومصر تحت زعامة حاكم مسلم واحد من شأنه أن يجعل مملكة بيت المقدس محصورة بين فكي الكماشة، ويضطرها للقتال على جبهتين واحدة في الشمال وأخرى في الجنوب، في حين كان الأسطول الفاطمي ما يزال قادراً على مضايقة حركة السفن الصليبية في البحر وحصار بعض الثغور على الساحل الشامي.

- توحيد الصف الإسلامي تمهيداً للمرحلة المقبلة في خطته الهادفة إلى استعادة بيت المقدس وإخراج الصليبيين من المنطقة، إذ أن انضمام مصر إلى بلاد الشام يعطيه فرصة أفضل لتحرير الأراضي الإسلامية من سيطرة هؤلاء.

ومن حيث الهدف الاقتصادي

- إن امتلاك مصر من قبل نور الدين محمود سوف يتيح له الاستفادة من مواردها الاقتصادية والبشرية وتسخيرها في خدمة الجهاد الديني ضد الصليبيين وأن النجاح في تحقيق هذا الهدف هو خطوة حاسمة في طموحات العائلة الزنكية، ذلك أن تسخير موارد بلاد الشام وشمالي العراق، ساعده على تهديد مملكة بيت المقدس، كما أن الاستفادة المادية المباشرة من امتلاك مصر، تكمن في حصوله على الأموال اللازمة من هذا البلد التي من شأنها تغذية الخزانة الإسلامية، وبالتالي تقوية الجبهة الإسلامية.

حملة عموري الأولى على مصر

وضع الملك عموري الأول خططه موضع التنفيذ العملي فتحرَّك في (مستهل شهر ذي القعدة عام ٥٥٨ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٦٣ م) على رأس جيشه متوجهاً إلى مصر للاستيلاء عليها بحجة عدم وفاء الحكومة الفاطمية بالتزاماتها دفع الجزية المتفق عليها. وساهمت منظمة الأسبتارية مساهمة فعَّالة في تجهيز هذه الحملة،

وأبدى مقدمها جلبرت الأسيلي، التي كانت حصونه تمتد على الحدود الجنوبية الغربية من المملكة الصليبية، حماساً زائداً لمشروع الحملة، وساندها بكل قواه[1]. وأعلن عموري الأول أن هدف حملته إرغام مصر على دفع الجزية المقررة، مدركاً في الوقت نفسه أن ضعف الحكم الفاطمي، وتنافس أرباب السلطة، لا يلبث أن يؤدي إلى تحقيق مطالبه كاملة[2].

وصل الجيش الصليبي إلى العريش من دون أن يلقى أية مقاومة، والتقى بالجيش الفاطمي بقيادة ضرغام، فهزمه عند أطراف مديرية الشرقية، ثم تابع تقدمه إلى بِلبيس[3] وحاصرها، وضيَّق عليها الخناق حتى كادت أن تسقط في يده لولا أن ضرغاماً استغل فيضان النيل فعمد إلى تحطيم السدود فساح الماء، وأغرق الأرض، وامتلأت الترع بالمياه، الأمر الذي أرغم الملك الصليبي على الانسحاب والعودة إلى بيت المقدس[4].

وعلى الرغم من عودة عموري الأول فاشلاً، إلا أن الحملة لم تخل من فائدة بالنسبة له وللصليبيين، فقد كشفت عن:

- ضعف الدولة الفاطمية بسبب النزاع الدائر بين الوزراء حول الاستئثار بالنفوذ
- انتشار روح الفوضى والاضطرابات.
- انعدام الروح الحربية عند الجند السودانيين والأرمن الذين يشكلون عماد الجيش الفاطمي.
- انعدام وسائل الدفاع من حصون واستحكامات.
- عِظم ثروة مصر، وسهولة الإستيلاء عليها.
- الأمل في الحصول على مساعدة القبط.

وكل ذلك شجَّعه على التخطيط للقيام بغزوة كبرى تمكِّنه من وضع يده على مصر.

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٤ ـ ٨٨٥.

(٢) حبشي: ص ١٠٣.

(٣) بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. الحموي جـ ١ ص ٤٧٩.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٥.

نور الدين محمود يهاجم حصن الأكراد[(١)]

كان نور الدين محمود يراقب تحركات عموري الأول بدقة متناهية، بالإضافة إلى تطور الأوضاع في مصر. فاستغل فرصة غياب الملك الصليبي وهاجم إمارة طرابلس التي تُعدُّ أضعف الإمارات الصليبية المتبقية، وهي بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس، فأغار على البقيعة تمهيداً لمهاجمة حصن الأكراد الذي يشرف على السهل الضيق.

وصادف آنذاك مرور بعض الأمراء الصليبيين من بلاد أكويتانيا في فرنسا، كان من بينهم هيو كونت لوزنيان، وجودفري مارتل، شقيق كونت أنجوليم، في أراضي إمارة طرابلس عائدين من بيت المقدس، فانضموا إلى قوات ريموند الثالث كونت طرابلس الذي قرَّر التصدي لنور الدين محمود.

وترتب على استنجاده العاجل بأنطاكية أن جاءه المدد من الشمال. فقد هرع بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية، وقسطنطين كولومان، قائد الحامية البيزنطية، إلى الجنوب وانضمَّا إلى القوات الصليبية، المتأهبة لقتال المسلمين. وتحرّك الجيش النصراني المتحد باتجاه حصن الأكراد، وفاجأ المسلمين وهم يحاصرون الحصن.

والواقع أن نور الدين محمود لم يكن يتوقع هذه الحشود الصليبية الضخمة وهي تسير في اتجاهه. وبعد نشوب معركة لم تستمر طويلاً انسحب بجيشه من الساحة ومضى مسرعاً باتجاه حمص، وعسكر على بحيرة قدس، القريبة منها، حيث أعاد تنظيم صفوف قواته، وتلقَّى إمدادات من دمشق وحلب، وتأهب لملاقاة الصليبيين. ويبدو أن هؤلاء خشوا من مطاردته داخل أملاكه، فعادوا أدراجهم[(٢)].

(١) حصن الأكراد: حصن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب، وهو بين بعلبك وحمص، وكان بعض أمراء الشام قد بنى في موضعه برجاً وجعل فيه قوماً من الأكراد، طليعة بينه وبين الفرنج، وأجرى لهم أرزاقاً، فتديروها بأهاليهم، ثم خافوا على أنفسهم من غارة فجعلوا يحصنونه إلى أن صار قلعة حصينة منعت الفرنج عن كثير من غاراتهم، فنازلوه فباعه الأكراد منهم ورجعوا إلى بلادهم، وملكه الفرنج. الحموي: جـ ٢ ص ٢٦٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٨٢ ـ ٨٣. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٧ ـ ٨٨٨.

الحملة النورية الأولى على مصر

شاور يستنجد بنور الدين محمود

اجتمع شاور، فور وصوله إلى دمشق هارباً من ضرغام، بنور الدين محمود، وأجرى معه مباحثات سياسية تعهَّد له خلالها أن:

- يدفع ثلث خراج مصر بعد إقطاعات العساكر، أي رواتب الجند.
- يوافق على إقامة عدد من أمراء بلاد الشام معه في مصر.
- يعترف بسيادة نور الدين محمود وينفذ أوامره، مقابل مساعدته في استعادة منصبه والقضاء على منافسة ضرغام[1].

كان من الطبيعي أن يُرحِّب نور الدين محمود بتلك الفرصة التي تسمح له بالتدخل في شؤون مصر، بعد أن توضَّحت نية عموري الأول في امتلاكها، غير أنه تردَّد في بادىء الأمر بقبول العرض رغبة منه في دراسة الموقف درساً مستفيضاً ودقيقاً حتى يزن الأمور، ويقف على حقيقة قوة خصمه في مصر خشية أن يغامر بجيش على امتداد الطريق الذي يسيطر عليه الصليبيون وراء الأردن، فتتعرَّض قواته لخطر الهجوم عليها من قِبل صليبيي بيت المقدس الذين تقع أراضيهم بين دمشق ومصر، كما لم يشأ أن يظهر بمظهر الطامع في مصر، الراغب في امتلاكها، أو المتطلع إلى الإطاحة بالخلافة الفاطمية[2].

وقد وصفه المقريزي بقوله: «فبقي نور الدين يقدِّم إلى هذا العرض رِجلاً ويؤخر أخرى، فتارة يقصد رعاية شاور لكونه التجأ إليه، وكون ما قاله زيادة في ملكه وتقوية له على الفرنج، وتارة يخشى خطر الطريق وكون الفرنج فيه، ويخاف من شاور أنه إذا استقرت قدمه في مصر خاس (غدر) في قوله ويخلف بما وعد، ثم قوي عزمه على إرسال الجيوش، فتقدم بتجهيزها وإزاحة عللها»[3].

ويعود الفضل إلى أسد الدين شيركوه، الرجل الثقة، في تبديد مخاوفه، وتشجيعه على الإقدام على غزو مصر. فقد أوضح له أن المصريين يفضِّلون حاكماً

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨٤. ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٣٨، ٣٤٦.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٩٤. حبشي: ص ١٠٥.

(٣) اتعاظ الحنفا: جـ ٣ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

مسلماً على بلادهم، على السيطرة الصليبية، مما يدل على أن هذا القائد كان على دراية بالأوضاع السياسية في مصر آنذاك، كما أنه كان من أبرز الشخصيات التي وجَّهت سياسة نور الدين محمود في وقت عصيب[1].

لذلك قرَّر نور الدين محمود إرسال حملة عسكرية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه لتحقيق هدفين مبدئيين:

الأول: إعادة شاور، الوزير الفاطمي المخلوع، إلى منصبه.

الثاني: الوقوف عن كثب على أوضاع مصر الداخلية تمهيداً لضمِّها[2]، وبخاصة أن شاور وعده، إن هو عاد إلى منصبه، سيتحمَّل نفقات الحملة، ويؤمن إقامة أسد الدين شيركوه وجنده في مصر.

ويبدو أن شاور استاء من تعيين أسد الدين شيركوه قائداً للحملة، وكان يأمل بقيادتها بنفسه نظراً لقوة شخصية شيركوه ومهارته القيادية والعسكرية التي سوف تطغى على نفوذه في مصر[3].

وعلم ضرغام بالاستعدادات التي تجري في دمشق لتجهيز حملة لمساعدة شاور، فاحتاط للأمر، واستنجد بعموري الأول في محاولة منه للدخول في لعبة توازن القوى، وعقد معه اتفاقاً لمساعدته ضد نور الدين محمود وتعهد له بالمقابل أن يدفع جزية سنوية يقررها الملك، كما وافق على أن تدخل مصر في تبعية الصليبيين[4]، وأجبر الخليفة العاضد على توقيع هذا الاتفاق.

كان طبيعياً أن يقبل عموري الأول هذا العرض الذي سيتيح له فرصة لا تُعوَّض لدخول مصر، وهو الأمل الذي سعى إليه الصليبيون منذ أكثر من نصف قرن. فأعدَّ على الفور حملة عسكرية من أجل الزحف على مصر.

وخرج أسد الدين شيركوه على رأس حملته الأولى إلى مصر في (شهر جمادى الآخرة ٥٥٩ هـ/ شهر نيسان ١١٦٤ م) يصبحه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان يناهز السابعة والعشرين من عمره. وسار على الطريق المحدَّد

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٥ ـ ٨٨٦. الحويري: ص ١٣٠. Stevenson: p 186.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨٤. أبو شامة: جـ ١ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٣) Ehrenkreutz: pp 23 - 24.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٦. Elisséeff: II p 580

للحملة، والذي يمر عبر أراضي يسيطر عليها الصليبيون[١].

وحتى يصرف أنظارهم عن التعرض للحملة، وتأميناً على حياة أفرادها، تصرف نور الدين محمود على محورين:

الأول: أنه رافق الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق للحيلولة دون التعرض لأفرادها.

الثاني: راح يهاجم الأطراف الشمالية لمملكة بيت المقدس المجاورة لدمشق لتحويل أنظار الصليبيين عن مصر[٢].

وسار أسد الدين شيركوه على رأس جيشه الكثيف عبر الصحراء، بصحبة شاور، فعبر الكرك[٣]، ومرَّ بالشوبك ثم أيلة[٤] فالسويس ومنها إلى القاهرة. وقد بلغ من السرعة في سيره أنه اجتاز برزخ السويس قبل أن يستعد الصليبيون للتدخل. فأرسل ضرغام قوة عسكرية بقيادة أخ له، يدعى ناصر الدين، للتصدي لزحفه. أسفر لقاء الطرفين في بِلبيس عن انتصار واضح لأسد الدين شيركوه.

تراجع ناصر الدين مهزوماً إلى القاهرة، فطارده أسد الدين شيركوه ووصل في أواخر جمادى الآخرة إلى العاصمة المصرية، فخرج إليه ضرغام بكل ما يملك من قوة، لإدراكه بأن هذه المعركة هي معركته الأخيرة.

وجرى اللقاء تحت أسوار القاهرة. اتسمت المعركة بالعنف وانتهت بانتصار أسد الدين شيركوه بعد أن تخلَّى الجيش والناس والخليفة عن ضرغام، وقُتل أثناء محاولته الفرار قرب مشهد السيدة نفيسة في (شهر رجب ٥٥٩ هـ/ شهر حزيران ١١٦٤ م) كما قُتل أخوه ناصر الدين. ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها[٥].

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: ص ٧٦. Ehrenkreutz: p 24.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٣) الكرك: قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم (البحر الأحمر) وبيت المقدس وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلا من جهة الربض. الحموي: جـ ٤ ص ٤٥٣.

(٤) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٢٩٢.

(٥) ابن الأثير جـ ٩ ص ٨٥. Elisséeff: II pp 582 - 584. stevenson: p 187.

وزارة شاورالثانية

بعد أن ضمن شاور عودته إلى منصب الوزارة، عاد إلى طبيعته التي اتصفت بالسيئة، ليدخل في صراع جديد مع أسد الدين شيركوه، فأساء معاملة الناس، وتناسى وعوده لنور الدين محمود، بل سرعان ما ظهرت عليه إمارات الغدر فنقض اتفاقيته معه، وطلب من شيركوه الخروج من مصر وأن يعود فوراً مع قواته إلى بلاد الشام، لكن هذا الأخير رفض الإستجابة لطلبه، وردَّ على موقفه المتقلب، فسارع إلى الاستيلاء على بِلبيس وحكم البلاد الشرقية[1].

لم يَسَعْ شاور إلا أن يستنجد بالملك عموري الأول الذي كان يتأهب للزحف على مصر، وأخذ يخوِّفه من نور الدين محمود وعرض عليه أن:

- يؤدي له مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل، البالغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة.

- يمنح هدية لكل من يصحبه من فرسان الأسبتارية الذين كانوا يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس؛ في محاولة منه لإغراء فرسانها بالاشتراك بالحملة.

- يتكفَّل بنفقات علف أفراسهم، مقابل مساعدته لإخراج أسد الدين شيركوه من مصر[2].

وهكذا انغمس شاور في اللعبة السياسية بين الأعداء الكبار محاولاً بذلك إثارتهم لمصلحته الخاصة.

ولا شك بأن عموري الأول كان آنذاك يراقب تطورات الموقف السياسي والعسكري في مصر. فلما علم بزحف أسد الدين شيركوه ازدادت مخاوفه، ولما وصلت إليه دعوة شاور رحَّب بها. وبذلك لم تُضع الفرصة عليه لدخول مصر، وإن اختلف الحليف، الأمر الذي لا يهمه في شيء، فكل ما يعنيه هو دخول مصر.

حملة عموري الثانية على مصر

بادر عموري الأول، فور تلقيه دعوة شاور، إلى عقد مجلس في بيت

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١٢١ ـ ١٢٢. ابن واصل: جـ ١ ص ١٣٩. أبو شامة: جـ ١ ص ٣٣٥.

(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٧.

المقدس حضره بارونات المملكة، وتقرَّر فيه تلبية دعوة شاور، بعد أن أوضح للمجلس أنَّ في قدرته تجهيز حملة لغزو مصر دون أن يضعف من دفاعات المملكة، وبخاصة أنه وصل وقتئذٍ من أوروبا عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس يمكن الاستفادة منهم في المجهود الحربي، وأمل في أن يتمكَّن من احتلال مصر لحساب الصليبيين، وقرَّر بأن يتولى بوهميوند الثالث، أمير أنطاكية، إدارة شؤون المملكة خلال غيابه[1].

وأسرع ملك بيت المقدس بالزحف إلى مصر على رأس قواته للمرة الثانية في (شهر رمضان عام ٥٥٩ هـ/ شهر آب عام ١١٦٤م)، واتصل، فور وصوله إلى فاقوس[2]، بشاور واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه في بِلبيس، وصمد هذا الحصن للحصار مدة ثلاثة أشهر دافع أسد الدين شيركوه خلالها عن مواقعه[3]. وفجأة قرَّر عموري الأول الدخول في مفاوضات معه للجلاء المزدوج عن مصر، فما الذي حدث في الأفق السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة؟

تلقَّى عموري الأول أنباء مزعجة من بلاد الشام، بتعرُّض ممتلكاته لضغط من نور الدين محمود، ففضَّل العودة للدفاع عنها، وأدرك في الوقت نفسه أن حملته مقضي عليها بالفشل في ظل امتناع أسد الدين شيركوه في بِلبيس.

وكان موقف أسد الدين شيركوه صعباً أيضاً، فالمؤن بدأت بالنفاد فضلاً عن تفوق القوات الصليبية ـ الفاطمية المشتركة في العدد وأن الوضع العسكري ليس في صالحه، لذلك قبِل الدخول في مفاوضات من أجل الجلاء عن مصر[4]. وفعلاً تمَّ الاتفاق، بين الرجلين على الخروج من مصر في (شهر ذي الحجة/ شهر تشرين الأول) وسار الجيشان الإسلامي والصليبي في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء، بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم، وكان شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بجيشه[5].

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٧. ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٨٥ .

(٢) فاقوس: اسم مدينة في جوف مصر الشرقي، وهي آخر ديار مصر من جهة الشام في الجوف الأقصى، الحموي: جـ ٤ ص ٢٣٢.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨٥.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٩٥.

كان شاور الفائز الحقيقي في هذا الصراع الذي انتهى لمصلحته، فتخلَّص من الجيوش الإسلامية الشامية والصليبية على السواء كما تخلَّص من ضرغام وأضحى طوال العامين التاليين صاحب الأمر والنهي، والمتحكِّم في مقاليد البلاد[1].

ووضع أسد الدين شيركوه نفسه بعد عودته من مصر، بتصرف نور الدين محمود، فكافأه بأن أقطعه مدينة حمص[2]. ويبدو أنه لم يستطع الانعتاق من القضية المصرية، فكانت مصر حديث مجالسه، ومحور أفكاره، ولم ينقطع عن تبادل الآراء مع أصدقائه فيها الذين كانوا يزودونه بأخبارها.

وأرسله نور الدين محمود في تلك الأثناء، بمهمة إلى بغداد، فاستغل وجوده في عاصمة الخلافة ليثير حماس الخليفة المستنجد بالله حيث راح يقص عليه أخبار مصر وأحوالها، وما شاهده وخبره بنفسه، فتأثر الخليفة بما سمعه وشجَّعه على العودة إليها.

نتائج حملة عموري الثانية على مصر

الواضح أن الحملة الصليبية الثانية التي قام بها عموري الأول ضد مصر كسبت جولة في الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين، ذلك أن هذا الملك تمكَّن من إرغام أسد الدين شيركوه على الإنسحاب من هذا البلد، والتخلِّي عن المواقع التي دخلت تحت سيطرته، هذا في الوقت الذي أضحى للصليبيين قدر كبير من النفوذ المادي والمعنوي عند شاور، فهم الذين ساندوه، وأجبروا أسد الدين شيركوه على الانسحاب.

وعلى الرغم من أن حملة أسد الدين شيركوه لم تحقق أهدافها في مصر، إلا أن النتيجة النهائية هي أن أملاك نور الدين محمود قد تدعَّمت في بلاد الشام، وارتفع شأنه في العالم الإسلامي، بينما تراجعت أملاك الصليبيين إلى الساحل واستبد اليأس بهم[3].

ومهما يكن من أمر، فقد غادر كل من شيركوه وعموري الأول أرض مصر وقد وقف كل منهما على أوضاعها السياسية المتردية، وسوء أحوالها الاقتصادية،

---

(١) سيد: ص ٢٢٦.

(٢) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٢٨.

(٣) الحويري: ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

بالإضافة إلى ما تتمتع به من ثروة وفيرة وموارد بشرية هائلة ترجِّح كفة من يضع يده عليها. وانتهز شاور فرصة خروجهما فعاد إلى سيرته الأولى، يظلم، ويقتل، ويصادر أموال الناس، بحيث لم يبق للخليفة الفاطمي العاضد معه أمر ولا نهي. ولما ثقلت وطأته عليه، كتب إلى نور الدين محمود يستنجد به ليخلِّصه منه[1].

نشاط نور الدين محمود خلال حملة عموري الثانية على مصر

فتح حارم

لم يترك نور الدين محمود فرصة تمر إلا واستغلَّها في مهاجمة الصليبيين، وإذا كان قد فشل في فتح حصن الأكراد في عام (٥٥٨ هـ/ ١١٦٣م)، فقد اختار أن يهاجم إمارة أنطاكية وعلى وجه التحديد حصن حارم. والواقع أنه لم يكن في تلك الغزوة وحده، وإنما اشترك معه في الجهاد الأمير فخر الدين قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا في ديار بكر، ونجم الدين ألبي صاحب ماردين، فضلاً عن أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل، وقد تحدثنا عن هذه الحملة بوصفها مظهراً من مظاهر الوفاق بين الأخوين، وسنبحثها هنا بوصفها مظهراً للصراع بينه وبين عموري الأول.

الواضح أن الأنباء التي جعلت عموري الأول يعجل بالعودة إلى بيت المقدس، جاءت من أنطاكية؛ ذلك أن نور الدين محمود حينما علم بتوجهه إلى مصر، مع ما تركه من فراغ عسكري، حيث خلت بلاد الشام من القوة الصليبية، هاجم إمارة أنطاكية، وبالتحديد حصن حارم الذي يُعدُّ معقلها الرئيسي، وضرب عليه حصاراً مركزاً بهدف تخفيف الضغط عن مصر وإجبار عموري الأول على الانسحاب، ثم الثأر للخسارة التي تعرَّض لها في البقيعة.

لم يقف الصليبيون مكتوفي الأيدي أمام تهديدات نور الدين محمود فتكتَّلوا للدفاع عن كيانهم فظهر تحالف ضمَّ كل من بوهيموند الثالث، أمير أنطاكية وريموند الثالث، كونت طرابلس، وقسطنطين كولومان، حاكم كيليكية البيزنطي، والأمير الأرميني ثوروس الثاني، بالإضافة إلى رينولد سانت ڤاليري سيد حارم[2].

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٤٨.

(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٨ ـ ٨٨٩.

وهنا نتوقف قليلاً لإيضاح أن انضمام كولومان وثوروس إلى الجانب الصليبي يدل على عدم وجود تنافر بين الأرمن والبيزنطيين، يضاف إلى ذلك أن تقدم كولومان للدفاع عن حارم، وهي من ممتلكات إمارة أنطاكية، يدل على اهتمام البيزنطيين بأمر هذه الإمارة بوصفها واقعة تحت السيادة البيزنطية، كما أن وجود القوات البيزنطية في المعركة إلى جانب قوات إمارة طرابلس ما يشير إلى أن حادثة مهاجمة ريموند الثالث للأملاك البيزنطية بسبب رفض الأمبراطور مانويل الزواج من أخته ميليسند، لم تترك أثراً في نفس الأمبراطور، وأن البيزنطيين والصليبيين والأرمن قد تركوا خلافاتهم جانباً للقضاء على نور الدين محمود[١].

وخرج الجيش النصراني المتحد في (منتصف شهر رمضان عام ٥٥٩ هـ/ شهر آب عام ١١٦٤ م) باتجاه الحصن. ولما شاهد نور الدين محمود ضخامة القوات المتحالفة التي قُدِّرت بحوالي ثلاثين ألفاً، وأنه يحارب أربعة أمراء في وقت واحد يقودون قوات صليبية وبيزنطية وأرمينية، رفع الحصار عن حارم في خطة عسكرية لاستدراجهم واتجه إلى أرتاح طمعاً في أن يتبعوه فيتمكَّن منهم بعد أن يبتعدوا عن قواعدهم[٢].

وفعلاً عزم بوهيموند الثالث أن يقتفي أثره مخالفاً بذلك نصيحة رينولد سانت ڤاليري الذي حذَّره من كمين قد يعدُّه نور الدين محمود. عند هذه المرحلة، نصح الأمير الأرميني ثوروس الثاني، الذي اتصف بالحذر الشديد، الأمراء الآخرين بعدم الدخول في معركة، والانتظار حتى يعود الملك عموري الأولى من مصر، لكن القادة الصليبيين لم يأخذوا بهذه النصيحة، لذلك انسحب مع أخيه مليح من المعركة. ولعل في نصيحة الأمير الأرميني ما يشير إلى حسن إعداد نور الدين محمود للمعركة، أو أن القوات المتحالفة، رغم كثرتها، كانت تفتقر إلى حسن الإعداد والتنظيم، كما تشير بوضوح إلى انقسام المتحالفين على أنفسهم[٣].

ووقع الصدام بين القوتين الإسلامية والنصرانية بالقرب من أرتاح، وإذ تجاهل بوهيموند الثالث تحذير ثوروس الثاني له، بادر بالهجوم، ولما تظاهر المسلمون بالفرار

---

(١) عمران، محمود: محاضرات في معالم التاريخ الإسلامي الوسيط: ص ١٤٨ ـ ١٤٩.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨٦.
(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٩، عمران: جـ ١٥٠.

اندفع وراءهم، فلم يلبث أن وقع في كمين نصبوه له، فأطبق جيش الموصل، بقيادة زين الدين علي كوجك، على القوة البيزنطية، وأنزلت في أفرادها القتل والأسر الأمر الذي ترتب عليه أن تشجَّعت باقي الفرق الإسلامية بهذا النصر وأحاطت بالقوات المتحالفة من كل جانب. واشتدت رحى الحرب حتى انتهى الأمر بهزيمة القوات المتحالفة هزيمة ساحقة بعدما قُتل منهم عدد كبير، قدَّرته المصادر العربية بعشرة آلاف فارس، كما وقع في أسر المسلمين كل من ريموند الثالث وجوسلين الثالث كورتناي، وقسطنطين كولومان، وهيولوزنيان، فجرى تقييدهم، وسيقوا إلى حلب، مع بقية الأسرى الذين بلغ عددهم ستة آلاف أسير[١].

تشجَّع المسلمون بهذا النصر، فتقدموا المهاجمة حارم، وتمكنوا من فتحها بعد عدة أيام[٢].

نتائج فتح حارم

كانت الهزيمة التي حلَّت بالقوات المتحالفة ساحقة، وَعُدَّت من أعظم الكوارث التي حلَّت بالقيادة الصليبية الشمالية بوجه خاص وترتب عليها نتائج متعدِّدة منها:

- حقَّق نور الدين محمود كسباً رائعاً بفتح حارم التي كانت قلعتها الحصينة تحرس الطريق المؤدي إلى أنطاكية من ناحية حلب، ونتيجة لذلك أصبحت أنطاكية تحت تهديد المسلمين المباشر.

- أضحى الطريق إلى أنطاكية مفتوحاً أمام نور الدين محمود، إلا أنه لم يهاجمها. ولعله كان يرى أن إمارة أنطاكية الصليبية جزء من أملاك الأمبراطورية البيزنطية، لذلك لم يجازف بمهاجمة المدينة مبرهناً عن حسن إدراك للظروف المحيطة به، وبُعد نظر في الحقل السياسي. وتفسير ذلك أن سياسة الأمبراطور مانويل كانت ترمي إلى إيجاد نوع من توازن القوى بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، لأنه، بمساندة الصليبيين، يظهر للعالم الأوروبي أنه بمثابة حامي الإمارات الصليبية، وفي الوقت نفسه، فإنه إذا ترك القوات الصليبية، بمفردها، فإنها ستلقى هزيمة تلو أخرى على يد القوات الإسلامية. يضاف إلى ذلك، أن حمايته للإمارات الصليبية تساعده على

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٩.

(٢) المصدر نفسه.

التدخل في شؤونها، وفَرْض نفوذه عليها، ومن ثمَّ يستطيع أن يحركها لخدمة مصالحه، وأخيراً فَرْض السيادة البيزنطية التامة على إمارة أنطاكية، التي يعدها جزءاً من الأملاك البيزنطية، وإذا هاجمها نور الدين محمود، فقد يتخذ ذلك ذريعة للتدخل.

لذلك، رأى نور الدين محمود عدم مهاجمة أنطاكية وفتحها، وترك الأمور فيها على حالها، حتى لاتُلقي الأمبراطورية البيزنطية بثقلها العسكري في النزاع، فيصبح عليه أن يواجه البيزنطيين والصليبيين في وقت واحد[1] بدليل أنه عندما أشار عليه أعوانه بالسير إلى أنطاكية ليملكها، لخلوِّها ممن يحميها، لم يوافق وقال: «أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة فمنيعة وربما سلَّموها إلى ملك الروم لأن صاحبها ابن أخيه، ومجاورة بوهيموند أحبُّ إليَّ من مجاورة صاحب قسطنطينية»[2].

- كانت معركة حارم آخر معركة تجري على أرض الشام تشترك فيها القوات البيزنطية في عهد نور الدين محمود. وعلى الرغم من النهاية الفاشلة التي منيت بها جهود القوات المتحالفة، إلا أنها تُوضِّح لنا جانباً من أثر النفوذ البيزنطي على مجريات الأحداث.

- شجَّع هذا النصر، نور الدين محمود فهاجم بانياس وفتحها كما سنرى.

فتح بانياس

كانت بانياس تابعة، لمملكة بيت المقدس منذ عام (٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م)، وهي قلعة حصينة، منيعة، تقع على بُعد بضعة أميال شمال المدينة، وتُعدُّ أحد مفاتيح الطريق إلى مصر. ومع حرص نور الدين محمود على مواصلة جهوده الرامية إلى تخفيف الضغط عن الجبهة المصرية، قرَّر فتح بانياس. وكان صاحبها همفري الثاني تورون يرافق عموري الأول في حملته على مصر مصطحباً معظم قواته، فعبّأ جيشاً قوياً، وأشاع أنه متجه نحو طبرية، وهذا أسلوب عسكري سليم سمح له بالتوجه إلى هدفه دون عائق، ذلك أن الصليبيين أسرعوا، عندما تنامى إليهم خبر تلك الإشاعة، إلى طبرية وتجمعوا في هذا المكان.

وحاصر نور الدين محمود قلعة بانياس، وضيَّق عليها. استبسلت حاميتها في الدفاع، وانعقد الأمل في أن تتلقَّى نجدة سريعة من ثيري كونت فلاندر الذي قدم وقتئذٍ إلى فلسطين.

---

(١) عمران: ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٨٧.

ويبدو أن النجدة تأخرت، أو أن الحامية أُخْطِرت بعدم قدرة ثيري على تقديم المساعدة، فاستسلمت لنور الدين محمود في (شهر ذي الحجة عام ٥٥٩ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٦٤ م)، فدخلها وحصَّنها وملأها ذخيرة وعتاداً ورجالاً، كما سيطر على المناطق المحيطة بها، وهدَّد بالزحف على الجليل، فلم يسع البارونات إلا أن يعدوه بدفع الجزية، وشاطرهم في أعمال طبرية، وقرروا له عن الأعمال التي لم يشاطرهم عليها مالاً كل سنة[١].

وبفتح حارم وبانياس، أثبت نور الدين محمود نجاح خطته الرامية إلى توحيد المسلمين ومقارعة الصليبيين في وقت واحد.

تجدُّد الصراع حول أنطاكية

عاد عموري الأول من مصر في (شهر محرم عام ٥٦٠ هـ/أواخر شهر تشرين الثاني عام ١١٦٤ م) ليجد أوضاع الصليبيين في بلاد الشام في وضع خطير جداً. فقد فتح نور الدين محمود حارم التابعة لأنطاكية، وبانياس التابعة لمملكة بيت المقدس، مع ما لهذين الموقعين من أهمية عسكرية في الحرب الدائرة بين المسلمين والصليبيين في الشرق الأدنى، بالإضافة إلى وقوع أمراء الشمال الصليبيين في الأسر.

لذلك، هرع إلى الشمال لإعادة ترتيب أوضاع إمارتي طرابلس وأنطاكية في ظل غياب صاحبيهما في الأسر، فلحق به ثيري كونت فلاندر، وتوقف عند طرابلس لتوطيد حقه في الوصاية على الإمارة، ثم مضى في سيره إلى أنطاكية لتدبير أمورها، ولعله كان طامعاً في وضعها تحت حكمه المباشر.

ومن جهته، أرسل الأمبراطور البيزنطي مانويل، فور تلقيه نبأ أسر بوهيموند الثالث، سفارة إلى أنطاكية، للوقوف على أوضاعها، وحماية حقوق الأمبراطورية فيها. وأثناء وصول عموري الأول إلى أنطاكية، قدم إليه رسول من قبل الأمبراطور البيزنطي يستفسر عن سبب وجوده فيها، ويعني ذلك:

- أن بقاء الملك الصليبي فيها أمر غير مرغوب فيه من قِبل الأمبراطورية البيزنطية، في الوقت الذي لا نجد مثل هذه السفارة عقب أسر رينولد شاتيون،

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٨٧.

أمير أنطاكية السابق، الذي كان لا يزال في أسر المسلمين.

- أن الإمارة لا تتبع الملك عموري، وليس له الحق في التدخل في شؤونها، واستناداً إلى ذلك يعني أمرين:

الأول: إما أن تضع الأمبراطورية البيزنطية يدها على الإمارة وهذا يتطلب قدوم بعض القوات البيزنطية لتحقيق ذلك وتأكيد السلطة البيزنطية على أنطاكية، وهو ما لم يحدث.

الثاني: أن بوهيموند الثالث عائد إلى الإمارة عن قريب، ولا داعي لوجود عموري الأول فيها[1].

إطلاق سراح بعض الأسرى

دفعت حكمة نور الدين محمود وبُعد نظره إلى إطلاق سراح قسطنطين كولومان مقابل مائة وخمسين ثوباً من الحرير. ولعلَّ في ضآلة قيمة هذه الفدية ما يشير إلى أنه لم يكن راغباً في الدخول في صراع مباشر مع الأمبراطورية البيزنطية وبفتح جبهة أخرى أقوى من الجبهة الصليبية فيشتِّت جهوده بين القوتين[2].

كما أرسل الأمير ثوروس الثاني إلى نور الدين محمود بعض الهدايا مقابل إطلاق سراح الأسرى الأرمن، لكن الزعيم المسلم رفض هذا العرض، الأمر الذي دفع ثوروس الثاني إلى مهاجمة مرعش، فنهبها وأسر العديد من المسلمين، وعند ذلك تحوَّل نور الدين محمود إلى المصالحة، وتبادل الجانبان الأسرى[3].

ولعل ما دفع نور الدين محمود إلى هذا التحول هو أنه كان لا يرغب في أن يسير بقواته إلى الشمال لقتال الأرمن، فتخلو الممتلكات الإسلامية من عساكرها، وتصبح سهلة المنال للقوات البيزنطية والصليبية معاً، وبخاصة بعد عودة الملك عموري الأول من مصر فاشلاً، وقد يدفعه ذلك إلى القيام بعمل عسكري لتعويض فشله في مصر.

وأثناء وجود عموري الأول في أنطاكية، دخل في مفاوضات مع نور الدين محمود لإطلاق سراح بوهيموند الثالث تكلَّلت بالنجاح. وأُطلق سراح صاحب

---

(١) عمران: ص ١٥٤.

(٢) المرجع نفسه: ص ١٥٣.

(٣) ابن العبري: ص ١٧٧.

أنطاكية بعد مضي سنة على وقوعه في الأسر وبعد أن دفع الفدية. ويبدو أن الأمبراطور البيزنطي أدَّى دوراً في إطلاق سراحه بدليل ما نراه من وجود سفارة بيزنطية في أنطاكية عقب وقوعه في الأسر.

ويستوقفنا هنا موقف نور الدين محمود الذي لم يَعْتَدْ إطلاق سراح الزعماء الصليبيين بعد وقت قصير من وقوعهم في الأسر، ويصوِّر المؤرخ وليم الصوري موقفه حين روى أن إطلاق سراح بوهيموند الثالث يرجع إلى بُعد نظره، ورجاحة عقله، وذلك لقطع الطريق على أي تدخل بيزنطي لأن الأمبراطور مانويل كان متزوجاً من الأميرة ماري، أخت بوهيموند الثالث، بالإضافة إلى حرصه على ترتيب أوضاع الإمارة وفق المصلحة البيزنطية، أو أنه رأى إعادة صاحب أنطاكية إلى حكم الإمارة حتى لا يحل محله أمير آخر من بين الأمراء الأقوياء، مما يشكل خطراً على الممتلكات الإسلامية[1]، وبذلك بات واضحاً أن النفوذ البيزنطي أدَّى دوراً مؤثراً في النتائج المترتبة على معركة حارم، فقد حال دون تقدم نور الدين محمود لمهاجمة أنطاكية، وكان له أثره في إطلاق سراح حاكم كيليكية البيزنطي قسطنطين كولومان، كما أنَّ إطلاق سراح بوهيموند الثالث يرجع في معظم جوانبه إلى الأمبراطور البيزنطي[2].

وإذا كانت الظروف السياسية قد دفعت نور الدين محمود إلى إطلاق سراح بعض الزعماء النصارى، فإن ظروفاً اقتصادية دفعته إلى إطلاق سراح بعض الأسرى الصليبيين، فقد بادل بعضهم بأسرى مسلمين بينما بلغت حصيلة البعض الآخر ستمائة ألف دينار، وقد استغلها نور الدين محمود في بناء المدارس والروابط والمستشفيات وما شابه ذلك[3].

تجدُّد الهجمات النورية على الصليبيين

لم يقنع نور الدين محمود بفتح حارم وبانياس، فجدَّد هجماته على إمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس، وأمضى سنتي (٥٦٠ ـ ٥٦١ هـ/ ١١٦٥ ـ ١١٦٦م) في القيام بهجمات مفاجئة على الحصون الواقعة على منحدرات جبال لبنان بينما

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٩٢ ـ ٨٩٣. عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٨٦ ـ ٦٨٧.
(٢) عمران: ص ١٥٤.
(٣) المرجع نفسه: ص ١٥٥.

أغار أسد الدين شيركوه على إقليم ما وراء نهر الأردن.

فقد أرسل نور الدين محمود قائده أسد الدين شيركوه على رأس قوة عسكرية من بلاد الشام لفتح المعاقل الصليبية الواقعة في جنوبي لبنان، مستغلاً غياب عموري الأول في أنطاكية، فأغار على منطقة صيدا، وفتح قلعة هونين الحصينة، وسيطر على جبل نيحا، الواقع على الطريق بين دمشق وصيدا، والذي يتحكم بالمنطقة الفاصلة بين بيت الدين وبعلبك، وتوغل في شمالي أملاك المملكة الصليبية، وفتح حصناً في ما وراء نهر الأردن على الحدود مع بلاد العرب، منيع الجانب. ولم يذكر المؤرخ وليم الصوري الذي أرَّخ لهذا الحدث اسم الحصن، إنما يعزو سبب فتحه إلى استسلام فرسان الهيكل الذين أوكل إليهم مهمة حمايته والدفاع عنه(١)، ثم عاد إلى حمص في (شهر شعبان من عام ٥٦٠ هـ/ حزيران عام ١١٦٥ م) ليقضي شهر رمضان.

أما نور الدين محمود نفسه فقد أغار على حصن المنيطرة(٢)، وقد رأى ضرورة القيام بعمل عسكري لفتحه وضمِّه إلى الأملاك الإسلامية، فيُفقد إمارة طرابلس موقعاً هاماً، ونفَّذ من أجل ذلك خطة عسكرية محكمة، فلم يعلن حالة التعبئة حتى لا يلفت إليه أنظار المراقبين الصليبيين. وفي (أواخر عام ٥٦١ هـ/ خريف عام ١١٦٦ م) هاجم الحصن فجأة، بمجموعة من جيشه، وحاصره، وضغط على أفراد حاميته الذين أذهلتهم المفاجأة، فدافعوا عن الحصن دفاع المستميت حتى أعياهم الصمود، فخارت قواهم، واستسلموا تحت ضربات المسلمين، ودخل نور الدين الحصن(٣).

وتابع نور الدين محمود غاراته على الأملاك الصليبية، فهاجم قلعة آكاف في البرية(٤) وخرَّبها، كما خرَّب المناطق الواقعة حول عرقة. ويبدو أن عساكره أصابها الإرهاق، كما أن عموري الأول عاد خلال ذلك إلى بلاده، ومن المحتمل أن يتصدى لهجماته، فاضطر إلى ترك المنطقة، وعاد إلى دمشق.

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٩٣.

(٢) المنيطرة: قرية من أعمال طرابلس تقع في أعالي الجبال عند منابع نهر إبراهيم، وفيها حصن عربي قديم بُني بالقرب من أفقا لحراسة الممر الجبلي الذي يربط جبيل وبعلبك، وهو أمنع من عقاب الجو.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٩٤، ابن واصل: جـ ١ ص ١٤٨.

(٤) علي، محمد كرد: خطط الشام جـ ٢ ص ٣٧.

المرحلة الثانية: ٥٦٢ ـ ٥٦٣ هـ/١١٦٧ ـ ١١٦٨ م

الحملة النورية الثانية على مصر

دوافع الحملة

لم يتوقف التنافس بين نور الدين محمود وعموري الأول حول مصر عند هذا الحد، وبخاصة أن أياً منهما لم يحقق أهدافه، وهو يعلم أن فوزه بهذا البلد يعني انتصاره الحاسم على خصمه، وأن من شأن ذلك أن يتيح له السيطرة على مفاتيح الشرق الأدنى.

ويلاحظ أن نور الدين محمود كان مدفوعاً بالعوامل نفسها التي جعلته يرسل حملته الأولى، مع دخول كل من الخليفة العباسي والخليفة الفاطمي على الخط السياسي هذه المرة، وهي:

- الحصول على ثروة مصر وتسخيرها لخدمة الجهاد الديني.
- الخوف من امتلاك الصليبيين لمصر.
- توحيد العالم الإسلامي من النيل إلى الفرات.
- القضاء على الخلافة الفاطمية مع ما تمثل من المذهب الشيعي، وبخاصة أنه لمس شيئاً من المعارضة للفاطميين في مصر.
- معاقبة شاور لخيانته، واستعانته بالصليبيين.

ويحتمل أن تكون قد دارت مباحثات واتصالات بينه وبين أسد الدين شيركوه من جهة، وبين الخليفة العباسي من جهة أخرى، عهد على أثرها إلى قائده بمهمة غزو مصر للمرة الثانية، كما كان للخليفة الفاطمي العاضد دور في تشجيعه على الاهتمام

بمصر. ذلك أن هذا الخليفة أرسل يستنجد به ضد استبداد شاور، في الوقت الذي لم يكن يعلم بأهدافه الحقيقية، مع العلم أن نور الدين محمود كان حاقداً على شاور بسبب غدره بشيركوه واستنجاده بالصليبيين[١].

أما أسد الدين شيركوه فلم يستطع، بعد عودته قهراً، أن ينسى مصر وظل يفكِّر في كيفية العودة إليها مرة أخرى ليتملَّكها، فلا يزال يتحدث بها وهو حريص على ذلك[٢]. ويبدو أنه تطلع إلى الاستئثار بحكمها، بعد أن تعرَّف على أوضاعها، بدليل أنه ما إن عاد إلى بلاد الشام حتى أخذ يحرِّض نور الدين محمود على غزوها، بل كان من غير شك، يتجهز للقيام بحملة أخرى، ولو تُرك له الأمر لعاد إلى مصر على وجه السرعة. ولكن يبدو أن نور الدين محمود خشي أن يقوم بمحاولة أخرى لغزو مصر في عامي (١١٦٥ و١١٦٦م) خشية تشتيت جهوده، وتقسيم قواته، في الوقت الذي كان الموقف في بلاد الشام يستدعي شيئاً من اليقظة والحذر[٣].

زحف الحملة

أعدَّ نور الدين محمود القوات اللازمة، وأرسلها إلى مصر في (شهر ربيع الأول عام ٥٦٢ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٦٧ م)، بقيادة أسد الدين شيركوه، وصحبه ابن أخيه صلاح الدين، على كره منه، وسيَّر معه جماعة من الأمراء[٤]، وبلغ تعداد هذه القوات ألفي فارس[٥] ورافقه نور الدين حتى أطراف البلاد خوفاً من تعرُّض الصليبيين له[٦].

سار أفراد الحملة في طريق محفوفة بالأخطار. فالصليبيون الذين كانوا على طريقهم رابضين في الكرك والشوبك قد ينقضُّون عليهم وينكِّلون بهم، وهم بعيدون عن مناطقهم، والبدو يلاحقونهم وينقلون أخبارهم إلى الصليبيين، وكان عليهم أن يغيِّروا طريق سيرهم أحياناً للتَّخفي، كما عرقلت الطبيعة زحفهم، إذ إن عاصفة رملية عنيفة هبَّت عليهم وقضت على عدد من الرجال وبعض الزاد، وعلى الرغم من ذلك واصلوا رحلتهم إلى مصر.

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٤٨، وليم الصوري جـ ٢ ص ٨٩٤ ـ ٨٩٥، Grousset: II pp 478 - 479

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٤ ـ ٩٥.

(٣) عاشور: جـ ٢ ص ٦٨٨.

(٤) ابن شداد: ص ٧٧.

(٥) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٥.

(٦) المصدر نفسه.

وتوافر لشاور من الوقت ما جعله يستنجد مجدَّداً بعموري الأول، إذ أيقن، من استقراء الأحداث، أن أسد الدين شيركوه إذا قدم إلى مصر هذه المرة، فإنه سوف يبقى فيها ولا يغادرها، لذلك، فإنه لم يتوان عن الاتصال بملك بيت المقدس والتفاوض معه، موضحاً له الخطر الذي يمثله نور الدين محمود على مملكة بيت المقدس لو نجح في امتلاك مصر. رحَّب عموري الأول بدعوه شاور طمعاً في امتلاك مصر وإبعاد نور الدين محمود وجيوشه عنها، حتى لا يتمكَّن من تطويق مملكته التي ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين محمود[١].

كان عموري الأول آنذاك في نابلس، فدعا باروناته للاجتماع به، وقد أوضح لهم في هذا الاجتماع ما تتعرض له المملكة الصليبية من خطر إذا استولى نور الدين محمود، السني المذهب، على مصر. وبعد مناقشات مستفيضة، وافق المجلس على توجيه حملة كاملة العدة والعدد لإنقاذ شاور، ولابد أن تشترك في الحملة كل القوة الضاربة للمملكة، فضلاً عن اتخاذ مواقعها على الحدود تحسباً لما قد يجري من هجمات من جانب نور الدين محمود أثناء غياب الملك، وانعقد الإجماع على أن يلتزم كل فرد بأن يؤدي عشر دخله من أجل إنقاذ المملكة[٢]. وقبل أن تستكمل الاستعدادات وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء، فلم يسع عموري الأول إلا أن يرسل ما تيسر الحصول عليه من الجند لعرقلة تقدمه، غير أن هذا التدبير جاء متأخراً[٣].

وعلى الرغم من أن جيش أسد الدين شيركوه تعرَّض لعاصفة رملية كما ذكرنا، عرقلت تقدمه، وكادت تقضي على أفراده، فإنه وصل سالماً إلى برزخ السويس في (شهر ربيع الآخر/أوائل شهر شباط)، وعلم أسد الدين شيركوه بأن جيشاً صليبياً شرع في الزحف باتجاه مصر، عندئذٍ اجتاز الصحراء باتجاه الجنوب الغربي ليتفادى مواجهة مبكِّرة مع الصليبيين، حتى بلغ نهر النيل عند إطفيح، على مسافة أربعين ميلاً جنوبي القاهرة[٤]، ثم عبر إلى الضفة الغربية، والتزمها في سيره حتى وصل إلى الجيزة،

---

(١) ابن واصل: جـ ١ ص ١٤٩.

(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٩٥ . رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٠١ ـ ٦٠٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٥. وليم الصوري: المصدر نفسه ٨٩٥ ـ ٨٩٧. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٠٢، وإطفيح بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطىء في شرقيه. الحموي جـ ١ ص ٢١٨.

وعسكر بمواجهة الفسطاط، وتصرَّف في البلاد الغربية وحكمها نيفاً وخمسين يوماً[1].

حملة عموري الثالثة على مصر

المفاوضات الصليبية ـ الفاطمية

خرج عموري الأول من بيت المقدس في (شهر ربيع الأول عام ٥٦٢ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٦٧ م) متوجهاً إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بِلبيس.

ارتاع شاور من ظهوره المفاجىء، وساوره القلق لعدم التنسيق معه، ويبدو أنه لم يكن على علم بوصول شيركوه إلى إطفيح، ولم يطمئن إلا عندما أرسل كشافته إلى الصحراء للوقوف على حقيقة الوضع[2]. عندئذ خرج لاستقبال الملك الصليبي، والتقى به، وأنزله عموري الأول في معسكره على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة[3].

والراجح أن عموري الأول وقف على نزعات شاور المتقلِّبة، فأراد أن يقيِّده ليضمن الحصول على مغانم، قبل أن يقوم بمحاربة أسد الدين شيركوه، فأجرى معه مباحثات تعهَّد شاور خلالها بأن يدفع أربعمائة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على أن يجري دفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد، واشترط أن يُقسم عموري الأول على ذلك[4].

ولدعم هذه الاتفاقية، وإعطائها صفة رسمية، أرسل عموري الأول كلاً من هيو، سيد قيسارية، وجفري، مقدم فرسان الداوية، إلى الخليفة الفاطمي للحصول منه على الموافقة الرسمية عليها، فاستُقبل الرسولان استقبالاً حافلاً في القصر الفاطمي وتَّم التصديق على المعاهدة[5].

كان من الطبيعي أن يرحِّب الصليبيون بهذه الاتفاقية التي تجعل منهم حماة لمصر والخلافة الفاطِمية، وتُبعد أسد الدين شيركوه بوصفه المنافس الوحيد لهم في السيطرة على هذا البلد.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٥ .
(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٩٦.
(٣) المصدر نفسه
(٤) المصدر نفسه: ص ٨٩٩.
(٥) المصدر نفسه: ٨٩٩ ـ ٩٠٢.

معركة البابين

استعدَّت القوات الصليبية وقوات شاور المتحالفة معها، بعد التوقيع على الاتفاقية، للالتحام بقوات أسد الدين شيركوه، وإجبارها على مغادرة مصر. وظل الجيشان مدة شهرين يراقب كل منهما الآخر. ثم حدث أن اجتازت قوى التحالف، النيل إلى جزيرة الوراق في رأس الدلتا على الضفة الغربية، وفاجأت وحدة من جيش أسد الدين شيركوه[١].

وبعد دراسة الوضع العسكري، أدرك أسد الدين شيركوه حرج موقفه بعد أن تبين له تفوق قوى التحالف، وبخاصة بعد أن انضمت إليها قوات صليبية وصلت حديثاً من بيت المقدس. فقد وصل كل من همفري، صاحب شقيف تيرون، وفيليب، صاحب نابلس بقواتهما، مما شجَّع عموري الأول على الثبات[٢]. وحتى يتخلَّص من هذا الموقف المحرج، انسحب أسد الدين شيركوه من المنطقة واتجه إلى الصعيد ملتزماً النيل في سيره حتى بلغ ملوى، فاقتفى عموري الأول وشاور أثره، وتركا قبل مسيرهما قوة عسكرية لحماية القاهرة بقيادة الكامل بن شاور وهيو أبلين[٣].

على أن دخول هيو إلى القاهرة، والسماح للقادة الصليبيين بالتردد على القصر، أقلق الدوائر الإسلامية الحاكمة[٤]، عندئذٍ لم يسع أسد الدين شيركوه إلا أن يدخل في معركة، فعقد اجتماعاً مع قادته لدراسة أفضل السبل لخوضها إلا أن هؤلاء خشوا من تفوق العدو في العدد، وظنوا أن لا مجال للانتصار في ظل هذا الوضع، فأشاروا عليه بمغادرة مصر والعودة إلى بلاد الشام، إلا أنه كان له رأي آخر، فهو لم يدخل مصر ليخرج منها دون أن يحقق إنجازاً، وسفَّه أحد الأمراء، ويدعى شرف الدين بزغش، رأي الداعين إلى الرحيل، وخوَّفهم من أن يسترجع نور الدين محمود منهم إقطاعاتهم حتى لا يأخذوا أموال المسلمين ويفرون من عدوهم، وعيَّرهم بتسليمهم مصر إلى الصليبيين، عندئذٍ نهض أسد الدين شيركوه وقال: «هذا الرأي وبه أعمل»

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٠٦.

(٢) المصدر نفسه. وشقيف تيرون: حصن وثيق بالقرب من صور يطلُّ على نهر الليطاني، انظر الحموي: جـ ٣ ص ٣٥٦.

(٣) وليم الصوري المصدر نفسه ص ٩٠٨.

(٤) رنسيمان جـ ٢ ص ٦٠٤.

ووافقه أيضاً ابن أخيه صلاح الدين[1]. وما لبث القوم أن قرَّروا وجوب الاستمرار في القتال.

واستعدَّ أسد الدين شيركوه لعبور النيل من جديد على مسافة غير بعيدة من مدينة المنيا في مصر الوسطى، وعسكر في الأشمونين، في خرائب مدينة هيرموبوليس القديمة، وجرى اللقاء بينه وبين قوى التحالف في البابين القريبة من الأشمونين حيث حشرت القوى المتحالفة جيشه وضيقت الخناق عليه[2]. والواضح أن الحامية في القاهرة لم تشترك في القتال.

وتألف جيش أسد الدين شيركوه أساساً من الفرسان الترك، بينما تألف جيش شاور من الرجالة، ولم يكن لدى الصليبيين سوى بضع مئات من الفرسان[3].

وعلى الرغم من الفارق في العدد بين القوتين، عزم أسد الدين شيركوه على الدخول في معركة. فعبَّأ جيشه متبعاً أسلوباً مرناً، منتهجاً ما هو مألوف عند الترك من خطط عسكرية، وقسَّمه إلى ميمنة وميسرة وقلب، وجعل الأثقال في القلب وعليه صلاح الدين، وأمره أن لا يصدق العدو في القتال، بل يتظاهر بالانهزام حتى يغترَّ عموري فيتبعه، بينما تسلَّم هو الميمنة.

أما عموري الأول، فقد أظهر التردد في الدخول في معركة بعد أن تهيَّب فرسان الترك، لكن شجَّعه القديس برنارد الذي ظهر له في رؤية. والتحم الخصمان في رحى معركة رهيبة في (٢٥ جمادى الآخرة، عام ٥٦٢ هـ/ ١٨ نيسان عام ١١٦٧ م). وكرَّ الصليبيون على قلب العسكر النوري في محاولة لضربه وزعزعة الجناحين، فتقهقر صلاح الدين متظاهراً بالهزيمة، وفق الخطة الموضوعة، وتخلَّى عن مواقعه، فتبعه الملك الصليبي وفرسانه في عملية مطاردة، عندئذٍ قذف أسد الدين شيركوه بجناح جيشه الأيمن في المعركة لقتال الجناح الأيسر لجيش التحالف الذي تبدَّد وتحطَّم. وألفى عموري الأول نفسه محصوراً من جميع الجهات، ولقي عدد كبير من فرسانه مصرعهم، بينما وقع آخرون في الأسر ومنهم هيو، سيد قيسارية، وأرنولف، صاحب تل باشر، واضطر الملك الصليبي وشاور إلى التراجع بمن تبقَّى من جيشيهما

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩١١.

إلى القاهرة، وانضما إلى حاميتها[١].

حصار الإسكندرية

أحرز أسد الدين شيركوه انتصاراً باهراً، وكان من المحتمل أن يمتلك القاهرة لو سار خلف القوات المتحالفة التي تضعضعت إثر هذه الضربة، وهاجم المدينة؛ لكنه آثر أن يتجه شمالاً بغرب على الضفة الغربية للنيل، فوصل إلى الفيوم[٢]، ومنها تابع زحفه إلى الإسكندرية، ويبدو أنه علم بمجيء إمدادات صليبية من بيت المقدس فآثر تجنُّب الدخول في معركة حتى تنجلي صورة الوضع العسكري، ورأى التوجه إلى الإسكندرية لامتلاكها والتحصُّن فيها وبخاصة أن سكانها الذين كرهوا شاور، وأنفوا من استعانته بالصليبيين أعداء دينهم ووطنهم، فضلاً عن أنَّ بُعدهم عن العاصمة وملامستهم الخطر الصليبي عن طريق البحر، جعلهم أكثر إحساساً بالخطر، وأكثر حرية في التعبير عن شعورهم؛ فكاتبوه، وأبدو استعداداً لمساندته. وفعلاً، لم يكد أسد الدين شيركوه يقترب من الإسكندرية حتى تلقَّاه أهلها طائعين، ففتحوا له أبواب مدينتهم، فدخلها بغير قتال[٣].

وأعاد عموري الأول تنظيم صفوف قواته بعد معركة البابين وتقوَّى بما وفد عليه من إمدادات، منها مائة وخمسين فارس بقيادة جيرار دي بوجي، وعدد من المشاة بقيادة جوسلين الثالث صاحب سميساط بالإضافة إلى جيش شاور الذي لم يساهم أفراده مساهمة جدِّية في القتال تؤدي بهم، أو بالكثير منهم، إلى القتل والأسر[٤]، والراجح أن هذا الإحجام كان نتيجة خطة وضعها شاور ونفَّذها على الأرض لإضعاف قوة الطرفين النوري والصليبي، والمحافظة على قوة جيشه تحسباً لتطور الأحداث.

ولم تمضِ أيام قليلة حتى ظهر عموري الأول أمام أسوار الإسكندرية، وألقى

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٥، وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩١١ ـ ٩١٢، رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٠٤ - ٦٠٥.

(٢) الفيوم: ولاية غربية بينها وبين الفسطاط أربعة أيام بينهما مفازة لاماء بها ولا مرعى مسيرة يومين، وهي في منخفض من الأرض كالدارة. الحموي: جـ ٤ ص ٢٨٦.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٥.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩١٣ ـ ٩١٤.

الحصار على المدينة، وساندته السفن الصليبية التي حاصرتها من جهة البحر[١]. وخشي أسد الدين شيركوه أن يحصره الصليبيون مع جميع قواته داخل الإسكندرية، فترك ابن أخيه صلاح الدين نائباً عنه فيها وفصل معه ألف جندي، واتجه هو، على رأس القسم الآخر من الجيش، عائداً إلى الصعيد وذلك في (شهر شعبان/ شهر أيار)، مجتازاً معسكر عموري الأول، الذي اشتد غضبه، وأراد أن يمضي لمطاردته، غير أن شاور نصحه بالتَّروي، وترْك شيركوه وشأنه، إذ أنَّ استعادة الإسكندرية لأكثر أهمية[٢].

وفي الوقت الذي أوغل فيه أسد الدين شيركوه في الصعيد حتى قوص[٣]، اشتد حصار الصليبيين للإسكندرية، وشعر السكان بوطأته، إذ قلَّت الأقوات، وأشرفت المدينة على المجاعة. وضاعف عموري الأول حصاره ليفتَّ في عضد المحاصرين، ويُضعف روحهم المعنوية، ويصرفهم عن صلاح الدين[٤].

ولم ينته (شهر رمضان/ شهر حزيران) حتى وجد صلاح الدين نفسه في موقف عصيب، فأرسل إلى عمه يلتمس منه النجدة العاجلة، واضطر أسد الدين شيركوه، نتيجة هذا التطور في الوضع العسكري، إلى العودة شمالاً، وعسكر في بركة الحبش[٥] في ظاهر الفسطاط بهدف مهاجمتها وامتلاكها لتخفيف الضغط عن الإسكندرية. غير أن مقاومة هيو أبلين أفسدت عليه الخطة. وإذ ذاك، أدرك صعوبة امتلاك مصر وأنه لم يعد بوسعه أن يفعل أكثر مما فعل، فقرَّر الدخول في مفاوضات مع الجانب الصليبي للإتفاق على حل معين للقضية المصرية[٦].

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩١٤ ـ ٩١٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ٩١٤. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٥.

(٣) قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر. الحموي: جـ ٤ ص ٤١٣.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩١٦ ـ ٩١٧.

(٥) بركة الحبش هي أرض في وهدة من الأرض واسعة طولها نحو ميل مشرفة على نيل مصر خلف القرافة... وهي من أجلِّ منتزهات مصر، وهي ليست ببركة للماء وإنما شبهت بها، وكانت تعرف ببركة المعافر وبركة حمير، وعندها بساتين تعرف بالحبش، والبركة منسوبة إليها. الحموي: جـ ١ ص ٤٠١.

(٦) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩١٨ ـ ٩١٩.

المفاوضات النورية ـ الصليبية بشأن الجلاء عن مصر

أرسل أسد الدين شيركوه أسيراً صليبياً، هو أرنولف من تل باشر، إلى معسكر عموري الأول يعرض عليه عقد الصلح. هذا وقد اختلفت المصادر الإسلامية والصليبية المعاصرة لهذه الأحداث بشأن ظروف عقد هذا الصلح وشروطه، إذ كان لكل منها نظرتها الخاصة في نتائج الاحتكاك الحربي الذي جرى بين الطرفين.

فقد ذكر ابن الأثير، الذي يمثل وجهة النظر الإسلامية في هذه القضية، أن الصليبيين كانوا البادئين في طلب الصلح، إذ أنه لما اشتد حصار الصليبيين لصلاح الدين سار شيركوه من قوص إليهم فجاءته رسلهم «يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجاب إلى ذلك، وشرط على الفرنج أن لا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا وعادوا إلى الشام»[1].

ويعرض وليم الصوري، الذي يمثل وجهة النظر الصليبية، ظروف عقد الصلح وشروطه على الشكل التالي: لما وصل شيركوه إلى بابليون وجد أن الملك كان قد أرسل هيج دي أبلين ليتولى حراسة القاهرة والجسر الذي بها، أي أنه وجد الأمور على غير ما تصوره، لذلك بعث في استخدام صاحب قيصرية الذي كان أسيراً عنده، ودعاه إلى حديث ودي، وأفضى إليه بنيته في عقد الصلح وكلفه القيام بدور الوسيط بينه وبين عموري الأول بشأن عقد صلح بين الطرفين على الأسس التالية:

- رفع الحصار عن الإسكندرية.
- تبادل الأسرى.
- إطلاق سراح الجند النوري داخل الإسكندرية.
- يخرج شيركوه مع عسكره من مصر.
- عدم التعرض لهم في الطريق من قبل القوات الصليبية.

تدارس الملك وقادته، بحضور شاور، هذه الشروط التي عرضها أسد الدين شيركوه، ورأوا فيها توافقاً مع بنود الاتفاقية المبرمة بين عموري الأول والخليفة الفاطمي، وقرروا قبول العرض.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٦.

وتحدَّدت الشروط النهائية على الشكل التالي:

- وضع المدينة (الإسكندرية) في يد الملك.
- تبادل الأسرى بين الجانبين.
- إطلاق سراح الجند النوري الموجودين داخل الإسكندرية.
- تغادر جميع القوات النورية أرض مصر[1].

إن قراءة متأنية لسير الوقائع، كما جرت على الأرض، والعروض المتبادلة بشأن عقد الصلح، وماحدث بعد إبرام الإتفاقية، يمكن رصد الملاحظات التالية:

وافق الجانبان النوري والصليبي ـ الفاطمي على:

- خروج القوات النورية والصليبية من مصر.
- تبادل الأسرى.
- يتعهد شاور بألاّ يُعاقب رعاياه في الإسكندرية، وفي غيرها من الجهات، الذين ساندوا أسد الدين شيركوه[2].
- كان لكل طرف من الأطراف الثلاثة دوافعه ومبرراته للإقدام على عقد الصلح:

فقد رحَّب عموري الأول بشروط الصلح نظراً لحرج موقفه في بلاد الشام، نتيجة مهاجمة نور الدين محمود حصني العريمة وصافيتا، كما خرَّب قلعة هونين، واتجه إلى بيروت، ولعل هذه الأخبار كان فيها ما يكفي لأن يتعجَّل إبرام الصلح والعودة إلى بلاد الشام ليكون قريباً من مسرح العمليات العسكرية. بالإضافة إلى ذلك، فإن الاتفاقية حالت دون تملك أسد الدين شيركوه، وبالتالي نور الدين محمود لمصر.

ورحَّب شاور بالاتفاقية لأنها أتاحت له الاستقلال بمصر بمعزل عن القوتين الكبيرتين في بلاد الشام.

ورحَّب أسد الدين شيركوه بها، لأنه أدرك استحالة امتلاك مصر في ظل الوضع الراهن، مع الضعف الملحوظ الذي اعترى قواته.

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩١٩ ـ ٩٢٠.
(٢) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٢٨.

ولعل نور الدين محمود لم يشأ التسرُّع في خطته لضم مصر التي كان الحكم الفاطمي فيها يعيش أيامه الأخيرة، مؤثراً إكساب عمليته شيئاً من الشرعية بالنسبة إلى حكامها وبعض سكانها، حتى لا يستثير دخوله القسري مشاعرهم، وهم على غير مذهبه، فانتظر فرصة أخرى أكثر ملاءمة، وما أسرع ما جاءته حين استنجد به الخليفة الفاطمي العاضد، كما سنرى.

ومهما يكن من أمر، فقد دخل عموري الأول مدينة الإسكندرية في (شهر شوال/ شهر آب)، في حين غادرها صلاح الدين في موكب عسكري حافل على الرغم مما أصاب السكان من ضيق لرحيله. والتقى الرجلان، وأُعجب كل منهما بالآخر، حتى لقد قام ملك بيت المقدس بإمداد صلاح الدين ببعض المراكب لنقل الجرحى المسلمين إلى بلاد الشام[1].

على أن متاعب السكان لم تنته، فلم يكد أتباع شاور يدخلون المدينة حتى ألقوا القبض على كل من جرى الاشتباه في أنه تعاون مع صلاح الدين، وقد احتجَّ هذا الأخير لدى عموري الأول الذي نصح شاور بأن يطلق سراح الأسرى[2]، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه بألا يتعرض شاور للرعايا الذين ساندوا صلاح الدين، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يغدر فيها شاور، وقد علَّمت صلاح الدين درساً قاسياً، حتى إنه لم يتركها تتكرر، واقتصَّ بنفسه من شاور عندما عادت القوات الشامية إلى مصر عام (٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م)، كما سنرى.

وغادر كل من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين مصر في (شهر ذي القعدة/ شهر أيلول) في حين تأخر عموري الأول لبضعة أسابيع، لأنه مرَّ بالقاهرة ليثبِّت الحماية الصليبية على الدولة الفاطمية وشاور، وكانت أهم مظاهرها:

- دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصليبيين.

- بقاء قوة من فرسانهم تحمي أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كرَّر محاولة الهجوم.

- إقامة مندوب عن الملك الصليبي في القاهرة يشارك في شؤون الحكم.

---

(١) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٢٧. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٠٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٢٨. المرجع نفسه.

والراجح أن فكرة تملُّك مصر كانت لا تزال ناشطة في تفكير عموري الأول السياسي، ولم يعد بوسعه أن يتخلى عنها، وهو ينوي العودة بعد إقرار الأمور في بلاد الشام، وذلك طمعاً في ثروتها وحماية لكيانه في بلاد الشام، ثم عاد الملك إلى فلسطين[1]، وبهذه الإجراءات تأكدت الحماية على مصر، وترتَّب على هذا استمرار التنافس بين نور الدين محمود وعموري الأول.

نشاط نور الدين محمود خلال حملة عموري الثالثة على مصر

استأنف نور الدين محمود نشاطه الجهادي ضد المواقع الصليبية في بلاد الشام، خلال حملة عموري الثالثة على مصر، بهدف التخفيف عن الجبهة المصرية، وإجبار عموري الأول على مغادرة البلاد، فهاجم إمارة طرابلس التي لا يزال صاحبها ريموند الثالث في الأسر، وتحديداً حصن الأكراد التابع للأسبتارية، والجهات المحيطة به، وعاونه في هذه الحملة أخوه قطب الدين مودود صاحب الموصل، ثم اتجه إلى عرقة وحاصر حلبا ودخلها عنوة وخرَّبها، وفتح قلعتي العريمة[2] وصافيتا قبل أن يعود إلى حمص لقضاء شهر رمضان.

واستأنف هجماته بعد عيد الفطر، فهاجم أراضي مملكة بيت المقدس. فسار إلى بانياس وقصد حصن هونين الذي يُعدُّ من أمنع القلاع الصليبية، فهزم الصليبيين ودخل الحصن الذي أحرقه هؤلاء قبل أن ينسحبوا منه، فهدم أسواره وتابع طريقه باتجاه بيروت. إلا أن وقوع الشقاق داخل معسكره، وإصابة جنده بالإرهاق نتيجة الغارات المتنقلة، اضطره إلى التوقف، فترك المنطقة وعاد إلى بلاد الشام![3]

ضمُّ قلعة جَعْبَر

تقع قلعة جَعْبَر بين بالس والرقة، وهي قلعة حصينة تطل على الفرات، واسمها القديم دوسر، نسبة لغلام كان للنعمان بن منذر، ثم ملكها الأمير جَعْبَر ابن مالك

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٤٩، وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩١٩ ـ ٩٢٢ رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٠٧.

(٢) كانت قلعة العريمة بيد المسلمين، ثم انتقلت إلى يد الصليبيين ربما في أعقاب حدوث الزلازل الشهيرة في بلاد الشام.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٦.

القشيري زمناً طويلاً، وجعلها ملجأ يحتمي بها بسبب لصوصيته. ولما هاجم السلطان ملكشاه السلجوقي ديار ربيعة ومضر، انتزع القلعة منه وقتله، ونفى بني قشير بسبب تحويلهم لها إلى مأوى لقطاع الطرق، ومنحها لسالم بن مالك العقيلي، فأقام فيها سنين كثيرة، ولما مات ورثها أولاده[1].

وطمع عماد الدين زنكي في ضم القلعة بسبب تداخلها مع أملاكه، وموقعها العسكري، وأنها تحوَّلت إلى مأوى لقطاع الطرق، وأضحت مصدراً لحصول متاعب لحكمه، لكنه قُتِل وهو يحاصرها.

ولما تسلَّم نور الدين محمود الحكم حاول ضمَّها منتهجاً خطى والده في ذلك، وتجنباً لسفك الدماء، أجرى مباحثات مع صاحبها شهاب الدين مالك ابن علي بن مالك العقيلي لتسليمها له، لكن المباحثات باءت بالفشل بسبب رفض صاحبها، ولم يتمكَّن من تحقيق غايته من آل العقيلي لا بالترهيب ولا بالترغيب.

كان أمر القلعة وسمعة أصحابها السيئة، ورغبة نور الدين محمود في ضمِّها، معروفة لدى الخاصة والعامة، فتطوع جماعة من بني كلاب القيام بالقبض على شهاب الدين مالك العقيلي وتسليمه إلى نور الدين محمود، وكان هذا مولعاً بالصيد والقنص ويمضي الساعات الطوال خارج القلعة من أجل هذا الغرض، فكمن له بنو كلاب، وقبضوا عليه، واقتادوه أسيراً إلى نور الدين محمود وذلك في (شهر رجب عام ٥٦٣ هـ/ شهر نيسان عام ١١٦٨م)، فاعتقله وأحسن إليه، وطلب منه أن يتنازل له عن القلعة مقابل أعطيات مغرية من المال والإقطاع، لكن العقيلي رفض هذا العرض وأصرَّ على الاحتفاظ بقلعته المنيعة التي ورثها عن أسلافه.

لما أعيت نور الدين محمود الحيلة، قرَّر القيام بخطوة عسكرية، فأرسل قوة من جنده بقيادة الأمير مجد الدين أبي بكر بن الداية، وأمره بامتلاك القلعة عنوة، وأرفقه بأسيره العقيلي مقيداً، وضرب ابن الداية الحصار عليها، إلا أنه لم يتمكَّن من اقتحامها نظراً لمناعتها، عندئذٍ حاول إقناع شهاب الدين مالك بالتفاهم مع نور الدين محمود، ويبدو أنه توصل معه إلى نوع من الاتفاق يقضي بأن يتنازل عن القلعة مقابل التعويض عليه بقريتي سروج والملاحة القريبتين من حلب، بالإضافة إلى عشرين ألف دينار. «وكان هذا إقطاعاً عظيماً جداً ولكن لا حصن فيه».

---

(١) الحموي: جـ ٢ ص ١٤٢.

سَئل العقيلي بعد تنفيذ هذه الصفقة، «أيهما أحب إليك وأحسن مقاماً، سروج والشام أم القلعة؟ فقال: هذا أكثر مالاً، أما العز ففارقناه في الحصن»[1] ويدل ذلك على مدى أهمية القلعة من الناحيتين السياسية والعسكرية.

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٨ ـ ٩٩.

الفَصْل الرَابع عَشر

المرحلة الثالثة: ٥٦٤ ــ ٥٦٥ هــ/١١٦٨ ــ ١١٦٩م

التعاون الصليبي - البيزنطي

أضحى مستقبل مصر بعد هذه الأحداث، في الميزان بين الدولة الزنكية في بلاد الشام ومملكة بيت المقدس الصليبية، مع رجحان كفة هذه المملكة، لأن عموري الأول لم يغادر مصر بعد حملته الثالثة عليها، إلا بعد أن ركَّز فيها حامية عسكرية من فرسانه، لتحمي القاهرة من هجوم فوري من ناحية، ولتراقب ما يجري داخلها، وتستكشف إمكاناتها العسكرية والمادية، ولتكون مقدمة لقوات احتلال صليبية من ناحية أخرى[١].

والحقيقة أن فكرة العودة إلى مصر لم تغب عن ذهن عموري الأول التي داعبت خياله وخيال أسلافه، لكنه أدرك، بعد فشل محاولاته المتكررة، أنه بحاجة إلى قوة خارجية تساعده على تحقيق حلمه الكبير. وكانت الحامية التي تركها في مصر قد اقترحت عليه العودة لاحتلال هذا البلد بمساعدة أوروبية، غير أن عموري الأول لم يُرد أن يستنفر ملوك وأمراء أوروبا، لعلمه بشدة أطماع فرسانهم في تكوين إمارات صليبية جديدة في الشرق، لذلك آثر الاستنجاد بالدولة البيزنطية، وإقامة تحالف معها[٢].

والواضح أن التفكير في غزو مصر بالتعاون بين الصليبيين والبيزنطيين لم يكن

---

(١) الدجاني هادية، وشكيل برهان: صلاح الدين بين التاريخ والملحمة والأسطورة، في كتاب الصراع الإسلامي - الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى. ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٢) حبشي: ص ١١٨.

وليد تلك الساعة؛ فقد سبق أن تبودلت عدة رسائل بين الملك عموري الأول وبين الأمبراطور مانويل حول هذا الموضوع، ومن المحتمل أن يكون عموري الأول هو الذي أشار على مانويل بفكرة غزو مصر، وأنه طلب منه مساعدته بالقوات البحرية والأسطول، والأموال الضرورية لإنجاز هذا الأمر، مقابل اقتسام مصر بين الصليبيين والبيزنطيين[١].

أما دوافع الأمبراطور من وراء غزو مصر فواضحة، فقد كان يرى أن هذه البلاد كانت من ضمن أملاك الأمبراطورية البيزنطية فيما مضى، أي قبل الفتح الإسلامي لمصر، وأن للأمبراطورية حقوقاً في مصر يجب أن تعود مرة أخرى للحكم البيزنطي.

واتجه عموري الأول إلى الأمبرطورية البيزنطية، وسعى إلى الزواج من إحدى الأميرات البيزنطيات على أمل تقوية الروابط بين الصليبيين والبيزنطيين وليجد في الأمبرطورية سنداً ضد نور الدين محمود.

وبدأ تنفيذ الفكرة في عام (٥٦٠ هـ/ ١١٦٥ م) أي بعد معركة حارم. فأعدَّ سفارة توجهت إلى القسطنطينية بهدف عرض أمر هذا الزواج. وظلت هذه السفارة في العاصمة البيزنطية مدة عامين أنجزت خلالها المهمة التي كُلِّفت بها، وعادت في عام (٥٦٢ هـ/ ١١٦٧ م) ومعها مارية ابنة عم الأمبراطور مانويل لتكون عروساً لملك بيت المقدس[٢]. وجرت مراسم الاحتفال بالزواج في كاتدرائية صور في (شهر ذي القعدة عام ٥٦٢ هـ/شهر آب عام ١١٦٧م) بعد عودة الملك من مصر.

ورافق العروس اثنان من كبار موظفي القصر هما جورج باليولوغوس ومانويل سباستوس، وقد خوَّلهما الأمبراطور بأن يناقشا مع عموري الأول أمر التحالف بينهما وتعاونهما في غزو مصر[٣]، وفي ذلك دلالة واضحة على أن مانويل كان يريد المساهمة في مشروع الاستيلاء على مصر لخدمة المصالح البيزنطية البحتة، ولذلك أراد أن يكسب دون غرم من خلال اتخاذ عموري الأول مخلباً لتحقيق أطماعه، ولم يغب

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٢٧، عمران: ص ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٩٢٣.

(٣) المصدر نفسه Chalandon: Les Commnènes Jean II et Manuel, P 536.

ذلك عن الملك الصليبي الذي اشتهر بالشجاعة والمكر والدهاء[١].

وهكذا كان للتقارب الأسري أثر بعيد في السياسة البيزنطية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي، وأهم ما ترتب عليه تعاون الصليبيين والبيزنطيين بهدف غزو مصر[٢].

ولما كان الأمر يتطلب مزيداً من الدرس وتبادل وجهات النظر، أرسل عموري الأول إلى مانويل، مع مبعوثه جورج باليولوغوس، اقتراحاً يقضي بالقيام بعمل مشترك لاحتلال مصر، غير أن موقف الصليبيين لم يكن واضحاً ومحدَّداً، لذلك قام الأمبراطور بإرسال سفار أخرى إلى بيت المقدس في (أواخر عام ٥٦٣ هـ/ صيف عام ١١٦٨ م) تألفت من إسكندر كونفيرسانو كونت جرافينا، وميخائيل أوف أوترانتو، حملت إلى عموري الأول بنوداً محددة تدعو إلى أن:

- تقوم القوات الصليبية والبيزنطية المشتركة بغزو مصر واحتلالها.
- يكون للأمبراطور نصيب من الغنائم.
- يكون للأمبراطور حرية التصرف بأمر أنطاكية.
- التنازل للأمبراطور عن بعض الأملاك الصليبية[٣].

إلا أن الملك عموري الأول رأى في هذه الشروط كثيراً من التطرف، لذلك اختار صديقه المؤرخ وليم الصوري، كبير شمامسة صور، وأرسله إلى القسطنطينية لاستئناف المباحثات مع الأمبراطور، وخوَّله صلاحية الموافقة على ما يُبرم من اتفاق بينهما[٤].

ولما وصل وليم إلى القسطنطينية، علم أن الأمبراطور يحارب في بلاد الصرب في البلقان. ولما كان الأمر من الأهمية، ولا يحتمل التأجيل، من وجهة النظر

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٥. حبشي: ص ١١٩.

(٢) عمران: ص ١٥٧.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٢٦ ـ ٩٢٧. ذكر هذا المؤرخ أن مانويل سوف يكون له نصيب في هذه المملكة (مصر) وفي جميع الغنائم التي يمكن الاستيلاء عليها لقاء تعاونه مع عموري الأول.
راجع تعليق حسن حبشي في الهامش رقم ٧ ص ١٦٣ من الجزء الرابع لكتاب وليم الصوري.
وقارن بـ: Chalandon: p 536. Shlumberger: Campagnes du Roi Amaury de Jerusalem en Egypt, p 185.

(٤) وليم الصوري: المصدر نفسه.

الصليبية، فقد توجه وليم إلى حيث يوجد الأمبراطور الذي قابلة بجفاوة في مدينة بوتيلا، وشرح له وليم مشروع المعاهدة الصليبية ـ البيزنطية، وكان يصغي بكل اهتمام، وفي نهاية المباحثات وافق الأمبراطور مانويل على شروط المعاهدة، وَوضِعت في صيغتها النهائية، وتتلخَّص في قيام البحرية البيزنطية، بالتعاون مع القوات البرية الصليبية، بغزو مصر، على أن تحصل الأمبراطورية على جزء معين من أرضها، واقتسام الغنائم التي تسلبها الحملة، كما أتفق الطرفان أن تكون القيادة العليا للجيشين الصليبي والبيزنطي بإمرة عموري الأول[1].

التمهيد لغزو مصر

حالت الظروف السياسية المستجدة دون تطبيق الاتفاقية المبرمة بين الصليبيين والبيزنطيين، فور توقيعها. إذ في الوقت الذي بدأ فيه الأمبراطور البيزنطي يجهِّز الجيش الذي سيشارك في العمليات العسكرية، نهض الملك عموري الأول فجأة بجيشه الصليبي وزحف إلى مصر تحت إلحاح مَنْ بها من الحامية الصليبية. ذلك أنه ترامى إلى مسامع أفرادها ما تَّم من الاتفاق، بين عموري الأول ومانويل بشأن احتلال مصر، فخشوا أن يشاركهم البيزنطيون في ثرواتها وخيراتها. وأتاحت لهم إقامتهم في القاهرة الوقوف على مدى ما تعانيه مصر من تدهور شديد، فكتبوا إلى عموري الأول يستدعونه للاستيلاء عليها وأعلموه «خلوّها من موانع، وهوَّنوا أمرها عليه»[2].

تردَّد عموري الأول، في بادىء الأمر، في الزحف على مصر، لأن الجزية التي كان يحصل عليها من هذا البلد تكفيه للوقوف في وجه نور الدين محمود في بلاد الشام، وخشي إن توجه إلى مصر ليملكها «فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين، ولئن صار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام»[3].

غير أن عموري الأول ما لبث أن بدَّل رأيه، والراجح أنه لم يشأ أن ينتظر

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٢٧ ـ ٩٢٨ حبشي: ص ١١٩ ـ ١٢٠، عمران: ص ١٦٠.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٩.
(٣) المصدر نفسه.

فراغ الأمبراطور مانويل من مشاكله في البلقان، وقد يبدو لأول وهلة أن السبب في ذلك التحول السياسي المفاجىء، إنما يرجع إلى عدم رغبته في أن يشاركه البيزنطيون اقتسام مصر، وأراد أن ينفرد بحكمها، ولكن الواقع أنه وجد نفسه مضطراً إلى الإسراع في العمل نتيجة عوامل عدة لعل أهمها:

ـ أنه نزل أخيراً على رأي أفراد الحامية الصليبية في القاهرة الذين ألحُّوا عليه مجدداً وشجعوه على الإقدام على هذه الخطوة وبدَّدوا خشيته من تدخل نور الدين محمود بقولهم «وإلى أن يتجهز نور الدين ويسير إليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذٍ يتمنى نور الدين منا السلامة»[1] وفي ذلك إشارة واضحة إلى انهماك نور الدين محمود ببعض المشاكل في بلاد الشام.

ـ النزاع الذي نشب بين نور الدين محمود وبين شهاب الدين مالك العقيلي، صاحب قلعة جَعْبَر، حيث انتهى الأمر بضم الأول للقلعة. وقد استغل عموري الأول هذا النزاع وانهماك نور الدين محمود ليزحف إلى مصر.

ـ في أواخر فصل الصيف قدم إلى فلسطين كونت نيفر في جماعة كبيرة من الفرسان للدفاع عن النصرانية، ومع أنه توفي مبكراً إلا أنَّ الدافع له على المجيء ظل في نفوس رجاله، مما شجع بارونات مملكة بيت المقدس الذين أرادوا القيام بإجراء مباشر، ووجدوا في مصر لقمة سائغة، فضغطوا على الملك للقيام بالحملة بعد أن ظلَّ يتردد في الإقدام على هذه الخطوة.

ـ انقلاب شاور على الصليبيين، ذلك أن هذا الرجل الذي كان دائماً هو البادىء بالاستعانة بالصليبيين، اشتهر بأنه كان يكره الحامية الصليبية في القاهرة، فأخذ يتخوف من وجودها عندما شعر أن المساعدة الصليبية تحولت إلى حماية وأن الضريبة السنوية التي فرضها عليه عموري الأول، وهي مائة ألف دينار، أثقلت كاهل المصريين في الوقت الذي نضبت فيه موارد الدولة، ثم إن وجود الحامية الصليبية التي تحرس أبواب القاهرة، أزعج أعيان الدولة والمتشددين المسلمين، بفعل أن أفرادها أساؤوا معاملة أهل البلاد «وحكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبوهم بالأذى العظيم»[2] فأضحى موقفه الداخلي ضعيفاً، وبخاصة بعد أن رفض المصريون

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٩.

(٢) المصدر نفسه.

تصرفه المهين، وانفضُّوا من حوله، وفقد الخليفة ثقته به، فعيَّن ابنه الكامل نائباً له، وهي المرة الأولى التي يُعين فيها نائب لأحد الوزراء في مصر أثناء وجوده ومباشرته الحكم[1]. وتردَّدت الشائعات أيضاً بأن ابنه الكامل أخذ يتفاوض مع أسد الدين شيركوه، وأنه طلب أن يتزوج من أخت صلاح الدين[2]. وقد دفعت هذه التطورات شاور إلى التوقف عن دفع الجزية المقررة، ولما احتج عموري الأول على ذلك أجابه «إن الذي قررته لك إنما جعلته متى احتجت إليك، وإذا قدم عليَّ عدو، فأما مع خلو بالي من الأعداء، فلا حاجة إليك ولا لك عندي مقرر»[3].

- كاتبت جماعة من أعيان مصر، ممن هم على عداء مع شاور، الملك الصليبي للقدوم إلى مصر، ووعدوه بتقديم المساعدة، كان من بينهم ابن النحاس وابن الخياط يحيى وابن قرجلة[4].

نتيجة هذه التطورات السياسية، دعا الملك عموري الأول المجلس إلى الانعقاد للتشاور في هذا الأمر، وقد تباينت آراء الزعماء الصليبيين خلال جلسات المناقشة.

فرأى الملك عموري الأول الاكتفاء بسياسة الحماية ما دامت مصر تدفع الجزية التي يتقوَّى الصليبيون بها على نور الدين محمود في بلاد الشام، كما خشي من انتفاضة المصريين، بالإضافة إلى أن نور الدين محمود سوف لا يقف مكتوف الأيدي، وسيحاول التدخل.

وأصرَّ جيلبرت الأسيلي، مقدم الأسبتارية، على القيام بالحملة فوراً مدفوعاً بطمعه للحصول على إقطاع كبير في بلد خصب كمصر، ولم يجد من الأسباب ما يدعوه إلى ضرورة اشتراك البيزنطيين في الغنائم، ووافقه معظم البارونات.

وعارض الداوية توجيه حملة صليبية إلى مصر، وأعلنوا، صراحة، أنهم لن يشتركوا فيها، ويبدو أن معارضتهم ناجمة عن منافسة الأسبتارية الذين اشترطوا أن تكون «الفرما»[5] من نصيبهم مقابل حصن غزة الذي كان بيد الداوية، بالإضافة إلى

---

(١) أورد القلقشندي في كتابه صبح الأعشى... نص التقليد والتولية. جـ ١٠ ص ٣٠٨ ـ ٣٢٥.

(٢) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ٤٣١.

(٤) المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٩.

(٥) الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر. الحموي: جـ ٤ ص ٢٥٥.

ارتباطهم تجارياً ومالياً بالمسلمين في مصر، وقد زادت على تجارتهم مع النصارى في بلاد الشام.

وكان أن انتصر رأي جيلبرت، واضطر الملك إلى الموافقة، على أنه لابد من التعجيل باتخاذ إجراء ما نظراً لضعف شاور وعدم الاطمئنان إليه[(١)].

حملة عموري الرابعة على مصر

زحف الحملة

عاد وليم الصوري إلى بيت المقدس حاملاً معه المعاهدة المبرمة مع البيزنطيين ليجد أن الملك عموري الأول قد غادر البلاد فعلاً على رأس الحملة التي جهَّزها لاحتلال مصر. وأراد الملك الصليبي أن يموِّه على حملته، ويصرف نظر نور الدين محمود عما اعتزم عليه، فأشاع بأنه سوف يهاجم حمص[(٢)].

والواقع أن نور الدين محمود كان حريصاً آنذاك على أن يتجنب الاشتباك في قتال مع الصليبيين نظراً لانهماكه في مشاكل خاصة في شمال شرقي بلاد الشام[(٣)]، إلا أنه اضطر، تحت ضغط الأحداث المستجدة، إلى القيام بالتعبئة العامة، «فكاتب الأمراء بالقدوم عليه، واستقدم العساكر للنهوض إلى عموري ودفعه عن قصده»[(٤)] حصل ذلك في الوقت الذي كانت فيه الحملة الصليبية برئاسة الملك عموري الأول تشق طريقها إلى مصر للمرة الرابعة.

لم يدرك شاور ما يجري فعلاً إلا بعد أن غادرت الحملة الصليبية عسقلان في (شهر محرم عام ٥٦٤ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٦٨ م) باتجاه دلتا النيل. وإذ لم يكن يتوقع مطلقاً أن يقوم الملك عموري الأول بنقض المعاهدة التي عقدها معه، بهذه الاستهانة، كما لا يوجد ما يبرر قيامه بمهاجمة مصر لا سيما وأنه قائم بالمحافظة على تعهداته له، بالإضافة إلى أنه ارتضى بأن يكون تابعاً له؛ أرسل أحد مستشاريه ممن يثق به، وهو الأمير بدران، إلى عموري الأول، قبل أن يصل إلى القاهرة،

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٢٨ ـ ٩٢٩. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦١٣ ـ ٦١٤.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٩.
(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦١٤.
(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص٩٩.

للاستفسار عما دعاه إلى المجيء، عسى أن يتدارك هذا الخطأ كي لا يدع مجالاً لتدخل نور الدين محمود.

التقى الأمير بدران بالملك عموري الأول عند الداروم على الحدود مع مملكة بيت المقدس، ويبدو أنه كان ضعيف الإرادة أو يطمع في الحصول على بعض الإقطاعات، وقد وقف عموري الأول على هذه النزعة عنده، فاستماله بما بذل له من الرشوة، ووعده بإقطاعه ثلاث عشرة قرية[1].

ولما أبطأ بدران في العودة، تسرب الخوف إلى نفس شاور، فبعث برسول ثانٍ، هو شمس الخلافة محمد بن مختار، فاجتمع بالملك عموري الأول في الصحراء قبل أن يصل إلى بِلبيس، وجرى لقاء ساخن حيث لام شمس الخلافة، ملك بيت المقدس على قيامه بهده الحملة، ورأى في تصرفه خيانة للمعاهدة المبرمة بين الطرفين، فردَّ عليه الملك مبرراً موقفه بما أجراه الكامل بن شاور من مفاوضات مع نور الدين محمود، كما أن شاور أوقف دفع الجزية المقررة عليه للصليبيين، ثم حاول طمأنته حين زعم أنه أراد التوسط بين المصريين وبين جماعة أوروبية جاءت من وراء البحار، قاصدة غزو مصر، وأن محبَّته لسكان مصر ولحليفه شاور تحتم عليه النهوض لدفع هذا الخطر الأوروبي عن مصر، ثم أضاف، أنه سوف ينسحب إذا أدَّى شاور له مبلغاً آخر من الدنانير، لكنه تابع تقدمه حتى وصل إلى بِلبيس في (شهر صفر / شهر تشرين الثاني)[2].

احتلال بِلبيس

ارتاب شاور في صدق الملك الصليبي، وتأكد له بما كان قد تناهى إلى سمعه من خيانة بعض أمراء مصر الذين شجعوه على غزوها، وصمَّم على المقاومة. وفوجىء الملك عموري الأول عندما أغلقت الحامية أبواب المدينة في وجهه، ولم تسمح له بدخولها ليعسكر فيها بجيشه، عندئذٍ ضرب الحصار عليها. وإذ كانت الحامية المدافعة عنها قليلة العدد، فقد دخل الجيش الصليبي المدينة بعد ثلاثة أيام من الحصار والمقاومة الشديدة، تلى ذلك حدوث مذبحة مروعة، وأسرف الصليبيون في

(١) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣٠.
(٢) المصدر نفسه: ص ٤٣٠ ـ ٤٣١. حبشي: ص ١٢٢ ـ ١٢٣. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦١٤ ـ ٦١٥.

الإنتقام من سكان بِلبيس فهدموا منازلهم ونكَّلوا بهم وقتلوا كل من صادفوه من النساء والشيوخ والأطفال[١].

الزحف نحو القاهرة

مكث عموري الأول في بِلبيس مدة خمسة أيام حاول أثناءها أن يعيد الأمن إلى نصابه بعد أن وقع الضرر على الناس. ثم خرج منها متوجهاً نحو القاهرة، غير أنه أضاع بذلك الفرصة للاستيلاء عليها فجأة، لأنه، خلال هذه الرحلة البطيئة التي استغرقت عشرة أيام، تناهى إلى أسماع سكانها ما أصاب سكان بِلبيس، فأحدث ذلك موجة من الخوف والقلق دفعهم إلى التصميم على الدفاع عن مدينتهم والقتال دونها حتى لا يصيبهم ما أصاب سكان بِلبيس، ولو أن الملك الصليبي أحسن السيرة مع أهل بِلبيس لملك مصر والقاهرة بسرعة[٢].

ويبدو أن سبب الإبطاء تمثَّل في أن المفاوضات كانت دائرة بين عموري الأول وجماعة المصريين الموالين له، أو بينه وبين رسل شاور، للوصول إلى تفاهم حول حلٍّ المشكلة[٣]. ومهما يكن من أمر، فقد وصل الجيش الصليبي إلى مكان قريب من القاهرة، وعسكر عند بركة الحبش جنوبي الفسطاط، إلا أنه لم يتلقَّ أية مساعدة من المصريين الذين هجروا منازلهم بناء على دعوة شاور، الذي فَقَدَ الأمل في إمكانية حصول تفاهم مع عموري الأول، وارتاب في قدرته على الاحتفاظ بالفسطاط نظراً لضعف قواته، فعمد إلى حرقها، وأرسل، في الوقت نفسه، رسوله شمس الخلافة مرة أخرى، يحذِّر عموري الأول بأنه سوف يقدم على إشعال النار في القاهرة حتى لا تقع في أيدي الصليبيين، وظلَّت النار متأججة مدة أربعة وخمسين يوماً حتى أتت على كل شيء، واضطر عموري الأول إلى نقل معسكره، ونزل على القاهرة مما يلي باب البرقية، ولاصق أسوارها[٤].

ووصل، أثناء ذلك، أسطول صليبي إلى بحيرة المنزلة، كان معظم بحارته من

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٠. أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣١.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٩. وليم الصوري: المصدر نفسه.
(٣) حبشي: ص ١٢٤.
(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٩٩. أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

الغرب الأوروبي يحدوهم الحماس للدفاع عن النصرانية، فانقضوا على مدينة «تنيس»[1]، فأصاب أهلها الرعب والخوف. غير أن هذا الأسطول لم يتمكَّن من مواصلة التقدم لمساندة الصليبيين المعسكرين حول القاهرة، فقد اعترضته الحواجز الملقاة في عرض النهر، مما فتَّ في عضد الملك عموري الأول الذي كان قد علَّق عليه الآمال لحصار القاهرة من جهة البحر[2].

ونظر عموري الأول بعين الأسى إلى تلك المدينة الزاهية والنار تلتهمها، وأدرك أنه لن يستطيع امتلاك مصر وأن الحملة أخطأت السبيل، وبناء على نصيحة صنجيله ميلز بلانسي، أبلغ شاور بأنه يقبل المساومة على مغادرة البلاد.

والواقع أن شاور انزعج من أعمال الصليبيين الوحشية فمال إلى استعمال الحيلة معهم، فأرسل إليهم يُذكِّرهم بمودته لهم ويلقي بالتبعة على الخليفة العاضد، وفي الوقت نفسه تلكَّأ بعض الوقت قبل أن يساوم على المبلغ الذي بوسعه أن يؤديه، آملاً بأن يصل أسد الدين شيركوه بقوات من بلاد الشام بعد أن استنجد به الخليفة العاضد، وعرض عليه أربعمائة ألف دينار، وقيل ألفي ألف دينار، يُدفع منها مائة ألف دينار معجلاً، لقاء الرحيل عن مصر، لكن شاور لم يستطع أن يجمع له منها سوى خمسة آلاف دينار بفعل الحالة المتردية التي أضحى عليها سكان القاهرة بعد هذه الأحداث[3].

في هذه الأثناء، وردت الأنباء فجأة بأن أسد الدين شيركوه اتخذ طريقه إلى مصر بناء على دعوة الخليفة الفاطمي العاضد.

---

(١) تنيس: جزيرة في بحر مصر، قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيها. الحموي جـ ١ ص٥١.

(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٢ ـ ٩٣٣. رنسيمان جـ ٢ ص ٦١٦.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠٠.

الحملة النورية الثالثة على مصر

الخليفة العاضد يستنجد بنور الدين محمود

طالبت بعض الفئات في القاهرة بدعوة القوات الشامية بعد أن تبين لها أن مصر ستقع في أيدي الصليبيين هذه المرة، وكان على رأس هذه الفئات الكامل، ابن شاور، الذي خرج على سياسة والده، والقاضي الفاضل رئيس ديوان الإنشاء، الذي قام بدور في تحويل دفَّة السياسة المصرية باتجاه بلاد الشام، وتولى المفاوضات والمراسلات مع نور الدين محمود، وأخيراً الخليفة الفاطمي العاضد المغلوب على أمره، وقد بعث بخصل من ضفائر نسائه وغدائر بناته، وهو أقوى مظهر من مظاهر إثارة الشعور، وعرض على نور الدين محمود، مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين:

- منحة ثلث بلاد مصر.
- منح قادته الإقطاعات.
- يسمح لشيركوه بأن يقيم في مصر[١].

ومع استدعاء القوات من بلاد الشام بدأت كفة نور الدين محمود ترجح في الميزان، ذلك أنه لم يكن بإمكان نور الدين محمود أن يترك الصليبيين يحتلون مصر. فلم يكد يسمع بعودة الملك عموري الأول والصليبيين إلى هذا البلد حتى أخذ يتخوَّف من هذا التردد عليه بين حين وآخر، وأدرك أن شاور يتلاعب بهم تارة وبه تارة أخرى، فاستقر رأيه على اتخاذ موقف حاسم من المسألة المصرية وشجَّعته دعوة الاستغاثة على الإسراع في تجهيز قوة عسكرية لإرسالها إلى مصر، حيث حرَّكت فيه عوامل الشفقة والرحمة إلى جانب طموحه الشخصي في ضمِّ مصر بعد إنقاذها من أيدي الصليبيين والذين يتعاونون معهم من أبنائها، والراجح أنه تطلع إلى إعادة المذهب السني إليها، فاستدعى أسد الدين شيركوه من حمص وكلَّفه بمهمة إنقاذ مصر من الصليبيين وضمِّها إلى أملاكه في بلاد الشام وأعطاه مائتي ألف دينار بالإضافة إلى الأسلحة والثياب والدواب، وأذن له أن يختار ألفي فارس، منح كلاً منهم عشرين ديناراً غير جامكيته[٢]، وأمدَّه بستة آلاف فارس، ومجموعة من الأمراء، كما ندب

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠٠. البنداري: سنا البرق الشامي وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني ص ٧٤ ـ ٧٥. أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣١ ـ ٤٣٢، ابن واصل جـ ١ ص ١٥٨.

(٢) الجامكية: يعني الراتب.

معه ابن أخيه صلاح الدين[١]. وتدل نوعية التجهيزات التي جهَّزه بها على أن نور الدين محمود مصمِّم، هذه المرة، على إنهاء المسألة المصرية بشكل قاطع.

أسد الدين شيركوه يزحف إلى مصر ويدخل القاهرة

خرج أسد الدين شيركوه في (شهر ربيع الأول عام ٥٦٤ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٦٨ م) إلى مصر وكان شاور يستغل كل فرصة ممكنة لتهديد الصليبيين لإخراجهم من مصر، فلما علم بزحف أسد الدين شيركوه، استغل ذلك لصالحه، وعندما اقترب الجيش النوري من حدودها الشرقية ووصل إلى الصدْر[٢]، أرسل شمس الخلافة إلى الملك عموري يطلب منه التخلِّي عن جزء من المبلغ المتفق عليه، وينذره في الوقت نفسه بتقدم أسد الدين شيركوه[٣].

نتيجة هذا التطور العسكري اضطر عموري الأول لأن يتحرك مع جيشه نحو برزخ السويس في خطة تستهدف الاتجاه من سرياقوس[٤] إلى بِلبيس حيث ترك هناك قوة عسكرية تحمي الطريق المؤدي إلى القاهرة، ثم التقدم نحو فاقوس لمباغتة أسد الدين شيركوه، وقد راوده الأمل في الانقضاض عليه عند خروجه من الصحراء والقضاء على قواته قبل أن تتمكن من دخول مصر[٥].

لكن هذه الخطة، التي وضعها الملك عموري الأول، انهارت تماماً عندما علم أن أسد الدين شيركوه اخترق الصحراء إلى القاهرة بعد أن تجاوزه من ناحية الجنوب. وفعلاً دخل القائد النوري القاهرة في (السابع من ربيع الآخر عام ٥٦٤ هـ/ الثامن من كانون الثاني عام ١١٦٩ م) دون مقاومة، وسط ترحيب السكان بقدومه، وعسكرت قواته في باب اللوق، ولعل سكان مصر رأوا في حملته هذه خلاصاً لهم من الصليبيين ومن استبداد شاور الذي استاء الجميع من تصرفاته. أما الخليفة العاضد فكان يراقب تطور الأحداث السياسية والعسكرية بحسرة، فقد توقع أن تذهب بعرشه الذي ورثه عن آبائه[٦].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠٠.
(٢) الصدر: قلعة بين القاهرة وأيلة. الحموي: جـ ٣ ص ٣٩٧.
(٣) أبو شامة: جـ ١ ص ٣٣٤.
(٤) سرياقوس: بليدة في نواحي القاهرة بمصر. الحموي: جـ ٣ ص ٢١٨.
(٥) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٤.
(٦) أبو شامة: جـ ١ ص ٣٣٤. حبشي: ص ١٢٧.

وتوجه أسد الدين شيركوه إلى الخليفة الفاطمي الذي غمره بالتشاريف ووعده ببذل الأموال والمؤن لعساكره. أما شاور الذي وجد نفسه وحيداً، فأخذ يتودَّد إليه، ويتقرَّب منه، فكان يتردد عليه كل يوم للتشاور في التدابير المالية واقتسام أعمال الوزارة[1].

الملك الصليبي يعود إلى بيت المقدس خائباً

رأى عموري الأول استحالة استيلائه على مصر في ظل هذه الأوضاع المستجدة، وأنه بات من الضروري أن يتراجع عن القاهرة خشية أن يهاجمه أسد الدين شيركوه، وأن يثب عليه سكان مصر من الخلف، فتراجع إلى بِلبيس، وأمر أسطوله بالعودة إلى عكا، ثم رحل عن مصر بعد أن يئس من احتلالها، مدركاً في الوقت نفسه الخطأ الجسيم الذي ارتكبه والذي أفقده ما كان له من مظاهر ملكية[2].

مقتل شاور

كان من الطبيعي، بعد خروج الصليبيين من مصر، أن يحقد شاور على أسد الدين شيركوه الذي نافسه على النفوذ، وبخاصة بعد أن طالبه مجدَّداً بتنفيذ اتفاقه القديم الذي تنكَّر له، بالإضافة إلى ميل الخليفة العاضد إليه، وتردد الناس إلى خدمته[3]. فأرسل مرة أخرى يستدعي الصليبيين لمساعدته، وحدَّد لهم مدينة دمياط كمكان لدخولهم الديار المصرية من البر والبحر، كما دبَّر مؤامرة للتخلص من أسد الدين شيركوه وأمرائه أثناء وليمة يدعوهم إليها، مبرهناً عن قصر نظر في الحقل السياسي، غير أنه انصرف عن تنفيذ تلك المكيدة خشية مما هو أشد. ويبدو أن ابنه الكامل كان له دور في ذلك حين هدَّده بكشف المؤامرة لأسد الدين شيركوه[4]، لكن هذا الأخير علم بما بيَّته له عدوه، ومع ذلك لم يتخذ أي إجراء مباشر ضده، ويبدو أنه كان للخليفة العاضد رأي آخر بينما أصرَّ صلاح الدين على اتخاذ تدابير رادعة بحقه، ونفرت العامة من حكمه.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠٠، رنسيمان: جـ ٢ ص ٦١٨.
(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٤.
(٣) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣٥، ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٠١.
(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠٠ ـ ١٠١.

خرج شاور في (السابع عشر من شهر ربيع الآخر عام ٥٦٤ هـ/ الثامن عشر من شهر كانون الثاني عام ١١٦٩ م)، للاجتماع بأسد الدين شيركوه، ولما وصل إلى مقر قيادته استقبله صلاح الدين وعز الدين جورديك في جمع من العساكر. لكن أسد الدين شيركوه كان في زيارة لضريح الإمام الشافعي، فقرر الذهاب إليه. ولم يكد شاور يتحرك حتى انقضَّ عليه صلاح الدين وعز الدين جورديك وبعض الأمراء وأسروه بعد أن جردوه من سلاحه، ثم أصدر الخليفة أمراً بقتله(١).

ضمُّ مصر إلى بلاد الشام

الواقع أن مقتل شاور كان آخر حلقة من سلسلة المتاعب التي تعرَّضت لها مصر في أواخر العصر الفاطمي، إذ لم يعد للصليبيين من مناصر في البلاد، وكان خروجهم منها، في نظر نور الدين محمود فتحاً جديداً وحفظاً لسائر بلاد الشام(٢)، ففرح فرحاً شديداً «وواصل الحمد والثناء على الله تعالى، إذ كان الفتح في زمنه وعلى يده، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته، وتزيين جميع بلاده»(٣)، وأرسل إلى الخليفة العباسي في بغداد يعلمه بذلك، فزُينت عاصمة الخلافة، وأُغلقت الأسواق، وفرح المسلمون فرحاً شديداً.

وفاة أسد الدين شيركوه

تقلَّد أسد الدين شيركوه مقاليد الوزارة في مصر بعد مقتل شاور وفقاً للعادة المتبعة في تلك الأيام، والتي تقضي بأن يحل محل الوزير من يتولى القضاء عليه، وبلغ به الحرص على مراعاة الصفة الشرعية للحكم مما منع حكام الأقاليم من معارضة النظام الجديد، فأضحى في أسابيع قليلة حاكماً على الديار المصرية بأسرها، وحاز أمراؤه ما كان بيد شاور وأسرته من إقطاعات، وأتخذ لقب «الملك المنصور أمير الجيوش»(٤).

لم يعش أسد الدين شيركوه طويلاً بعد أن تولَّى الوزارة، إذ توفي بعد شهرين في

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠١، البنداري: ص ٧٨. أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣٦، راجع فيمايتعلق بملابسات قتل شاور: حبشي ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ١٣٩.

(٣) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣٧.

(٤) ابن واصل: جـ ١ ص ١٦٣.

(٢٢ جمادى الآخرة عام ٥٦٤ هـ/ ٢٣ آذار عام ١١٦٩ م)، نتيجة إفراطه في الأكل، على أن شهرته في التاريخ طغت عليها شهرة نور الدين محمود، وشهرة ابن أخيه صلاح الدين الذي سيخلفه ويجني ثمرة غرسه، ومع ذلك فإنه فاق غيره من المسلمين في إدراك أهمية ضمِّ مصر بوصفها خطوة تمهيدية وضرورية لاسترجاع فلسطين من أيدي الصليبيين[(١)].

صلاح الدين يخلف عمه

أدَّت حملة عموري الأول على مصر في عام (٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م) إلى خلق موقف جديد بالنسبة للصليبيين، مغاير تماماً للوضع السابق. ذلك أن الحملة عندما قدمت إلى مصر، كان الانقسام المذهبي على أشدِّه بين مصر وبلاد الشام، كما كانت الدولة الفاطمية في طور الاحتضار وفي حالة تبعية فعلية لمملكة بيت المقدس، وتدفع لها الأموال رمزاً لهذه التبعية، ثم خرجت حملة عموري الأول من مصر، وقد نجح أسد الدين شيركوه في ضمِّ هذا البلد إلى الدولة النورية التي غدت تمتد من الفرات إلى النيل، وباتت مصر دولة قوية بعد أن كانت ضعيفة منذ مجيء الحملة الصليبية الأولى في عام ١٠٩٧ م لتصبح مركز المقاومة الإسلامية في الشرق الأدنى الإسلامي ضد الخطر الصليبي[(٢)].

أيقظت خلافة أسد الدين شيركوه في منصبه الكثير من الطموحات. إذ حدثت إثر وفاته خلافات وتنافسات على الوزارة بين:

- المؤسسة العسكرية الفاطمية التي أرادت وزيراً مدنياً مصرياً تتحكم به.
- بعض أمراء نور الدين محمود الأتراك الذين رافقوا الحملة مثل قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وعين الدولة الياروقي، وسيف الدين بن أحمد المشطوب، وغيرهم.
- شهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين.

تطلع هؤلاء إلى اعتلاء منصب الوزارة عقب وفاة أسد الدين شيركوه بينما ظل صلاح الدين صامتاً، لكن سانده الفقيه عيسى الهكاري مقترحاً ترشيحه لهذا المنصب،

---

(١) عاشور: جـ ٢ ص ٧٠١ رنسيمان: جـ ٢ ص ٦١٩.

(٢) عاشور: المرجع نفسه ص ٧٠٦.

ونجح في استقطاب المشطوب والحارمي[1]. لكن الخليفة العاضد اختار صلاح الدين، وقد قام الحارمي بدور نشط في إقناعه، على الرغم من إحجام الأول وتمنعه عن استلام المنصب لاعتقاده أن صغر سنه وافتقاره للتجربة سوف يرغمانه على الاعتماد على موظفي الدولة الفاطمية وسيجعلان منه أداة سهلة في يد الخليفة يستغلها في القضاء على بقية أعوان أسد الدين شيركوه.

وخلع الخليفة العاضد الوزارة على صلاح الدين وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وأمر القاضي الفاضل بإنشاء سجل بتوليته الوزارة، ولقَّبه بـ«الملك الناصر» وذلك في (٢٥ من شهر جمادى الآخرة عام ٥٦٤ هـ/ ٢٦ من شهر آذار عام ١١٦٩م)[2].

وبتولي صلاح الدين منصب الوزارة، كآخر وزير سني في الدولة الفاطمية، وصل المد السني الذي بدأه السلاجقة قبل نحو مائة عام، وأكمله ورثتهم الزنكيون، إلى مصر[3].

الصعوبات التي واجهت صلاح الدين في بداية حياته السياسية

مؤامرة مؤتمن الخلافة

وجرى من الأحداث في مصر بعد تولية صلاح الدين منصب الوزارة أن البلاد كانت تجتاز مرحلة خطيرة في تاريخها. فالخلافة الفاطمية، لا زالت موجودة يساندها الجيش الفاطمي وكبار رجال الدولة، والخطر الصليبي لا يزال جاثماً على مقربة من أبواب مصر الشرقية. فكان عليه أن يثبِّت أقدامه في الحكم، ليتفرغ لمجابهة ما قد ينشأ من تطورات سياسية. ولم يلبث أن أظهر مقدرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة وهو عازم على الاستئثار بكافة الاختصاصات حتى التي تخص الخليفة، ونفَّذ عدة تدابير كفلت له الهيمنة التامة منها:

- استمال قلوب سكان مصر بما بذل لهم من الأموال، فأحبوه.

---

(١) ابن واصل: جـ ١ ص ١٦٨.

(٢) القلقشندي: جـ ١٠ ص ٨٠ ـ ١٠٠.

(٣) سيد: ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

ـ أخضع مماليك أسد الدين شيركوه، وسيطر بشكل تام على الجند، بعد أن أحسن إليهم.

ـ قوّى مركزه بما كان يمده به نور الدين محمود من المساعدات العسكرية، وقد وصل أخوه شمس الدولة توران شاه بن أيوب مع إحدى هذه المساعدات العسكرية[1].

وقد أدَّت التدابير التي نفَّذها صلاح الدين، إلى تقوية قبضته على مقدرات الخلافة، وزادت من تراجع نفوذ الخليفة، وبالتالي مركز الخلافة، وأثارت استياء كبير الطواشية، مؤتمن الخلافة، وهو نوبي، وقائد الجند السودانيين، وقد أدرك أن نهج صلاح الدين في الحكم سوف يقضي، في حال استمراره، على الخلافة الفاطمية إن عاجلاً أو آجلاً، ويبدو أنه كان من بين الطامعين في خلافة شاور، ولما لم يفلح راح يحيك الدسائس للإطاحة بصلاح الدين وحاول الاتصال بعموري الأول، ملك بيت المقدس، لتحريضه على مهاجمة مصر، أملاً، في حال الاستجابة، أن يخرج صلاح الدين إلى لقائه، فيقبض هو على من يبقى من أصحابه في القاهرة ويثب على منصب الوزارة ويتقاسم البلاد مع الصليبيين.

غير أن صلاح الدين علم بخيوط المؤامرة حين ارتاب أحد أتباعه في شكل الخفين اللذين اتَّخذهما رسول مؤتمن الخلافة إلى عموري الأول، فأخذهما ونزع خياطتهما، فاكتشف الرسالة بداخلها. فقبض على مؤتمن الخلافة وترقب الفرصة للتخلص منه، غير أن أنباء اهتزاز مركزه في مصر شجعت النصارى على القيام بمحاولة أخرى لمهاجمة مصر[2].

---

(١) ابن واصل: جـ ١ ص ١٧٤.

(٢) البنداري: ص ٨٢ ـ ٨٣، ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠٣، أبو شامة: جـ ١ ص ٤٥٠ ـ ٤٥١. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٢.

رد الفعل الصليبي:
الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة على دمياط ٥٦٥ هـ/ ١١٦٩ م

تجدُّد التعاون الصليبي ـ البيزنطي

أدرك عموري الأول مغزى نجاح نور الدين محمود في توحيد بلاد الشام ومصر تحت سلطانه، وعدَّ ذلك ضربة أليمة وُجِّهت إلى مملكة بيت المقدس، مما خلق جواً جديداً من القلق والرعب. وشعر الصليبيون أنهم وقعوا فعلاً بين فكي الكماشة، وأن القوات الإسلامية أحاطت بمملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال الشرقي والجنوب الغربي، كما أن سيطرة نور الدين محمود على الثغور البحرية في شمالي مصر، مثل الإسكندرية ودمياط وغيرهما من موانىء الدلتا، من شأنها أن تهدِّد سيادة الصليبيين البحرية، بحيث ينتقل الجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى سيادة المسلمين.

وتفاقم الخطر إلى الحد الذي دفع عموري الأول إلى الاستعانة بالغرب الأوروبي؛ فأرسل سفارة في أوائل عام (٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م) إلى كل من فريدريك بربروسا أمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا، وهنري الثاني ملك إنكلترا، ووليم الثاني ملك صقلية، وغيرهم من كبار حكام أوروبا الغربية، يطلب منهم الإسراع بالقيام بحملة صليبية جديدة تنقذ الموقف الصليبي المتدهور في الشرق[1]. والجدير بالذكر أن طلب الاستغاثة لم يخف على المسلمين[2].

على أن الأوضاع السياسية في غربي أوروبا، آنئذٍ، لا سيما فيما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والأمبراطورية، حالت دون تحقيق السفارة الصليبية أهدافها، فاضطر عموري الأول عندئذٍ إلى الالتفات مجدداً نحو الأمبراطورية البيزنطية طالباً مساعدة الأمبراطور مانويل، ومقترحاً عليه تجديد اتفاقية عام (١١٦٨م) التي أبرمها وليم الصوري، بهدف غزو مصر.

والواقع أن الأمبراطور مانويل كان أشد حماساً من الصليبيين لتنفيذ مشروع غزو مصر، ولا يزال راغباً في القيام بدوره في ذلك. إذ لم يكن أقل انزعاجاً لاتحاد

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٨.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠٥.

بلاد الشام ومصر تحت راية نور الدين محمود، مما أدّى إلى انقلاب خطير في توازن القوى بالشرق، فعرض على عموري الأول تعاون الأسطول البيزنطي في الحملة التالية[1].

وقَبِل الملك ما عرضه الأمبراطور، إذ لم يفقد الأمل بعد في استرداد مصر، كما أن نور الدين محمود كان فيما يبدو منهمكاً في أمور الشمال. فما حدث من وفاة قرا أرسلان الأرتقي، أمير ديار بكر في عام (٥٦٢ هـ/ ١١٦٦ م)، وما وقع من نزاعات حول اقتسام إرثه، أوقعه في شقاق شديد مع أخيه قطب الدين مودود أمير الموصل، ولم تلبث أن اندلعت ثورة غازي بن حسَّان أمير منبج، ولم تخمد إلا بعد شهور عديدة، على أن قطب الدين مودود أشرف على الموت، ولم تلبث أن ظهرت مشكلة ولاية حكومة الموصل[2].

استعدادات التجهيز

جهَّز الأمبراطور البيزنطي في (أواخر عام ٥٦٤ هـ/ صيف عام ١١٦٩م) أسطولاً بحرياً ضخماً تألف من مائة وخمسين سفينة حربية من نوع الشواني، مسلحة تسليحاً جيداً، وستين سفينة كبيرة لنقل الخيول وهي من النوع المعروف بالطريدة، وما بين عشرة إلى عشرين سفينة من نوع الدرمونة لنقل المؤن وآلات الحرب[3].

وحمل الأسطول من المؤن ما يكفي لمدة ثلاثة أشهر، وهي المدة التي قدَّرها الأمبراطور لإنجاز المهمة. ثم خرج من مياه الدردنيل في (منتصف شوال عام ٥٦٤ هـ/ تموز عام ١١٦٩ م) متوجهاً إلى قبرص بقيادة أندرونيقوس ـ كونتوستيفانوس، ويعاونه موريس الذي كان يتمتع بثقة الأمبراطور، فوجد في طريقه سفينتين مصريتين، فأسرهما، وعندما وصل إلى قبرص، أرسل قائده عشر سفن إلى عكا عن طريق ميناء صور تحمل الأموال المتفق عليها للإنفاق على جند عموري الأول، ولتخبره بتجمُّع الأسطول البيزنطي في قبرص، وأن بحارته على استعداد للإقلاع إلى مصر عندما يصبح الملك وقواته مستعدين للرحيل. وظل الأسطول في الجزيرة حتى

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص٩٣٨.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢١.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٨ ـ ٩٣٩.

شهر أيلول دون أن يصل ما يفيد باستكمال استعدادات القوات الصليبية للرحيل[١].

والواقع أن الملك عموري الأول أبطأ في تجهيز قواته، إذ أن حملة عام (٥٦٣ هـ/ ١١٦٨ م) أدَّت إلى الإخلال بنظامها، واحتاج إلى بعض الوقت لتنظيم شؤون دولته أثناء غيابه في مصر، وكان عليه أن يجهِّز بعض القوات لحمايتها، كما كان عليه أن يُغري الأسبتارية للاشتراك في الحملة بعد الخسائر الفادحة التي تكبدوها في الحملة الأخيرة، وبخاصة أن الداوية ما زالوا مصرِّين على رفض الإشتراك في الحملة. أما البارونات الذين لم تشجعهم تجربتهم السابقة، فإنهم افتقدوا ما توافر لهم من حماس من قبل[٢]. ولعله خشي عندما علم بضخامة الأسطول من التفوق العسكري البيزنطي، مما قد ينتج عنه انفراد البيزنطيين في السيطرة على مصر[٣]، مما دفعه إلى التردد بعض الوقت في الانضمام إلى الحملة.

لكن عموري الأول، أدرك أن سقوط مصر في أيدي البيزنطيين لا يهدد أمن الإمارات الصليبية بالقدر الذي تهددها به القوات الإسلامية التي أصبحت تحكم بلاد الشام ومصر، لذلك رأى الانضمام للحملة حتى لا تبقى مصر في أيدي حكام بلاد الشام المسلمين، أو تقع في أيدي القوات البيزنطية[٤]. لذلك دعا الأسطول للقدوم إلى عكا في (شهر محرم عام ٥٦٥ هـ/ أواخر شهر أيلول عام ١١٦٩ م). ولم تستعد كل الحملة للمضي إلى مصر إلا في منتصف شهر تشرين الأول، وأعطى أوامره لجميع القوات بالتجمع في عسقلان، ثم ما لبث الأسطول البيزنطي أن وصل إلى ميناء صور ثم تقدم نحو عكا، ومنها إلى عسقلان، وكانت وجهة الحملة مدينة دمياط[٥].

الوضع الداخلي في مصر

كان صلاح الدين قد تلقَّى تحذيراً مبكراً بالغ الكفاية عن الحملة، فتصرف على محورين احترازيين لمواجهتها:

الأول: أنه توقع أن تتعرض بِلبيس للهجوم، فشحنها بالعساكر، كما قام

---

(١) وليم الصوري: جـ٢ ص ٩٣٩.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٢ ـ ٦٢٣.

(٣) عمران: ص ١٦٣.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤٠.

بتحصين الإسكندرية والقاهرة ظناً منه أن هذه الحملة ستسلك إحدى الطرق التي سلكتها الحملات السابقة[1].

الثاني: أنه بقي في القاهرة خشية قيام مؤامرة شيعية ضده. وحتى يكفل الأمن لنفسه، أمر في (أواخر شهر ذي القعدة عام ٥٦٤ هـ/ ٢٠ آب عام ١١٦٩م) بإلقاء القبض على مؤتمن الخلافة، وأعدمه، ثم عزل موظفي القصر من السودان المعروفين بولائهم للخليفة، وأحلَّ مكانهم رجالاً من أتباعه، وعيَّن على الجميع بهاء الدين قراقوش، وهو خصي أبيض[2].

نتيجة لهذه التدابير الاحترازية التي نفَّذها صلاح الدين لتحصين مصر وحماية نفسه، عزَّ على الجند السوادنيين استبعادهم، وضياع نفوذهم، كما غضبوا لمقتل مؤتمن الخلافة فثاروا بتحريض من الموظفين المفصولين، وأدَّى ذلك إلى التصادم بين الطرفين، ودارت المعركة بينهما، فرجحت كفة جيش صلاح الدين، واضطر السودانيون إلى طلب الأمان منه، فأجابهم إلى ذلك[3].

تراوح موقف الخليفة العاضد الذي شهد هذه الأحداث، بين الإحجام عن مساعدة صلاح الدين وتأييد خطوته وفقاً لتطور الأحداث. ذلك أنه ظنَّ، في بادىء الأمر، أن الجند السودانيين سوف ينتصرون، وينقذونه من قبضة صلاح الدين، فأمر مَنْ في القصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة. ولما هدَّده توران شاه، أخو صلاح الدين، بإشعال النار في القصر، لم يسعه إلا أن يُغيِّر موقفه، فخرج من القصر وقال: «أمير المؤمنين يسلم على شمس الخلافة توران شاه ويقول دونكم العبيد الكلاب، أخرجوهم من بلادكم»[4].

كان الجند السودانيون يعتمدون على تأييد الخليفة العاضد، فلما رأوا تَغيُّر موقفه منهم فتَّ ذلك في عضدهم فتخاذلوا عند اللقاء.

وقضى صلاح الدين كذلك على حرس الخليفة من الأرمن، إذ أشعل النار في ثكناتهم، وقبض عليهم، حتى لا يستغلوا الفرصة للقيام بما قام به الجند

---

(١) عمران: ص ١٦٤.

(٢) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٥٠ ـ ٤٥٢، ابن واصل: جـ ١ ص ١٧٥ ـ ١٧٧.

(٣) المصدران نفساهما.

(٤) أبو شامة: المصدر نفسه: ص ٤٥٢.

السودانيون[١]. وهكذا نجح صلاح الدين في تصفية جيوب المقاومة والخيانة الداخلية التي وقفت حائلاً دون تنفيذ مشاريعه، فتفرغ لمواجهة الزحف النصراني الذي كان قد بدأ على مصر، وهو مطمئن.

حصار دمياط ـ فشل الحملة

خرج الجيش الصليبي من عسقلان في (شهر محرم عام ٥٦٥ هـ/شهر تشرين الأول عام ١١٦٩م)، واتخذ طريقه إلى مصر عن طريق الفرما، فوصل إلى بحيرة تنيس حيث كان الأسطول البيزنطي بانتظاره.

ومضت الحملة والأسطول بمحاذاة الشاطىء إلى مدينة لم تكن في خلد صلاح الدين، تلك هي دمياط، فوصلاها في (الأول من صفر/٢٥ تشرين الثاني)، وعسكرت القوات البرية في المنطقة الواقعة بين البحر والمدينة، لكن الأسطول لم يتمكَّن من التوغل في النيل بسبب وجود السلسلة الحديدية التي تمتد من دمياط إلى برج السلسلة، وبالتالي لم يكن بوسع أفراده أن يمضوا إلى دمياط ليمنعوا ما يرد إليها من القاهرة من عساكر ومؤن عن طريق فرع النيل[٢].

وما إن علم صلاح الدين بوصول القوات المتحالفة إلى دمياط، حتى أرسل إليها الرجال والسلاح والمؤن بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر، وخاله شهاب الدين الحارمي، كما أرسل عدداً من السفن اتخذت طريقها نحو الشمال في فرع دمياط لنجدة المدينة. وبعث في الوقت نفسه رسالة إلى نور الدين محمود في دمشق يخبره بما حدث، ويلتمس منه المساعدة، فسيَّر إليه نور الدين محمود العساكر تباعاً، كما قام بالإغارة على معاقل الصليبيين في بلاد الشام لتخفيف الضغط عن دمياط جرياً على عادته عندما تتعرض مصر للتهديد الصليبي[٣].

ومع كل هذه الاستعدادات النصرانية، فإن القوات المتحالفة تريَّثت في شنِّ هجومها مدة ثلاثة أيام[٤] مما أثَّر سلباً على الحملة حيث ستظهر آثارها فيما بعد، لأن المدينة قد امتلأت بالرجال والمؤن وآلات الحرب في الوقت الذي أخذت فيه مؤن

---

(١) ابن واصل: جـ ١ ص ١٧٥ ـ ١٧٧. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٤.

(٢) عمران: ص ١٦٣ ـ ١٦٤، ١٦٧ Grousset: II p 544.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠٥، ابن شداد: ص ٨٣.

(٤) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤١.

البيزنطيين بالتناقص لأنها كانت تحمل معها المؤن التي تكفيها لمدة ثلاثة أشهر منذ أن أبحرت من مضيق الدردنيل في منتصف شهر تموز، ولم يكن بوسع جزيرة قبرص أن تمد القوات البيزنطية بالأقوات اللازمة بعد التخريب الذي لحق بها من جراء غارات رينولد شاتيون، والتدمير الذي أصابها من جراء زلزال عام (٥٥٣ هـ/١١٥٨ م)، كما لم تستطع الحصول على المؤن اللازمة من ميناء عكا، وبذلك أوشكت مؤن هذه القوات على النفاد[(١)].

نتيجة لذلك، حثَّ القائد البيزنطي كونتوستيفانوس على اتخاذ إجراء سريع، لكن عموري الأول، الذي ارتاع لما شاهده من الاستحكامات الضخمة للمدينة، وسرعة التدابير المتخذة لشحنها بالجند والمؤن؛ أبطأ في اتخاذ قرار بالهجوم الفوري، وأراد أن يشيد أبراجاً للحصار، وبذلك ضاع أمل المتحالفين في الاستيلاء على دمياط بسهولة، وكان عليهم بذل جهد أكبر حتى يتمكَّنوا من اقتحامها[(٢)]، لذلك قاموا بإعداد برج خشبي ضخم مكوَّن من سبعة طوابق حتى يتمكَّنوا من مشاهدة ما يجري داخل المدينة من أعلاه[(٣)].

لم تقف القوات الإسلامية المدافعة عن المدينة مكتوفة الأيدي تجاه محاولات القوات المتحالفة لاقتحامها، فقامت بتشييد برج متحرك مماثل للبرج الصليبي، وشحنه المسلمون بالعساكر لمقاومة الجهود النصرانية بالفكرة نفسها، كما ردَّت هذه القوات على اعتداءات المهاجمين بعنف، وأبدى أفرادها تفوقاً ملحوظاً، في الوقت الذي انهارت فيه الروح المعنوية للمتحالفين، وأصبحوا لا يلتزمون بجدِّية القتال[(٤)].

أما الأسطول البيزنطي، فلم يتمكَّن من الدخول في فرع دمياط بقدر يسمح له بمهاجمة المدينة، وبذلك أصبح عاجزاً عن تقديم المساعدة العسكرية المطلوبة للقوات الصليبية البرية[(٥)]. وتوالت الاجتماعات بين القيادتين الصليبية والبيزنطية بشأن مناقشة القيام بهجوم عام على جميع الأسوار.

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٥، عمران: ص ١٦٦.

(٢) عمران: المرجع نفسه: ص ١٦٥.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤١.

(٤) المصدر نفسه: ص٩٤١ ـ ٩٤٢.

(٥) عمران: ص ١٦٦.

وبينما أيَّد كونتوستيفانوس هذه الفكرة، أحجم عموري الأول، لأن مثل هذه المغامرة تنطوي برأيه على خطر شديد. وساور القادة الصليبيون الشك في أن اندفاع كونتوستيفانوس مردُّه إلى رغبته في أن تكون دمياط من نصيب الأمبراطور في الغنائم. وما لبثت أن نفدت أقوات البيزنطيين تماماً، ولم تجد القوات البيزنطية ما تأكله سوى ثمار النخيل التي حصلوا عليها من البساتين المجاورة للمدينة، ولكن هذه الثمار نفدت هي الأخرى بعد ثلاثة أيام، وكادت القوات البيزنطية تهلك جوعاً في الوقت الذي توافرت فيه المؤن في المعسكر الصليبي، لكن هذه القوات ضنَّت على القوات البيزنطية، لأن الصليبيين كانوا يخشون من طول مدة القتال فيتعرضون للمجاعة(١).

وزاد من سوء الوضع العسكري أن هبَّت رياح شديدة مصحوبة بأمطار غزيرة، أغرقت المعسكر الصليبي وحوَّلته إلى مستنقع، فاستغل المسلمون هبوب هذه الرياح الجنوبية فأنزلوا سفينة نفَّاطة بين قطع الأسطول البيزنطي المكدَّس في النيل شمالي دمياط، فأنزلت به خسائر فادحة على الرغم تدخل عموري الأول لمنع استفحال الضرر، حيث حاول إيقاظ البحارة الذين عملوا على فصل السفن وإبعادها عن بعضها(٢). وبدأ شبح الهزيمة يحوم حول القوات المتحالفة وتجلَّى آنذاك فشل الحملة.

وعندما لاحظ المسلمون الحالة السيئة التي تعاني منها القوات المتحالفة، شعروا بالثقة، وتحولوا للهجوم على القوات البيزنطية التي انهارت قواها، ولم يعدْ لها القدرة على الحرب، في الوقت الذي تراخت فيه القوات الصليبية في الدفاع عن المعسكر البيزنطي(٣). وتوافر لدمياط وقتئذ الرجال المدافعون والمؤن، كما أن جيشاً إسلامياً من بلاد الشام أخذ يقترب من مصر. وشعر عموري الأول أن انتظاره قد طال أمام دمياط دون جدوى في الوقت الذي أخذ فيه نور الدين محمود يهاجم أملاكه في بلاد الشام(٤).

وبدأت القوات المتحالفة تشعر بضرورة العودة إلى بلادها حتى لا يهلكوا جوعاً

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤٣ ـ ٩٤٤، عمران: ص ١٦٦ ـ ١٦٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ٩٤٤.
(٣) المصدر نفسه: ص ٩٤٤ ـ ٩٤٥.
(٤) المصدر نفسه: ص ٩٤٤ ـ ٩٤٥.

أو قتلاً، لذلك بدأ التفكير في عقد الهدنة مع المسلمين. وليس محققاً ما إذا كان عموري الأول، أو كونتوستيفانوس، هو الذي بدأ المفاوضات مع المسلمين، وليس معروفاً ما تمَّ عليه الاتفاق من شروط[١]. والراجح أن عموري الأول كان هو البادىء بالمفاوضات ليقطع الطريق على تقارب إسلامي - بيزنطي محتمل، وليستطيع العودة إلى بلاده سريعاً بعد تفاقم الوضع نتيجة هجمات نور الدين محمود[٢]. ومن الثابت أن عموري الأول كان يأمل في إظهار الصداقة لصلاح الدين ليبعده عن نور الدين محمود[٣].

وعادت القوات المتحالفة إلى بلادها عن طريق عسقلان في (٢٨ ربيع الأول ٥٦٥ هـ/ ٢١ كانون الأول ١١٦٩م)، أي بعد أن مكثت أمام دمياط أكثر من خمسين يوماً دون أن تحقّق شيئاً من أهدافها. وجرى حرق كل أدوات الحصار حتى لا تقع في أيدي المسلمين، وعلى حد قول المؤرخ ابن الأثير، الذي تهكم على هذا الفشل حين شبَّه الحملة في خذلانها بالمثل القائل «خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين»[٤].

أسباب فشل الحملة على دمياط[٥]

يعود فشل الحملة الصليبية ـ البيزنطية على دمياط إلى أربعة عوامل تتعلق بالمسلمين والصليبيين والبيزنطيين وبالجانبين الصليبي والبيزنطي معاً.

ففيما يتعلق بالجانب الإسلامي يمكن رصد العوامل التالية:

ـ صمود سكان دمياط في وجه المعتدين.

ـ سرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن والسلاح، مما رفع معنويات سكانها المحاصرين.

ـ التعاون الصادق بين القوات الإسلامية في كل من بلاد الشام ومصر بهدف التصدي للمعتدين.

ـ القدرة القتالية للقوات الإسلامية، وحسن تخطيطها وتنظيمها الدقيق.

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٦.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) الكامل في التاريخ: جـ ٩ ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٥) راجع: عمران ص ١٦٩ ـ ١٧٣.

- موقف نور الدين محمود الداعم، وإرساله المساعدات تباعاً إلى مصر وقيامه بالضغط العسكري على الصليبيين في بلاد الشام.

- استغلال المسلمين الجيد للفرص التي أتيحت لهم. فقد استغلوا فرصة معاناة البيزنطيين من الجوع، فشنوا هجوماً عليهم، جاء فعّالاً، كما استغلوا هبوب الرياح الجنوبية لإشعال النار في الأسطول البيزنطي بواسطة حرَّاقة.

وأما فيما يتعلق بالجانب الصليبي، فيمكن ملاحظة العوامل التالية:

- لقد أخَّر الملك عموري الأول الهجوم على المدينة مدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي، مما أعطى فرصة طيبة للمسلمين لتحصين المدينة وإمدادها بالرجال والعتاد[1].

- إحجام القوات الصليبية عن إمداد القوات البيزنطية بالمؤن، عندما تعرَّضت للجوع، مما أدَّى إلى تراجع نشاطها العسكري.

- إحجام القوات الصليبية عن مساعدة القوات البيزنطية، عندما تعرَّضت لهجوم المسلمين، حيث وقفت موقف المتفرج.

وأما فيما يتعلق بالجانب البيزنطي فيمكن تدوين العوامل التالية:

- عدم استخدام القائد كونتوستيفانوس الأسطول البيزنطي استخداماً عسكرياً، وبدا كأنه قائد بري وليس قائداً بحرياً.

- اقتصر دور الأسطول البيزنطي على نقل القوات حتى ساحل دمياط.

- افتقر القائد البيزنطي إلى النظرة العسكرية السليمة عندما ترك السفن البيزنطية متلاصقة في النيل مما سهَّل مهمة القوات الإسلامية في إشعال النار في عدد منها.

- تراخي القيادة البيزنطية في تطبيق القواعد العسكرية التي تكفل أمن سفنها حين تركت البحارة يبيتون خارج سفنهم أثناء العمليات العسكرية.

- انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية.

وهناك أسباب مشتركة تتعلق بالجانبين الصليبي والبيزنطي، منها:

- سوء اختيار توقيت خروج الحملة، وتنفيذ الحصار الذي جرى في فصل الشتاء، حيث تعرَّضت القوات المتحالفة للسيول التي أغرقت معسكراتها،

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤١.

وللعواصف التي كانت تُبعد قطع الأسطول عن الشاطىء.

- سوء اختيار المكان الذي عسكرت فيه القوات المتحالفة، وهي المنطقة التي تمتد بطول الساحل، والبالغة حوالي الميل الواحد، فلم تستوعب أفراد الحملة البالغ عددهم خمسين ألفاً، حيث حشروا في هذا المكان الضيق، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين للدخول في معركة ناجحة.

- أدَّى سوء اختيار المكان أن أضحت القوات المتحالفة هدفاً سهلاً لمرمى المسلمين وهجماتهم.

- عدم وجود قيادة موحدة، وافتقرت القيادتان الصليبية والبيزنطية إلى التنسيق فيما بينهما، مما تسبَّب في فشل عمليات الهجوم على المدينة، وتفشي الشائعات داخل معسكراتها، واتهام كل جانب الجانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة.

نتائج الحملة على دمياط

- يُعدُّ فشل الحملة الصليبية - البيزنطية المشتركة على دمياط نقطة تحول هامة في تاريخ الشرق الأدنى، لأنه لو نجح التحالف النصراني في تحقيق غايته لكان من الممكن أن يمنع اتحاد بلاد الشام ومصر، الذي يشكل خطراً مباشراً على أوضاع الصليبيين في بلاد الشام، ويعرقل جهود المسلمين في التصدي للصليبيين وإخراجهم من المنطقة.

- يُعدُّ فشل الحملة النصرانية نقطة تحول هامة، أيضاً، في مستقبل صلاح الدين، الذي ظهر بمظهر المتمكِّن في حماية مصر، وأقنع الدولة الفاطمية، المتداعية بأنه يستطيع حماية البلد من غارات المعتدين بالإضافة إلى حماية مركزه من دسائس المتآمرين، وبذلك حاز على إعجاب الجميع[1].

- بات المسلمون يهدِّدون، بشكل خطر، الإمارات الصليبية بحيث شعر الصليبيون يوماً بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم، وبعد أن كانوا يحصرون نشاطهم ضد خطر نور الدين محمود من ناحية الشمال، أضحوا يوزعون قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين محمود وصلاح الدين.

---

(١) زيادة، محمد مصطفى: الدولة الأيوبية، ص ٤٦١، مقالة في موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، القاهرة.

- إذا كانت تولية صلاح الدين منصب الوزارة بداية النهاية للدولة الفاطمية، فإن هزيمة النصارى أمام دمياط، شكَّلت خطوة أخرى نحو القضاء على هذه الدولة، حيث تطلع الخليفة، العاضد إلى التحرر من نفوذ صلاح الدين ولكن المصير الفاشل الذي آلت إليه، خيَّبت أمله، وأتاحت لصلاح الدين فرصة الانفراد بالسلطة في مصر، وتوجيه اهتمامه نحو إضعاف المذهب الشيعي الإسماعيلي، وفقدت الدولة الفاطمية الأمل الأخير في التخلص من قبضته القوية، وأضحى سيد مصر دون منازع.

الفصل الخامس عشر

سياسة نور الدين محمود بين أعوام ٥٦٥ ــ ٥٦٩ هــ/١١٧٠ ــ ١١٧٤ م

نور الدين محمود يرسل نجم الدين أيوب إلى مصر

لما فرغ صلاح الدين من أمر الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة، التفت إلى تنفيذ سياسة خاصة في مصر ستحدِّد وضعه السياسي العام كأحد القادة الرئيسيين في الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين في الشرق الأدنى الإسلامي. ورأى في بادىء الأمر، أن يجمع حوله أفراد أسرته وعشيرته ليتقوَّى بهم، فطلب من نور الدين محمود أن يرسل إليه أباه وأقاربه ليستعين بهم في تصريف شؤون مصر(١).

كان نور الدين محمود قد وثق بأسد الدين شيركوه من قبل، لكنه بدأ الآن يرتاب في أطماع صلاح الدين بعد أن نظر إليه من قبل على أنه تابع مخلص وصديق أمين، فاستغل طلبه هذا للتدليل على صداقته من جهة، وكيما يخصه فيما يبدو، بلفتة من قِبَله من جهة أخرى على أنه ما زال تابعاً له نظراً لشدة تعلق نجم الدين أيوب به، فوافق على طلبه، وطلب منه بالمقابل الطاعة التامة(٢).

وأرسل نور الدين محمود مع نجم الدين أيوب قوة من الجند، كما انضم إليه عدد كبير من التجار الذين شغفوا باستئناف التجارة مع مصر. وحرصاً منه على تأمين سلامة القافلة أثناء اجتيازها الأراضي التي يسيطر عليها الصليبيون؛ قام بمهاجمة

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠٦.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٧.

حصن الكرك المنيع الذي كان بحوزة الصليبيين، ليشغل هؤلاء عن التعرض لها[1].

ولما علم الصليبيون بوجود نور الدين محمود في المنطقة، خرجوا للتصدي له بقيادة اثنين من أشهر قادتهم هما همفري صاحب بانياس وفيليب بن الدقيق، ففكَّ الحصار عن الحصن بعد أربعة أيام، واتجه نحو القوة الصليبية المتقدمة للاصطدام بها قبل وصول أفرادها إلى الحصن وانضمامهم إلى حاميته. لكن القوة الصليبية غيَّرت اتجاهها تجنباً للاشتباك معه، عند ذلك مضى غازياً المناطق الصليبية حتى نزل على تل عشترا[2].

وشاعت أخبار هذه الغزوة بين المسلمين، فقدم إليه شهاب الدين إلياس بن غازي الأرتقي، صاحب البيرة، على رأس نجدة قوامها مائتي فارس، والتقى، أثناء زحفه، بسرية صليبية في محلة اللبوة بالهرمل، من عمل بعلبك في (١٧ شوال عام ٥٦٥ هـ/ ٤ تموز عام ١١٧٠م). وسرعان ما نشب القتال بين الجماعتين أسفر عن انتصار المسلمين، الذين تابعوا زحفهم إلى حيث يقيم نور الدين محمود، ومعهم بعض الأسرى ورؤوس بعض القتلى كان من بينهم مقدم الأسبتارية صاحب حصن الأكراد.

ثم لما بلغ نور الدين محمود وصول نجم الدين أيوب سالماً إلى مصر، ترك المنطقة وعاد أدراجه، وكانت القافلة الإسلامية قد وصلت إلى مصر في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٦٥ هـ/ شهر شباط عام ١١٧٠ م). ولما علم الخليفة العاضد بوصول والد صلاح الدين، خرج والتقى به إكراماً له، ثم أقطعه الإسكندرية ودمياط، كما أقطع أولاده وأكرمهم[3].

الصليبيون في طرابلس يهاجمهون ممتلكات نور الدين محمود

عاد عموري الأول إلى بيت المقدس ليجد فرسان طرابلس قد قاموا، في غيابه، بمهاجمة أملاك نور الدين محمود. والواقع أن هؤلاء استغلوا فرصة انهماك الزعيم المسلم بمهاجمة حصن الكرك، واستطاعوا في (شهر جمادى الأولى عام ٥٦٥ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٧٠ م) أن يستردوا حصن عكار الواقع جنوبي البقيعة[4].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠٦. البنداري: ص ٩٠.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه، ابن شداد: ص ٨٥. البنداري: المصدر نفسه.

(٣) أبو شامة: جـ ٢ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٤) ابن شداد: ص ٨٣، رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٨.

على أن عموري الأول، بوصفه وصياً على إمارة طرابلس في ظل غياب أميرها ريموند الثالث في الأسر؛ بذل هذا الحصن مع «عرقة» للفرسان الأسبتارية الذين سيطروا آنذاك على كل الوادي، لحمايتها من هجمات المسلمين[١].

وعندما خرج صاحب طرابلس من الأسر في (شهر جمادى الأولى عام ٥٧٠ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٧٤ م)[٢]، أقرَّ تلك المنحة للأسبتارية، وزاد عليها امتيازات جديدة، ومن ثَمَّ غدت عرقة، فضلاً عن عكار وحصن الأكراد، المراكز الأساسية للفرسان، ويرجع إليهم الفضل في الدفاع عن إمارة طرابلس.

تجدُّد وقوع الزلازل في بلاد الشام ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م

تعرَّضت بلاد الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها من البلاد في (الثاني عشر من شهر شوال عام ٥٦٥ هـ/ التاسع والعشرين من شهر حزيران عام ١١٧٠م)، لهزة أرضية عنيفة[٣]. فانهمك المسلمون والنصارى في الشهور القليلة التالية في إصلاح ما تهدم من الحصون، وتوقف الصراع بينهما، وقد لحقت أضرار شديدة بدمشق وبعلبك وحمص وحماة وشيزر وبارين وحلب وحصن الأكراد وطرابلس وجبيل وأنطاكية، فتهدمت الأسوار والقلاع وسقطت الدور على سكانها وهلك منهم ما يخرج عن الحد[٤].

كان نور الدين محمود آنذاك بتل عشترا، فلما علم بهذه الأخبار السيئة، جاب المدن والقرى والقلاع ليصلح ما تهدم منها[٥].

العودة إلى الموصل

في تلك الأثناء انصرف نور الدين محمود إلى ما كان يجري في الطرف الشرقي لمملكته من أمور. إذ توفي في (شهر ذي الحجة عام ٥٦٥ هـ/ شهر آب عام ١١٧٠م) أخوه قطب الدين مودود أمير الموصل، فتنازع الحكم ولداه عماد الدين زنكي وهو

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٨.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٣٢.
(٣) البنداري: ص ٩١.
(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠٦. المصدر نفسه: ص ٩١ ـ ٩٣.
(٥) المصدران نفساهما.

البكر، وقد تعرَّض لمؤامرة بهدف إبعاده عن الحكم لأنه كان متوافقاً في الرأي مع عمه نور الدين محمود ومتزوجاً من ابنته، وسيف الدين غازي الذي سانده وزيره فخر الدين عبد المسيح، وأرملة قطب الدين مودود[1]. وكان أن اتجه عماد الدين زنكي إلى حلب لطلب مساعدة عمه، الذي لم يتمكَّن من تسوية المشكلة كما يشتهي إلا بعد مرور بضعة أشهر، ونتيجة تدخله الفعلي في شؤون الدولة.

الضغط الإسلامي على مملكة بيت المقدس

في الوقت الذي تمكَّن فيه نور الدين محمود من بسط سيطرته على الموصل، كان صلاح الدين قد ثبَّت أقدامه في مصر، وبدأ يوجه جهوده ضد القوى الصليبية، وما لبثت مملكة بيت المقدس أن شعرت بضغط المسلمين من الجنوب والشمال.

ففي شهر (ربيع الأول ٥٦٥ هـ/كانون الأول ١١٦٩ م)، خرج صلاح الدين من مصر لمهاجمة قلاع الصليبيين على شاطىء فلسطين، فبدأ بحصار قلعة الداروم الواقعة جنوبي غزة، واستقر في بعض أجزائها وأرسل قوة عسكرية هاجمت ربض غزة معقل فرسان الداوية[2].

وكان عموري الأول قد أقام في غزة حامية عسكرية قوية، بوصفها إحدى المعاقل الرئيسية على الحدود مع مصر، للتصدي لأي خطر إسلامي يأتي من الجنوب. لكن هذه الحامية القوية عجزت عن وقف الهجوم الإسلامي حتى أضحت القلعة وشيكة الوقوع بيد صلاح الدين، فاضطرت إلى طلب المساعدة من الملك الصليبي الذي خشي أن تقع تلك المنطقة الحيوية بالنسبة للوجود الصليبي في يد عدوه، فتصبح مملكته أدنى إلى شقي الرحى.

وأسرع عموري الأول على رأس قوة صليبية لنجدة هاتين القلعتين، فوصل إلى عسقلان، ومنها تحرك إلى غزة، فلم يسع صلاح الدين إلا أن ترك الداروم وسار إلى غزة للتصدي له، ونجح في فتح أسفل المدينة رغم المقاومة الشديدة التي أبدتها الحامية. غير أن القلعة كانت من المتانة مامنعه من اقتحامها، واضطر أخيراً إلى الانسحاب، والعودة إلى مصر ليستعد لجولة أخرى مع الصليبيين[3]. وتجلَّى ذلك

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠٦ ـ ١٠٧، ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤٨ ـ ٩٥٠.

(٣) المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٩٥٠ ـ ٩٥١.

بأوضح صورة عندما هاجم ميناء أيلة على خليج العقبة، براً وبحراً بعد أن نقل قطع الأسطول إلى الخليج وذلك في (شهر صفر عام ٥٦٦ هـ/ أواخر شهر أيلول عام ١١٧٠م) فسقطت المدينة في يده في (العشر الأول من شهر ربيع الآخر/ أواخر شهر كانون الأول) واقتيد أفراد حاميتها أسرى إلى القاهرة[١].

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه العمليات العسكرية في الجنوب، شهدت الجبهة الشمالية تطورات سياسية وعسكرية متوازية حتى ليمكن القول بأن صلاح الدين كان يسير في غزواته بأمر نور الدين محمود في تلك السنوات[٢].

إذ على الرغم من الهدنة المعقودة بين الجانبين الإسلامي والصليبي، فقد تذرَّع نور الدين محمود باستيلاء الصليبيين على مركبين إسلاميين كانا في طريقهما من مصر إلى بلاد الشام، وجنحا على شاطىء اللاذقية في إمارة أنطاكية، ليجدِّد هجماته على الأملاك الصليبية[٣] فأرسل قوة عسكرية في عام (٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م) لمهاجمة إمارة أنطاكية، في حين هاجم هو إمارة طرابلس، فحاصر حصن عرقة، وخرَّب ربضه، وأرسل فرقة من جيشه فتحت حصني العريمة وصافيتا[٤].

أدَّت هذه الأعمال العسكرية إلى مضايقة الصليبيين فعلاً، الذين أدركوا أنهم لم يستفيدوا شيئاً نتيجة الاستيلاء على المركبين سوى ضياع بعض قلاعهم، وأنه من الأفضل أن يُجيبوا نور الدين محمود إلى طلبه القاضي بتسليم مافي السفينتين من بضائع، ليتوقف عن مهاجمتهم، ويقبل تجديد الهدنة[٥]

الالتفات نحو الشمال

نور الدين محمود يتحالف مع الأمير الأرميني مليح

كان الضرر الذي أصاب أنطاكية، من جراء وقوع الهزات الأرضية الأخيرة

(١) العماد الأصفهاني: ص ١٠٨ ـ ١٠٩.
(٢) حبشي: ص ١٤١.
(٣) ابن الأثير: الباهر ص ١٥٤.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٥٤ ـ ١٥٥.
(٥) ابن الأثير: ص ١٥٥،

بليغاً. إذ بينما البطريرك الأرثوذكسي أثناسيوس ورجال الدين يقيمون القداس بكاتدرائية القديس بطرس، هوى البناء عليهم، فهلكوا جميعاً، فأسرع بوهيموند الثالث أمير أنطاكية، ورجال البلاط، إلى القُصَير[1] حيث كان يقيم منافسه البطريرك الكاثوليكي إيمري، ونصَّبوه بطريركاً على أنطاكية[2].

عُدَّ هذا التصرف صفعة مؤلمة للأمبراطور البيزنطي مانويل الذي لم يتمكَّن من التدخل، وقد غضب عندما سمع بهذه الأنباء، نظراً لتوتر الوضع في منطقة كيليكية على نحو يهدد سلطته فيها. ذلك أن ملك الأرمن ثوروس توفي في عام (٥٦٣ هـ/ ١١٦٨ م) وخلفه ابنه الصغير روبين على أن يتولى الوصاية عليه ابن أخته توماس، فغضب الأمير مليح أخو ثوروس، ونازع ابن أخيه على الحكم. والمعروف أن مليحاً كان متقلباً في سياسته وميوله؛ فقد انضم قبل ذلك إلى الداوية، ثم فرَّ إلى نور الدين محمود، وأعلن عن رغبته في الدخول في الإسلام، بعد قيام نزاع بينه وبينهم، ومحاولتهم اغتياله[3].

قَبِل نور الدين محمود إسلامه وأمده في (أواخر عام ٥٦٥ هـ/ أوائل عام ١١٧٠م) بقوة عسكرية، استطاع بواسطتها أن يُقصي ابن أخيه عن العرش[4].

إعادة إحياء التحالف الصليبي ـ البيزنطي

أخذ الصليبيون يشعرون يوماً بعد يوم بازدياد خطر المسلمين على ممتلكاتهم. ولم يقف عموري الأول موقف المتفرج وهو يرى تساقط حصون الصليبيين الواحد تلو الآخر بيد نور الدين محمود، فتطلّع مجدداً نحو الغرب للاستعانة بالبابوية ودول الغرب الأوروبي وحثَّهم على إرسال حملة صليبية إلى الشرق تعيد للصليبيين سيطرتهم التامة على بلاد الشام.

لكن عموري الأول نفسه كان ضعيف الأمل في وصول نجدة سريعة من الغرب الأوروبي، وعندئذٍ لم يجد أمامه سوى اللجوء إلى الأمبراطورية البيزنطية التي تمثل القوة الرئيسية الكبرى للنصارى في الشرق الأدنى، وكان قد أرجأ سفره إلى

---

(١) القُصَير: ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق. الحموي: جـ ٤ ص ٣٦٧.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٩. Michel le Syrien: III p 339

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٦٢.

(٤) المصدر نفسه: رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٩. Elisséeff: II p 656

القسطنطينية بسبب مهاجمة نور الدين محمود الطرف الجنوبي لمملكته.

وبعد انحسار الخطر النوري غادر عكا إلى القسطنطينية في (الأول من شهر رجب عام ٥٦٦ هـ/ ١٠ آذار عام ١١٧١ م)، مع طائفة من أمرائه حيث استقبله الأمبراطور مانويل استقبالاً حافلاً، ومرحِّباً بتلك الفرصة التي جعلت ملك بيت المقدس نفسه يزوره في عاصمته مما أظهره في صورة التابع للأمبراطور البيزنطي[١].

وتناقش الجانبان في أوضاع بلاد الشام، وعرض عموري الأول الحالة السيئة التي بات عليها الصليبيون والأخطار التي تهدِّدهم، وطلب مساعدة الأمبراطور. واتفقا أخيراً على شروط معينة لم تحددها المصادر، وتَّم التوقيع على المعاهدة[٢].

والراجح أن الملك عموري الأول اعترف، بصورة غامضة، بتبعيته للأمبراطور البيزنطي وبسيادته على النصارى الوطنيين، بعد أن وجد أنها الحل الوحيد للحصول على مطلبه وإنقاذ الصليبيين في بلاد الشام، وأن مانويل وعد ببذل مساعدة بحرية ومالية متى تقرَّر وضع خطة واضحة لتوجيه حملة أخرى إلى مصر، وأنه لا بد من اتخاذ إجراء مشترك إزاء الأمير الأرميني مليح.

ومهما تكن شروط المعاهدة، فإن الصليبيين أعربوا عن ارتياحهم لما قاموا به من إنجاز مهم بالنسبة لعلاقاتهم بكل من مانويل ونور الدين محمود ووجدوا في المعاهدة ضماناً للحصول على مساعدة البيزنطيين لهم ضد نور الدين محمود، وتابعه صلاح الدين، وبعد الانتهاء من الزيارة أبحر عموري الأول وحاشيته في (الثامن من شهر شوال/ الخامس عشر من شهر حزيران) عائدين إلى بلادهم[٣].

سياسة صلاح الدين العامة في مصر

التمهيد للتغيير المذهبي

عندما استقر صلاح الدين في منصب الوزارة في مصر شرع في اتخاذ موقف

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٥٣ ـ ٩٥٧، يصف هذا المؤرخ تفاصيل الزيارة وحفاوة الاستقبالات من جانب الأمبرطور البيزنطي. Grousset: II p 572

(٢) المصدر نفسه ص ٩٥٨.

(٣) المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٩٥٨ ـ ٩٥٩.

استقلالي عن نور الدين محمود، والواضح أنه كان يُعِدُّ نفسه لإحداث تغيير جذري وشامل داخل مصر في كافة مجالات الحياة.

كانت مهمته هي التصدِّي للمشكلات التي أثارها مركزه في مصر. فالتناقض الظاهر من وجود وزير سني لدى خليفة فاطمي لم يكن بالوضع الجديد، لأنه طيلة قرن تقريباً كان هناك وزراء سنيون على مراحل متقطعة في مصر، لكن حركة الجهاد الإسلامي التي قادها نور الدين محمود تحت راية دولة الخلافة العباسية، بالإضافة إلى قيام وحدة فعَّالة بين بلاد الشام ومصر، تقف في وجه الصليبيين، حتَّمت على نور الدين محمود، وبالتالي صلاح الدين، الالتزام في إعادة مصر إلى حظيرة الولاء للعباسيين[١]، لكن الضرورة دعته إلى تمهيد السبيل أمام التغيير، رغم إلحاح نور الدين محمود وعتاب الخليفة العباسي، لأنه أدرك أن التغيير السريع لا بد أن يولد ردَّة فعل فورية معاكسة لا يمكن تدارك نتائجها.

وضمنت الخطوات التمهيدية والعسكرية والاقتصادية والدينية التي نفَّذها، إحكام قبضته على البلاد، بحيث إذا أقدم على إسقاط الخلافة الفاطمية «فلا ينتطح عنزان».

فمن حيث التدابير العسكرية؛ فقد كمن الخطر الرئيسي في الجيش المصري المؤلف من فرق عديدة من الفرسان البيض والمشاة من السودان. فبدأ صلاح الدين على الفور ببناء جيشه الخاص على حساب الضباط المصريين، فكانت الفرقة الصلاحية، وانضمت إليه الفرقة الأسدية التي أنشأها أسد الدين شيركوه، كما استعان بالمماليك الأتراك، لأنه وجد نفسه بأمس الحاجة إلى من يشد أزره، وينصره على أعدائه عندما تشتد الأزمة. وعندما اندلعت ثورة السودان كان قد أصبح لديه من القوات النظامية ما يكفي للقضاء على القسم الأكبر منهم، وطرْدهم خارج القاهرة إلى الصعيد[٢]. إلى جانب هذه القوات النظامية، استفاد صلاح الدين من نظام الإقطاع العسكري الذي أخذه عن الزنكيين، وطبَّقه في مصر، فكانت البلاد توزع إقطاعات بين السلطان وجنده. ومن خصائص هذا الإقطاع الأيوبي أنه يجيز أن ينتقل الإقطاع من مقطع إلى آخر دون الأخذ بالمبدأ الوراثي، حيث كان لزاماً على المقطَع عدة

---

(١) سيد: ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩.

(٢) Ehrenkreutz: pp 73 - 74.

التزامات مقابل الموارد التي يحصِّلها من الإقطاع ومعظمها التزامات عسكرية، مثل تقديم الجند وقت الحرب، والإنفاق عليهم[١].

ومن حيث التدابير الاقتصادية، فقد استقدم صلاح الدين والده وإخوته للتعويض عن الفراغ الذي تركته تنحية الأشخاص الموالين للدولة الفاطمية. فعيَّن والده على الخزانة مما أتاح له السيطرة على موارد الدولة[٢].

والتفت صلاح الدين إلى إصلاح النظام الاقتصادي ليكسب محبة المصريين، فأبطل المكوس الديوانية التي كانت الدولة تجبي منها سنوياً مائتي ألف دينار، فمال المصريون إليه، وأطلق حرية التجارة[٣].

ومن حيث التدابير الدينية فقد نفَّذ صلاح الدين منذ (أواخر عام ٥٦٥ هـ/ صيف عام ١١٧٠ م) عدة إجراءات أدَّت إلى إضعاف المؤسسة الفاطمية، والمذهب الشيعي الإسماعيلي من جهة وتقوية المذهب السني في مصر من جهة أخرى.

فأبطل في (العاشر من شهر ذي الحجة / أواخر شهر آب) من الأذان «حي على خير العمل»، وأمر بأن يُذكر في خطبة الجمعة أسماء الخلفاء الراشدين. ونزع المناطق الفضية، التي كانت بمحاريب مساجد القاهرة والتي تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين، وأثار قضية التشكيك بنسب الفاطميين[٤].

وأمر في (شهر محرم عام ٥٦٦ هـ/ شهر أيلول عام ١١٧٠ م) بهدم دار المعونة[٥] المجاورة للجامع العتيق في مصر، وأعاد بناءها كمدرسة خصَّصها للشافعية، كما بنى دار الغزل المجاورة لباب الجامع العتيق وخصَّصها للمالكية، وقد عُرفت بالمدرسة القمحية[٦]، وحوَّل دار سعيد السعداء الواقعة شمالي القصر الفاطمي الشرقي، إلى خانقاه للصوفية، وهي أول خانقاه تنشأ في مصر، وأبطل مجالس الدعوة من القصر والجامع الأزهر[٧].

---

(١) خليل فؤاد: الإقطاع الشرقي ص ١٧٤ ـ ١٧٦.

(٢) ابن شداد: ص٨٥. المقريزي: خطط ج٣ ص ٤٠٥. Ehrenkreutz: p p 73 - 75.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٠٢. أبو شامة: جـ ١ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣.

(٤) أبو شامة: المصدر نفسه ص ٤٨٨. المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٤٣، ٤٥.

(٥) كان في مصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يُسجن فيها من يراد سجنه.

(٦) البنداري: ص ١٠٧.

(٧) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٤١٥ ـ ٤١٦. إتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٣٢٠.

استتبع التغيير المذهبي، تغيير في رجال القضاء؛ فعزل جميع القضاة الشيعة الإسماعيليين، وفوَّض قضاء مصر إلى القاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك ابن عيسى بن درباس الماراني الشافعي، فاشتهر منذ ذلك الوقت، المذهب الشافعي في مصر[1]. ومن أشهر مظاهر تحول مصر إلى المذهب السني، نشر المذهب الأشعري، فقد كان صلاح الدين يتعصب لهذا المذهب متأثراً بالسلاجقة.

وبهذه الإجراءات ذات الطابع الديني، ضمن صلاح الدين سيطرته على النواحي الدينية، كما ضمن مراسلات الدولة بعد أن عيَّن القاضي الفاضل رئيساً لديوان الإنشاء[2].

وهكذا توضحت أهداف صلاح الدين مع نهاية عام (٥٦٦ هـ/ ١١٧١ م). فهو بحكم عقيدته السنية التي كان يعتنقها، أو بدافع حبه في السيطرة والاستغلال، كان يرغب في إسقاط الدولة الفاطمية في مصر، ليكوِّن لنفسه ولأسرته دولة فيها. ومن خلال هذه المنطلقات تحددت علاقته بنور الدين محمود.

إقامة الخطبة للعباسيين

الحقيقة أن صلاح الدين الذي توضَّحت نيته في إحداث تغيير مذهبي في مصر راح يتمهَّل في التنفيذ لسببين:

الأول: أن التغيير السريع قد يؤثر على مصالحه ومصالح أسرته في الوقت الذي حرص فيه على تجنب أراقه الدماء. وكان الخليفة الفاطمي العاضد لا يمتلك من القوة ما يمكِّنه من التخلص من الوضع الجديد.

الثاني: أنه خشي الانصياع لطلب نور الدين محمود في قطع الخطبة للفاطميين فوراً، لأن ذلك قد يدفعه إلى انتزاع مصر منه، فاعتذر له بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم عن الاستجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين[3]. إذ أنَّ المؤثرات الشيعية كانت قوية في مصر في ظل الحكم الفاطمي، الذي استمر قرنين من الزمان، يضاف إلى ذلك أنه على الرغم من أن صلاح الدين عدَّ نور الدين

---

(١) البنداري: ص ١٠٧ ـ ١٠٨، ابن الجوزي المعروف بالسبط: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٢) القلقشندي: جـ ١ ص ١٣٠ ـ ١٣١.

(٣) ابن الأثير: الباهر: ص ١٥٦.

محمود سيداً له، فإنه استمدَّ سلطته من الخليفة الفاطمي.

والواقع أن نور الدين محمود الذي رأى في صلاح الدين كنائب عنه في مصر، كان متلهفاً إلى تحقيق وحدة المذهب الإسلامي بين بلاد الشام ومصر، بالإضافة إلى تطلعاته السياسية بضمٍّ مصر إلى بلاد الشام لتحقيق الوحدة الإسلامية، والاستفادة من إمكانات مصر الاقتصادية والبشرية في جهاده ضد الصليبيين، وأنه متى أراد سحب صلاح الدين لا يمتنع عليه.

إنطلاقاً من اختلاف النظرة السياسية بين الرجلين، رفض نور الدين محمود حجة صلاح الدين، وأرسل إليه إنذاراً نهائياً في (شهر ذي الحجة عام ٥٦٦ هـ/ شهر آب عام ١١٧١ م) يأمره بإسقاط الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد، وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله وألزمه إلزاماً لا فسحة له في مخالفته[١].

وهكذا وجد صلاح الدين نفسه بين أمرين:

الأول: الوقوع في أزمة مع نور الدين محمود.

الثاني: التعرض لخطر ثورة الشيعة في مصر.

ويبدو أنه وجد الأمر الثاني أخف وطأة، لأن غالبية السكان في مصر لم تعتنق المذهب الشيعي، باستثناء فئة قليلة العدد نسبياً ممثلة في الأقليات الأجنبية التي دخلت مع الفاطميين، أو استعانوا بهم طوال مدة حكمهم من أجل تحقيق سياستهم، وما زالت نسبة كبيرة من أهل مصر ترفض التشيع، في حين أن الخلافة الفاطمية قد ضعفت ولم يعد لديها القدرة على التحرك بعد القضاء على الجند السودانيين[٢].

وجاءت الخطوة الحاسمة في (السابع من شهر محرم عام ٥٦٧هـ/ العاشر من شهر أيلول عام ١١٧١ م)، عندما قطع صلاح الدين الخطبة بمصر للخليفة العاضد الفاطمي وأقامها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وأعاد السواد شعار العباسيين[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١١١.

(٢) عاشور: جـ ٢ ص ٧٢٣.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١١١.

وقد تمَّ هذا التحول في هدوء «دون أن ينتطح فيها عنزان»[١]. وبذلك أعيدت الوحدة المذهبية في العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، والوحدة السياسية بين مصر وبلاد الشام، وتسلم صلاح الدين القصر الفاطمي، وقبض على أولاد العاضد، وحدَّد إقامتهم في القصر بعدما أجرى عليهم ما يموِّنهم[٢]. وكان العاضد أثناء ذلك مريضاً، فلم يشأ صلاح الدين إزعاجه، فأمر رجاله بألا ينهوا إليه بالأنباء وقال: «فإن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بهذه الحادثة قبل موته»[٣].

نهاية دولة الخلافة الفاطمية

ولم تكد تمضي أيام على قطع الخطبة للفاطميين حتى توفي الخليفة العاضد (ليلة العاشر من محرم/ الثالث عشر من أيلول)، فأمر صلاح الدين بإرسال الكتب إلى البلاد تعلن عن وفاته، وإقامة الخطبة رسمياً للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله[٤]. وبذلك وضع صلاح الدين نهاية للدولة الفاطمية في مصر لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخها، عادت فيها هذه البلاد إلى العالم الإسلامي السني، ولتؤدي تحت قيادة الأيوبيين دوراً هاماً في توحيد الجبهة الإسلامية، ومواجهة الخطر الصليبي، وانتهى دور الدولة الفاطمية السياسي في التاريخ.

علاقة صلاح الدين بنور الدين محمود بعد إسقاط الخلافة الفاطمية

كانت علاقة صلاح الدين بنور الدين محمود، بعد إسقاط الخلافة الفاطمية، حسنة إجمالاً، وبخاصة أن الأول قام بتنفيذ الأمر الصادر إليه من الثاني بوجوب الدعوة للخلافة العباسية، بوصفه نائباً عنه وقائداً لقواته في مصر، ومع ذلك فلم تلبث هذه العلاقة الطيبة أن أخذت في التوتر تدريجياً، وتحوَّلت إلى جفاء وتباعد، بسبب تحديد العلاقة بينهما والسياسة الواجب اتباعها، وقد أشارت المصادر إلى وجود وحشة بينهما[٥].

والراجح أن هذا التباعد بين الرجلين بدأ مبكراً؛ ذلك أن تسليم نور الدين

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١١١.
(٢) المصدر نفسه: ص ١١٢.
(٣) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٥٦.
(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١١١. ابن شداد: ص ٨٦، البنداري: ص ١١١.
(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ١١٢.

محمود قيادة الحملات التي أرسلها إلى مصر، إلى أسد الدين شيركوه والذي صحبه فيها ابن أخيه صلاح الدين، كان يحمل في طياته قدراً من المخاطر السياسية التي ما كان ليقدم عليها لولا ثقته التامة بهما من ناحية، وإيثاره للمصلحة الإسلامية العليا من ناحية أخرى. وقد تمكَّن الرجلان من إضفاء دور واسع على مهماتهما في مصر، حيث استطاعا أن يبرزا كبطلي جهاد ضد الصليبيين، وركني سندٍ لأهل السنة، وأملا بالقضاء على الفوضى المستشرية في أوساط الدولة الفاطمية.

ويبدو أن طموحات قد نشأت لديهما في حكم مصر بعد أن بدا لهما أنهما سيلقيان من تأييد الناس ما يكفي لتثبيت دعائم ذلك الحكم، ولم يُخف شيركوه هذه الغاية في نفسه، بل ظل يتحدث عنها حتى استاء نور الدين محمود، وانتابه القلق من هذا الطموح، وبخاصة عندما علم بتولي أسد الدين شيركوه منصب الوزارة في مصر، ومن بعده صلاح الدين[1]. واعتقد صلاح الدين أن التأييد الذي حظي به من جانب المصريين يعود إلى ما قام به من جهاد على أرض مصر، وإلى ما لمصر من شخصية مستقلة، ولعله اكتشف أن في استطاعته أن يجسِّد استقلالية مصر في شخصيته كحاكم لها، وربما أدرك أيضاً أن مصر المستعدة لقبوله حاكماً عليها في إطار من استقلالها، قد لا ترضى بأن تكون مجرد ولاية لنور الدين محمود. ولكن أياً كانت وجهات نظره، فإن نور الدين محمود كان يرى في توحيد مصر وبلاد الشام اكتمالاً للاستعداد للمعركة الفاصلة مع مملكة بيت المقدس الصليبية[2].

وبسقوط الخلافة الفاطمية، ووفاة الخليفة العاضد «صفا الجو لصلاح الدين» وصار يخطب باسمه على منابر مصر بعد الخليفة العباسي ونور الدين محمود[3] ويبدو أنه حرص في ذلك الدور على توطيد نفوذه في البلاد، فزار الإسكندرية، وفكَّر في ضمِّ برقة طمعاً في ثروتها[4] وبات لزاماً عليه أن يحدِّد موقفه علناً من نور الدين محمود باختيار أحد طريقين:

الأول: إما أن يظل على ولائه له بوصفه نائباً عنه في مصر، وفي هذه الحالة عليه أن يتقبَّل قرار نقله في أية لحظة.

---

(١) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٣٧، ٥٢٥.

(٢) دجاني: ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٣) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٥٧ م.

(٤) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٤٨.

الثاني: وإما أن يستقل عن نور الدين محمود، وينبذ طاعته، ويجعل من نفسه حاكماً على مصر، مما يعرضه لهجوم جيوشه[1]. والجدير بالذكر أن استدعاءه لأبيه وأسرته إلى مصر في عام (٥٦٨ هـ/ ١١٧٣ م) كان بمثابة قطع كل صلة بين الرجلين.

أما نور الدين محمود فعلى الرغم من قلقه واعتقاده بأن ما فعله صلاح الدين يُعدُّ تمرداً عليه إلا أنه لم يستطع أن يتدخل جدِّياً في شؤونه ويحدَّ من أطماعه، يضاف إلى ذلك أن موقفه كان حرجاً أمام خصومه من السلاجقة والصليبيين وأمراء الجزيرة، وكان يعتمد على مساعدات صلاح الدين له ضد أعدائه. لذلك اضطر أن يتجنب قيام عداء بينهما، إلا أنه اتخذ عدة إجراءات جانبية ليضعف موقفه منها:

- عندما امتلك صلاح الدين مصر، انتزع نور الدين محمود حمص والرحبة من ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه، وفرَّق عماله، وأعطاه تل باشر ثم أخذها منه[2].

- أمر الأمراء النوريين الذين رافقوا الحملة النورية إلى مصر أمثال: قطب الدين ينال وناصح الدين خمار تيجين وابن ياروقي وعز الدين جورديك، أن يغادروا مصر فوراً إلى بلاد الشام. وقد سبَّب هذا الإجراء لصلاح الدين نقصاً في الأمراء القادة[3].

- على الرغم من أن صلاح الدين خطب لنور الدين محمود بعد الخليفة في مساجد مصر، إلا أن هذا الأخير رفض الاعتراف به كوزير في مصر، وكان يدعوه في المراسلات الرسمية باسم الأمير الأسفهسلار[4]، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه[5].

والراجح أن الامتداد المتواصل لنفوذ صلاح الدين وقدرته العسكرية التي كانت عليها عام (٥٦٦ هـ/ ١١٧٠م) تضاهي القوات الموجودة بتصرف نور الدين

---

(١) عاشور: جـ ٢ ص ٧٢٦. Grousset: II P. 590

(٢) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٤٠.

(٣) المصدر نفسه: جـ ١ ص ٤٤٠ ـ ٤٤١، Ehrenkreutz: p 72

(٤) الأسفهسلار، معناها مقدم العسكر، وهي مركبة من لفظين: أولهما فارسي وهو أسفه ومعناه المقدم، والثاني تركي، ومعناه العسكر.

(٥) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٠٢.

محمود ربما جعلت هذا الأخير أشد قلقاً، لأن الأول أضحى في موقع قوة لا يمكن زحزحته إلا بالحرب، والحرب نفسها غير مضمونة النتائج لأن أي جيش يأتي من بلاد الشام إلى مصر سوف يواجه الآن قوة مصرية تفوق كثيراً القوة المتاحة لوزير مصر الأسبق شاور. وقد تهيب كل من صلاح الدين ونور الدين محمود وقوع الحرب بينهما.

وما كان لهذا الاختلاف في وجهات النظر أن يتوقف بسهولة، وربما ظنَّ صلاح الدين أن في إمكانه أن يسترضي نور الدين محمود ببعض المبادرات الرمزية، فقد وافق مثلاً على استقبال مندوب من قِبَله مكلَّف في تدقيق حساباته، ولم ير بأساً في هذا التدقيق، إذا ما عدَّه نور الدين محمود بمثابة إقرار واعتراف بسيادته. وفي مرة ثانية أرسل صلاح الدين بعض الغنائم التي حصل عليها إثر استيلائه على قصور الفاطميين[1].

واختلف الرجلان في تقييم الوضع السياسي الذي يخدم القضية الإسلامية ضد الصليبيين. فقد اعتقد نور الدين محمود أن بلاد الشام هي الأرض الرئيسية للمعركة ضد الصليبيين، وتطلع إلى مصر كمصدر للواردات المادية والطاقة البشرية التي تسد نفقات الجهاد من جهة، وخطوة تمهيدية للقضاء على مملكة بيت المقدس الصليبية من جهة ثانية، بدليل أنه عندما أرسل إليه صلاح الدين بعض الذخائر والأموال والهدايا التي حازها بعد وضع يده على قصور الفاطميين قال بعد أن شكره: «ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسد به خلَّة الإقلال، فهو يعلم أنا ماأنفقنا الذهب في ملك مصر، وبنا إلى الذهب فقر، وما لهذا المحمول في مقابلة ماجُدْنا به قدر... ولكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السواد، ووفور الأعداد من الأجناد. وقد عمَّ بالفرنج بلاء البلاد، فيجب أن يقع التعاقد على الإمداد بالمعونة، والمعونة بالإمداد»[2] وفي هذا القول تلخيص رائع لخطته، وأمله، وحقه، والمرارة، والخيبة التي كان يحس بها.

أما صلاح الدين فقد كان مقتنعاً نتيجة للصراع بين القوى الثلاث الإسلامية، والصليبية، والبيزنطية في الشرق الأدنى حول مصر، بأن هذا البلد يشكل في الوقت الراهن نقطة الخطر، كما كان أكثر وعياً من نور الدين محمود للأخطار الناجمة عن

---

(١) دجاني: ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٢) البنداري: ص ١٢٣ ـ ١٢٤، أبو شامة جـ ١ ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

عداء الفاطميين واستعداد قواتهم السابقة للانضمام إلى الصليبيين[١].

ويتجلَّى مدى جدِّية هذا الخطر بنظره في حقيقة كون الدفاع عن مصر ضد هجوم مفاجىء، قد بقي واحداً من اهتماماته الدائمة حتى آخر حياته[٢]. لذلك كان بناء الجيش القوي للاحتفاظ بمصر واجبه الأول، بالإضافة إلى ترتيب أوضاع هذا البلد بشكل يخدم هذا الهدف.

نتائج العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين محمود

ترتَّب على هذا الاختلاف السياسي بين صلاح الدين ونور الدين محمود نتيجتان:

الأولى: كانت السنوات الأربع التي انقضت بين ضمِّ مصر إلى بلاد الشام ونهاية حكم نور الدين محمود، هي الفرصة التي كان ينبغي على المسلمين توجيه الضربة القاضية لمملكة بيت المقدس، بعد أن دبَّ الضعف في أوصالها، وتراجعت قوتها العسكرية، وقنعت بحماية الأسبتارية، وكان الغرب الأوروبي منهمكاً في مشاكله الداخلية التي حالت دون الالتفات إلى الشرق، كما انهمك الأمبراطور البيزنطي بالحرب مع سلاجقة الروم والأرمن، لكن ضاعت هذه الفرصة بسبب اختلاف نظرة كل من صلاح الدين ونور الدين محمود إلى الواقع السياسي.

الثانية: تراخي صلاح الدين في التعاطي الجدِّي مع الأحداث في بلاد الشام، مما أغضب نور الدين محمود، وكانت تصرفات أحد الرجلين تُفسَّر على أنها موجهة ضد الرجل الآخر. ففي (شهر محرم عام ٥٦٧ هـ/ أواخر شهر أيلول عام ١١٧١ م) خرج صلاح الدين من مصر بناء على أوامر صدرت إليه من نور الدين محمود لمهاجمة حصن الشوبك في وادي عربة جنوبي البحر الميت. وضيَّق صلاح الدين الحصار على الحصن، ولم يغادر عموري الأول بيت المقدس لنجدته إلا متأخراً. ونتيجة لضعف الحامية التي لم تستطع الثبات في المقاومة، طلبت منحها مهلة عشرة أيام للتسليم، على أن نور الدين محمود ظهر فجأة على الطريق المؤدي إلى الكرك، بينما كانت الحامية في الشوبك تستعد للتسليم. ولما علم صلاح الدين بمسير نور الدين محمود إليه

(١) جب، السير هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص ١٢١.

(٢) المرجع نفسه.

لمساعدته، رأى أنه من المخاطرة أن يبقى أمام الشوبك حتى وصوله إليه. ويبدو أن أعوانه نصحوه بعدم الاجتماع به، إذ ربما قبض عليه وعزله من منصبه. وتناهت في الوقت نفسه إلى أسماع صلاح الدين أنباء قيام بقايا الجند السودانيين بثورة في مصر، فخشي العاقبة، وضياع الأمور من يده، ففكَّ الحصار عن الشوبك وانسحب عائداً إلى مصر بعد أكثر من شهر من خروجه منها، مفضلاً تفويت فرصة العمل المشترك معه، وحتى يبرر انسحابه كتب إليه يعتذر باختلال الأوضاع في مصر، واتجاه بعض الشيعة إلى القيام بالثورة على حكمه، واضطراره إلى مساعدة أخيه الذي يحارب بقايا أتباع الفاطميين في الصعيد[1].

استاء نور الدين محمود من مسلك تابعه ورأى أنه غير مبرر ولم يقبل عذره، بل إنه بدأ يتجهز للزحف إلى مصر لتأديبه. وجزع صلاح الدين عندما سمع بذلك، فأسرع إلى عقد اجتماع مع أهل بيته وأمرائه لتدارس الموقف واتخاذ التدابير اللازمة. فأشار شبَّان الأسرة المتحمسون، بإعلان التحدي لنور الدين محمود، لكن نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، رفض هذا التوجه، وأنكر على ابنه والحاضرين ممن هم على مثل رأيه، تفكيرهم، وأفصح عن إخلاصه لسيده. ولما خلا بابنه أنَّبه على الإفصاح عن طموحه، فأذعن صلاح الدين لنصيحة والده، وأرسل أعذاراً إلى نور الدين محمود وهدية ثمينة من الحيوانات النادرة والجواهر والأقمشة والمصنوعات والعطر، فقبلها إلى حين[2].

ويبالغ بن الأثير، فيذكر أن صلاح الدين حرص في ذلك الدور على عدم التوسع في حرب الصليبيين ليظلوا ستاراً يفصل بينه وبين نور الدين محمود، وكان يعتقد أنه متى زال الصليبيون من طريقه أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه، ولا يؤثر استئصالهم[3].

ويبدو أن نور الدين محمود شعر الآن بأن الوقت يجري لغير مصلحته، وبأن عليه أن يضرب مملكة بيت المقدس، وهي الضربة التي أمضى حياته في الإعداد لها، وبأن الوقت ملائم لنجاح هذه الضربة، وبأنه إذا نجح فيها فسيستعيد كل ما خسر من المكانة والمواقع، لكنه كان يعلم أيضاً بأن النصر لن يتحقق إلا بمشاركة مصر بجيشها

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٢٨. الباهر: ص ١٥٨.
(٢) الباهر: المصدر نفسه: ص ١٥٨ ـ ١٥٩.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٦١.

وماها[1]، فكتب إلى صلاح الدين يدعوه للقيام بهجوم مشترك على مملكة بيت المقدس الصليبية، واتفقا على أن يتلاقى الجيشان الإسلاميان عند حصن الكرك. وصل نور الدين محمود إلى الحصن في (شهر شوال عام ٥٦٨ هـ/ شهر أيار عام ١١٧٣ م)، بينما خرج صلاح الدين من مصر بناء على نصيحة والده، ووصل إلى الرقيم على مسافة يوم واحد من جيش نور الدين محمود، إلا أن مقامه داخل الأراضي الصليبية، لم يستمر وقتاً طويلاً، فقد انسحب من المنطقة وعاد إلى مصر متذرعاً بمرض والده، مما أدى إلى ازدياد مخاوف نور الدين محمود وقال للرسول الذي أوفده صلاح الدين إليه ليبلغه قراره بالإنسحاب: «حفظ مصر أهم عندنا من غيره»، وبذلك ضاعت، إلى الأبد، فرصة نور الدين محمود في الانتصار على المملكة الصليبية، واحتفظ صلاح الدين بهذه الفرصة لنفسه.

والواقع أن هذه الحجة كانت صحيحة، وصدق صلاح الدين في قوله. فقد اشتدت العلة على والده نتيجة سقوطه عن فرسه[2]، فخشي إن توفي أن يتزعزع مركزه في مصر. وتوفي نجم الدين أيوب في (شهر ذي الحجة عام ٥٦٨ هـ/ شهر آب عام ١١٧٣ م) قبل عودة صلاح الدين إلى القاهرة[3].

ومهما يكن من أمر العلاقة بين الرجلين فإن غضب نور الدين محمود على صلاح الدين قد تجاوز الحد، وصمَّم نهائياً على الزحف نحو مصر للقضاء عليه. وعندما علم بوفاة نجم الدين أيوب، أشهر أتباعه في القاهرة إخلاصاً له، أقسم بأنه سوف يغزو مصر في الربيع القادم، لكن نور الدين محمود لم يلبث أن توفي قبل أن يحقق هدفه[4]، وبذلك ترك الساحة السياسية خالية أمام صلاح الدين ليتبوأ زعامة المسلمين السياسية في مصر وبلاد الشام وأعالي العراق.

---

(١) دجاني: ص ١٩٢.
(٢) ابن شداد: ص ٨٧.
(٣) ابن شداد: ص ٧٨. البنداري: ص ١٢٩ ـ ١٣٠.
(٤) ابن الأثير: الباهر ص ١٩١.

الالتفات مجدداً نحو الشمال

نشوب الاضطرابات في كيليكية

نشبت الحرب من جديد في عام (٥٦٨ هـ/ ١١٧٣ م) في الشمال. ذلك أن الأمير الأرميني مليح استرسل فغزا أراضي الدولة البيزنطية، في كيليكية، وانتزع من الحاميات البيزنطية المصيصة وأذنة وطرسوس، ثم هاجم الداوية في بغراس، وهدَّد الصليبيين في أنطاكية[١].

لم يكن باستطاعة الصليبيين أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام تهديدات مليح، فاستنجد بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية بالملك عموري الأول، الذي شعر من الاطمئنان ما يكفي لأن يحمله على السير نحو الشمال إلى كيليكية لإنزال العقاب بمليح لاعتدائه على ستيفن شامبين، وللوفاء بما بذله من وعد للأمبراطور البيزنطي، وأعاد فيما يبدو الحكم البيزنطي، ولكن لقليل من الزمن، كما منع الزعيم الأرميني من المضي في التوسع[٢].

اغتنم نور الدين محمود فرصة ابتعاد عموري الأول عن مملكته بصحبة مايلز بلانسي صاحب الكرك، فأغار على إقليم الأردن، ودعا صلاح الدين إلى النهوض لمساعدته. وفعلاً قام صلاح الدين بمحاصرة حصن الكرك، ولما علم باقتراب نور الدين محمود، فكَّ الحصار عن الحصن وعاد أدراجه إلى القاهرة. وقد تحدثنا من قبل عن ظروف هذه المرحلة.

وعسكر نور الدين محمود أمام الحصن، ولم تستطع ستيفاني ميللي، زوجة مايلز، الدفاع عنه، فاستنجدت ببوهيموند الثاني صاحب تبنين، عندئذٍ لم يسع نور الدين محمود إلا الانسحاب[٣].

محالة توسيع نطاق الوحدة الإسلامية

التفت نور الدين محمود في هذا الوقت إلى العمل على إتمام الوحدة الإسلامية وتوسيع نطاقها، ولم يشأ أن يُضعف جبهة قلج أرسلان الثاني، سلطان سلاجقة

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٦٢ ـ ٩٦٣.
(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٩، ٦٣٩ ـ ٦٤٠.
(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٦٣ ـ ٩٦٥. رنسيمان: المرجع نفسه.

الروم، وهي جبهة إسلامية بالطبع، وكان يأمل بمساعدة هذا الأخير في شن هجوم على أنطاكية، ومضايقة البيزنطيين، وبذلك تجد الدولة البيزنطية نفسها بين عدوين يتاخمانها، ويغيران عليها، وهما قلج أرسلان الثاني والأمير مليح صاحب كيليكية وحليف نور الدين محمود. فدعاه إلى الانضمام إلى الحلف لجهاد الصليبيين والبيزنطيين، ولكن قلج أرسلان الثاني كان مرتبطاً بمعاهدة مع الدولة البيزنطية، فخشي أن يعرضه التحالف مع نور الدين محمود لانتقام الأمبراطور، ولذلك أعرض عن طلبه، وأظهر معارضة لسياسته، ثم التقى في عام (٥٦٨ هـ/ ١١٧٢ م) بالأمبراطور البيزنطي، وأكَّد له حرصه على ما بينهما من الموادعة[١].

تجاه هذا الرفض السلجوقي لم يجد نور الدين محمود مخرجاً لإخضاع قلج أرسلان الثاني سوى زيادة الضغط عليه بمهاجمة ممتلكاته. وجاء إلحاح حليفيه مليح الأرميني وذي النون الدانشمندي الذي هاجم قلج أرسلان الثاني بلاده؛ لمهاجمة أراضيه، ما دفعه إلى ترؤوسهم، وراح يهاجم الممتلكات السلجوقية، فانتزع بهسنا ومرعش وما بينهما من الحصون التابعة لقلج أرسلان الثاني، ثم أرسل قوة عسكرية إلى سيواس عاصمة آل دانشمند، فدخلتها، وثبَّتت حكم ذي النون فيها، ولم يجرؤ قلج أرسلان الثاني على التصدي لها[٢].

وأخيراً التقى الجانبان في قيصرية. فعسكر الحلفاء على مشارف نهر بيراموس، بينما عسكر قلج أرسلان الثاني على الضفة الأخرى للنهر، وظلا متواجهين مدة ستة أشهر دون قتال[٣]. ولما رأى قلج أرسلان الثاني مدى قوة أعدائه، فكَّر بإبرام الصلح معهم إذ رأى فيه المخرج الوحيد من المأزق، فراسل نور الدين محمود من أجل هذه الغاية، وتوقفت الأعمال العسكرية خلال ذلك[٤].

---

(١) كان قلج أرسلان الثاني مرتبطاً بمعاهدة عدم اعتداء، وتعاون مع مانويل كومنين، وقد أبرمت هذه المعاهدة في عام (٥٥٨ هـ/ ١١٦٢ م) على أثر الزيارة الشهيرة التي قام بها السلطان السلجوقي إلى العاصمة البيزنطية. راجع فيما يتعلق بهذه الزيارة، والنتائج التي ترتبت عليها: Michel Le Syrien: III p 319, Choniates, Nicetas: Historia pp 156, 185. Kinnamos, John, Epitome Historiarum: pp 204 - 205, 207. ابن العبري: ص ١٧٥.

(٢) ابن الأثير الباهر ص ١٦٠.

(٣) Chalandon: Les Comnènes Jean II et Manuel p 497.

(٤) ابن الأثير: الباهر ص ١٦٠.

أما الذي دفع نور الدين محمود، إلى قبول التفاوض، وهو الأقوى على الساحة، فهو اشتداد الضغط الصليبي على ممتلكاته في بلاد الشام حيث نزل الصليبيون آنذاك في مدينة حمص[1]، بالإضافة إلى تحقيق هدفه بضمِّ قلج أرسلان إلى الجبهة الإسلامية المتحدة. وقد أورد ابن الأثير جانباً من الاتفاق، والمطالب التي أصرَّ نور الدين محمود على تنفيذها وهي على الشكل التالي: «إنني أريد منك أموراً وقواعد، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء:

الأول: أنك تجدِّد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي إقرارك على بلاد الإسلام فإني لا أعتقدك مؤمناً[2].

الثاني: إذا طلبت عسكرك إلى الغزاة تسيِّره، فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الإسلام، وتركت الروم وجهادهم، وهادنتهم، فإما أن تنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج، وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم، وتبذل الوسع في جهادهم.

الثالث: أن تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ابن أخي. وذكر أموراً غيرها».

فلما سمع قلج أرسلان مضمون الرسالة قال: «ما قصد نور الدين إلا الشناعة علي بالزندقة وقد أجبته إلى ما طلب. أنا أجدِّد إسلامي على يد رسوله»[3].

ونلاحظ مما ورد أعلاه بشأن بنود الاتفاق أن ابن الأثير اكتفى بذكر الأمور المتعلقة بجهاد النصارى، وتخص نور الدين محمود في الوقت نفسه، ولم يذكر الأمور الأخرى المتعلقة بأوضاع الأمراء المسلمين في آسيا الصغرى ومنطقة الفرات، وكيفية ترتيب شؤونهم، سوى إشارة عابرة وردت في سياق الرواية عندما ذكر أنه بعد إقرار الصلح «عاد نور الدين محمود وترك عسكره في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ذي النون الدانشمندي، فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين، فرحل العسكر عنها، وعاد قلج أرسلان وملكها»[4].

---

(١) ابن الأثير الباهر: ص ١٦٠. Chalandon: op. cit p 497

(٢) كان قلج أرسلان يُتَّهم باعتقاده مذهب الفلاسفة.

(٣) ابن الأثير الباهر: ص ١٦٠ ـ ١٦١.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٦١.

إلا أننا نستطيع استكمال صورة المفاوضات والمطالب مما أوردته المصادر النصرانية وهي على الشكل التالي، على قلج أرسلان أن:

- يُطلق سراح الأسرى الذين أسرهم أثناء محاولته اقتحام ملطية.
- يعيد المقاطعات الخاصة بكل من شاهنشاه وذي النون إليهما.
- يطلق سراح أولاد أخيه شاهنشاه الأربعة المعتقلين عنده.

قَبل قلج أرسلان الثاني تنفيذ البند الأول ورفض تنفيذ البندين الآخرين، عند ذلك شدَّد الحلفاء الضغط عليه، فهدَّد بقتل أولاد أخيه. وأخيراً تَمَّ الاتفاق على ما يلي:

- إعادة قيصرية إلى ذي النون وتثبيته في سيواس.
- تثبيت شاهنشاه في أنقره[1].

مؤامرة الحشيشية

ارتاح عموري الأول لارتداد نور الدين محمود عن حصن الكرك وتوجهه نحو الشمال بعيداً عن ممتلكاته، وتجدَّد الأمل لديه بالتخلص من الخطر المحدق به من جانب المسلمين عندما تناهى إلى مسامعه خبر وقوع الجفاء بينه وبين صلاح الدين، وأتيحت له فرصة الاتصال بفرقة الحشيشية الإسماعيلية في بلاد الشام، وقد جمعت الطرفان مصلحة مشتركة وهي العداء لنور الدين محمود.

كانت هذه الطائفة تمتلك عدة حصون هامة في بلاد الشام مثل القدموس والعليقة والكهف ومصياف[2] وغيرها. والواضح أن أفرادها ارتاعوا لزوال الدولة الفاطمية وانتصار المذهب السني في مصر، وشعروا بالخطر يتهددهم في بلاد الشام وبخاصة أن نور الدين محمود قيَّد توسعهم على الطرف الشرقي، غير أنه لم يستطع أن يقمعهم، وإذ عثر على خنجر ذات ليلة على وسادته، كان ذلك

---

(١) ابن العبري: ١٨٤.

(٢) مصياف: حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس. الحموي جـ ٥ ص ١٤٤.

نذيراً بألاَّ يتمادى في مناوأتهم[1].

واتصلت فرقة الحشيشية بعموري الأول للتنسيق معه على مواجهة نور الدين محمود، وأرسلت قيادتها في ألموت[2] ببلاد فارس في عام (٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م) حاكماً جديداً ليتولى إقليم النصيرية، يدعى رشيد الدين سنان البصري، واشتهر عند الصليبيين باسم شيخ الجبل، فاتصل بعموري الأول وعرض عليه إقامة تحالف وثيق لمناهضه نور الدين مقابل إعفاء الحشيشية من الضريبة التي فرضتها عليهم الداوية في أنطرطوس.

ونتيجة للنظرة السياسية التقليدية المعادية لنور الدين محمود فرح عموري الأول بتشجيع الصداقة مع شيخ الجبل في أشد الأوقات حرجاً، ورحَّب بعرضه آملاً، بما لدى الحشيشية من خبرة بأوضاع البلاد الإسلامية وحكامها، أن تكون هذه الطائفة ذات فائدة كبيرة للصليبيين، فكتب إلى الداوية يأمرهم بقبول العرض، وإعفاء طائفة الحشيشية من الضريبة المفروضة على أعضائها.

ولكن العداء القديم بين الداوية والحشيشية، وغضب الطائفة الأولى لحرمانها من الضريبة التي اعتادت جبايتها؛ دفعت أفرادها إلى الإجهاز على سفارة رشيد الدين أثناء اجتيازها أراضي إمارة طرابلس.

وهكذا حال الداوية بين تحالف القوتين الصليبية والحشيشية لمناوأة نور الدين محمود. وكان طبيعياً أن يغضب عموري الأول، إذ تعرضت سياسته للدمار، وأثار نزاعاً بينه وبين مقدم الداوية أودو سانت أماند، استوجب رفعه إلى البابا للفصل فيه[3].

وفاة نور الدين محمود

قدم نور الدين محمود إلى دمشق في ربيع عام ١١٧٤ م لإعداد حملة على مصر.

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٤١.

(٢) ألموت: معناها عش العقاب. قلعة حصينة جدا في بلاد فارس وهي كرسي ملك الحشيشية، وهي على قمة جبل وحولها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا النشاب يبلغها، لسترانج. كي: بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٥٦.

(٣) وليم الصوري جـ ٢ ص ٩٦٧ - ٩٦٩،

فبعث يطلب العساكر من الموصل والجزيرة الفراتية وديار بكر، لكن الأجل كان له بالمرصاد فتوفي يوم الأربعاء في (١١ شوال عام ٥٦٩ هـ/ ١٥ أيار عام ١١٧٤ م) إثر التهاب لوزتيه وإصابته بالحمى والاختناق نتيجة ذلك[١].

(١) ابن الأثير الباهر: ص ١٦١.

الفصل السادس عشر

شخصية نور الدين محمود[1]

اتصف نور الدين محمود بعدد من الصفات مكّنته من تحقيق ذلك النجاح الباهر في بناء وإدارة دولة واسعة، منها:

شعوره بالمسؤولية

كان نور الدين محمود يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، تجاه الوقت من أن يضيع هباء والدم المسلم من أن يُهدر، والكرامة الإسلامية من أن تهان، والأرض الإسلامية من أن تُغزى وتُقتطع. فحينما علم، في عام (٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م)، بتحالف دمشق مع الصليبيين قال: «لا أنحرف عن جهادهم» إلا أنه كان يكفُّ أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضياع. وكتب إلى زعماء دمشق «إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلين... ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم... والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي وبَذْلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لا يُرضي الله تعالى ولا أحداً من المسلمين»[2] وقد أصرَّ طيلة المدة التالية على عدم القيام بهجوم على البلد تحرُّجاً من قتل المسلمين[3].

---

(١) انظر فيما يتعلق بشخصية نور الدين محمود، الكتاب القيم: نور الدين محمود وتجربته الإنسانية للدكتور عماد الدين خليل.

(٢) ابن القلانسي: ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ٤٨٠.

ويتجلى شعوره بالمسؤولية تجاه الأرض الإسلامية، في ذلك الجواب الذي بعث به مع رسول حاكم أذربيجان الذي استنجد به بعض أمراء الموصل ضده، وأخذ يتهدده. فقال: «قل لصاحبك أنا أرفق ببني أخي منك، فَلِمَ تُدخل نفسك بيننا؟ وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك عند باب همذان، فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام، وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها... فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام، وإزالة الظلم عن المسلمين»[1].

اعتماده الحلول العقلية

اعتمد نور الدين محمود الحلول العقلية ذات الطابع العلمي في مواجهة المشاكل والأحداث، واضعاً نصب عينيه ما دعا إليه القرآن الكريم، ومقتدياً بهدي النبي محمد ﷺ. ففي عام (٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م)، وقعت هزات أرضية عنيفة في بلاد الشام خرَّبت الكثير من المدن والقرى، وأهلكت كثيراً من الناس، وهدَّمت الأسوار والدور والقلاع، فما كان منه إلا أن شمَّر عن ساعد الجد، وباشر العمل بنفسه ليكون قدوة للمسلمين، حيث كان يقف وسط الفعلة والبنائين، وبذل جهوداً كبيرة في إعادة إعمار ماتهدَّم، وتعزيز دفاعاته[2].

ويعكس موقفه من هذه الكوارث الطبيعية، جانباً آخر من نزعته المتمثلة بالإعمار والبناء، وتحقيق أكبر قدر من العمران، وهذا مثال الرجل المتحضر الذي ينزع إلى التطور والتجديد.

فقد بنى نور الدين محمود المساجد والربط والزوايا للتعبد وتربية الروح، كما أنشأ المدارس ودور الحديث للتعلم وتربية العقل، وشجَّع أعمال الفروسية وسائر النشاطات الرياضية لكسب المزيد من المهارات القتالية، وتنمية الجسد، وبنى أيضاً دوراً للأيتام لإيواء أطفال المسلمين، والمارستانات لمعالجة المرضى، وأقام الجسور والقناطر والحدائق والقنوات والأسواق والحمامات والمخافر وشقَّ الطرقات العامة،

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١٥٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٥.

فحفلت دولته بالكثير من المؤسسات الاجتماعية والعمرانية[1].

قوة شخصيته

كان نور الدين محمود قوي الشخصية، قديراً على الوقوف في نقطة التوازن بين الصرامة والمرونة، والشدة واللين، والعنف والرحمة[2]. وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان «مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته»[3]، وأنه «كانت إليه النهاية في الوقار والهيبة... شديداً في غير عنف، رقيقاً في غير ضعف»[4].

ويصف مجلسة فيقول: «وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعدَّى هذا»[5] وقال ابن كثير: «لم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى، صموتاً، وقوراً»[6].

كان نور الدين محمود يملك هيبة عجيبة على موظفيه، ويلزمهم بوظائف الخدمة «ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس باستثناء نجم الدين أيوب لتقدمه بالعمر على ما يبدو، وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم، إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه، ويجلسه إلى جانبه، ويُقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس إليه وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً كثيراً يقول: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا»[7].

وقال له أصحابه يوماً وقد رأوا ما تستنزفه معارك الجهاد من أموال الدولة:

---

(١) البنداري: ١٤٤. ابن كثير: جـ ١٢ ص٢٧٨ ـ ٢٨٨. خليل ص ٢٠ .Elisséeff: III p 751 - 779
(٢) خليل: ص ٢٤.
(٣) ابن الأثير: الباهر: ص ١٤١.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٥) المصدر نفسه: ص ١٧٣.
(٦) البداية والنهاية: جـ ١٢ ص ٢٧٨.
(٧) ابن الأثير: الباهر ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

«إن لك في البلاد إدرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء الصوفية، والقراء، فلو استفدت بها الآن لكان أمثل». فأجابهم غاضباً: «والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم. كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطىء، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني، بسهام قد تخطىء وقد تصيب؟ إن هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم فكيف أعطيه لغيرهم؟»[1].

تمتع نور الدين محمود بشعبية بين أبناء أمته، امتدت لكي تتجاوز حدود دولته؛ من ذلك أنه حينما تقدم في عام (٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م) على رأس قواته للمساعدة على فك حصار أفراد الحملة الصليبية الثانية، عن دمشق، شاهد الدمشقيون حرمته حتى تمنوه[2]، وراحو يدعون له دعاء متواصلاً، وخرج إليه عدد كبير من الطلاب والفقراء والضعفاء، ولهذا دلالته، فهم الذين كانوا أصدقاءه الحقيقيين، أما فلاحو المنطقة، فكانت قلوبهم معه لأنه منع أصحابه من العبث في مزارعهم، وأعلن أنه جاء لكي يحمي أرزاقهم من تخريب الصليبيين[3].

وعندما تقدَّم نحو دمشق في عام (٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م) لضمِّها إلى الجبهة الإسلامية التي كان يشكلها، استنجد حاكمها مجير الدين أبق بالعسكر والأحداث للخروج إلى قتاله لكن لم يخرج منهم إلا القليل، لما وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين بالصليبيين «ولما هم عليه من المحبة لنور الدين، وعدله، وحسن ذكره»[4].

ولما دخل دمشق في عام (٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م) لم ترق نقطة دم واحدة حرصاً منه على عدم إراقة دماء المسلمين، وسانده السكان الذين انتظروا دخوله منذ سنوات.

خصائصه العسكرية

تمَّتع نور الدين محمود بخصائص عسكرية فذَّة، جعلت منه أعظم قادة زمانه، ومكَّنته من تحويل جيشه الصغير إلى أعظم قوة عسكرية في الشرق الأدنى.

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١١٨. ابن العديم: جـ ٢ ص ٤٩١.
(٢) ابن كثير: جـ ١٢ ص ٢٢٣.
(٣) خليل: ص ٢٥ ـ ٢٦.
(٤) ابن القلانسي: ص ٥٠٤. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

كان جندياً حسن التكوين والتدريب، حصل على خبرة جعلته خير مثال للعسكري الثابت، الخبير والناجح. يحب ركوب الخيل، ماهراً في الفروسية، ويحسن الحرب على صهواتها. اعتمد أساليب العرب التقليدية في ترتيب الجيش ميمنة وميسرة وقلب، ووضع الكمائن في مواضع كان يختارها لتكرَّ على جانبي جيش العدو وقت الحاجة، وأضاف إلى ذلك ما اختاره من أساليب الأتراك العسكرية مثل وضع الجناحين متقدمين عن القلب قليلاً بحيث تبدو هيئة الجيش كالهلال؛ فإذا هاجم العدو القلب، تراجع قليلاً، ثم يسرع الجناحان بالالتفاف على قلب جيش العدو، فيحصراه حصراً شديداً. وكان الجناحان يضمان خيرة الفرسان والرماة والمقاتلين بالسيف، وأضاف إلى الجيش فرقاً من مهرة رماة الفرسان الذين يقفون خلف الجناحين وخلف الصفوف الأولى من القلب، بهدف تغطية الفرسان والمشاة المتقدمين عن طريق رشق العدو بالسهام[١].

ووصفه ابن الجوزي بهذه العبارة: «ثابت القدم، حسن الرمي، يتقدم أصحابه، ويتعرض للشهادة، ويسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير»[٢]. وأُصيب أخوه نصرة الدين، خلال حصار بانياس في عام (٥٦٠ هـ/ ١١٦٥ م)، بسهم أفقده إحدى عينيه، فلما رآه قال له: «لو كُشِف لك من الأجر الذي أُعدَّ لك لتمنيت ذهاب الأخرى»[٣].

نشاطه الرياضي

كان نور الدين محمود رياضياً من الطراز الأول، مولعاً بضرب الكرة «البولو»، وهو «من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها»[٤]. مارس الرياضة خدمة للأغراض الدينية، وقد أجاب أحد أصدقائه الزهاد عندما اعترض عليه، فقال: «ما كنت أظن أنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية... والله ما حملني على اللعب بالكرة، اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر والعدو قريب منا... ومتى تركنا

(١) مؤنس، حسين: نور الدين محمود ص ٣٧٦ ـ ٣٨٠.
(٢) السبط: جـ ٨ ص ٣٠٧.
(٣) ابن الأثير: الباهر، ص ١٣٠ ـ ١٣١.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

الخيل على مرابطها صارت جماماً[1] لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونروِّضها بهذا اللعب... فهذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة»[2] ومارس أيضاً رياضة الصيد[3].

نشاطه العلمي

شغف نور الدين محمود بالعلم، وسعى إلى التشبه بالعلماء والصالحين، والاقتداء بسيرة من سلف منهم، وكان العلماء عنده في المنزلة والمحل العظيم[4]. يحضرهم إلى مجلسه «فيدنيهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه... ويجلسه معه... ويُقبل عليه بكليته تعظيماً وتوقيراً واحتراماً»[5].

والتزم بمذهب أبي حنيفة، من غير تعصب منه ولا تحيز، فالمذاهب عنده سواء كلها. سمع الحديث حتى برع فيه، ومارس عمل المحدِّث رغم كثافة عمله السياسي والعسكري، وذلك في محاولة منه لتعزيز مكانة أهل السنة، وألَّف كتاباً في الجهاد، وأوقف كتباً كثيرة في مدارسه[6]. وهو يتفوق بتقواه على إغراءات الجاه واللقب والسلطان.

وشهدت دولته نشاطاً علمياً واسع النطاق من خلال بناء المدارس ومؤسسات التعليم بعد أن كانت خالية من العلم وأهله وأضحت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية[7]. وتدفق العلماء والأدباء على بلاد الشام من الشرق والغرب وأدرك

---

(١) جماماً: أي مالت إلى الراحة.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٣) راجع بشأن ممارسته هذه الرياضة، كتاب الاعتبار، حيث ذكر أسامة بن منقذ أخبار رحلاته ومشاهد الصيد التي رافق فيها نور الدين محمود: ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٤) ابن واصل: جـ ١ ص ٢٨٣. أبو شامة: جـ ١ ص ٥٨٢ ـ ٥٨٣.

(٥) ابن الجوزي: جـ ١٠ ص ٢٤٩. ابن الأثير: الباهر ص ١٧١ ـ ١٧٣. ابن كثير: جـ ١٢ ص ٢٨١.

(٦) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣١٣.

(٧) أبو شامة: جـ ١ ص ٣٤.

أهمية هذه الهجرة العلمية فعمل على توسيع نطاقها، فراح يكاتب العلماء من شتى البلاد ويستقدمهم إليه ويبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم، نذكر منهم الفقيه الإمام برهان الدين أبا الحسن علي بن الحسن البلخي الحنفي من دمشق، والإمام رضي الدين محمد بن محمد السرخسي صاحب كتاب المحيط، وعلي ابن إبراهيم الحنفي الغزنوي البلقي، والشيخ الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون الذي كان بحق من أعيان فقهاء عصره، وفي قمة هؤلاء يقف الأديب المؤرخ الشاعر العماد الأصفهاني الكاتب الذي اعتمد عليه في تنفيذ كثير من المهمات الإدارية والسياسية والإنشائية، فضلاً عن قدراته العلمية في التدريس، حيث ولّاه المدرسة النورية، وغير هؤلاء كثير(١). ومُنحت الضمانات المالية والاجتماعية لشيوخ العلم والطلبة الدارسين، وعُقدت المجالس والندوات لمناقشة مختلف المسائل والقضايا المتعلقة بفروع العلم.

واتسمت المناظرات بالنشاط الجاد من أجل مواجهة المشاكل والتجارب المتجددة والمتغيرة بالحلول المستمدة من شريعة الإسلام وفقهها الواسع(٢). ويشير ابن الأثير إلى إحدى هذه المجالس التي يشبهها بمجالس رسول الله ﷺ «مجلس حلم وحياء لا تؤبن فيه الحرم... ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا...»(٣).

لقد بلغ العلماء في عهده منزلة رفيعة جعلت الأمراء يحسدونهم عليها، ويذكر ابن الأثير أن بعض الأكابر من الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي، وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والإحسان إليه(٤).

واسترسل في تعامله مع العلماء إلى البذل والعطاء، فكان يمنحهم بسخاء للمحافظة على الحياة الكريمة، كما توسع في منح الضمانات الكافية للمدرسين والدارسين على السواء، ومكّن العلماء، بما خصّصه لهم من أعطيات، من أن يتفرغوا لمهامهم العلمية.

---

(١) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠. ابن العديم: جـ ٢ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤. خليل ١٤٤ ـ ١٤٧.

(٢) خليل: ص ١٣٣.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص ١٧٣.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٧١ ـ ١٧٢.

وانطلق، من خلال المدرسة كمؤسسة علمية، في تحقيق أهدافه، بمحاربة الجهل، ونشر المعرفة، والإيمان لتأهيل الذات العقائدية بمواجهة الغزو الخارجي والتحريف الداخلي المدمّر[١].

أنشأ الكثير من المدارس والربط والمكاتب، ودور الحديث، وأنفق المبالغ الطائلة في هذا السبيل، وأوقف عليها الأوقاف السخية لضمان استمرار أعمالها. وشهدت مدنه وحواضره، وبخاصة حلب ودمشق، جهداً مستمراً في بناء المدارس أو توسيع وإصلاح ما كان مبنياً منها[٢]. ففي حلب كانت المدرسة الحلاّوية، والنفرية النورية الشافعية. وجدَّد مسجد الغضائري وجعله مدرسة على المذهب الشافعي، وأوقف في جامع حلب الكبير، المسمَّى بالجامع الأعظم، زاويتين لتدريس مذهبي مالك وأحمد، وزاوية ثالثة لتدريس الحديث، مع العلم بأن المذهبين الآخرين الحنفي والشافعي كانا يدرسان في الجامع المذكور من قبل.

وأقام في دمشق عدداً من المدارس، أشهرها النورية، خصَّصها لتدريس المذهب الشافعي، ومدرسة جامع القلعة، والمدرسة العمادية التي اشتهرت باسم مدرسها العماد الأصفهاني، والمدرسة الصلاحية بالقرب من البيمارستان النوري، وقد نسبت خطأ إلى صلاح الدين، كما بنى داراً للحديث في دمشق هي الأولى من نوعها، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة. وبنى كثيراً من المكاتب للأيتام لتعليمهم الخط والقراءة وأجرى على معلميها الجرايات الوافرة[٣].

وإننا نلمح في تجربة نور الدين محمود الذاتية وتعاليمه وسياسته التربوية سعياً مؤكداً من أجل تحقيق تكوين المسلم المتوازن الذي تنمو فيه إلى حد التوتر الفعّال، وعلى خط متوازٍ، قدراته الثلاث الروحية والعقلية والجسدية عملاً بكتاب الله وسنة نبيه، ليكون حجر الزاوية المتين في بعث المجتمع المسلم الذي أنيطت به الأمانة الكبرى، وحُمِّل مسؤولية التغيير نحو الأفضل[٤].

---

(١) خليل: ص ١٥٨.

(٢) انظر، فيما يتعلق بالمدارس التي أنشأها نور الدين في حلب: Elisséeff: III PP 915 - 918

(٣) ابن الأثير: الباهر ص ١٧٢. ابن كثير: جـ ١٢ ص ٢٧٨.

(٤) خليل: ص ١٣٠.

واقتدى به قادته، فأنشأ أسد الدين شيركوه مدرسة باسمه خُصِّصت لتدريس المذهب الشافعي، وأقام مجد الدين ابن الداية داراً للحديث ومدرستين، حملتا اسمه المجدية، وأنشأ جمال الدين ريحان والي القلعة وخادم نور الدين محمود، المدرسة الريحانية المجاورة للمدرسة النورية، وأنشأ الأمير جمال الدين بوزان مدرستين، وانشأت زوجة نور الدين محمود، عصمة خاتون، مدرسة لأصحاب أبي حنيفة، عُرفت بالمدرسة الخاتونية أو مدرسة خاتون[١]. وشهدت باقي المدن والقرى، مثل حمص وحماة وبعلبك ومنبج والرحبة والرها ونصيبين، بناء المدارس للمذاهب المختلفة[٢].

تقوى نور الدين محمود

اشتهر نور الدين محمود بتقواه؛ فقد عمل خلال حياته على محورين: حماية الدين وتوحيد بلاد المسلمين. إنه كان يكثر الصلاة في الليل ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها حتى قال عنه سكان القدس الصليبيون: «ابن القيم (نور الدين) له مع الله سر، فإنه ما يظهر (ينتصر) علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظهر علينا بالدعاء وصلاة الليل... والله يستجيب دعاءه...»[٣]

وقد ساعده إيمانه العميق على تحقيق ما عجز عنه غيره ممن كانت بلادهم وثرواتهم تزيد أضعافاً على ما كان عليه. فقد امتلأت نفسه بمبادىء الدين الإسلامي على نحو لا نكاد نجد له شبيهاً إلا عند الأوائل من أعلام صدر الإسلام. وهذا الإيمان هو الذي حوَّله من أمير إلى مجاهد، ومن حاكم سياسي إلى زاهد، وهو الذي أعانه على مواجهة مشكلات عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتغلب عليها رغم قلة الموارد[٤] إنما لم يُعرف عنه تعصباً، فكانت نفسه سمحة اكتسبها من طبيعة الإسلام السمحة، إنه حارب الصليبيين على أنهم

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس: جـ ١ ص ٥٠٧، ٥٢٢ ـ ٥٢٣. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣٨٥.

(٢) ابن الأثير: ص ١٧٠. Elisséeff: III PP 933 - 935.

(٣) أبو شامة: جـ ١ ص ٣٤.

(٤) مؤنس: ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

أجانب ومغتصبين، لا على أنهم نصارى. ومن هنا فإنه لم يمس النصارى الوطنيين بسوء، وكان لهم عنده حق الرعاية الكاملة، فلم يهدم في حياته كنيسة، ولا آذى قساً أو راهباً على عكس الصليبيين الذين إذا دخلوا قرية قتلوا أهلها المسلمين جميعاً. وقد أكسبه إيمانه هذا احترام خصومه من الصليبيين فكانوا على عداوتهم له يحترمونه ويعترفون له بالامتياز عليهم، حتى أن المؤرخ وليم الصوري، الذي أفاض في كتاباته بالحقد على الإسلام والمسلمين، لم يستطع إلا أن يعترف بفضله وعدله وصدق إيمانه[١].

كان نور الدين محمود يجتمع كثيراً بالزهاد والمتصوفين، فيبادلهم الحديث والرأي حتى كاد هو نفسه أن يصبح واحداً منهم. فقد لبس المسوح، وكان يصلي قطعاً من الليل، ويرفع يديه إلى السماء ويبكي متضرعاً.

حسن اختياره للرجال

اعتمد نور الدين محمود في إدارة دولته المتنامية، على عدد كبير من الرجال الأكفاء، فكان يختارهم بعناية بعيداً عن انتماءاتهم الاجتماعية، آخذاً بعين الاعتبار قدراتهم ونزاهتهم وثقافتهم وقبولهم لدى المسلمين، ثم يخضعهم لمراجعته الدقيقة الصارمة ويوقفهم في الوقت المناسب، منزلاً بهم العقاب العادل[٢]. ولم يتقدم لديه إلا ذوو الفضل والقدرة على الإنجاز الأمين المسؤول[٣].

اعتمد نور الدين محمود النظم المطبقة في عصره، والتي أرسى قواعدها السلاجقة، لكنه أكّد على مؤشر أساسي في ميدان الإدارة يستند إلى عطاء الرجال الذين يعهد إليهم بتسييرها دون الاعتماد على بنيان الجهاز أو تركيب المنصب نفسه، ومن ثمَّ فإننا نجده يملأ أجهزته الإدارية والعسكرية بنماذج متنوعة من هؤلاء الرجال ذوي المؤهلات العالية والضرورية التي لا تستقيم الإدارة بدونها[٤].

---

(١) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ ٢ ص ٧٤٢.

(٢) البنداري: ص ١٢٠ ـ ١٢٢، ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٣) Elisséeff: III pp 785 - 786.

(٤) خليل: ص ٥٣ ـ ٥٤.

نذكر من بين الأشخاص الذين تعاون معهم في ميادين الإدارة المدنية والعسكرية: أسد الدين شيركوه، وأخاه نجم الدين أيوب، وابنه صلاح الدين، وصلاح الدين الياغسياني، القائد العسكري المشهور وأحد كبار مستشاريه، وجمال الدين الأصفهاني، كبير وزراء الموصل في عهد زنكي وابنه سيف الدين غازي، وصاحب الخدمات الإدارية الممتازة، ومجد الدين محمد أبو بكر بن الداية، شقيق نور الدين محمود بالرضاعة، وقد امتاز هذا الرجل بشجاعته وتدينه، وتعشقه لتقديم الخدمات الاجتماعية[1]، وظلَّ طوال خمسة عشر عاماً يتمتع بثقة سيده ومحبته وتفويضه في إدارة شؤون حلب[2]، وعندما توفي في عام (٥٦٥ هـ/ ١١٦٩م)، وهي السنة التي توفي فيها أيضاً نائب كبير في دولة نور الدين محمود يدعى العمادي محمد، حزن نور الدين محمود حزناً عميقاً وقال وهو يبكي: «لقد قُصَّت جناحاي»[3].

وإلى جانب بني أيوب والداية، تبرز أسماء لامعة، فذة في ميدان الإدارة أشهرها العماد الأصفهاني الكاتب.

قضاء نور الدين محمود

أولى نور الدين محمود المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً، وجعلها في قمة أجهزته الإدارية، وخوَّل القضاة، على اختلاف درجاتهم في سلَّم المناصب القضائية، صلاحيات واسعة، ومنحهم استقلالاً تاماً في دراسة القضايا المعروضة عليهم، وإصدار أحكامهم بصددها، وتوَّج ذلك كله بإنشاء دار العدل التي كانت بمثابة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين، وإرغامهم على سلوك الصراط المستقيم أو طردهم، واستبدالهم بغيرهم إذا اقتضى الأمر[4].

واتخذ شعاراً خاصاً ألزم بموجبه كلَّ من يصحبه أن يرفع إليه قضية مظلوم لا يستطيع الوصول إليه، كما تحرَّى العدل، وأنصف المظلوم من الظالم دون النظر إلى الفوارق الاجتماعية، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى

---

(١) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٢٨١.
(٢) خليل: ص ٥٦.
(٣) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٢٨١.
(٤) خليل: ص ٧٥.

المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يفوِّض ذلك إلى حاجب ولا إلى أمير. «فلا جرم أن انتشر ذكره في شرق الأرض وغربها»[1].

كان يجلس في دار العدل مرتين في الأسبوع، وقيل أربع مرات وخمس[2]، للنظر في أمور الرعية، وكشف ظلاماتهم، لا يطلب بذلك درهماً ولا ديناراً، ولا زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله[3]. وكان يُحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية[4].

تأمين الخدمات الاجتماعية

سعى نور الدين محمود إلى تخفيض الضرائب والمكوس إلى الحد الأدنى المتاح في جميع أنحاء دولته، كما نشط في تقديم أوسع الخدمات للناس، وذلك من أجل خلق مجتمع عادل ومتوازن، يرفع الظلم عن الناس.

فعندما دخل دمشق في عام (٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م)، أصدر منشوراً بإسقاط المكوس والضمانات والضرائب والغرامات المفروضة على عدد من البضائع والأسواق[5]. وفي عام (٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م)، أصدر منشوره الشهير الذي ألغى بموجبه مجموعة كبيرة من الضرائب والمكوس جاوزت المائة والخمسين ألف دينار[6]، وشمل هذا الإِجراء كافة أنحاء دولته. وبعد عام واحد أصدر منشوراً في دمشق أسقط بموجبه ضمان بعض المواد الغذائية الأساسية، وذلك شعوراً منه لتخفيف الضائقة الاقتصادية عن الناس نتيجة وقوع الزلازل في بلاد الشام، فسُرَّ الناس بذلك ودعوا له وأثنوا على أعماله[7].

وعندما دخل الموصل في عام (٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م)، لم يشأ إلا أن يسقط عن

---

(١) ابن الأثير: ص ١٦٦.

(٢) أبو شامة جـ ١ ص ٣٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن الأثير: ص ١٦٨. ابن كثير: جـ ١٢ ص ٢٨٠. Elisséeff: III pp 843 - 847.

(٥) أبو شامة: جـ ١ ص ١٠. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٢٢٣، ٣٠٦. ابن كثير جـ ١٢ ص ٢٧٨.

(٦) أبو شامة: المصدر نفسه ص ٣٨ ـ ٤١.

(٧) ابن القلانسي: ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩.

كاهل أهلها ما كانوا يرزحون تحته من الغرامات والضرائب والمكوس، وشمل هذا الإجراء عدداً من المدن الجزرية كالخابور ونصيبين وغيرهما[1]، كما أسقط في العام التالي المكوس والمظالم في القاهرة.

ويستعرض ابن واصل مقادير الضرائب والمكوس التي أُسقطت في عدد من التواريخ المتقدمة في صيغة طويلة، بعد مقدمة توضح أسباب ومبررات هذا الإسقاط بهذه العبارة: «. . . وقد كان بقي من رسوم الظلم ومعالم الجور في سائر الأعمال بولايتنا ما أمرنا بإزالته الآن، وأضفنا ذلك إلى ما كنّا أسقطناه أولاً . . . وسنذكر ما أزلناه من المظالم والمكوس أولاً وآخراً من سائر أعمال ولايتنا في هذا السجل من الديوان»، ثم يذكر ما أُطلق من الرسوم والمؤن والمكوس والضرائب في سائر أعمال الولاية شاميها وجزيرتها في تواريخ متقدمة[2].

وفي عام (٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م) وهو العام الذي توفي فيه، قام نور الدين محمود بحملة أخرى لإسقاط الضرائب فيما أطلق عليه «فريضة الأثبان»، وأصدر بذلك منشوراً من إنشاء العماد الأصفهاني، بحيث لم يبق حينذاك من الضرائب سوى «الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات على قوائم المنهج»[3]. ولعل المراد بالعبارة الأخيرة فريضة الزكاة[4].

إلى جانب التخفيف عن الناس عناء الحياة الاقتصادية اليومي، بذل نور الدين محمود من ناحية أخرى، كل ما من شأنه تسهيل السبل لهم عن طريق تقديم الخدمات الاجتماعية وتنشيطها التي شملت مساحات واسعة من النشاط الاجتماعي، فبرزت سياسة تقديم الخدمات الاجتماعية التي جاوزت الحد المألوف. لقد آمن بأن المدارس والمساجد هي قاعدة الدين، فمضى يُنشئها في كل مدينة وقرية حتى بلغت المئات. وكان إذا بنى مدرسة أوسع النفقة في بنائها، واجتهد في اختيار شيوخها، وأوقف عليها الأوقاف الواسعة.

---

(١) أبو شامة: جـ ١ ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠.

(٢) انظر صيغة هذا السجل وأنواع ومقادير الضرائب التي أُسقطت: ابن واصل جـ ١ ص ٢٧١ ـ ٢٧٩.

(٣) النبداري: ص ١٤٣.

(٤) خليل: ص ١٠٢.

والراجح أنه اتبع الأسلوب نفسه الذي ابتدعه السلاجقة، وطبَّقوه من قبل، ذلك أن إنشاء المدارس كان تقليداً مرعياً عندهم. وقد هدف إلى نيل الثواب من جهة، وإبراز أصول الدين من خلال إنشاء المدارس التي تُعدُّ ضرورية للناس وواجب على أولي الأمر من جهة أخرى.

وبنى نور الدين محمود البيمارستانات وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة، وبنى الربط، والخانات على الطرقات، وأوقف على المرضى والمجانين، كما بنى المكاتب لليتامى، وأوقف على سكان الحرمين، وأقطع أُمراء العرب، القطائع لئلا يتعرضوا للحجاج، وأمر بإكمال سور المدينة، وأجرى إليها الماء من جبل أحد، وأقام الجسور والقناطر، وجدَّد كثيراً من أقنية السبل[1].

(١) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣٠٦. ابن واصل: جـ ١ ص ١٠.

الفَصْلُ السَّابعَ عَشَرُ

الدولة الزنكية في بلاد الشام في أواخر أيامها

الأوضاع السياسية بعد وفاة نور الدين محمود

أثارت وفاة نور الدين محمود مشكلة تقسيم دولته الواسعة بين ورثته، مما هدَّد الوحدة الإسلامية، وكادت هذه المشكلة أن تعود بالمسلمين إلى حالة التمزق والإنقسام التي كانوا عليها قبل أن يبدأ عماد الدين زنكي جهوده لوضع قاعدة صلبة لتوحيد الجبهة الإسلامية والتصدي للصليبيين. ولم يكن بين رجال الأسرة الزنكية من يصلح أن يكون خلفاً لنور الدين محمود الذي لم يترك سوى ابن طفل في الحادية عشرة من عمره اسمه إسماعيل، وابنة صغيرة، وزوجة هي عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر[١].

واتفق الأمراء في دمشق، بعد مناقشات مستفيضة، على تنصيب الملك الصالح إسماعيل خلفاً لوالده. فأجلسوه مكان أبيه في القلعة وحلفوا له، وعيَّنوا شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم، أتابكاً له وقائداً للجيش[٢]، وكتبوا إلى ولاة الأطراف بإقامة الخطبة باسمه وبخاصة صلاح الدين في مصر[٣]، موضحين له بأن مهمته إنما هي قيادة العساكر ضد الصليبيين، وأن تلك المهمة كانت من تكليف نور الدين محمود الذي أعدَّه لمثل تلك المهمات، والراجح أنهم توقعوا معارضته. وقد نصح القاضي كمال الدين الشهرزوري الأمراء المحيطين بالملك الصالح بضرورة التعاون مع صلاح الدين والانقياد له نظراً

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٢٦.

(٢) البنداري: ص ١٥٣ ١٥٤. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣٢٤.

(٣) انظر نص الكتاب عند البنداري: ص ١٥٥.

لقوته وانفراده بحكم مصر[١]. ويبدو أن هذه النصيحة لم تُجد نفعاً تجاه طموحاتهم، فقد خشوا على مصالحهم، وظنوا أن صلاح الدين إذا دخل البلاد، أخرجهم منها[٢]. فتغاضوا عن هذا الرأي الصائب.

على أنه وجد لإسماعيل ابنا عم هما سيف الدين غازي الثاني، أمير الموصل، وأخوه عماد الدين زنكي أمير سنجار إلا أنهما لم يكونا على مستوى الأحداث، كما دبَّ النزاع بينهما. فقد كان كل واحد منهما لا يرى في طاعة الثاني مصلحة له، كما أن سيف الدين غازي الثاني كان لا يغض الطرف عن أخطاء عماد الدين[٣]، لذلك لم يكن من المتوقع أن يملأ أي منهما الفراغ الذي تركه نور الدين محمود في قيادة المسلمين، كما لم يكن من المنتظر في ظل هذه الأوضاع، أن تظل بلاد الشام ودولة الموصل محافظة على وحدتها وقوتها.

اغتنم سيف الدين غازي الثاني فرصة وفاة عمه نور الدين محمود لتوطيد مكاسبه في الجزيرة، وكان قد خرج من الموصل لمساعدته في غزواته ضد الصليبيين، فانتزع نصيبين والخابور وحرّان والرها وسروج والرقة وغيرها من الأماكن التابعة له في الجزيرة، وضمَّها إلى أملاكه، مظهراً سطحية في التفكير السياسي مما ساعد على تفتيت وحدة الدولة الزنكية[٤].

في ظل هذه الأوضاع، برز صراع آخر سار في خط موازٍ لصراع أفراد البيت الزنكي نشب بين أقوى اثنين من قادة نور الدين محمود هما شمس الدين علي ابن الداية في حلب، وشمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم في دمشق. وكان سبب هذا النزاع هو الوصاية على الملك الصالح الذي عُدَّ الوريث الشرعي، وربما كان السبب سياسياً بحتاً، وهو الاختلاف في وجهات النظر حول كيفية قيادة الدولة عن طريق كفالة الملك الصالح. فقد أراد ابن المقدم العمل السياسي ضمن دائرة بلاد الشام وتحت إمرة الأتراك من الأتابكة الزنكيين، بينما أراد ابن الداية العمل تحت إمرة صلاح الدين بعد ضم مصر إلى بلاد الشام، والتعاون مع الأكراد

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١٦٢.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٢٧.
(٤) ابن الأثير: الباهر ص ١٧٥. عاشور: جـ ٢ ص ٧٣٨.

الذين ينتمي إليهم حاكم مصر، والأتراك الذين ينتمي إليهم الأمراء الزنكيون، بدليل أن صلاح الدين غضب عندما علم بالقبض على ابن الداية[1].

وقد وصف العماد الأصفهاني هذا الصراع، وأوضح اضطراب الأوضاع السياسية، والتناحر بين الأمراء بقوله: «كانوا لضعف وثوق بعضهم ببعض يُتبعون ما أبرموه أمس في يومهم بنقض. ولهم كل يوم قسم جديد على قسم حدَّدوه، ويمين، يمين الحالف بها لا محالة بما شرطوه فيها من المحال وأكَّدوه، وكم عقدوا ما حلُّوه، وحلُّوا ما عقدوه»[2].

وهكذا أحاط بالملك الصالح طائفتان تمثلان وجهتي نظر مختلفتين، الحلبيون الذين مالوا إلى بقاء إسماعيل في حلب، كما كان نور الدين محمود فيها من قبل، والدمشقيون الذين أرادوا نقل العاصمة إلى دمشق لإعادة مجدها القديم الذي تمتَّعت به.

وزاد من حده الانقسامات، أنها لم تقتصر على ما كان هناك من أطماع سيف الدين غازي الثاني، أو ما نشأ من تنافس بين ابن الداية وابن المقدم بل ظهر طرف جديد في النزاع؛ ذلك أن سعد الدين كمشتكين الخادم، وهو أحد أُمراء نور الدين محمود، شارك في التنافس على الزعامة. فقد انتقل كمشتكين من الموصل إلى حلب بعد وفاة نور الدين محمود، ودخل في خدمة ابن الداية وإخوته واتفق معهم على أن يسير إلى دمشق ويُحضر الملك الصالح إسماعيل. ولما دخل المدينة اجتمع بالملك الصالح وأمرائه وبيَّن لهم أن مصلحة البلاد تقضي بانتقال الملك إلى حلب، والراجح أنه اتفق معهم سراً على التخلص من ابن الداية وإخوته، فوافقوا على السماح للملك بالانتقال معه إلى حلب، ولما وصل إليها قبض على ابن الداية وأخيه مجد الدين واعتقلهما وحكم حلب، وتفرَّد بأتابكية الملك الصالح، واستبدَّ بتدبير أموره[3]، ناقضاً بذلك اتفاقه مع أمراء دمشق الذين خططوا للاستيلاء على حلب.

وقد أثار هذا التطور السياسي مخاوف ابن المقدم وبقية الأمراء في دمشق، فراسلوا غازي الثاني أمير الموصل، وعرضوا عليه تسليمه دمشق، لكنه أحجم عن

---

(١) البنداري: ص ١٦٥ ـ ١٦٨. نوري: ص ١٣٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص ١٧٥ ـ ١٧٦. المصدر نفسه: ص ١٦٢ ـ ١٦٧.

إجابة طلبهم خشية أن يكون في ذلك مكيدة منهم له، وآثر توطيد مكاسبه في الجزيرة. وربما خشي المسير إلى دمشق لأن سعد الدين كمشتكين كان قد هرب مع عسكره إليها إثر سماعه بوفاة نور الدين محمود الذي كان قد وضعه عيناً عليه، فظن أنه قد دبر له مكيدة[1].

وقد انتقد ابن الأثير غازي الثاني لعدم الإستجابة لطلب أمراء دمشق، مما أتاح الفرصة لصلاح الدين لامتلاكها، واتهمه بالجبن[2]. كما علَّق ابن خلدون على الحادث وأضاف إن غازي الثاني، بالإضافة إلى أنه امتنع عن الزحف نحو دمشق، أرسل إلى ابن المقدم يفاوضه على إقرار الاحتفاظ كل طرف بما في يده[3]. غير أن أهالي دمشق الذين خشوا من أن يزحف كمشتكين على مدينتهم بعد تفرده بحكم حلب، ويستولي عليها، ألحُّوا على ابن المقدم لدعوة صلاح الدين[4].

وهكذا انقسمت دولة نور الدين محمود إلى ثلاث دويلات تركَّزت كل منها حول واحدة من المدن الرئيسية، الموصل وحلب ودمشق، وظلَّت مصر بحكم هذا الوضع معزولة عن بلاد الشام تحت قيادة صلاح الدين. وبذلك تحوَّلت الجبهة الإسلامية الموحدة إلى أقسام منفصلة يتربص كل منها بالآخر، مما أشاع قلقاً متزايداً بين المسلمين من انهيار البناء الضخم الذي تحملوا العناء في سبيل إقامته[5].

رد الفعل الصليبي

في ظل هذا الانقسام الداخلي في الصف الإسلامي، برز خطر خارجي تمثَّل بمملكة بيت المقدس الصليبية، ذلك أن الخطر الصليبي غدا ذا تأثير كبير في تطور الحياة السياسية في بلاد الشام، ولم يكن بوسع سيف الدين غازي والملك الصالح إسماعيل وابن المقدم، وهم القوى الإسلامية الأساسية الثلاث في بلاد الشام والجزيرة، مجابهته كل على انفراد، وبخاصة أن الإمدادات الأوروبية لم تنقطع عن القوى الصليبية الموجودة في بلاد الشام.

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص ١٧٦.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٧٥، الكامل: جـ ٩ ص ١٣١.
(٣) ابن خلدون العبر...: جـ ٥ ص ٢٧٩.
(٤) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٢٤ ـ ٢٥.
(٥) الحويري: ص ١٦٥.

استغل الملك عموري الأول وفاة نور الدين محمود وتضعضع أحوال بلاد الشام، فنهض ليسترد بانياس في (أواخر شوال عام ٥٦٩ هـ/شهر أيار عام ١١٧٤م)، لكن المدينة صمدت في وجهه. وفي الوقت نفسه، خرج ابن المقدم على رأس جيش من دمشق للدفاع عنها، إلا أنه رفض الدخول في قتال مع الصليبيين قبل جلاء الوضع السياسي في بلاد الشام والجزيرة، فعرض على الملك الصليبي ترك بانياس مقابل:

- دفع مبلغ كبير من المال.
- إطلاق سراح أسرى الصليبيين في دمشق.
- عقد معاهدة تحالف ضد أطماع صلاح الدين[1].

وقد وافق عموري الأول على عقد الصلح، ورفع الحصار عن بانياس.

وهكذا أدّى تفكُّك دولة نور الدين محمود إلى إتاحة الفرصة لعموري الأول لضرب دمشق وبقية القوى الإسلامية، في الشرق الأدنى، على أن عموري الأول لم يستطع المضي في تلك السياسة بسبب وفاته في (شهر ذي الحجة عام ٥٦٩ هـ/ شهر تموز عام ١١٧٤ م)[2]، مما أضاع على الصليبيين فرصة طيبة للإستفادة من انقسامات المسلمين.

تطلعات صلاح الدين السياسية بعد وفاة نور الدين محمود

جاءت وفاة نور الدين محمود لتزيل الصعوبات الناجمة عن كون صلاح الدين نائباً للأمير الزنكي في دمشق، وفي الوقت نفسه، حاكماً فعلياً لمصر، كما أنها في الحقيقة، أعطت صلاح الدين مبررات مقنعة للدخول في مجال السياسة في بلاد الشام، حيث إن ابن نور الدين محمود وخليفته الملك الصالح إسماعيل كان قاصراً لم يبلغ سن الرشد. ومن الناحية الشكلية، جاء تدخله في بلاد الشام تحت حجة حماية مصالحه بعد أن أصبح مولاه الجديد اسمياً على الأقل، لذلك قدَّم نفسه بوصفه النائب القوي الذي يمكن للملك الصالح إسماعيل وبلاد الشام الاعتماد عليه.

والواقع أن صلاح الدين تطلّع إلى ضمِّ بلاد الشام إلى مصر بعد وفاة نور الدين

---

(١) البنداري: ص ١٥٥ ـ ١٥٦. وليم الصوري: جـ ٤ ص ١٥٩ ـ ١٦٠.
(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٧٠، أخطأ وليم حين ذكر أن وفاة عموري الأول حصلت في عام ١١٧٣ م.

محمود بهدف استمرار السياسة التي بدأها عماد الدين زنكي، وجرى عليها نور الدين محمود، والتي تقضي بتوحيد كلمة المسلمين، والقضاء على الصليبيين. ذلك أن وعيه بأخطار انقسام الصف الإسلامي، ومن ثمَّ بالتهديد الذي يفرضه الصليبيون، قد نمَّى من خبراته المبكرة في مصر، إبان عمله نائباً لعمه أسد الدين شيركوه خلال حملاته المتعددة على مصر، ولم يحظ فيها الخليفة الفاطمي المريض إلا بمساعدة الصليبيين، ثم تدنى به الأمر بعد ذلك إلى طلب مساعدة نور الدين محمود. وكنتيجة طبيعية لذلك فإن انشقاق الصف الإسلامي الذي أدَّى إلى عودة الصليبيين للتدخل في مصر في بادىء الأمر، نبَّهه إلى العواقب الوخيمة لتشتُّت وحدة المسلمين، وقد أشار القلقشندي إلى هذه السياسة وذكر بأنه عزم على فتح القدس وإعادة توحيد الأتابكيات الزنكية التي إن لم تسانده في حربه ضد الصليبيين، فإنها من غير شك ستكون مستعدة للتواطؤ مع عدوه[١].

ورأى صلاح الدين أنه حان الوقت الذي يتولى فيه القيام بدوره في الجهاد، وساعدته الظروف السياسية والعسكرية على تحقيق هذا الهدف. ذلك أن أمراء نور الدين محمود الذين تنافسوا في السيطرة على الملك الصالح إسماعيل حرصوا، منذ البداية، على ألا يتدخل صلاح الدين في هذا الأمر، غير أنه لم يكن بوسعه أن يبقى غير مبال بهذا الاندفاع للتنافس، لكنه في الوقت الحاضر لم يتخذ أي إجراء يتعدّى الاعتراف بسلطنة الملك الصالح إسماعيل، فأمر بذكر اسمه في الخطبة، كما ضرب النقود باسمه[٢].

لكن الملك الصالح إسماعيل كان لا يزال صغيراً لا يستطيع النهوض بأعباء الحكم، ولم يكن قادراً على التصدي للصليبيين، بالإضافة إلى أن قادة وأمراء بلاد الشام، أرادوا تقسيم هذه البلاد فيما بينهم مما يهدِّد الوحدة الإسلامية، وقوة المسلمين، وبخاصة أن الأخطار الصليبية كانت ما تزال ماثلة في البلاد، وقد أثاره:

١ ـ تنازع أمراء بلاد الشام على الوصاية على الملك الصالح إسماعيل، حيث كانت المصالح الخاصة للأمراء من أسباب المنافسات المستمرة فيما بينهم، مما يحول

---

(١) انظر نص الرسالة التي أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد في صبح الأعشى. . . جـ ١٣ ص ٨٥ ـ ٩٦.

(٢) ابن شداد: ص ٩٢. ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

دون تشكيل حلف متماسك ضد الصليبيين، بالإضافة إلى ذلك فإن هؤلاء الأمراء سوف يشكلون خطراً مباشراً على خططه التوحيدية في حال تقدمه لقتال الصليبيين لأن خطوط مواصلاته مع مصر ستكون مهددة، فضلاً عن إمكان تعاونهم مع هؤلاء في حربه، مدركاً، في الوقت نفسه، أن وحدة الجيوش الإسلامية تحت إمرة قائد واحد هي الشرط الأساسي لكل انتصار على الصليبيين، وقد عبَّر عن سياسته الخاصة بهذه الأحداث في الكتاب الذي بعث به إلى الخليفة العباسي في بغداد، وشرح فيه الأسباب الموجبة التي دعته للمسير نحو حلب في عام (٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م) فقال: «الخادم (يعني صلاح الدين) ينهي أن الذي يفتحه من البلاد ويتسلمه... إنما يعده طريقاً إلى الاستنفار إلى بلاد الكفار... ولا نختار أن تغدو جيوش المسلمين متحاسدة على عدوها، متحاسدة بعتوها، ولو أنَّ أمور الحرب تصلحها الشركة لما عزَّ عليّ أن يكون كثير المشاركين، ولا إساءة أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة، فإذا صحَّ التدبير لم يحتمل في اللقاء إلا العدة»[1].

وكتب إلى ابن المقدم عند سماعه بوصايته على الملك الصالح «لو علم نور الدين محمود أن فيكم من يقوم مقامي، أو يثق إليه مثل ثقته إليَّ، لسلّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجِّل عليه الموت، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواي، وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته، وأجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأقابل كلاً منكم على سوء صنيعه وإهمال أمر الملك الصالح ومصالحه حتى أخذت بلاده»[2]. إلا أنهم كتبوا إليه يسيئون الأدب عليه[3].

٢ ـ تحالف أمراء دمشق مع عموري الأول ملك بيت المقدس في هذا الوقت العصيب الذي تمر به الأمة الإسلامية، مما يُبقي خطر الانقسام ماثلاً. وقد استنكر المعاهدة التي أبرمها ابن المقدم مع الملك الصليبي عقب مهاجمته بانياس، فكتب فوراً إلى القاضي شرف الدين بن أبي عصرون يخبره فيه أنه لما أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج، تجهَّز وخرج وسار أربع مراحل، ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بِذُلِّ الإسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى، وسيدنا الشيخ أولى من جرَّد لسانه التي

---

(١) أبو شامة: جـ ٢ ص ٤٨.
(٢) ابن الأثير: الباهر ص ١٦٣.
(٣) ابن كثير: جـ ١٢ ص ٢٨٦.

تُغمد له السيوف وتُجرَّد، وقام في سبيل الله قيام من يقظٌ عادية من تصدَّى وتمرَّد[1].

وهكذا دان صلاح الدين ما أقدم عليه ابن المقدم من عقد هدنة مع الصليبيين، لأنه قد خرج منذ أن علم بوفاة نور الدين محمود للجهاد الذي يهدف إلى مساندة الأمراء النوريين ضد العدو الخارجي، والقضاء على أولئك الأمراء الذين خانوا الأمانة وأذلّوا الإسلام بتهادنهم مع الأعداء[2].

ويبدو أن الأمراء في دمشق لم يطمئنوا إلى مساعدة سيف الدين غازي الثاني لهم، لذلك لم ينقضوا المعاهدة التي عقدوها مع الصليبيين. ثم إن صلاح الدين دفع العلماء لإثارة الناس وتنبيههم لاستنكار عمل الأمراء النوريين. وقد اعتمد على القاضي ابن أبي عصرون للقيام بهذه المهمة، وربما هدف من وراء هذه الحملة الإعلامية إلى تدبير تدخله السياسي في بلاد الشام دفعاً للحرب التي لم يكن ينوي القيام بها ضد هؤلاء الأمراء[3].

٣ ـ سيطرة سيف الدين غازي الثاني على منطقة الجزيرة، لأنه شعر بأنه الوارث الحقيقي للدولة الزنكية، وأن واجبه يفرض عليه التدخل لإعادة بناء الدولة وتوحيد الكلمة، قبل التصدي للصليبيين وبخاصة أنه يملك القوة الضرورية لفرض إرادته.

الصعوبات التي واجهت صلاح الدين قبل زحفه على بلاد الشام.

تمهيد

وقرَّر صلاح الدين حسم الأمور في بلاد الشام ومنطقة الجزيرة لصالحه، بل لصالح القضية الإسلامية العامة. بيد أن الأحداث في مصر شغلته مؤقتاً عن التوجه إلى بلاد الشام، إذ تعرضت مصر آنذاك لخطرين جسيمين أتى أحدهما من الشمال وتمثل بغزو صليبي، والآخر أتى من الجنوب وتمثَّل بثورة كنز الدولة.

---

(١) البنداري: ص ١٥٨ ـ ١٥٩. أبو شامة: جـ ١ ص ٥٨٩.
(٢) نوري: ص ١٢٨ ـ ١٢٩.
(٣) المرجع نفسه: ص ١٢٩.

الصليبيون يهاجمون الإسكندرية

أختلَّت موازين القوى السياسية والعسكرية بعد وفاة نور الدين محمود في بلاد الشام بين المسلمين والصليبيين، واعتقد هؤلاء أن الفرصة قد سنحت لهم بضرب المسلمين. وكان عموري الأول قد قرَّر الإنتقام من النوريين بفعل أن نور الدين محمود كان قد ألحق به عدة هزائم قبل وفاته، كما أراد الانتقام من صلاح الدين الذي حال دون تحقيق أطماعه في مصر، لذلك نراه يهاجم بانياس، ويراسل وليم الثاني ملك صقلية للاتفاق معه على خطة عمل لمهاجمة مصر، وبخاصة أنه تلقَّى تشجيعاً ممن تبقَّى من أنصار الدولة الفاطمية الذين اتصلوا به، وبالملك الصقلِّي، واتفقوا معهما على وجوب القضاء على صلاح الدين والدولة الأيوبية الناشئة في مصر.

وقضت الخطة بقيام عموري الأول بمهاجمة مصر من البر، والصقلِّيون من البحر، فينهض صلاح الدين للتصدي لهذا الهجوم، فيستغل أنصار الدولة الفاطمية في الداخل خروجه من القاهرة، ويقومون بثورة يقضون خلالها على الحكم الأيوبي.

غير أن المؤامرة اكتشفت، وقُضي على زعمائها الذين كان من بينهم عمارة اليمني، أحد المنتمين إلى الدولة الفاطمية. وصادف في تلك الأثناء وفاة عموري الأول، ملك بيت المقدس، مما حال دون تقدم القوات الصليبية عن طريق البر.

والواقع أن وليم الثاني، ملك صقلية، لم يعلم بهذه التطورات السياسية، من فشل مؤامرة الشيعة إلى وفاة عموري الأول، فنهض لتنفيذ الشق المتعلق به من الخطة. فأرسل في (٢٦ من شهر ذي الحجة عام ٥٦٩ هـ/ ٢٨ من شهر تموز عام ١١٧٤ م) أسطولاً مؤلفاً من مائتين واثنتين وثمانين سفينة حربية، عليها ثلاثون ألف جندي بقيادة تانكْرد كونت ليتشي[1]، ضرب حصاراً على الإسكندرية، وقذفها بالمنجنيق، ودمَّر بعض السفن التجارية الراسية في الميناء.

استمر الحصار مدة ثلاثة أيام فشل الصقليون خلالها في اقتحام المدينة بسبب متانة أسوارها وبسالة سكانها الذين تصدوا لهذا الغزو، وكان قائد الحامية قد

---

(١) البنداري: ص ١٧٠ ـ ١٧١. Grousset: II p 618.

استنجد بصلاح الدين، فأرسل قوة عسكرية لدعم صمود المدينة والتصدي للمهاجمين، مما حملهم على الإقلاع من الإسكندرية. وهكذا انتهت هذه الحملة بالفشل.

ثورة كنز الدولة

كان كنز الدولة، أحد قادة الفاطميين، نزح إلى أسوان بعد القضاء على دولة الخلافة الفاطمية، وأقام بها، والتفَّ حوله بقايا السودانيين، وقد أوهمهم أن باستطاعته إعادة إحياء الخلافة الفاطمية، فاجتمع إليه عدد كبير منهم وسانده جماعة على المذهب الإسماعيلي، فترأسهم وتوجه بهم إلى قوص وأعمالها، فجرَّد عليه صلاح الدين حملة عسكرية قضت عليه وعلى شيعته. وبذلك تمَّ لصلاح الدين القضاء على آخر محاولات الفاطميين لاستعادة نفوذهم، ولم تقم لهم بعدها قائمة[١].

صلاح الدين في بلاد الشام

ضمُّ دمشق

اعتقد صلاح الدين أنه أحق بالوصاية على الملك الصالح إسماعيل بعد إلقاء القبض على ابن الداية، وهي وجهة النظر التي لم يوافق عليها الحلبيون مطلقاً. واتخذ من هذه القضية مبرراً للزحف نحو بلاد الشام، والدخول في لعبة التنافس على الزعامة الإسلامية، وكتب إلى الأمراء النوريين، في كل من دمشق وحلب، أنه أحق بولاية الملك الصالح إسماعيل، ويخبرهم بقدومه، إلا أنهم ردوا عليه رداً سيئاً[٢]. ويبدو أن أمراء دمشق وجدوا أنفسهم في موقف حرج، فقد خشوا أن يزحف عليهم كمشتكين من حلب ويستولي على مدينتهم بعد أن تفاهم مع سيف الدين غازي الثاني، واعترف بمكاسبه في الجزيرة، كما قلقوا من زحف صلاح الدين باتجاههم، فاستدعوا سيف الدين غازي الثاني ليسلموه مدينتهم، غير أن صاحب الموصل تباطأ في الخروج ظناً منه بأنها مكيدة، وآثر توطيد مكاسبه في الجزيرة[٣].

في هذه الأثناء، ألحَّ سكان دمشق على ابن المقدم دعوة صلاح الدين، فاضطر

---

(١) البنداري: ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) ابن كثير: جـ ١٢ ص ٢٨٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٣١. ابن واصل: جـ ٢ ص ١١.

الأمير الدمشقي، تحت وطأة الظروف السياسية، إلى الاستجابة، وكتب إليه يستدعيه إلى بلاد الشام[1].

كان تحرك صلاح الدين إلى بلاد الشام، وحملاته اللاحقة ضد الحلبيين والموصليين هي النقاط الرئيسية التي استشهد بها أولئك الذين أرادوا الإنتقاص من شأنه في الماضي والحاضر، والذين حاولوا الإيحاء بأن أهدافه الأساسية انصبت على تمجيد شخصه هو وعشيرته، لكن الواقع أن صلاح الدين أضحى معقد آمال المسلمين ومحط أنظارهم في بلاد الشام، والمنقذ من الأخطار المهددة في الداخل والخارج، ليتبوأ مركز الصدارة في قيادة المسلمين، ويرث المكانة التي كان عليها نور الدين محمود، ويسير على نهجه في توحيد بلاد الشام ومصر ومنطقة الجزيرة، وجهاد الصليبيين.

بعد أن استتبَّ الوضع الداخلي في مصر، أخذ صلاح الدين يتجهَّز للزحف نحو بلاد الشام، بعد أن مكث في مصر خمسة أشهر بعد وفاة نور الدين محمود، يراقب تطور أوضاعها السياسية، وينتهز فرصة تسمح له بالتدخل. وقد سنحت هذه الفرصة باختلال أوضاع هذا البلد، وهجوم الصليبيين على بانياس، واستنجاد ابن المقدم به بناء على إلحاح سكان دمشق الذين خشوا من طموحات كمشتكين وخطر الصليبيين على مدينتهم، فخرج من القاهرة في (شهر صفر عام ٥٧٠ هـ/ شهر أيلول عام ١١٧٤م) على رأس سبعمائة فارس، ورافقه سيف الدين طغتكين، وتقي الدين عمر، وعز الدين فروخشاه. وعهد إلى أخيه العادل بإدارة شؤون مصر، كما احتاط للمحافظة عليها ففرَّق بعض عساكره على ثغورها ومداخلها[2]. واستقبل في بِلبيس رسل حاكم بصرى شمس الدين جاولي، ورسل شمس الدين ابن المقدم يستحثونه على مواصلة الزحف، ودخول دمشق. وفعلاً تابع زحفه فدخل بصرى وصرخد والكسوة التي نظم فيها أمر دخول دمشق، ووصل إليها (يوم الثلاثاء نهاية شهر ربيع الآخر/ ٢٨ تشرين الأول)[3].

وكان أن استُقبل في دمشق استقبالاً طيباً، فخرج كل من بها من الجند إليه

---

(١) ابن شداد: ص ٩٢.

(٢) النبداري: ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٧٦ ـ١٧٧..

«فلقوه وخدموه»، وفتح له ابن المقدم، في اليوم التالي، أبواب المدينة وسلمها له، ونزل في دار والده المعروفة بدار العقيقي[1]، وامتنعت عليه القلعة، بقيادة خادم يدعى جمال الدين ريحان، الذي خشي، فيما يبدو، من طموحات صلاح الدين وتأثيرها على مستقبل الملك الصالح إسماعيل، ولما لم يكن في نية صلاح الدين استعمال القوة ضد المسلمين، فقد استمال جمال الدين ريحان بالقول الطيب وقال له: «أنا مملوك الملك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التي أُخذت منه إليه»[2].

وهكذا ضمَّ صلاح الدين دمشق وقلعتها بحجة حماية الملك الصالح إسماعيل من خطر الصليبيين والطامعين من الأمراء المسلمين، واستردَّ أملاكه التي استولى عليها غازي الثاني، أمير الموصل، في الجزيرة.

وتحت هذا الستار أخذ ينفِّذ سياسته في إعادة بناء الجبهة الإسلامية المتحدة بحيث تمتد من شمالي العراق إلى بلاد الشام، فمصر، ليتمكن بعد ذلك من البدء في حركة الجهاد ضد الصليبيين، والمسلمون أشد ما يكونون قوة وتماسكاً[3].

وعيَّن صلاح الدين أخاه طغتكين والياً على دمشق يحكمها باسم الملك الصالح إسماعيل وواصل سيره صوب الشمال لمناوأه كمشتكين في حلب بعد أن استقطب سكان دمشق بأن أغدق عليهم الهبات، وأزال المكوس وألغى الضرائب التي أحدثت بعد وفاة نور الدين محمود[4].

وقرر الأمراء النوريون في شمالي الشام، بقيادة كمشتكين، الوقوف في وجهه، ومنعه من ضمِّ باقي المدن الشامية. والواقع أن موقفهم كان سلبياً بشكل عام من دخوله دمشق، وساد أوساطهم جو من التوتر بسبب خشيتهم على مناصبهم. واتهموه بالسعي إلى الملك والسيطرة على أملاك سيده نور الدين محمود وابنه الملك الصالح إسماعيل، لذلك أرسلوا إليه إنذاراً بالحرب إن لم يرتد عما قصده[5].

---

(١) النبداري: ص ١٧٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٣١.
(٣) عاشور: جـ ٢ ص ٧٤٢ ـ ٧٤٣.
(٤) النبداري: ص ١٨٠. ابن شداد: ص ٩٣.
(٥) النبداري: المصدر نفسه ص ١٧٩.

والواقع أن صلاح الدين وقف على نوايا كمشتكين وغاياته، فكان يراسل الملك الصالح إسماعيل لتوضيح الأمر له، وإبداء النصح منعاً لتردِّي العلاقات بينهما[1]، وهو صادق النية في التعامل الإيجابي معه. وحاول إقناعه بأنه على استعداد لخدمته بإخلاص، مع أنه كان واضحاً أنه لن يسمح لخصومه بالتقرُّب منه. وعدَّ الصالح من جهته هذه الخدمة بأنها حقيقة السيادة، وهي واجبة عليه.

ويبدو أن صاحب حلب لم يكن راضياً عن تصرفات أمرائه، إلا أنه كان ضعيفاً لا يستطيع إبعادهم من حوله، كما كان سريع التأثر بهم نظراً لصغر سنه، وليس أدلُّ على ضعفه وتلاعب كمشتكين بمقدراته، أنه على الرغم من معارضته لاعتقال عز الدين جورديك، أمير حماة، ورسول صلاح الدين إليه لعقد صلح بين الطرفين، إلا أن كمشتكين لم يأبه لهذه المعارضة، فقبض على جورديك وأثقله بالحديد، وعذَّبه، ووضعه في الجب الذي وضع فيه أولاد ابن الداية[2]. لذلك كان من الطبيعي أن يتوجه صلاح الدين إلى حلب لإنقاذ رسوله والملك الصالح إسماعيل من قبضة كمشتكين، وضمِّ حلب إلى أملاكه نظراً لأهميتها السياسية والعسكرية في مخططه القاضي بتوحيد القوى الإسلامية.

صلاح الدين يحاصر حلب

وصل صلاح الدين إلى حلب في (الثالث من جمادى الآخرة/ الثلاثين من كانون الأول)، وأغلق كمشتكين، الوصي على الملك الصالح إسماعيل، أبواب المدينة في وجهه، فاضطر إلى ضرب الحصار عليها[3]. وكان أهلها يميلون إلى الإذعان له باستثناء الشيعة فيها، فناشدهم الملك الصالح إسماعيل أن يحافظوا عليه من رجل يريد أن يسلبه إرثه. فاشترطوا عليه لمؤازرته أن:

- يُعاد الأذان بـ«حي على خير العمل»، وأن يُذكر في الأسواق.
- يُخصَّص الجانب الشرقي في الجامع، لهم.
- يُذكر أسماء الأئمة الاثني عشر بين يدي الجنائز.

---

(١) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣٢٧.
(٢) ابن العديم: جـ ٢ ص ٥٢٠.
(٣) ابن كثير؛ جـ ١٢ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

- يكبّروا على الجنازة خمساً.

- تكون عقود أنكاحهم إلى الشريف أبي طاهر الحسيني.

وافق الملك الصالح إسماعيل على طلبهم بتأثير من كمشتكين[١].

حدث هذا في الوقت الذي لجأ فيه كمشتكين إلى الاستعانة بالحشيشية والصليبيين لإبعاد صلاح الدين عن حلب.

استجاب سنان، زعيم الحشيشية، إلى طلبه وأرسل جماعة من الفدائيين في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٧٠/ شهر كانون الثاني عام ١١٧٥ م) لقتله متنكرين بزي الجند، وتمكَّن بعضهم من التسلسل إلى خيمته، وأوشكوا على تنفيذ مؤامرتهم، لكن انكشف أمرهم ونجا صلاح الدين من محاولة الاغتيال[٢].

بعد أن فشل كمشتكين في التخلص من صلاح الدين على يد الحشيشية استعان بالصليبيين، فأرسل إلى ريموند الثالث أمير طرابلس والوصي على عرش مملكة بيت المقدس، يطلب العون منه. وكان ريموند هذا قد التزم، بفعل وصايته على عرش مملكة بيت المقدس، أن يحدَّ من تعاظم قوة صلاح الدين، إذ لم يكن بوسع الصليبيين أن يمنعوا وحدة دمشق والقاهرة، غير أن حلب ما زالت على الأقل، خارجة عن الاتحاد.

وهكذا أدرك الصليبيون أن استقلال حلب، وبقاءها في يد البيت الزنكي هو الضمان الوحيد لمنع قيام وحدة إسلامية تمتد من النيل إلى الفرات، وقد توافقت مصالحهم مع مصالح الزنكيين في هذا الشأن[٣].

وحاول ريموند الثالث اللجوء إلى السياسة في بادىء الأمر، فأرسل إلى صلاح الدين يرغِّبه في الصلح، ويلوِّح له بأن «الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة». لكن صلاح الدين لم يخشَ التهديد، وردَّ على أمير طرابلس بالإغارة على أعمال أنطاكية. لذلك لم يجد ريموند الثالث وسيلة لإبعاده عن أسوار حلب إلا بمهاجمة حمص، فظهر أمام أسوارها في (شهر رجب / أول شباط عام ١١٧٥ م) وشرع في

---

(١) ابن كثير: جـ ١٢ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٢) النبداري: ص ١٨١ ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٣٢.

(٣) عاشور: جـ ٢ ص ٧٤٤.

مهاجمتها تسانده الحامية المرابطة في القلعة[1] التي ظلَّت على وفائها للزنكيين.

اضطر صلاح الدين إلى فك الحصار عن حلب، وارتحل عن أسوارها إلى الجنوب لإنقاذ حمص. غير أن ريموند الثالث لم يمكث ليلتقي به، فعاد إلى حصن الأكراد بعد أن تأكد من تحقيق غرضه[2] وأعرب كمشتكين عن امتنانه للصليبيين، فأطلق سراح من كان في قلعة حلب من أسراهم[3].

ولما اطمأن صلاح الدين على سلامة حمص، غادرها متوجهاً إلى بعلبك وضمَّها إلى أملاكه في (الرابع عشر من شهر رمضان عام ٥٧٠ هـ/ التاسع من شهر نيسان عام ١١٧٥ م)[4]. ولم يكد ينتهي شهر نيسان حتى ضمَّ كامل بلاد الشام حتى حماة شمالاً، على أن حلب ما زالت مستقلة.

انصرف صلاح الدين بعد ذلك إلى تقوية موقفه في بلاد الشام بإضفاء الشرعية عليه أمام المسلمين. فكتب إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله رسالة طويلة عدَّد له فيها فتوحاته وجهاده ضد الصليبيين لخدمة الخلافة العباسية، وبخاصة إعادته الخطبة إلى العباسيين في مصر، بالإضافة إلى تأمين الطريق إلى الحجاز واليمن. كما أشار في رسالته بأنه قدم إلى الشام لإصلاح الأمور، وحفظ الثغور، وخدمة ابن نور الدين محمود، وطلب في ختامها أن يقلده الخليفة تقليداً جامعاً لمصر واليمن والمغرب والشام، وجميع ما اشتملت عليه دولة نور الدين محمود، وكل ما يفتحه بسيفه[5].

والواقع أن ما أحرزه من انتصارات أثار غضب أمير الموصل سيف الدين غازي الثاني، وأدرك الزنكيون عموماً خطره عليهم، وضرورة اتحادهم لمواجهة ذلك الخطر المشترك، وقد تحدثنا عن هذه العلاقات بين الطرفين وما تخللها من مواقف سياسية في فصل سابق.

دفع هذا النجاح الخلافة العباسية إلى الإسراع في إرسال الخلع السنية والتشريفات العباسية والأعلام السوداء، إضافة إلى التوقيع من الديوان العزيزي

---

(١) النبداري: ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٣٢. المصدر نفسه: ص ١٨٢.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه. وليم الصوري: جـ ٤ ص ١٩١.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه.

(٥) انظر نص الرسالة عند أبي شامة: جـ ١ ص ٦١٦ ـ ٦٢٠.

بسلطنة صلاح الدين على مصر وبلاد الشام. وبهذا التقليد أضحى صلاح الدين سلطاناً شرعياً بنظر المسلمين ووارثاً حقيقياً لدولة نور الدين محمود وجهاده، وقد أكسبه هذا التقليد مهابة الصليبيين بخاصة وأمراء المسلمين بعامة[1].

وفاة الملك الصالح إسماعيل

توفي الملك الصالح إسماعيل في (٢٥ رجب عام ٥٧٧ هـ/ ٤ كانون الأول عام ١١٨١ م) عن عمر يناهز تسع عشرة سنة. وكان قبل وفاته قد أوصى أمراءه بتسليم مدينة حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود أمير الموصل[2]. وبوفاة الملك الصالح إسماعيل انتهى عهد الدولة الزنكية في بلاد الشام التي أسسها نور الدين محمود.

---

(١) البنداري: ص ١٩١ ـ ١٩٢.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

الخاتمة

تكمن أهمية الدولة الزنكية في الدور الهام الذي أدَّاه أمراؤها على مسرح أحداث الشرق الأدنى الإسلامي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين في مرحلة من أشد مراحل التاريخ الإسلامي خطورة.

ويشكل العهد الزنكي أكثر من حادثة عابرة في التاريخ الشرقي بخاصة، جسَّدها عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود. فكل منهما يمثل إحدى تلك المراحل النادرة والمثيرة في التاريخ الإنساني بعامة، وذلك من خلال تجلِّي الصفاء الأخلاقي، وبروز وحدة الصف والهدف ليزيلا كلّاً من الشك في الإخلاص البشري والتحرر من الوهم، وهما الناجمان عن خبرة طويلة لأطماع الأمراء والقادة الأنانيين في الشرق.

وبدون هذا الأساس، لم تكن الجيوش الإسلامية لتملك القدرة على إبقاء الصراع المضني وتحمله خلال الحروب الصليبية. ولا يمكننا النظر إلى ذلك الإنجاز، واستيعابه في إطاره التاريخي إلا من خلال الأساليب التي استطاع الزنكيون استخدامها على الوجه الصحيح وأورثوها، عن قصد أو غير قصد، إلى صلاح الدين الأيوبي الذي استمر على النهج نفسه.

فالجهود، بشقيها الوحدوي والجهادي، استمرت ناشطة بعد زوال الدولة الزنكية، وهي التي تشكل ناحية واحدة من نواحي متعددة في تاريخ الحروب الصليبية، ولا بد من الانكباب على تلك النواحي المتعددة بأبحاث أخرى حتى يصبح من المستطاع كتابة التاريخ الإسلامي الشرقي إبَّان الحروب الصليبية على نحو سليم.

ولا شك بأن الزنكيين وضعوا حجر الأساس في البنيان الذي جاهد صلاح الدين في استكماله مستوحياً دوافعه من إيمانه العميق، والوعي التام منه لرسالته بأنه الوارث الحقيقي والطبيعي لنور الدين محمود وساعده على التغلب على جميع العقبات التي اعترضته لكي يخلق وحدة معنوية برهنت أن لها قوة تكفي للوقوف في وجه

التحدِّي وشن حروب خاطفة وناجحة ضد الوجود الصليبي في الشرق الأدنى الإسلامي قبل معركة حطين وبعدها، توَّجها بتحرير بيت المقدس.

ولما توفي صلاح الدين تعطلت الوحدة الإسلامية التي ورث أُسسها عن الزنكيين، وأتَّم بناءها وفرضها بشخصه وسلطته، وتراجعت، إلى حين، قوة اندفاع المسلمين الجهادية ضدَّ الصليبيين.

فقد انهمك خلفاؤه، الذين استقلُّوا في إمارات منفصلة، في نزاعات أسرية ضيقة، مما أضفى على تاريخ هذا العصر مظهر الفوضى والإضطراب.

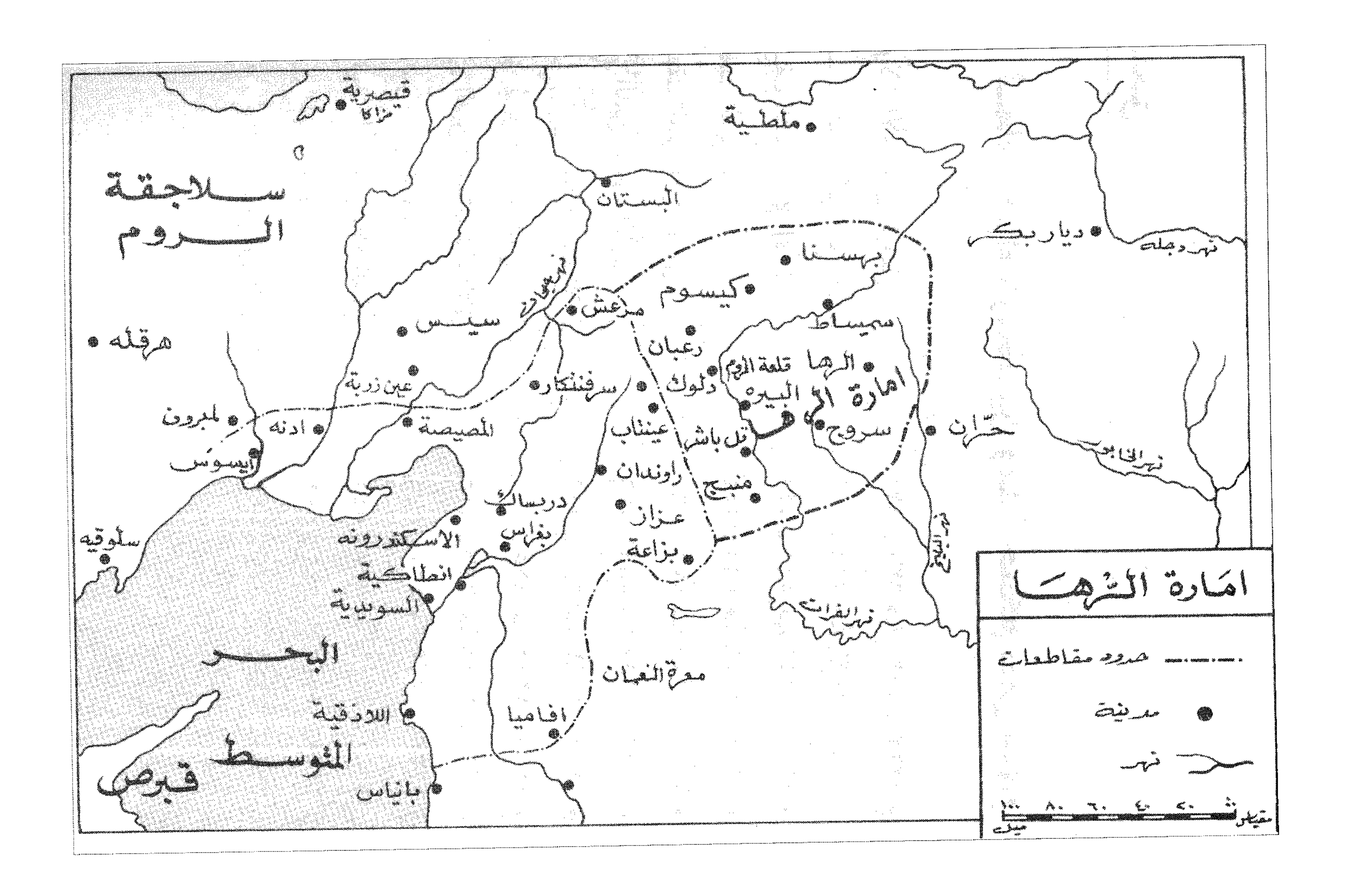
وعلى الرغم من ذلك، فإن البنيان الأيوبي شهد بعض المراحل التي عزَّزتها التزاوجات داخل الأسرة الأيوبية، ودعمتها الفئات الدينية القوية التي استمرت على التقاليد التي سار عليها الزنكيون وصلاح الدين من قبل.

وعندما زالت الدولة الأيوبية بعد وقوعها بين فكي الكماشة المملوكية والمغولية، فإن الكيان الذي ورثوه وعزَّزوه أحياناً، بقي مستمراً في مؤسسات دولة المماليك الذين أضفوا عليه روحاً جديدة قوَّت دعائمه، وأتاح للمماليك تخليص الشرق الأدنى من الوجود الصليبي، في خطوة سوف يتبعها خطوات من جانب القوى الإسلامية الأخرى وبخاصة العثمانيين الذين ورثوهم، لأن الغرب الأوروبي سوف لا ينفك يطرق أبواب الشرق في محاولة للعودة إلى ربوعه بأساليب أخرى هذه المرة، لتحقيق الأهداف نفسها، وأهدافاً أخرى تطلبتها واقعية تغيُّر الظروف السياسية والإقتصادية والإجتماعية للعالم في العصر الحديث.

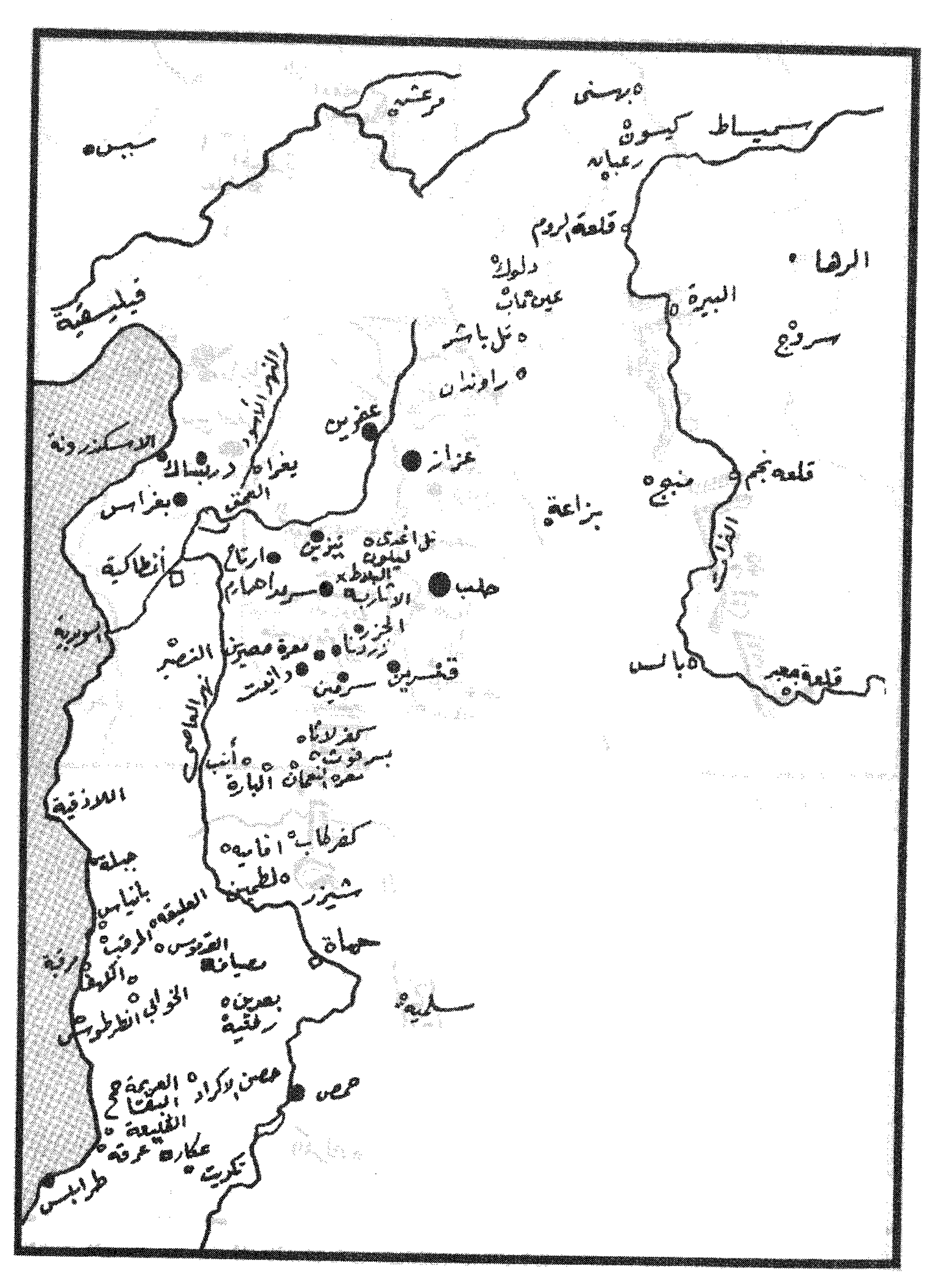
ملحق

أسماء الأمراء الزنكيين ومدة حكم كل منهم

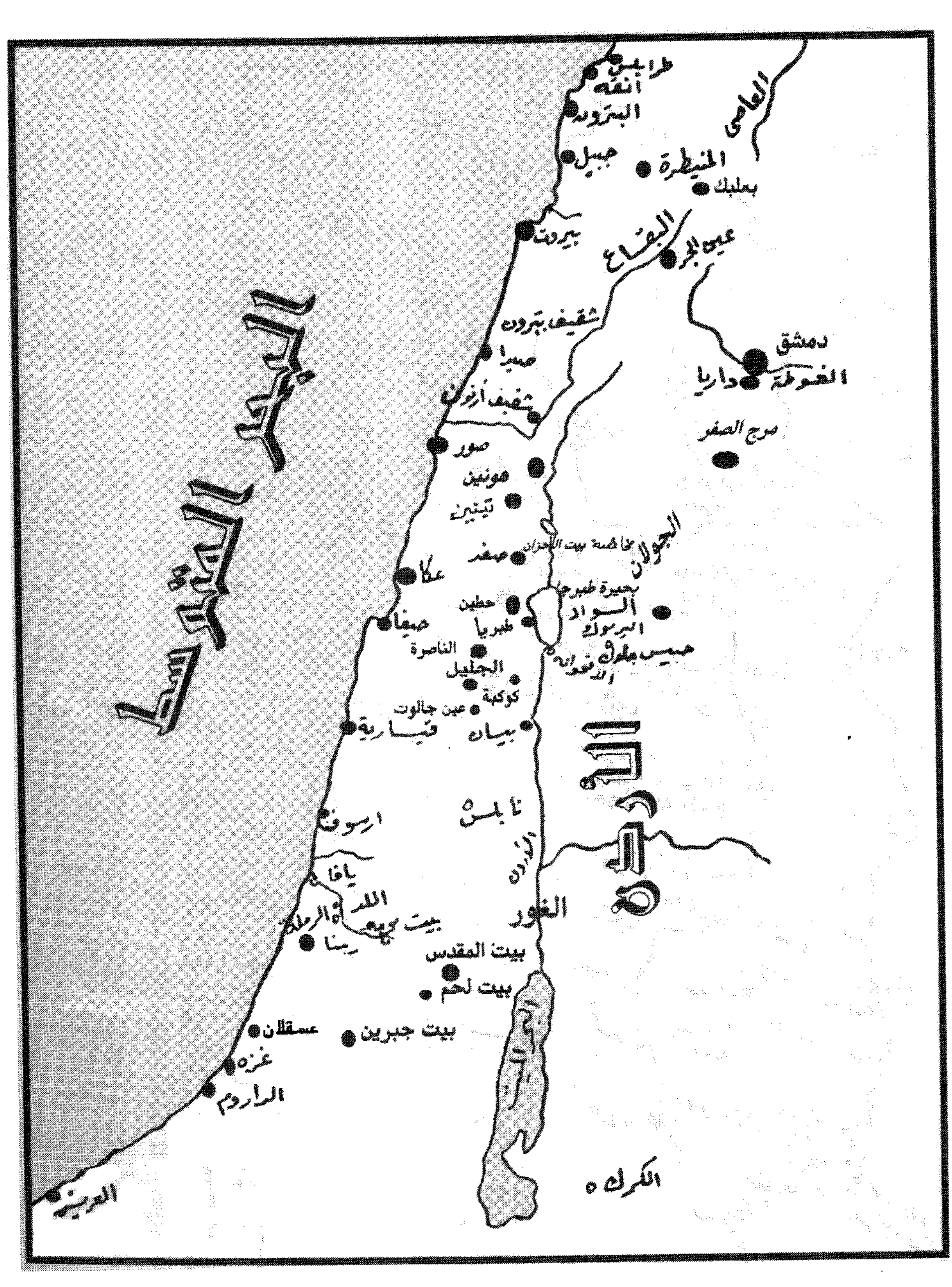
أولا: الأمراء في الموصل	**٥٢١ ـ ٦٣٠ هـ/ ١١٢٧ ـ ١٢٣٣ م**
عماد الدين زنكي (مع حلب)	٥٢١ ـ ٥٤١ هـ/ ١١٢٧ ـ ١١٤٦ م
سيف الدين غازي الأول	٥٤١ ـ ٥٤٤ هـ/ ١١٤٦ ـ ١١٤٩ م
قطب الدين مودود	٥٤٤ ـ ٥٦٥ هـ/ ١١٤٩ ـ ١١٧٠ م
سيف الدين غازي الثاني	٥٦٥ ـ ٥٧٦ هـ/ ١١٧٠ ـ ١١٨٠ م
عز الدين مسعود الأول	٥٧٦ ـ ٥٨٩ هـ/ ١١٨٠ ـ ١١٩٣ م
نور الدين أرسلان شاه الأول	٥٨٩ ـ ٦٠٧ هـ/ ١١٩٣ ـ ١٢١١ م
عز الدين مسعود الثاني	٦٠٧ ـ ٦١٥ هـ/ ١٢١١ ـ ١٢١٨ م
نور الدين أرسلان شاه الثاني	٦١٥ ـ ٦١٦ هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢١٩ م
ناصر الدين محمود	٦١٦ ـ ٦٣٠ هـ/ ١٢١٩ ـ ١٢٣٣ م
ثانياً: الأمراء في بلاد الشام	**٥٤١ ـ ٥٧٧ هـ/ ١١٤٦ ـ ١١٨١م**
نور الدين محمود	٥٤١ ـ ٥٦٩ هـ/ ١١٤٦ ـ ١١٧٤ م
الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود	٥٦٩ ـ ٥٧٧ هـ/ ١١٧٤ ـ ١١٨١ م



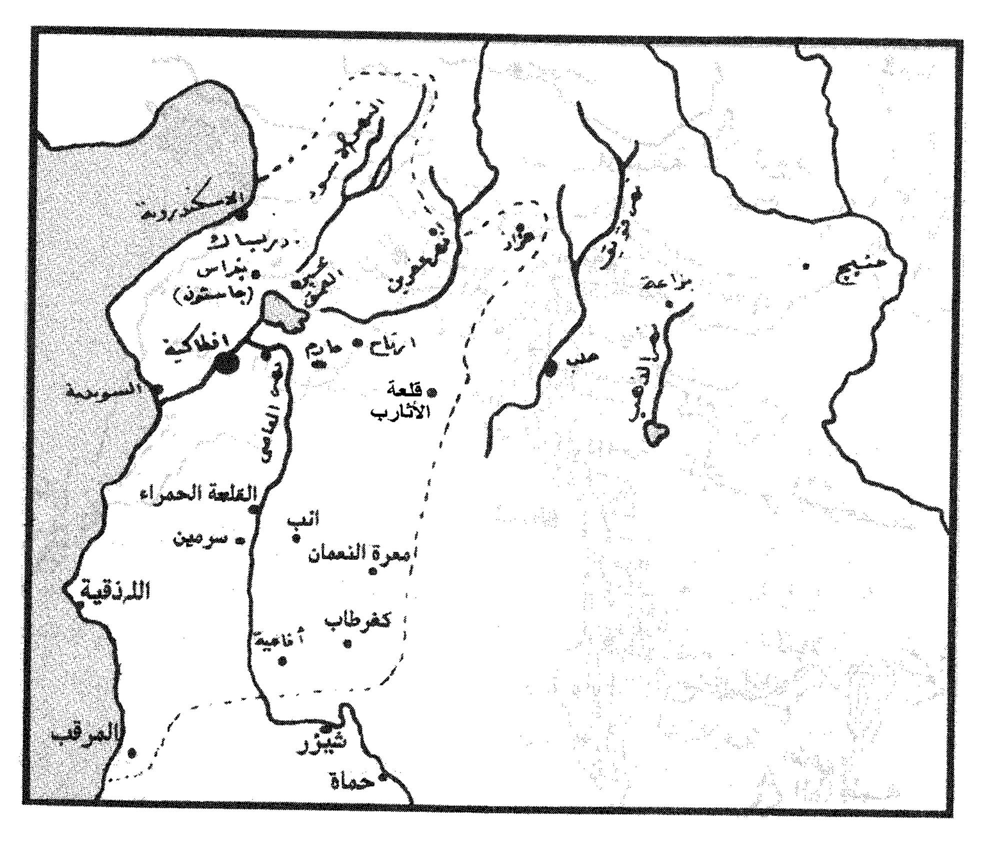
امارة الرها
حدود مقاطعات
مدينة
نهر
مقياس
ميل
٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠
قيصرية
مزاكا
ملطية
سلاجقة الروم
البستان
ديار بكر
نهر دجلة
بهسنا
كيسوم
مرعش
سميساط
سيس
هرقله
رعبان
الرها
قلعة الروم
امارة الرها
عين زربة
سرفنكار
دلوك
البيرة
لمبرون
ادنه
المصيصة
عينتاب
تل باشر
سروج
حران
نهر الخابور
ايسوس
راوندان
منبج
دربساك
عزاز
سلوقيه
الاسكندرونه
بغراس
بزاعة
انطاكية
السويدية
نهر البليخ
نهر الفرات
البحر المتوسط
معرة النعمان
اللاذقية
افاميا
قبرص
بانياس



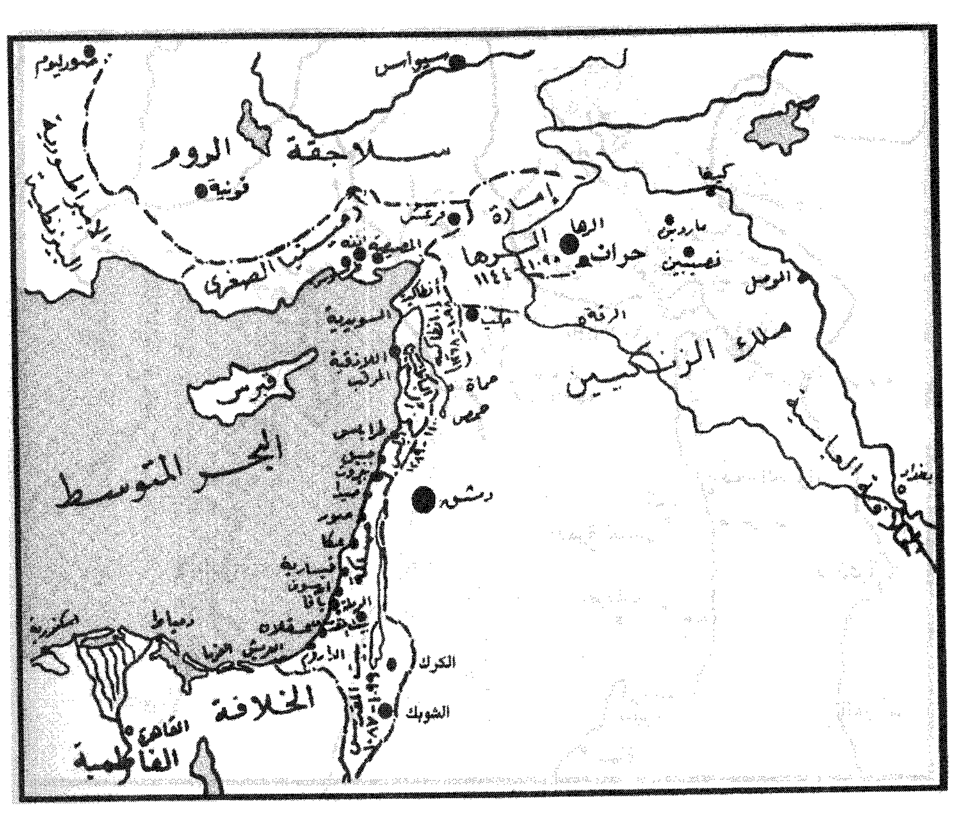
القسم الشمالي من بلاد الشام (عن عاشور ص ٧٥٢)



القسم الجنوي من بلاد الشام (عن عاشور ص ٨١٦)



إمارة أنطاكية (عن عمران خريطة رقم ٤)



شرقي المتوسط في النصف الاول من قرن ١٢م (عن عاشور ص ٥١٠)

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر:

ـ ابن الأثير أبو الحسن علي. . . ابن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري:

ـ **الكامل في التاريخ**: دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٦٧ م

ـ **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل**: تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ومكتبة المثنى ببغداد ـ بدون تاريخ.

ـ ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف:

ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: دار الكتب المصرية. وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، بدون تاريخ.

ـ ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد:

ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**: دائرة المعارف العثمانية، الهند ١٣٥٨هـ.

ـ ابن الجوزي، شمس الدين بن يوسف بن قزاوغلي التركي المعروف بالسبط:

ـ **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**. الجزء الثامن، دائرة المعارف الإسلامية، الهند، بدون تاريخ.

ـ ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي:

ـ **كتاب صورة الأرض**: دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢ .

ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي:

ـ **العبر وديوان المبتدأ والخبر. . . المعروف بتاريخ ابن خلدون**: مؤسسة جمّال للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ.

ـ ابن خلكان، أبو العباس أحمد:

ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، بدون تاريخ.

ـ ابن شداد، بهاء الدين:

ـ **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**: تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٤.

- ابن العبري، غريغوريوس الملطي:
- **تاريخ الزمان**: دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦ م.
- ابن العديم، كمال الدين عمر بن هبة الله:
- **زبدة الحلب من تاريخ حلب**: تحقيق سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ط ١، ١٩٩٨.
- **بغية الطلب في تاريخ حلب**: تحقيق سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٨ م.
- ابن الفُوَطي، عبد الرزاق بن أحمد بن محمد الصابوني:
- **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**: تحقيق مصطفى جواد، بغداد، ١٣٥١ هـ.
- ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي:
- **تاريخ دمشق**: تحقيق سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق ط ١ ١٩٨٣.
- ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي
- **البداية والنهاية في التاريخ**: دار المعارف، بيروت، ط ٢، ١٩٧٧.
- ابن منقذ، أسامة، مؤيد الدولة أبو مظفر بن مرشد الكناني الشيزري:
- **كتاب الاعتبار**: تحقيق فيليب حتي، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط ١٩٨١.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم:
- **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**: تحقيق جمال الدين الشيال، إدارة إحياء التراث القديم، وزارة المعارف المصرية، إدارة الثقافة العامة، جـ ١، ١٩٥٣ م، وجـ ٢، ١٩٥٧ م.
- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي:
- **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**: الجزء الأول تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٩٥٦ .**الجزء الثاني**، نشر مطبعة وادي النيل - القاهرة ١٢٨٨ هـ.
- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن محمد:
- **المختصر في أخبار البشر**: دار المعرفة، بيروت.
- الأصفهاني، القاضي عماد الدين أبو عبد الله محمد... الكاتب
- **الفتح القُسيّ في الفتح القدسي**: مصر ١٣٢٤ هـ.
- البنداري، الفتح بن علي بن محمد:
- **تاريخ دولة آل سلجوق**: (وهو اختصار لكتاب نصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الوزراء السلجوقية للعماد الكاتب الأصفهاني)، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠ م.
- **سنا البرق الشامي**: (وهو اختصار لكتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني) القسم الأول، تحقيق رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت ط ١، ١٩٧٠.
- الجويني، عطا ملك:
- **تاريخ فاتح العالم**: ترجمة أحمد التونجي: دار الملاح للطباعة والنشر، حلب ١٩٨٥.

- الحسيني، صدر الدين أبو الحسن:
- **أخبار الدولة السلجوقية**: تحقيق محمد إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت ط ١، ١٩٨١ م.
- الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت:
- **معجم البلدان**: دار صادر، بيروت، ١٩٧٩ م.
- الراوندي، أبو بكر محمد بن علي:
- **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية**: ترجمة: شواربي، الصياد وحسنين، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠ م
- الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه صاحب حماة:
- **مضمار الحقائق وسر الخلائق**: تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، بدون تاريخ.
- صالح بن يحيى:
- **تاريخ بيروت**: دار الفكر الحديث بيروت، ١٩٩٠ م.
الصوري، وليم:
- **تاريخ الحروب الصليبية**: (وهو ترجمة لسهيل زكار، لكتاب تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار). دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٠ م. والجزء الرابع: ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.
- العظيمي، محمد بن علي:
- **تاريخ حلب**: (مختارات من تاريخ حلب) حققها سهيل زكار في كتابه الحروب الصليبية، دار حسان، دمشق، ط ١، ١٩٨٤م.
- الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق:
- **تاريخ ابن الأزرق الفارقي، على هامش ذيل تاريخ دمشق**: مطبعة الآباء اليسوعيين. بيروت، ١٩٠٨ م
- فولشر الشارتري:
- **تاريخ الحملة إلى القدس**: ترجمة زياد العسلي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ١٩٩٠ م.
- القلقشندي، أحمد بن علي:
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧.
- المقدسي - المعروف بالبشاري:
- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**: تحقيق محمد مخزوم، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت ١٩٨٧م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي:
- **إتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**: تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، جـ ٣، القاهرة، ١٩٧١م.

- **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**: لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٧م.
- المؤرخ المجهول:
- **أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**: ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٨ م.
- النسوي، محمد بن أحمد بن علي:
- **سيرة جلال الدين منكبرتي**: تحقيق حافظ حمدي، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٣ م.
- الهمذاني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق، المعروف بابن الفقيه:
- **كتاب البلدان**: تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٩٦ م.

ب: المراجع

- أحمد، محمد حلمي محمد:
- **مقدمة لكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة**: القاهرة، ١٩٥٣، ١٩٥٧م.
- بيضون، إبراهيم:
- **تاريخ بلاد الشام، إشكالية الموقع والدور في العصور الإسلامية: دار المنتخب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.**
- جب، السيرهاملتون. آ. ر.
- **صلاح الدين الأيوبي**: تحرير يوسف أيبش، دار بيسان، بيروت، ط ٢، ١٩٩٦م.
- الجميلي، رشيد:
- **دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي**: دار النهضة العربية، بيروت، ط ٢، ١٩٧٠ م.
- حبشي، حسن:
- **نور الدين والصليبيون**: دار الفكر العربي، القاهرة.
- حسن، إبراهيم حسن:
- **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٧، ١٩٦٤ م.
- الحسين، باقر:
- **العملة الإسلامية في العهد الأتابكي: بغداد ١٩٦٦م.**
- الحويري، محمود محمد:
- **بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين**: دار المعارف، مصر، ط ١، ١٩٩٢م.
- خليل، عماد الدين:
- **الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام**: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٠ م.

- **عماد الدين زنكي**. الدار العلمية بيروت ط ١، ١٩٧١ م.
- **نور الدين محمود وتجربته الإسلامية**: دار القلم، دمشق ط ٢، ١٩٨٧ م
- خليل، فؤاد:
- **الاقطاع الشرقي**. دار المنتخب، بيروت، ط ٢١ ١٩٩٦ م.
- رنسيمان، ستيفن:
- **تاريخ الحروب الصليبية**: ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٨١ م.
- زكار، سهيل:
- **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية**: مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٢ م.
سيد، أيمن فؤاد:
- **الدولة الفاطمية في مصر**: الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ط ١، ١٩٩٢ م
- شميساني، حسن
- **مدينة ماردين من الفتح العربي إلى سنة ١٥١٥ م/ ٩٢١ هـ**: عالم الكتب، ط ١، ١٩٨٧ م.
- ضامن، محمد:
- **إمارة حلب في ظل الحكم السلجوقي**: دار أسامة، دمشق بيروت، ط ١، ١٩٩٠ م.
طقوش، محمد سهيل:
- **تاريخ الدولة العباسية**: دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.
- **العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة**: دار بيورت المحروسة، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م.
- دجاني، هادية وشكيل برهان:
- **الصراع الإسلامي - الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى**: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ١، بيروت، ١٩٩٤م.
- طليمات، عبد القادر أحمد:
- **مظفر الدين كوكبوري، أمير إربل**: سلسلة أعلام العرب - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣ م.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح:
- **الحركة الصليبية**: مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، ط ١، ١٩٦٣ م.
- **مصر وبلاد الشام في عصر الأيوبيين والمماليك**: دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ.
- **شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية**: بحث في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، بيروت، ١٩٧٧م.
- العبادي، أحمد مختار. وسالم، السيد عبد العزيز:
- **تاريخ البحرية الإسلامية في مصر وبلاد الشام**: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ م.

- العريني، السيد الباز:
- **الدولة البيزنطية**: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢ م.
- **الشرق الأوسط في العصور الوسطى - الأيوبيون**: دار النهضة العربية، بيروت.
- علي، محمد كرد:
- **خطط الشام**: دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩ م.
- عمران، سعيد محمود:
- **محاضرات في معالم التاريخ الإسلامي الوسيط**، مؤسسة كريدية، بيروت.
- عمار، يحيى حسين:
- **تاريخ الملك العادل نور الدين محمود**: نيطا، ط ١، ١٩٩١ م.
- فامبري، آرمينيوس:
- **تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر**: ترجمة محمود الساداتي، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ١٩٨٧م.
- فيشر، هربرت
- **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**: ترجمة زيادة والعريني، دار المعارف، مصر، ط ٤، ١٩٦٦م.
- قاسم، محمد عبده:
- **ماهية الحروب الصليبية**: عالم المعرفة، العدد ١٤٩، شهر أيار عام ١٩٩٠م.
- مصطفى، شاكر:
- **دخول الترك الغز إلى الشام**: المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام الأول، عمان، ١٩٧٥ م.
- مؤنس، حسين:
- **نور الدين محمود**، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٥٩م.
- نوري، دريد عبد القادر
- **سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة**: مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٦م.

ثانيا. المصادر والمراجع باللغات الأوروبية

- Albirt d'aix:
-Liber christianne Expedition pro Eroptione, Emundetione et Restione Sameta Hierosoluritanae Ecclesia. In: Recueil des Historiens des Croisades paris 1841 - 1966 (R. H. C) occ vol IV.
- Camb. Hist. of Byzantine Empire
- Camb. Hist. of Islam
- Camb. Medieval History
-Chalandon, Ferdinande:
-Les comnènes Jean II et Manuel, Paris, 1913.
- Essai sur la Règne d'Alexis Comnène, Paris, 1900.
- Choniates, Nicetas:
-Historia. in corpus scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn 1828 - 1897 (C. S. H. B).

- Comnena, Anna:
-The Alexiad. Trans. by Eliyabeth A. S. Dawes.london 1928.
- Ehrenkreutz, A. S:
-Saladin. State University New york press. Albamy 1972.
- Elisséeff, N:
-Nur AD - Din, Un Grand Prince Musulman de Syrie Au temps des Croisades. Damas 1967.
- Grégoire le prêtre:
-Chronique, in R. H. C. Doc. Armenienne. Ar I. Pais, 1869.
- Grousset, R
-Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, paris 1935.
- Iorga, N
-L' armenie Cilicienne.
- Kinnamos, J:
-Epitome historiarum, in C. S. H. B Bonn. 1836.
- Ostrogorsky, Georgiji:
-A History of the Byzantine States. Tran by Hussey, Oxford 1956.
- Setton, Kenneth Meyer:
-A History of the Crusades. Wisconsin 1969.
- Shlomberger, Gustave Leon:
-Campagne du Roi Amaury de Jerusalem par Egypt. paris 1906.
-Stevenson, william Barron:
-The Crusaders in the East. Cambridge 1967.
-Vasiliev, AA:
-A History of the Bysantine Empire. Madison 1928, 1973.
-Mathew of Edessa:
-Chronique. in R. H. C. Armenienne doc. vol I.
- Michel le Syrien:
-Chronique. Edited J. B. Chabot. Bruxelles 1899 - 1910.
- Nerses, Shnorhali:
-Sur la Pise d'Esse, in: R. H. C. Doc Armenienne vol I.
- Rice, Tamara Talbot:
-The Seljuks in Asia Minor, london, 1961.
- Robert the Monk:
-Historia Hieroso Lymitana. In R. H. C. occ. vol III.



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الباب الثاني
الدولة الزنكية في عهد عماد الدين زنكي
٥٢١ ـ ٥٤١ هـ/ ١١٢٧ ـ ١١٤٦ م

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث

الدولة الزنكية بعد عماد الدين زنكي

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

من منشورات دار النفائس

* تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ محمد فريد، تحقيق: د. إحسان حقي.
* مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ د. محمد حميد الله.
* المدخل إلى التاريخ الإسلامي ـ د. محمد فتحي عثمان.
* محاسن الوسائل في معرفة الأوائل ـ محمد عبد الله الشلبي، تحقيق: د. محمد التونجي.
* المذهب العسكري الإسلامي ـ بسام العسلي.
* المذاهب العسكرية في العالم ـ بسام العسلي.
* الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ـ بسام العسلي.
* سلسلة شعب الجزائر 15/1 ـ بسام العسلي.
* سلسلة مشاهير الخلفاء والأمراء 1/ 10 ـ بسام العسلي.
* سلسلة مشاهير قادة الإسلام 1/ 15 ـ بسام العسلي.
* الطريق إلى المدائن ـ أحمد عادل كمال.
* القادسية ـ أحمد عادل كمال.
* سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية ـ أحمد عادل كمال.
* الطريق إلى دمشق ـ أحمد عادل كمال.
* تاريخ الدولة الأموية ـ د. محمد سهيل طقوش.
* تاريخ الدولة العباسية ـ د. محمد سهيل طقوش.
* تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ـ د. محمد سهيل طقوش.
* تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ـ د. محمد سهيل طقوش.
* تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ـ د. محمد سهيل طقوش.
* حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين ـ محمد بن عيسى بن كنان، ت: عباس صباغ.
* الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس هـ ـ د. محمد حسين شندب.
* قضية البوسنة والهرسك ـ الأرقم الزعبي.
* السلطة في بلاد الشام (في القرن الثامن عشر) ـ د. عبد الغني عماد.
* من أوراق الانتداب ـ زهير الشلق.
* الفتنة ووقعة الجمل (رواية سيف بن عمر الضبي الأسدي) ـ تصنيف: أحمد راتب عرموش.
* تاريخ فلسطين القديم ـ ظفر الإسلام خان.

رقم: 354 - 99